
عالم بلا إسلام
ماذا لو؟
جرايهام إي. فولر
ترجمة :أحمد جمال أبو الليل
تصوير
أحمد ياسين



عــــالم بلا إســـــلام؟



إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د. فاطمة نصر

المستشار الفنى: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

عالم بلا

إسلام؟

تأليف: جرايهام إي. فولر

ترجمة: أحمد جمال أبو الليل

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

A World Without Islam

المؤلف : Graham E. Fuller

دار نشر : Back Bay Books, 2010

طبعة سطور الأولى ٢٠١٣



ـ الكتاب: عالم بلا إسلام؟

– تأليف: جرايهام إي. فولر

ترجمة: أحمد جمال أبو الليل

– غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

– المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar_shenawy@yahoo.com

الطبعة ج ٢٠١٣

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢١٢٤٣

الترقيم الدولى: 978-977-5298-03-0

٨ و٣٢ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٠٢٠٠٤٢٥٢/٩٩٥٣٦٢٥٢

e.mail address:sutour@linh.net

الموقع الإلكترونى

www.sutour2.com

صفحة فيس بوك

www.sutouralgadida.com



بيانـــات الفهرســة

جرايهام إى. فولر

عالم بلا إسلام؟

ترجمة: أحمد جمال أبو الليل

ط ١- (القاهرة: مكتب سطور للنشر ٢٠١٢)

مكتب سطور، ٢٠١٢

ص، سم ٧١ /٤٢

تدمك: ٠٣ ٥٢٩٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١- عالم بلا إسلام؟

أ - جمال ، أحمد (مترجم)

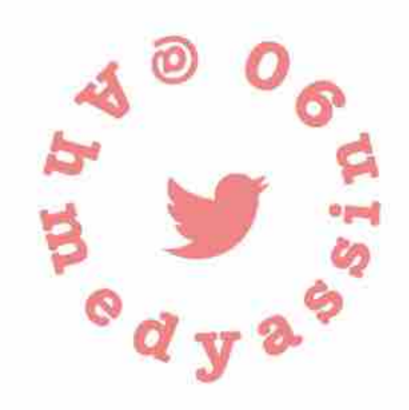
ب- العنوان: ٨ و٢٢ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٠٠٤٢٥٢·٢٥٢٦٢٥٣/٩٩٥٣٦٢٥٢

e.mail address:sutour@link.net

الموقع الإلكترونى

www.sutour2.com


@Ahmedyassin90



تقديم

ماذا لو أطلقنا العنان لخيالنا " لعالم بلا إسلام "؟ يبدو الأمر شبه مستحيل، إذ تسيطر مشاهد الإسلام والإحالات إليه على عناوين الأخبار، وبرامج الفضائيات، وشاشات الكمبيوتر، وحلقات الجدل السياسى. كذلك، نجد أنفسنا فى غمار مصطلحات كالجهاد، والفتوى، والمدرسة، وطالبان، والوهابية، والملالى، والشهيد، والمجاهدين، والراديكاليين الإسلاميين. ومن الجلى أن الإسلام يحتل موقع الصدارة فى الصراع الأمريكى ضد الإرهاب وكذا الضلوع فى العديد من الحروب التى شنت وفق شعار " الحرب الشاملة ضد الإرهاب ".

وحقيقة الأمر، فإن الإسلام يقدم طرحا ومحكا تحليليا جاهزا ويسيرا لجمهرة من القضايا بالشرق الأوسط، يمكن من خلاله تلمس الحقيقة فى عالم اليوم المأزوم. وبالإحالة إلى الإسلام، يمكننا أن نخلص إلى كون الصراع يدور بين قطبين: "المعتقدات الغربية"، و"العالم الإسلامى". ووفقا لبعض " المحافظين الجدد "، فإن "الإسلام الفاشستى"، فى واقع الأمر، يمثل فى الوقت الراهن العدو اللدود فى حاضر تلوح فى آفاقه نذر حرب كونية رابعة، أو " حرب ممتدة الأجل " – صراع أيديولوجى هائل يرتكز على الدين ويغفل العديد من العوامل الأخرى التى أسهمت بجلاء فى تأجيج الصراع ما بين الشرق والغرب وفاقمت من مظاهر المواجهة بينهما.

وفى هذا الكتاب، سيناقش الطرح من الجهة المعاكسة، أو بالأحرى من وجهة

نظر مغايرة. فلو لم يكن هناك إسلام، ولو لم يبعث النبى محمد فى صحراء العرب، ولو لم يمتد الإسلام ليشمل أجزاء شاسعة من الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا ... أكان للعلاقة بين الغرب والشرق الأوسط أن تتخذ نهجا مغايرا ومنحى مختلفا عما نشهده اليوم؟! كلا، فالرأى عندى أن الأمر لم يكن ليختلف كثيرا عما نشهد حاليا.

وبما أن هذا الطرح يبدو للوهلة الأولى مخالفا للحدس الصائب أو البداهة، يمكننا تقديم إشارات وشواهد جلية تثبت وجود قلاقل وثورات جيوبوليتيكية غائرة تضرب بأطنابها فى علاقات الشرق الأوسط بالغرب، إذ بتتبع جذورها نلقاها ضاربة فى التاريخ لما قبل انبعاث الإسلام ذاته، بل يتعدى الأمر ذلك ليسبق ظهور المسيحية أيضا. وقد أسهمت كوكبة من العوامل المتباينة الأخرى بقوة فى نشأة العلاقات بين الشرق والغرب على امتداد ردح طويل من الزمان لعل أهمها، المصالح الاقتصادية والجيوبوليتيكية، وصراعات القوى والنفوذ فيما بين الممالك الإقليمية،

فضلا عن الصراعات الإثنية والنزعات القومية، بل تعدى الأمر ذلك ليصل إلى صراعات مستعرة فى نطاق المعسكر المسيحى ذاته - وتعطى الشواهد السابقة جميعها إشارات بالغة الدلالة على التنافس المحموم بين الشرق والغرب، والمواجهات فيما بين الطرفين والتى تكاد تكون واهية الصلة " بالإسلام "، إن لم تكن منبتة عنه تماما.

وبسبر الأغوار شيئا فشيئا، فى تتبعنا للعلاقة بين الغرب والشرق الأوسط ومجريات أحداثها عبر الزمن، نجدها تبوح بأسرار وتفسيرات بديلة دامغة لجذور الصراعات التى يشهدها عالم اليوم، والتى غالبا ما نعزوها، بقدر بالغ من التبسيط، إلى "الإسلام". وفى هذا الإطار، لا يتطلب الأمر دراية عميقة أو معرفة دقيقة بالشرق الأوسط لإدراك كون العلاقات الحالية التى تربط الغرب - وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية - بالشرق الأوسط، على قدر من الانحراف ينذر بالخطر. فماذا يجرى الآن على الساحة؟ وما السبب فى كون الشرق الأوسط على هيئته الحالية وطريقته تلك؟ وماذا عن الغرب ... وماذا عن طبيعة وضعه ونهجه الحاليين؟ ألم يكن ممكنا بلا إسلام، أن نجتنب الكثير من الصراعات القائمة حاليا والتى لم تكن لتنشأ بالأساس؟ ألم يكن من الممكن أن ينعم الشرق الأوسط بقدر أكبر من السلام؟ وعلام كانت ستبدو طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، ألم تكن لتختلف عما نشهده الآن؟ فبدون الإسلام، ألم يكن من المؤكد أن يشهد النظام العالمى منحى آخر ووجها مغايرا لما هو عليه اليوم، أم ماذا؟ ... يهدف الكتاب الذى بين يدى القارئ الآن إلى تقديم بعض الطروحات والإجابات البديلة عن هذه الأسئلة.

لم يبد الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، اهتماما جادا أو مستداما بالشرق الأوسط حتى الخمسين سنة الأخيرة. فنحن نركن إلى الجهل بتاريخ التدخل الغربى فى المنطقة على امتداد قرون عديدة، بله على امتداد ألفية بأسرها. كما يبدو اهتمامنا سطحيا بانتقادات الشرق الأوسط للسياسات الغربية الخاصة بالنفط والأموال والتدخلات السياسية والانقلابات المباركة من قبل الغرب المؤيد

والداعم لها، وكذا الدعم الغربى لدكتاتوريى الشرق الموالين له، والدعم الأمريكى غير المشروط وغير المحدود لإسرائيل فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية، والذى يجد جذوره فى سحق الأوروبيين لليهود وإبادتهم والتنكيل بهم، لا فى " الإسلام " أو ما يرتبط به. كذلك، فقد عملت القوى الأوروبية على تصدير صراعاتها المحلية وخلافاتها البينية وتوجيهها نحو حربين كونيتين جرت رحاهما، فى جانب، على أراض شرق أوسطية، كما كانت الحال فيما ارتبط بالحرب الباردة التى أعقبتهما. ويبرز ذلك بجلاء وجود العديد من العوامل السببية المتفاعلة التى تنطوى، وفق أدنى تقدير، على قوة تفسيرية للقلاقل الراهنة تماثل ما قد ينطوى عليه " الإسلام "، إن لم تفقه فى ذلك.

ولا ينطوى ما سبق على ضرب من " اللوم الموجه للغرب "كما قد يسرع بعض القراء إلى الاستنتاج. إذ أنحو فى هذا الصدد إلى الزعم بوجود عوامل جيوبوليتيكية عميقة الأثر أسهمت فى خلق وإذكاء مناخ عديدة للمواجهة والصدام فيما بين الشرق والغرب، سبقت نشأة الإسلام ذاته، واستمرت بالتوازى معه وفى ظلاله ... مناخ قد تكون متضمنة وكامنة فى الحقائق والحتميات الإقليمية والإطار الجيوبوليتيكى لأى من البلدان المنضوية تحت لواء هذه المنطقة أو تلك، بغض النظر عن قضية " الدين " وما قد تمثله.

على أنه يكون من الحماقة، بطبيعة الحال، افتراض غياب أى إسهام للإسلام فى صبغ الصراع بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى والمواجهة بينهما. إذ يمثل الإسلام حضارة ناجزة وعميقة الغور كان لها أثر عظيم فيما يخص الشرق الأوسط وما عداه. بيد أنه، ووفق اصطلاحات العلاقة فيما بين الشرق والغرب، أجدنى مدفوعا إلى القول بأن الإسلام كان بالأساس أقرب إلى كونه إشارة إلى صنوف وضروب مغايرة أشد عمقا وأبعد أثرا للتنافس والمواجهات التى تجرى فيما بين المعسكرين.

ويحدونى الأمل أن يفضى الطرح المقدم بين دفتى الكتاب إلى أن يعيد القارئ التفكير فيما يخص طبيعة الصراع بين الشرق والغرب، والكيفية التى ينظر بها الأمريكيون، بصفة خاصة، إلى سياساتهم الخارجية. على أن عملية اختبار الذات تلك تكون عسيرة على القوى العظمى والتى تعانى صنفا من العزلة وقصر النظر ومحدودية الأفق، إذ تتطلب حيازة درجات عالية من القوة والسلطة التمتع بالمنعة والثقة واليقين، وكذا القدرة على تجاهل المواقف التى تجدها البلدان الأقل شأنا خطيرة ومهددة لها، ومن ثم لا يمكن معها ارتكاب أية أخطاء. فالسياسة الدولية أشبه ما تكون بشريعة الغاب، إذ يكون على الحيوانات الأصغر والأضعف أن تتمتع بدرجات عالية من حسن التصرف، ورهافة الحس، ورشاقة وقع الخطى لضمان استمرارية وجودها بمنأى عن الأخطار ... أما الحيوانات الأكبر والأقوى، كالأفيال، فليست بحاجة إلى التنبه الدائم للعوامل المحيطة، إذ يمكنها التصرف كيفما تشاء، وعلى الآخرين إفساح الطريق أمامها.

كذلك، ينجم عن امتلاك النفوذ والسلطة قدر من الكبر والغطرسة يكون منبعه الاعتقاد واليقين بامتلاك زمام الأمور، والإيمان بأننا أصحاب المسئولية والقيادة، والثقة بالقدرة على الإقناع والترغيب أو الترهيب بيسر ... أو هكذا يتراءى لنا الأمر. وتصديقا لما سبق، جاءت إجابة أحد كبار المسئولين خلال حكم الرئيس بوش عن سؤال بشأن ما يحيط الحروب بالشرق الأوسط من تداعيات، إذ ذكر بثقة بالغة :"نحن نخلق حقائقنا بأيدينا ". ولعل مجريات الأحداث خلال العقد المنصرم أبانت بجلاء، وللأسف، صدق مقولته تلك.

وتكمن المشكلة فى المنظور الذى يتم توظيفه من قبلنا. إذ تركن واشنطن، ربما كما ركن العديد من القوى العظمى فى الماضى، إلى توظيف ما أنحو إلى نعته بنظرية " الحبل بلا دنس " فيما يخص الكوارث الخارجية. إذ يعنى ذلك إيماننا بأن وجودنا وتدخلنا فى تلك الكوارث ما هو إلا امتداد لقيامنا بمهامنا وإدارة شئوننا الخاصة، وسعينا إلى جعل العالم أكثر عدلا وأفضل حالا، لنفاجئ يوما بسيل

متراكم من التحديات العفوية الصادمة التى لابد وأن نقوم حيالها بما يلزم. كذلك، فلا يوجد أدنى اعتبار لاحتمالية أن تكون سياسات الولايات المتحدة ذاتها قد أسهمت، على أدنى تقدير، فى ذلك الدفق من الوقائع المتواترة والتى تفضى إحداها إلى الأخرى. ويمثل ذلك مفارقة وتناقضا كبيرين : إذ كيف لأمريكا أن تفتخر وتتباهى بكونها القوة العظمى الأوحد، بما لها مما يربو على سبعمائة قاعدة عسكرية خارج حدودها، وبما للبنتاغون من ثقل ومكانة وهيمنة دولية، هذا من جانب... ومن جانب أخر تتناسى وتتغافل عن قوتها وثقل هيبتها وعظم دورها، إن سلبا أو إيجابا، باعتبارها القوة المهيمنة الوحيدة التى ترسم مسار الأحداث العالمية؟ إذ لا يقتصر الأثر السلبى لتلك المخادعة على صانعى السياسات فحسب، بل يتعداه إلى مراكز "مستجمعات الأفكار" think tanks التى تعج بها واشنطن. ففيما قد يكون، على خلاف ذلك، عادة تحليلاً متميزاً للوضع الخارجى، يكون محور كل دراسة، على نحو ثابت، البلد "الآخر"، أو ثقافة "الآخر"، أو النوايا السيئة للاعبين "الآخرين"، ويكون أثر رؤى الولايات المتحدة الأمريكية وأنشطتها غائبا عن تلك المعادلات. ومن الصعوبة بمكان تعيين تحليلات جادة ضمن الإصدارات الاعتيادية أو مخرجات "مستجمعات الأفكار"، تحدد دور الولايات المتحدة ذاتها فى خلق مشكلات أو أزمات راهنة، من خلال سياسات الاستبعاد والإقصاء أو تخويل السلطات. على أننا لا نتحدث هنا عن "إلقاء اللوم"، وإنما نبرز الحقيقة الدامغة والمنطقية والتى مفادها أن ما تقوم به القوة العظمى الأوحد فى العالم من أفعال وتصرفات له مردود عظيم ومستتبعات هائلة بشأن ما ينجلى من مخرجات السياسة الدولية تباعا، وهو الأمر الذى يحتاج إلى الدراسة والتحليل.

كذلك، ينطوى الأمر على مفارقة إضافية : كيف لدولة كالولايات المتحدة الأمريكية، تفصح عن مخزون هائل ودفق عميم من "الوطنية" ووجود دائم فى شتى المواقف، أن تغض الطرف عن وجود معان "للقومية" و"الوطنية" فى بلدان أخرى؟ لم يحالف التوفيق واشنطن إبان الحرب الباردة فى إدراك الدوافع والمشاعر الخاصة

بدول "عدم الانحياز"، إذ قامت واشنطن بتجاهل، بل وبكبت الطموحات الوطنية لتلك الدول، والتى اعتبرتها غير ملائمة، من وجهة نظرها، مما دفع، فى النهاية، بأعداد كبيرة منها إلى الانحياز إلى الاتحاد السوفييتى والتعاطف معه !! ولقد كان هذا ضربا من "العمى الاستراتيجى" الذى ذهب إلى اعتبار مصالح البلدان الأخرى وتفضيلاتها أمرا بحاجة إلى التطويق أو العزل. والثابت أننا قد تجاهلنا النزعات القومية وقضايا الهوية فى الشرق الأوسط وغَضَضْنا الطرف عنها، وقمنا بتجميعها برمتها فى سلة "الإسلام".

فحين نكره عدوا أجنبيا ولا نسيغه، ننحو إلى الحط من قدره وتشويه سمعته بألفاظ حادة للغاية. ويبدو أن أحد المظاهر غير المستحبة للديمقراطية هو أنها تتطلب اعتبار العدو شيطانا مريدا، إذا ما أريد للأمة وللرأى العام أن يتآزرا معا بما يكفى لبذل كل غال ونفيس فيما عساه أن يكون من حروب. ويكون المطلوب أن يتم تبسيط الرسالة التى تسوغ أو تبرر خوضنا لحرب ما أو ضلوعنا بمواجهة ما تبسيطا لا تتجاوز صيغته كلمة أو كلمتين.

وفى عالم اليوم، فإن "الإسلام" هو تلك الكلمة من وجهة النظر الأمريكية، هو القاسم المشترك والسبب الرئيسى للكثير من المشكلات التى تواجهنا فى العالم الإسلامى. ففيما مضى، خضنا غمار معارك شتى ضد "الفوضويين"، و"النازيين"، و"الفاشست"، و"الشيوعيين"، واليوم ... فإنه "الإسلام الراديكالى"، ذلك المصطلح الذى يطلق لنعت ظاهرة معقدة ومتشعبة تتخذ أشكالا وأوزانا عدة وتتطلب قاعدة عريضة من الاستجابات وردود الأفعال المتباينة. ولم يبدأ المصطلح بعد يمثل توصيفا دقيقا وناجعا لصنوف المشكلات التى تواجهنا فى التعامل مع العالم الإسلامى. وحتى فى التحليلات المتسمة بدرجات عالية من التبسيط، نواجه أحيانا بأصوات تذهب إلى أن المشكلة لا تكمن فى "الإسلام الراديكالى"، وإنما تجد جذورها فى "الإسلام" بحد ذاته ... وتطفو على السطح أسئلة على شاكلة : لماذا "هم" يبغضوننا؟ لماذا "هم" يتسمون بالعنف والوحشية؟ لماذا "هم" يكرهون

الديمقراطية؟ لماذا "هم" يرفضون القيم الأمريكية؟ لماذا "هم" ينخرطون فى العمليات الإرهابية وحروب العصابات؟ لماذا "هم" يعارضون السياسات الأمريكية؟ لماذا "هم" يرفضون التصورات والخطط الأمريكية "الصائبة" لمستقبلهم؟ ... هنا يتم طرح "الإسلام" كإجابة جاهزة عن تلك الأسئلة.

وحقيقة الأمر، لا يوجد ما يمكن نعته "بالعالم الإسلامى" ككتلة متجانسة، بل توجد عوالم إسلامية شتى، أو بلدان إسلامية عديدة وصنوف متباينة من المسلمين. بيد أنه من الأهمية بمكان أن نذكر أنه خلال الهجمات العدائية للغرب وفرضه للحصار على العالم الإسلامى، أكان ذلك حقيقة أو مجازا، فإن بلدان العالم الإسلامى قد شرعت بالفعل بالاتحاد والتقارب على نحو غير مسبوق على امتداد العقود المنصرمة. وفى الواقع، فقد أدت السياسات المتبعة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، أكثر من غيرها من العوامل، إلى إعادة إحياء وبعث مفهوم "الأمة" ذات الفكر الموحد ... ذلك المفهوم الذى لم يسد قط إلا فى أثناء فترة حياة النبى محمد.

فالتاريخ لم يبدأ فى الحادى عشرمن أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ . إذ يعود تعاطينا مع الشرق الأوسط إلى أبعد من ذلك بكثير. وفى حين كان الاعتداء الذى جرت أحداثه ووقائعه فى ذلك اليوم اعتداء وحشيا وحدثا غاية فى التطرف، إلا أنه كان ثمرة، أو بالأحرى بلوغ الغاية لأرتال من الأحداث امتدت لسنوات طوال سبقته. فإذا ما أردنا أن نرجع بداية التاريخ إلى الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، والذى أمسينا بمقتضاه فجأة الفصيل الأوحد الذى يحق له التظلم، وصرنا كذلك مخولين بموجبه أن ننشر العدل فى ربوع الأرض، ... فحينها سنستمر فى اقتراف ما ألفنا فيما مضى، وما ينجم عن ذلك من عواقب وخيمة وكارثية بادية للجميع.

وبطبيعة الحال، يكون من الحماقة -نوعا- الحديث عن "عالم بلا إسلام". إذ لا يمكننا إعادة كتابة التاريخ، كما لا يمكننا الحدس بما قد يكون عساه كائنا ما إذا لم تقع وقائع تاريخية بعينها. وبعبارة أخرى، فحالما يشرع المرء فى دخول معترك

الجدل النظرى المتمحور حول السؤال: "ماذا لو؟!"، فلا سبيل حينها إلى تجنب المد الجارف من سيل التوقعات والتكهنات اللانهائية. فالمشاهد، أنه قد سودت كتب عديدة شائقة تناولت، على وجه التحديد، تلك التكهنات الخاصة بـ "ماذا لو؟!" : ماذا لو لم تحدث وقائع الحادى عشر من أيلول/سبتمبر؟! ماذا لو لم يتم اغتيال الأرشدوق فرديناند فى سارايفو فى عام ١٩١٤؟! ماذا لو لم يتم إعادة لينين إلى روسيا بواسطة الألمان فى عربة قطار مغلقة عشية اندلاع الثورة البلشفية، وماذا لو لم تقم تلك الثورة بالأساس؟! وماذا لو انتصرت الولايات الإحدى عشرة المنفصلة عن الولايات المتحدة الأمريكية، فى الحرب الأهلية؟! ... هل كان للعالم أن يضحى مغايرا تماما لما هو عليه اليوم، أم أنه كان سيخلص مما سبق بلا أدنى تغيير عبر الأجل الطويل؟!

تستعصى الأسئلة المطروحة آنفا -وتلك التى على شاكلتها- على الإجابة، بيد أن الغرض من وراء ذلك التطبيق يكمن فى توظيف الخيال والقدرة على الإبداع لإسقاط الضوء على التاريخ وفق منظور مغاير، ومن وجهة نظر وزاوية مختلفة، وذلك لإتاحة الفرصة لملامح وعوامل جديدة للانبثاق أمام ناظرينا، تلك التى لم يتم الالتفات إليها سابقا ... فقد لا تتجاوز احتمالية أن يقع حدث بذاته وفق الطريقة التى جرت بها وقائعه نسبة الـ ٥١٪، وهو الأمر الذى يقضى بأن النسبة المكملة (٤٩٪) ترتبط بحدث أو أحداث أخرى لم يقدر لها أن تتصدر المشهد أو يتم تركيز الضوء عليها. وهذا لا ينفى وجودها فى حينه، كما لا ينفى احتمالية استمرار بقائها تحت السطح حتى الآن بما لها من تأثير ملموس، إن لم يكن حاسما، على ما قد عساه يبزغ من أحداث فى المستقبل. ويحضرنى فى هذا الصدد مهامى كنائب رئيس مجلس الاستخبارات القومية بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية فى ثمانينيات القرن العشرين، حيث كنت مسئولا عن التوقعات الاستراتيجية فى الأجل الطويل، وعادة ما كنا نلجأ إلى توظيف إحدى التطبيقات التى تستدعى إعمال العقل وشحذ الفكر ضمن العديد من تلك التطبيقات التى عادة ما تنير

البصيرة على المستوى التحليلي : إذ كان يتم افتراض حدوث أمر مستقبلى هام، رغما عن تشككنا فى مدى إمكانية حدوثه، ليتبع ذلك وضع سيناريو مفصل يوضح كيفية الحدوث. هب أن المملكة العربية السعودية قد شهدت اندلاع ثورة إسلامية راديكالية -كيف كان لتلك الثورة أن تحدث ضمن إطار عدة سيناريوهات بعينها؟ وهب أن الحزب الشيوعى الصينى قد انهار- كيف كان لهذا الانهيار أن يقع، وما الذى كان يمكن أن يكون عليه مسار تلك الواقعة يوما بيوم؟! وما القوى الخفية، التى يهمل الالتفات إليها وتتبع مسيرتها، والتى قد تشق طريقها إلى صدارة المشهد؟! يكمن الغرض من وراء تلك التطبيقات فى إضفاء ما عساه يمنح تلك السلاسل من الأحداث شكلا ومضمونا، إذ يسود الاعتقاد بأنها غير محتملة (مستبعدة الحدوث) كما لا يتم الالتفات إليها بالتفكير بشأنها، كذلك يعمل ما سبق على شحذ "قرون الاستشعار" التحليلية لترصد شواهد ودلائل وقوع أمثال تلك الأحداث التى قد تؤدى إلى إمكانية حدوث ما لم يتم توقعه. ويمثل ذلك تطبيقات فى الإبداع والتخيل السياسى والاجتماعى، وتكون تلك التطبيقات واحدة من الأساليب العديدة التى يتم انتهاجها.

وفى الإطار ذاته، يتناول الكتاب الأحداث الهامة فى تاريخ الشرق الأوسط ويسعى لتحديد القوى التى شاركت فى صنعه ولم يكن لها علاقة مباشرة أو قريبة بالإسلام، وكذا إبراز الأحداث التى كان يمكن أن تجرى وقائعها -فى غياب الإسلام- كأقرب ما يكون مما قد حدث بالفعل. ويلقى الكتاب الضوء على الأحداث من زاوية مغايرة تماما، مبرزا ملامح قد تكون أغفلت من قبل أو لم يكن قد تم الالتفات إليها. وحتى إن لم توافق كاتب السطور الرأى حول بعض الافتراضات أو التفسيرات المقدمة، فلن تنظر، فى الغالب، إلى أحداث العالم الإسلامى ووقائعه وفق المنظور ذاته المتبنى من قبل، إذ ستصبح العوامل الأخرى فجأة أكثر عمقا وأبعد غورا داعية إيانا لإدراجها ضمن تحليلاتنا الخاصة برؤية جديدة.

وحتما سيقدم العديد من القراء مسالك وآفاقا بديلة عن تلك التى قمت

باختيارها - وهو أمر جيد، إذ أدرك أننى أيضا قد قمت باختيار بدائل فى تحليلى هذا. وصدقا، فقد كان بوسعى أن أسوق بعض الحجج لما أوردته من مناقشات بالكتاب، ولم يكن ذلك هو الهدف أو المحك، بل كان المراد إعادة التفكير فى الافتراضات السطحية شديدة التبسيط بأن الإسلام هو جوهر كينونة الشرق الأوسط - باعتباره مصدر المشكلة وحلها فى الوقت ذاته. كما كان الهدف توجيه الاهتمام وإيلاء العناية بأنماط أعمق وأكثر دقة من المشكلات والقضايا الراهنة التى تجعل الشرق الأوسط ما هو عليه بالفعل فى مواجهة الغرب.

وتبقى لمحة أردت أن أجعلها جلية : إذ لا ينصرف الغرض من كتابة سطور الكتاب -ألبتة- إلى تجاهل دور الإسلام أو التهوين من شأنه، فالإسلام كان له كبير أثر فى العالم بأسره باعتباره أحد أعظم الحضارات وأقواها فى التاريخ وأمضاها أثرا. فلم توجد حضارة قط سادت وطبقت الآفاق كما قدر للإسلام أن يذيع. وإننى أحمل فى نفسى أسمى المعانى وأجل التقدير لحضارة الإسلام، وفنونه، وعلومه، وفلسفته، وثقافته، وكذلك الحال تجاه المسلمين كإخوة فى البشرية ... فبدون الإسلام وحضارته لكاد العالم يكون موضعا مقفرا جدبا.

كذلك، فلا يسعنى إلا الاعتراف بما للإسلام من فضل فى خلق صرح متين الأركان هو "العالم الإسلامى" الذى ينتظم بين جنباته وينضوى تحت ألويته أعداد غفيرة من البشر بشتى اختلافاتهم، وكذا العديد من البلدان، والثقافات، والمناخات، لم يكن لها لتأتلف فى غياب الإسلام، وهو أمر بالغ الأهمية فيما يتعلق بشعوب ذلك الإقليم. بيد أن محور اهتمام الكتاب -تحديدا- هو السؤال عما كان يمكن أن تكون عليه حال العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط إن لم تلح راية الإسلام فى الأفق. ولا يعنينى فى هذا المقام دراسة أوجه الاختلاف التى كان يمكن أن تسم "العالم الإسلامى" إن لم يكن ثمة إسلام، كما لا أناقش هنا ما الذى كان سيخسره الغرب فى غياب الحضارة الإسلامية، بل يكمن الهدف فى تتبع المسار المتجدد للعلاقات بين الشرق والغرب. وبالنظر إلى مدى ما آلت إليه تلك العلاقات والتى تدهورت

للغاية، فالرأى عندى أن الإسلام لم يكن قط العامل الرئيسى، بل ولم يكن العامل الثانوى، المسبب لتلك الظاهرة. فإذا ما أردنا التعرف إلى العامل أو العوامل المسببة صار لزاما علينا توجيه البحث عبر أقنية بديلة. وحالما ولينا وجوهنا تلقاء اتجاه مغاير، راعنا العدد الضخم والتنوع الشاسع للقوى البديلة المؤثرة بالفعل فى علاقات الشرق والغرب.

كذلك، أود أن أؤكد على بعض النقاط الإضافية فى هذا الصدد. أولا، توجد لدى الغرب نزعة لاعتبار الإسلام غريبا أو دخيلا أو بعيدا عن الرؤى والتوجهات الغربية. وهنا، فإننى أسعى لأن أنزل الإسلام منزلته فى سياق الشرائع الأخرى، وبخاصة اليهودية والنصرانية. ولدرجة مذهلة للغاية، ينبع الإسلام من تقاليد عريقة وضاربة بجذورها للفكر الدينى للشرق الأوسط، بما فى هذا الفكر من هرطقات متعددة. ويأتى الإسلام كجزء حيوى ولبنة تكاملية فى إطار البنيان الدينى الشامل، إذ يجد مكانه المناسب، بيسر وتلقائية، ضمن قوى عديدة سبقت ظهوره.

وترتبط النقطة الثانية بالعلاقة ما بين الدين والسلطة والدولة، إذ أرى أن الارتباط الوثيق بين الدين والدولة على امتداد تاريخ الغرب فى أغلب مراحله كان له من التأثير فى النصرانية والتاريخ المسيحى ما يفوق تأثيره فى الإسلام والعالم الإسلامى. وتصبح قضية "الهرطقة" على قدر بالغ من الأهمية فى هذا الصدد، إذ أنظر إلى "الهرطقة" -الآراء الدينية غير المقبولة من السلطات- بما تمثله، على وجه العموم، كمحرك وقاطرة للمعارضة السياسية للدولة على المستوى الجمعى. لذا، فحين نقوم بدراسة قضايا الخلاف الدينى، إلى أى مدى يمكننا أن نعتبر أنفسنا نتحدث، فى الحقيقة، عن العلاقات وموازين القوى؟

كذلك، فإننى أسعى إلى أن أوضح كيف سلك الإسلام فى نشأته دروبا تتطابق -أو تكاد- وتلك التى سلكتها النصرانية، وإن لم يكن فى المناحى كلها. وتشير الملاحظة السابقة إلى أن معظم الأديان تسلك مسارات بعينها حين يرتبط الأمر

بإثبات أصالة النصوص المقدسة، والحفاظ على الاستقامة المعتقدية، والتعامل مع محاولات تحريف العقيدة وتشويهها، وما شابه ذلك. فلا يختلف الإسلام هنا كثيرا، بل يجيء متسقا مع المسار العام للتطور الدينى، ويشير ذلك، بدوره، إلى أن الدين، بحد ذاته، لا يخلق التمايزات والاختلافات بقدر ما يخلقها توظيف الدولة له، كما يشير إلى أن التجمعات الدينية المتمايزة ترتكز دعائمها، فى الجانب الأكبر منها، على التنافس الدنيوى/العلمانى، وفى أقل القليل على الاعتبارات الدينية.

ويولى الكتاب عناية فائقة للاحتقانات والمواجهات ما بين المسيحية الأرثوذكسية الشرقية والمسيحية الرومانية الكاثوليكية/الغربية. فلو لم يزح الإسلام الحكم المسيحى على امتداد أغلب ربوع الشرق الأوسط، لكان الأرجح أن يظل الإقليم برمته تحت هيمنة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية. ولقد تراوحت العلاقة فيما بين الأرثوذكسية والكاثوليكية بين التشكك المتبادل فيما بينهما إلى العداء السافر على امتداد ما يقارب ألفى عام، رغما عن الكثير من التقاليد الأصيلة المشتركة فيما بينهما. لذا، يوجد ما يبرر بقوة وجلاء الزعم بأن المسيحية الأرثوذكسية كان يمكن أن تكون اليوم نقطة الانطلاق الدينية والأيديولوجية لاستجلاء مظالم الشرق الأوسط وبلورتها تجاه الغرب – يمكن للمرء أن يعاين التطور التاريخى للأرثوذكسية الشرقية فى مركز ثقلها الراهن، موسكو.

ويمضى المشهد ليفضى إلى دراسة الحروب الصليبية وتحليلها : هل كانت حدثا دينيا أم ظاهرة جيوبوليتيكية؟ وبينما تشيع النظرة إلى تلك الحروب باعتبارها صراعا ما بين النصرانية والإسلام، إلا أنها كانت، فى حقيقة الأمر، صراعا سياسيا ثلاثى الأطراف انتظم المسيحية الشرقية، والمسيحية الغربية، والإسلام.

ولقد خصصت فصلا من الكتاب لتناول حركة الإصلاح المسيحى التى تكشف عن نظائر مدهشة فيما بين منطق الأحداث وطبيعتها فى أوروبا المسيحية وبين بزوغ "الأصولية الإسلامية" لاحقا، والتى نشأت وفق ملابسات متباينة. وفى كلتا

الحالتين، يبدو جليا كيف طغى الأثر السياسى وهيمن على القضايا الدينية. وهنا أيضا، فقد مثل الدين محركا لإعطاء الزخم وقوة الدفع المطلوبة. ونلحظ فى هذا الصدد، كيف أدى فقدان الدولة أو الكنيسة للهيمنة على الاعتبارات الدينية إلى نشأة موجات متعاظمة من الراديكالية فى كل من المسيحية والإسلام.

كذلك نعاين بعض الأشباه والنظائر المذهلة فى القضايا الخلافية بين الأرثوذكسية والكاثوليكية من جهة، وبين النصرانية والإسلام من جهة أخرى. وتتضمن تلك القضايا، المظالم التاريخية، ووجهات النظر المتباينة حول دور الكنيسة والدين فى المجتمع، وطمس القيم الخاصة والعامة وتشويهها، والعلاقة فيما بين الدولة من جهة، والكنيسة/المسجد من جهة أخرى، والجدل الدائر حول طبيعة "العلمانية" وإدراجها ضمن فعاليات العالم المعاصر. وتعلو صراعات القوى، وكذا الأحقاد والضغائن، فوق الاعتبارات والقضايا الدينية وتهمشها ... تلك الاعتبارات التى غالبا ما تبدو فى حد ذاتها -وبالمقارنة- غير ذات بال.

ثم يلج الكتاب ليختبر ما ذهب إليه العالم السياسى "صموئيل هانتنجتون" فى إشارته إلى "الحدود الدموية للإسلام"، والتى ساقها فى مقالته وكتابه ذائعى الصيت "صراع الحضارات". فعن أى شئ نتحدث بالفعل هنا؟ أتناول بالبحث والدراسة عناصر العلاقات الباهرة فيما بين الإسلام من جهة وأربع من الحضارات العظمى، والتى كان الإسلام وثيق الصلة بها عبر أجيال ممتدة، وهى : أوروبا الغربية، وروسيا الأورثوذكسية، والهند الهندوسية، والصين الكونفوشيوسية. وفى كل من تلك العلاقات على حدة، توصل الإسلام والحضارة المعنية إلى أوضاع توافقية ذات طبيعة متشعبة ومتجددة، كذلك فقد تم التلاقح فيما بين تلك الحضارات. وتبرز تلك الحضارات صورة أكثر دقة عن الكيفية التى أدار بها المسلمون بالفعل تعاملاتهم مع الحضارات والأديان الأخرى ... بأكثر مما يتم تصويره فى سيناريوهات المواجهة شديدة التبسيط ذات الطابع المخاتل.

وقد يخلص بعض قارئى الكتاب إلى حقيقة كونه يسلط الضوء على نحو أكبر على مظالم المسلمين ومعاناتهم من ممارسات الغرب أكثر من إشارته إلى المظالم والمعاناة التى قد تكون لدى الآخرين بفعل ممارسات الإسلام بحقهم، وتلك هى الحال بالفعل. ففى البدء، فإن معاناة المسلمين ومظالمهم وتصوراتهم بشأن الغرب تكاد تكون مجهولة فى الغرب ذاته. ولقد كان بإمكانى أن أسود من الصفحات ما أبسطه لتناول الاعتداءات التى مارسها المسلمون بحق النصارى والهندوس واليهود فى حقبة أو أخرى من التاريخ، على أن آلافاً آخرين قد أدلوا بدلوهم بالفعل فى هذا المضمار. وكما أن كلاً لديه ما يسرده من روايات تمزق نياط القلب، عما ارتكب المسلمون بحقه، فعلى الجانب الآخر، يوجد لدى المسلمين أحاديث وروايات مفزعة عما ارتكب بحقهم لا تقل فى جسامتها ووطأة وقعها عما يرويه الآخرون. ولايرمى الكتاب إلى محاولة عقد مقارنات أو موازنات بين ما أريق من دماء كلا الطرفين، كما لا يهدف إلى تقديم كشف حساب فى هذا الصدد، بل يهدف إلى محاولة طرح تلك الأحداث ومناقشتها، خاصة على هدى من "خطوط التماس" الحضارية، حيث يتماس الإسلام مع غيره من الحضارات العظمى. وللمرة الثانية، نجد الدور الممارس من قبل "الإسلام" عادة ما يكون أقل أهمية وأدنى أثرا من المواجهات الإثنية، التى قد يتم تضخيمها وتأجيجها عبر التباينات العقائدية لكلا الطرفين.

ويتناول الجزء الأخير من الكتاب بعضا من الطموحات والتطلعات الراهنة للعالم الإسلامى، بدءا من إلقاء نظرة على تاريخ صراع المسلمين ونضالهم ضد النفوذ الكولونيالى. ونلحظ، فى هذا الخصوص، أن تطور كفاح الشرق الأوسط ضد الإمبريالية الغربية يعد أمرا حديثا نسبيا، كما نلحظ كيف أن التفكير المناهض للإمبريالية يظل سمة غالبة لمنهج الشرق الأوسط ورؤيته لعالم اليوم. ولقد تراءت لى بعض أوجه التطابق بين العديد من حضارات اليوم -بما فيها الصين- بخصوص التجربة المناهضة للإمبريالية والخطاب المصاحب لها، لأخلص إلى تقرير التشابه الجلى المشترك بين أفكار المسلمين والحضارات الآسيوية فيما يخص التدخل

الإمبريالى للغرب فى شئون الآخرين.

كذلك، فقد قمت باستجلاء أكثر الموضوعات المعاصرة إلحاحا - الجهاد، المقاومة، الحرب، الإرهاب. تلكم هى القضايا التى تسيطر على الفكر الإعلامى وتشغل باله، وتواجه القاعدة الشعبية العريضة على نحو دورى وحيوى، إذ تعد مصدرا للاهتمام المشروع الكثيف والمتنامى، فضلا عن كونها مادة للمتاجرة بالمخاوف، وتهويل الأمور وتضخيمها، وكذا إيراد البيانات المغلوطة. إذا، هل يعد ما سبق - بالأساس - قضايا دينية أم جيوبوليتيكية؟ وأخيرا، أرجع فى الفصل الختامى لبعض السياسات المحددة محل الاهتمام والعناية حيث أقدم نقاطا صريحة موجزة عن ضرورة تغيير السياسات والرؤى تغييرا جذريا إذا ما أردنا أن نخرج من شراك ذلك المستنقع الآسن الذى كان وبالا على الجميع.

وبصورة أو بأخرى، فإن الكتاب معنى بالحضارات الأخرى المتاخمة للإسلام (حضارات الجوار) - الحضارة البيزنطية، روسيا، المسيحية الغربية، الهند، الصين، - بقدر ما هو معنى بالإسلام ذاته. ويرتكز تحليلى فى هذا الخصوص على الكيفية التى اتسق فيها الإسلام بيسر وسلاسة، وبطرق شتى، مع الطموحات الثقافية والافتراضات الحضارية والتوجه العالمى لتلك الحضارات العظمى. ولا ريب فى وجود شكوك ومخاوف أشبه ما تكون بكونها شاملة وعامة من قبل المجتمعات الإسلامية إزاء العالم الغربى اليوم، وتشاركها فى ذلك، وعلى نطاق واسع، كثير من الحضارات الأخرى لدول العالم النامى، وإن لم يكن بينها اتفاق دائم حول التفاصيل البينية. وبعبارة أخرى، فإن العديد من القيم والرؤى السياسية التى تعزى إلى العالم الإسلامى اليوم، والتى تؤرق الغرب، توجد كذلك فى "عالم بلا إسلام".

والكتاب ذو صبغة نقاشية جدالية، وليس سردا لأحداث بذاتها. وقد سعيت من خلاله لإلقاء الضوء على اتجاهات وقوى بعينها غالبا ما يتم تجاهلها أو طمسها فى

الكتابات التاريخية الأكثر تقليدية. ومن خلال قاطرة الجدال الافتراضى، يحدونى الأمل فى أن أكون قد قدمت طرحا جديدا ونهجا مغايرا بشأن الكيفية التى جرت بموجبها الأحداث وتطورت فى إقليم الشرق الأوسط، وكذا بشأن الأسباب التى أدت إلى ذلك، فيما يتجاوز تأثير العوامل المرتبطة بالإسلام ذاته. وفى الختام، أرجو أن يقوم القارئ بالتفكير فى "الإسلام" والنظر إليه باعتباره مكونا متشعبا وأساسيا من مكونات الخبرة الإنسانية والسياسية والدينية التى تنتظم البشرية. فإذا ما كانت ثمة "مشكلة" لدينا حول الإسلام، تكون المشكلة نابعة منا وتمسنا كذلك.

ولقد تكررت إحالاتى وإشاراتى إلى "الإسلام" بين دفتى الكتاب، بما فيها هذا التقديم، بيد أنه، وبلا أدنى شك، لا يوجد "إسلام" واحد، بل أكثر من "إسلام"، أو بعبارة أخرى، يوجد "إسلام"واحد، وطرائق عديدة يفهم بمقتضاها المسلمون "الإسلام" ويحيون تعاليمه ... وتتباين تلك الطرائق على نحو كبير بين بلد وآخر، وفئة عمرية وأخرى، وقضية وأخرى، وشخص وآخر. وحقيقة الأمر، فإن الإسلام هو التصور الذى يتبناه المسلمون بشأنه، فضلا عما يرغبون فيه من إطار ينتظمه. وكغيرهم من معتقدى الملل الأخرى، يختلف المسلمون فى تصوراتهم ورؤاهم فيما يخص "الإسلام".

فإذا ما قام المرء بإلصاق صفة "العمومية" بتلك الظاهرة الهائلة والديناميكية ... الإسلام ... فكأنما يقوم بتحنيطها كما يقوم أحدهم بوضع فراشة ما فى صندوق لحفظ الفراشات بغرض الرجوع إليها ودراستها كعينة على امتداد الزمن. وبالفعل، فهناك الآلاف من الفراشات هنا وهناك، ولا ينى الفراش، كنوع، أن يتكاثر وتظهر منه صنوف أخرى جديدة فى الوقت ذاته الذى نحاول خلاله أن نحصر شتاته. ويا لها من مفارقة، فإن أكثر المهووسين والمتشددين فى الإسلام، من جهة، وأعداءهم الغربيين الأكثر تعصبا، من جهة أخرى، هم من يسعى لقولبة الإسلام وتجسيده على هيئة ظاهرة جامدة متيبسة أحادية الملمح، فينبغى لنا إما أن نروج لتلك الظاهرة أو نعمل على طمس ملامحها وتشويهها.

وختاماً، أرجو أن يصل القارئ إلى الإيمان بأن الأزمة الراهنة فى العلاقات ما بين الشرق والغرب، أو ما بين "الغرب" و"الإسلام" لا يربطها بالدين إلا رابط يسير غير ذى بال، فى حين تجد جذورها وينبع زخمها من الصدام السياسى والثقافى، وكذا تعارض المصالح والتشاحن والتنافس المحموم. ولا يخفى ما لهذه النتيجة من أهمية بالغة، إذ إنها وثيقة الصلة بالنهج الذى سنعتمده لمجابهة أزمة التصادم الراهنة بين الغرب والإسلام. فهل نحن، بالفعل، ماضون باتجاه موجات خطيرة من الصدام الحضارى المحموم، باتجاه حرب "مائة عام" جديدة أو حرب كونية رابعة، كما توقع البعض؟ فهذا الطرح الصارخ من الصراع الوجودى يروق بالفعل لجماعة صغيرة من المسلمين والنصارى واليهود. على أننا إذا خلصنا إلى أن الدين ليس العامل الحاسم والأساسى فى المشاحنات الحالية، تكون الفرصة مهيأة لبحث تلك المشاكل، بل والتوصل إلى حلول ناجعة لها أيا ما كانت درجة تشابكها وحدة وطأتها. وباعتماد ذلك المنهج، نأمل أن نكون ماضين باتجاه إرساء قاعدة متينة الأركان للعقائد "الإبراهيمية" الثلاث : اليهودية والنصرانية والإسلام، والتى تأتلف بأكثر مما تختلف وتتحاور بأكثر مما تتنافر.

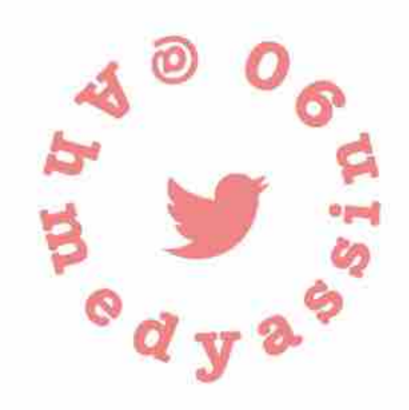
والمؤسف أن الدين إذا ما تم ربطه بالاعتبارات السياسية، فإنه ينزع إلى أن يفقد جوهره وتطمس روحه - وتغيب ملامحه الروحانية. ففى غير موضع من أرجاء المعمورة، يتم الزج بالدين، وعلى نحو منتظم، فى العديد من الصراعات الدموية التى تتمحور حول النزاع على امتلاك السيادة، والنزاعات الحدودية، وإحكام القبضة السياسية، وإملاء إرادة سياسية بعينها، والحفاظ على هوية المجتمع. وينسحب ما سبق على الكثير من العقائد، كالنصرانية والإسلام واليهودية والبوذية والهندوسية والشنتو، ... وكثير غيرها.

وفى الغرب، فإننا نحيا فى زمن ينحو فيه التفكير العقلانى العلمانى، وبقوة، إلى نبذ ظاهرة "الدين" باعتباره عنصرا مهجورا تجاوزته الأيام ... ذلك العنصر الذى يعطل ويعيق النسق والتراتب الاجتماعى فى أحسن الأحوال، ويعد مصدرا

للكراهية والشنآن والحروب والصراعات العنيفة فى أسوئها. وقد أفزعت "الصحوة الدينية" العديد من الغربيين حين بدا الدين أكثر مضاء وأشد خطرا على نحو لم يعهد من قبل، وهو أمر له نصيب من الحقيقة، وإن كان جوهر القضية ليس ما يمثله الدين من خطر فى حد ذاته، وإنما "التفكير الدوغماطيقى". فالأهوال والمآسى التى شهدها القرن العشرون لا ترتبط أو تجد جذورها فى أى ملمح دينى أو أى عامل عقائدى : حربان كونيتان، فرانكو، موسولينى، هتلر، لينين، ستالين، ماو تسى تونج، بول بوت، رواندا – مصرع مئات الملايين من البشر ... ارتبط ذلك كله بأنظمة علمانية بل وملحدة اعتنقت أفكارا دوغماطيقية قامت بتنفيذها بصرامة ووحشية دونما أدنى اعتبار لفداحة العاقبة.

وأخيرا، فأنا لم أكتب عن الدين، مطلقا، باعتباره كيانا ينتظم إيمان المرء، وإنما تناولت "الدين" باعتباره قاطرة للعديد من أوجه الطموح البشرى كالسياسة فضلا عن أمور أخرى لعل أبرزها المخاوف والدوافع والتحيزات والتطلعات. ولا أزعم –ألبتة– أن الدين تضيق آفاقه لتمسى ماهيته محصورة فى تلك الأمور فحسب. بيد أننا حين نطالع آلام القرن الحادى والعشرين وعذاباته تتبدى تباعاً، يصير حتما علينا أن نتحلى بقدر من الواقعية بشأن جسامة مسئولية تبعات القضايا وثقلها والتى يتعين أن ينهض بها الدين، فيكاد جل ما نخاله "قضايا دينية" ألا تربطه أدنى صلة بما تعارفنا على نعته بـ"الدين"، والذى طالما تم الزج به فى قضايا عديدة. وينسحب ما سبق أمريكيا قدر انسحابه على القاهرة أو تل أبيب أو بومباى أو كولومبو. فـ"الدين" يتم التحدث عنه بشتى الألسن ويتم توظيفه ليحظى بقبول مشارب عديدة، الصالح منها والطالح. إذا، وانطلاقا من ذلك كله، دعونا نجيل الفكر ونوجه الأبصار صوب "عالم بلا إسلام". ودعونا نسأل عن أوجه اختلافه فيما يخص علاقاتنا بالشرق الأوسط، وعن العوامل الأخرى المؤثرة فى ذلك السياق.

الجزء الأول
هرطقات وقوى سلطوية


@Ahmedyassin90

الفصل الأول

الإسلام والملل الإبراهيمية

حتى بدايات القرن السابع الميلادى، لم تكن شمس الإسلام قد لاحت بعد فى الأفق إلى أن تنزل الوحى الإلهى على النبى محمد لنشره فى الآفاق. على أنه لا يستقيم النظر إلى نشأة الإسلام وانطلاق شرارته الأولى كلحظة فارقة، أو بالأحرى كنقطة تحول فى تاريخ الشرق الأوسط. فمن المنظور السياسى، يمكننا اعتبار تلك النشأة حدا فاصلا بين عهدين، أما من المنظور الدينى والحضارى، فمن السهولة بمكان اعتبارها امتدادا لمسيرة الفكر التوحيدى وتطوره بالشرق الأوسط. واليوم، فإننا نشهد استخدام مصطلح "الملل الإبراهيمية" بكثافة وهو ما يظهر وعيا وإدراكا بذلك التراث التوحيدى ثلاثى الأبعاد والمرتبط بنبى الله إبراهيم لينتظم كلاً من اليهودية والنصرانية والإسلام ... وما بينها من وثاقة صلة ولصوق عرى، بغض الطرف عن التباينات السياسية التى نشأت بين معتنقيها على امتداد الزمن.

وهذا تماماً ما رمنا إيراده : فقد قامت السياسة والصراع على السلطة بالإيحاء بجسامة التباينات العقدية وذلك توخيا لمآرب سياسية بعينها، بدلا من أن تؤكد على التراث البينى المشترك. وهنا تطغى اعتبارات السياسة : إذ نجد أن مظاهر التوتر الجيوبوليتيكى المزمن فى الشرق الأوسط والتى سبقت ظهور الإسلام ما زالت قائمة. ويبدو من غير المقبول النظر إلى الإسلام كعنصر دخيل على التراث الدينى بالإقليم، إذ استوعب واستحث وتفاعل مع الكثير من المشارب والحضارات الراسخة به.

وتجلى خريطة الشرق الأوسط الدينية فى حقبة ما قبل الإسلام عالماً تسوده النصرانية متمثلة فى الأرثوذكسية الشرقية، إلى جانب نصيب بسيط تقتطعه الزرادشتية التوحيدية ببلاد فارس (فى ظل حكم الإمبراطورية الساسانية)، ونزر يسير من تجمعات يهودية فى قطاعات حضرية معدودة، مع هيمنة بوذية وهندوسية



على شبه القارة الهندية. أما أوروبا، فكانت فى جزء منها مسيحية، وفى الجزء الآخر وثنية. لذا، يعد الإسلام وافدا لاحقا على تلك الملل جميعا، بل وخاتم الأديان تاريخياً، التى استطاعت بسط هيمنتها على دعائم الدولة وأركانها. ولقد عوّض الانتشار السريع للإسلام عن مجيئه المتأخر.. ليحظى بوضع سيادى مهيمن على أراض جد شاسعة خضعت فى السابق للسيطرة المسيحية والزرادشتية فى الشرق الأوسط. فإن لم يكن ثمة إسلام، لكان الأرجح أن تظل الأرثوذكسية الشرقية الملة السائدة فى الشرق الأوسط إلى الآن، باستثناء إيران التى غالبا ما كانت ستبقى معتنقة للزرادشتية.

وفيما كان التوسع الإسلامى وغزوه للكثير من البلدان ذا أثر سياسى كبير كما هو شأن أى غزو، لم يكن للإسلام، من المنظور الثيولوجى أثر ملموس فى رعايا تلك البلدان فى العقود الأولى، فلقد انبثق الإسلام، فى واقع الأمر، من أجواء المناخ

الدينى السائد فى الشرق الأوسط حينذاك على نحو عفوى. أما المدهش بحق : كيف استطاع الإسلام التوافق والاتساق بيسر مع البيئة الدينية القائمة؟

كذلك، فلم تكن نشأة الإسلام حدثا غير ذى بال وقع فى صحراء نائية تضربها العزلة ... ولم يكن الإسلام نبتة حضارية شاذة منبتة الصلة ومبتورة الجذور عن الحضارة الغربية. لقد نبعت أفكار الدين الإسلامى مباشرة من مناخ حضارى متوسطى وشرق أوسطى أرحب شهد سجالا وتبادلا كثيفا للأفكار الدينية، وحوارا وتلاقحا فكريا خصبا. ولعله لا يوجد ضمن أقاليم العالم ما شهد العديد من الملل والطوائف الدينية تترع أرجاءه بقدر ما شهد إقليم الشرق الأوسط. وبانتشار الإسلام، ألفينا تكرار تداول المواضيع والاهتمامات التى كانت جزءا من التطور المبكر لليهودية والنصرانية. فبعد معاينة مسيرة النضال والكفاح الدينى والعقدى للنصرانية على امتداد القرون الستة الأولى لنشأتها، (وهو ما سنتناوله لاحقا)، فإن تعرفنا إلى الإسلام لا يثير كثير دهشة ... فالمعتقدات والقضايا الجدلية التى تمخض عنها الإسلام لتجد جذورها فى جدالات جد مألوفة : ما طبيعة الإله الواحد؟ هل كانت الملة اليهودية مرسلة إلى اليهود خاصة، كشعب الله المختار وأصفيائه، أم للبشرية بأسرها؟ هل المسيح، بحق، ولد الله، أم بشر موحى إليه من قبل الله؟... سنتناول من فورنا، بالتحليل، الطبيعة الآسرة للكثير من تلك الجدالات مشيرين إلى أنه قد كتب لبعض المعتقدات الدينية الذيوع بدعم من السلطة السياسية، فيما تم النظر إلى البعض الآخر ذى الدعم السياسى الأدنى باعتباره تجديفا وهرطقة.

وفضلا عما سبق، سنرى إلى أى مدى كانت تلك الصراعات المذهبية والعقائدية ترتبط بسياسات الإمبراطوريات العظمى، فالسلطة تجتذب الدين ... والدين يجتذب السلطة، وتأتى الاعتبارات "اللاهوتية" لاحقا. كذلك، فإن القوى الراسخة للحضارة والتقاليد والتاريخ والمعتقدات على قدر هائل من القوة والفاعلية ... إذ لديها من عظيم القوة ما يمكنها من توجيه ما يستجد من أحداث صوب

الأقنية الراسخة ... إذاً فقد كان الإسلام، فى حداثته وكذا فى وهجه وألقه الحضارى المذهل، ثمرة محيطه الأرحب.

شبه الجزيرة العربية

لم تكن شبه الجزيرة العربية موضعا يعانى العزلة، بل تفاعل مع موجات التيار الفكرى الهائلة السائدة آنذاك. ولقد كانت اليمن، إلى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة، مهدا لواحدة من أقدم حضارات الشرق الأوسط، بل ربما الموطن الأصلى للشعوب السامية جميعا. لقد ارتحلت القبائل السامية فى وقت جد مبكر من اليمن باتجاه بلاد الرافدين حيث بسطت هيمنتها على المملكة السومرية قبل ميلاد السيد المسيح وأحالتها حضارة سامية. كذلك، كانت هناك حركة تجارة رائجة للتوابل والمنسوجات امتدت لتشمل سواحل البحر الأحمر ومصر، وكذلك البحر المتوسط حيث كانت هناك علاقات ذات طابع دورى مع الفينيقيين منذ أقدم العصور. فقد زعم أن ملكة سبأ أقامت فى اليمن وربطتها علاقات مع مملكة أكسوم المسيحية فى الحبشة. وقد كان للنصارى واليهود مجتمعات ممتدة فى اليمن، كذلك، كان للفرس وجود بها فى حقبة من الزمن.

وفى الشمال، وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر وعلى مقربة منه، تقع مكة، إحدى أهم المدن بشبه الجزيرة، والتى يرجع تاريخ نشأتها إلى أكثر من أربعين قرناً. وفى التاريخ القديم، لم يرد ذكر «مكة» إلا لماماً إلى أن بعث النبى محمد. وقد أصبحت مكة مركزا تجاريا هاما على امتداد البحر الأحمر وطريق التجارة مع سوريا. ولقد عاشت مجتمعات اليهود الكبيرة فى غير مدينة من مدن الحجاز، وبخاصة يثرب. وإلى الشمال، تقع الأراضى المسيحية من الإمبراطورية البيزنطية، وما تضمه من مراكز هائلة فى الأراضى التى تعرف اليوم بسوريا والأردن.

لقد احتضنت شبه الجزيرة العربية مختلف دياناتها التقليدية والمتمحورة حول آلهة محلية أو قبلية تماثل تلك المعروفة للشعوب السامية الأخرى، بمن فيهم اليهود

الأوائل. أما عبادة تلك الآلهة، فقد تركز معظم طقوسها حول "الكعبة" في مكة، والتي كانت موئلا لنحو ثلاثمائة وستين تمثالا للآلهة، من بينها تماثيل للسيد المسيح والعذراء مريم. وقد منحت مزارات العبادة تلك مكة سطوة وحظوة اقتصادية فضلا عن قوة سياسية كبيرة. وبذا، آل لمكة أن تحكم قبضتها وتبسط سيادتها على تجمع قبلي عظيم بهدف الإشراف على السياسات القبلية البينية المعقدة بشبه الجزيرة، وكذا تحجيم الحروب والصراعات القبلية الممزقة للأواصر والمفتتة للحمة الوشائج. وكنتيجة لذلك، أبرمت مكة معاهدة تعاون مع بيزنطة لتيسير انسياب حركة التجارة خلال ربوع الإقليم. ولقد كان رخاء مكة وازدهارها سببا مباشرا فيما استجد من توتر سياسي واجتماعي بها، حيث تداعت أركان البنيان القبلي القديم وهياكله، وكذا علاقات التكافل والدعم فيما بين ذوي القربى والأرحام، وذلك بفعل نمو اقتصاد سوقي مزدهر ... إذاً، فقد كانت القيم الاجتماعية القديمة تنحو إلى المغيب لتفسح المجال لقيم جديدة لتحل محلها وتملأ فراغ غروبها.

تلك كانت طبيعة المنطقة من المنظور الجيوبوليتيكي والثيولوجي، إلى أن جاء عام ٦١٠ من ميلاد السيد المسيح ليشهد إرهاصات الوحي الإلهي للتاجر المكي محمد، والذي كان آنذاك في مقتبل العمر ... ذلك الوحي الذي أضاف فصلا جديدا إلى فصول الفكر التوحيدي. ولقد تيتم محمد منذ الصغر فكفله أحد أعمامه والذي جعله يرعى له أنشطة تجارته. وعندما بلغ محمد الأربعين، وفي أثناء بعض من خلواته التأملية بغار في مكة، هبط الملاك جبريل إليه وأمره أن يقرأ كلمات بذاتها أرسلت إليه من لدن الله، ثم أمره أن يعظ بأن الرب واحد وأن ينشر رسالته إلى القبائل الإقليمية، وإلى المجتمع الضال بمكة بما فيه من وثنية وما هو عليه من تعدد للآلهة. ولقد واصل محمد المسير لنشر تلك الرسالة وللتنديد بالهرم الاجتماعي الصارم وغير المنصف، وكذا التنديد بملامح عدم التوحيد في محيط الكعبة، وهي رمز سيادة سطوة مكة وأهمية تجارتها.

ولعل الأهم هو كون محمد قد أوضح مبكرا أنه امتداد لمن سبقه من أنبياء الله

كأنبياء "العهد القديم"، بل إنه يتبع نهج من سبقهم من أنبياء كآدم أبى البشر (وأول نبى فى الإسلام)، وإبراهيم. ويشير "القرآن"، وهو السفر الحاوى لجميع ما أوحى إلى محمد، إلى أن هؤلاء الأنبياء هم "أول المسلمين"، ويلح محمد، كذلك، فى أنه نبى الله ورسوله، ويقرر طبيعته البشرية. ووفقا لمن يحيا فى شبه الجزيرة العربية وتخومها، فإن رسالة محمد ليست جديدة بالكلية عما قد عهدوا سالفاً، بل هى إقرار وتوكيد على وحدانية الله، فى صيغة جديدة. ولقد قدم محمد طرحا جديدا واضحا خالياً من النظريات المبهمة والملغزة والتى تتضارب فيما بينها حول طبيعة المسيح ... تلك النظريات التى أحدثت صدعا فى بنيان الأوساط اللاهوتية على امتداد أراضى المملكة المسيحية الشرقية طيلة ستة قرون. كذلك، فقد شدد على حاجة البشرية إلى أن تثوب إلى تعاليم الله الداعية إلى إرساء جماعة أخلاقية.

إن ما يتطلبه اعتناق الإسلام جد بسيط : فعلى من يرغب فى ذلك أن ينطق بالشهادة وهو موقن ومؤمن بها ... وصيغة تلك الشهادة : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. ويتحتم على كل مسلم أن يلتزم بأركان الإسلام الخمسة، وهى : إقرار الشهادة، والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة، وصيام شهر رمضان، وتأدية مناسك الحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلا، وإيتاء الزكاة.

ويستلزم الإيمان إقرار توحيد الألوهية والربوبية، والإيمان بأنبياء الله ورسله أجمعين بمن فيهم، موسى وعيسى ومحمد، والإيمان بالملائكة، والإيمان بكتب الله ورسالاته جميعها، بما فيها التوراة والإنجيل والقرآن، والإيمان باليوم الآخر (يوم القيامة)، والإيمان بالقدر، خيره وشره. ولقد أدت دعائم الدين الجديد وأركانه إلى سهولة التعرف إلى الدين الجديد والإيمان به.

ولقد ارتأى محمد، كأول مبشر بالدين الجديد ... ذلك الدين الذى يعنى اسمه الانقياد لأوامر الخالق، الحاجة إلى توضيح الرسالة التوحيدية وتعميق أثرها، ونبذ الأفكار المغلوطة والعقائد الفاسدة التى تسللت إلى التأويل البشرى لكل من التوراة

والإنجيل، على أن روح الوحى كانت واحدة للرسالات جميعا.

وينكر علماء الإسلام أى ارتباط سببى يتعلق بنشأة الإسلام ما لم يكن إلهيا أو مقدسا، أو بعبارة أخرى، فإن هؤلاء العلماء لا يقرون أية مصادر أو تأثيرات محتملة، إن خارجية أو إقليمية أو غير إلهية، فى طبيعة الوحى المرسل إلى النبى محمد، ويبدو هذا متسقا مع إطار التزامهم العقدى. بيد أن البيئة التى نشأ بها محمد والمناخ الذى أحاط تطوره كان لهما، بطبيعة الحال، أثر على تكوينه العقلى وسمات شخصيته وطرائق تفكيره. كذلك، من الجائز أن يكونا قد أثرا فى استعداده لتلقى الرسالة والكيفية التى أدرك بموجبها الوحى واتبع تعاليمه هو ومريدوه وأتباعه. لذا، فإن الحق مقرر لمن يريد أن يتناول بالبحث والدراسة المؤثرات الخارجية المحتملة والممكنة فيما يخص الوحى المرسل ومعايشته وتأويله، وذلك بالتوازى مع تجارب الوحى المرسل إلى الأنبياء الآخرين عبر التاريخ.

ففى شبه الجزيرة العربية فى تلك الأونة، كانت معظم التعاليم الجديدة التى اشتمل عليها القرآن مفاهيم مقبولة ومألوفة، بدءا من الاعتقاد اليهودى المنكر لأن يكون عيسى بن مريم هو "المسيح"، والذى ينظر إليه على أنه مجرد مقوم لما طرأ على الوعى الإيمانى من انحراف. كذلك، فقد كانت "الهرطقات المسيحية" التى انتشرت على امتداد الشرق الأوسط بشأن جميع الملامح المحتملة لطبيعة المسيح – مألوفة وسائدة. وبحق، فقد كانت السمة التوحيدية الصارمة التى تصبغ القرآن أقرب، من نواح عديدة، إلى آراء نصارى الشرق الأوسط الأوائل عنها إلى المفاهيم اللاهوتية بالغة الجمود للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية فى السنوات اللاحقة. وقد كان المفهوم التوحيدى، بما له من تنويعات، هو السمة السائدة التى تغلغلت فى أوصال حضارات الإقليم بأسرها.

إن النبى محمداً لينفرد عمن عداه من أنبياء بتسليط التاريخ للضوء على شتى جوانب حياته. إذ يحفل القرآن وما سجله صحابته من أقواله وأفعاله (الحديث)

بإشارات وبيانات عن حياته بجوانبها المتعددة. ولكن تبقى الإشكالية ذاتها التى واجهت معظم الملل السابقة، ومنها النصرانية : إلى أى مدى يمكن الركون إلى دقة وأمانة ما سطره مجايلو النبى بشأن سيرته، وما يخص أفعاله وأقواله؟ إذ تواتر نقل تلك الأفعال والأقوال على نحو شفاهى، ولم يتم جمعها أو تحليلها أو تقييمها منهجيا فى شكل كتابى إلا بعد انقضاء ما يزيد عن قرن كامل من وفاة النبى محمد. وتتشابه تلك المهمة، بما اكتنفته من إشكالية، مع نظيرتها "المسيحية" الخاصة بجمع كل ما سطر عن حياة المسيح بغية تعيين أى الأناجيل يمكن الوثوق بها والارتكان لمصداقية ما تحويه ... وما يزال هذا الطرح حافلا بالجدل وتضارب الرؤى ويعوزه الحسم للقضاء على ما يثيره من بلبلة وحيرة.

وفى حين لا تحيط "الحديث" هالة القداسة التى تحيط "القرآن"، كون الأخير وحيا مباشرا من لدن الله، إلا أن "الحديث" يعد مصدرا بالغ الأهمية للتشريع الإسلامى بما يحويه من نصوص تتناول قضايا محددة وواضحة نشأت خلال مسيرة تطور الجماعة الإسلامية فى بواكير تكوينها. كذلك،، يقدم "الحديث" دليلا هاما على كيفية إدراك النبى ذاته لما أوحى إليه وألية تطبيقه فى شتى المواقف. ولعل أوجه الشبه تتضح حين النظر إلى سؤال النصارى اليوم : "ماذا عسى المسيح فاعلا فى هذا الموقف أو ذاك؟!".

إلا أن جماعات قليلة من المسلمين تذهب إلى أنه يتعين، لما للقرآن من قداسة، اعتباره المصدر الوحيد لفهم الإسلام، نظرا للطبيعة المتشعبة لنصوص "الحديث" فى شتى تناولاته، والذى تتباين درجات قوته ومصداقيته من حيث تطابق لفظه - والإجماع بشأنه، وكذلك تبنى السلطات لأحاديث بعينها، دون غيرها، لتحقيق مأرب ما أو تسويغ فعل مزمع. ومن المثير ملاحظة ملمح الشبه والتوازى بين ذلك، وبين قاعدة الاحتكام "للكتاب فحسب" Sola Scriptura، والتى تبنتها حركات الإصلاح الدينى المسيحى التى نبذت أرتالا من التاريخ الكنسى وما لحقه من زيادات وحواش، ورفضت الخضوع لأحكام المجالس الكنسية وغيرها، لما حداها من أمل

ورغبة في تأسيس فهم ديني سليم يرتكن إلى تعاليم الإنجيل فحسب.

إن العراقيل التي صادفها تطبيق الدين الجديد ونشر تعاليمه العقدية والسياسية مجتمعيا كانت مثبطة للهمم، خاصة إزاء المعارضة والصدام المسلح المبكر من النخبة "المكية" التي استشعرت تهديد الرسالة المحمدية لنفوذها وسطوتها وثرواتها الطائلة. ولقد ارتحل النبي محمد وأتباعه إلى يثرب (والتي سميت بـ "المدينة"، فيما بعد)، حيث أسس نواة المجتمع الإسلامي الأول، ودُعي إلى الوساطة بين القبائل المتناحرة بها بغية إرساء مناخ من السلام والتعايش الآمن، وهو ما عرف بـ "ميثاق المدينة" أو "صحيفة المدينة". ووفقا لهذا الصلح، فإن حقوق ومسئوليات شتى القبائل والجماعات الدينية بـ"المدينة"، وطبيعة التعامل فيما بينها، كاليهود والنصارى والمسلمين، قد دوّنت في وثيقة صلح وتسوية. إلا أنه، وبالتزامن مع ذلك الصلح، فقد ظلت جماعات المسلمين لسنوات طوال مهددة سياسيا وحربيا من قبل القوى العدائية بمكة والمتربصة بها الدوائر في عدائها السافر للإسلام ... إلى أن كفت مكة عن المعارضة وكتب للنبي محمد، في عام ٦٣٠، أن يفتحها ويدخلها منتصرا دون إراقة للدماء. وقد أشار القرآن، في بعض آياته، إلى جانب من ملامح ذلك السجال الممتد من المواجهات والتوترات وذلك التاريخ الحافل بالعداء والتناحر والنكث بالعهود، في نضال المسلمين للاتحاد بوجه العدو الساعي إلى تدمير الجماعة الإسلامية الناشئة. وتتشابه تلك الآيات ودلالاتها، إلى حد بعيد، مع آونة بعينها جاهد فيها اليهود لمجابهة اعتداءات القبائل المناهضة للسامية وإجهاضها، حيث دعا "العهد القديم" إلى استئصال شأفة كل أعداء اليهود بلا أدنى رحمة أو هوادة ... أولئك الذين وقفوا كحجر عثرة في وجه تأسيس الدولة في "إسرائيل"، فلم تكن التسوية السلمية والمهادنة، إذا، طابعا يسم تلك الآونة القلقة والمأزومة في كلا المعسكرين.

لقد كان لإشكالية مدى القدرة على الارتكان إلى مصداقية نصوص "الحديث" انعكاسات سياسية كبيرة حين نما الإسلام وامتدت رقعته وانخرط في إرساء دعائم

الدولة الإسلامية. وكما بالنسبة للكنيسة المسيحية، فإلى أى مدى ستتمكن السلطات الدينية والعلمانية المسلمة من النجاح فى سعيها، على نحو ارتجاعى، لتأويل رسالة الإسلام؟ فعلى نقيض النصرانية، تجنب الإسلام لحسن الحظ الخوض فى الجدل بشأن الطبيعة المقدسة للنبى محمد من عدمها، والتى لم يزعم أحد قط، بمن فيهم النبى ذاته، أنها سمة تميزه. كذلك، فلم يشهد الإسلام سوى بعض الهرطقات الضئيلة والانقسامات حول أسس تأويل النصوص المقدسة وركائزها، مقارنة بالنصرانية. ولعل السبب فى ذلك يرجع، فى جانب منه، إلى اعتبارات رؤيته الثيولوجية ذات التوجه الهادئ المتسامح. إلا أنه، وإلى اليوم، تظل للأسئلة بشأن مشاكل تفسير القرآن و"الحديث" النبوى أهمية كبيرة، خاصة فى ظل التطور الدائب للإسلام.

وبانتشاره واتساع رقعته، صادف الإسلام لغات وثقافات مغايرة ... كما واجه امتدادات جغرافية وتجارب تاريخية جديدة. وكغيره من الأديان، واءم الإسلام ذاته للاتساق ومقتضيات المحيط المحلى كيما يسهل تقبله واعتناق مبادئه. بيد أن الإصلاحيين المتأخرين قد نظروا إلى بعض من المواءمات والإضافات إلى الدين باعتبارها تشذ عن روحه كونها بدعة تستوجب الاستئصال للعودة إلى منابع الدين كهيئته الأولى. فإلى هذه الأسس، سيرتكن بنيان حركات التجديد الإسلامى والأصولية الدينية. وبالمثل، فقد كانت الإضافات إلى الملة النصرانية سببا لظهور المصلحين الأوائل من أمثال "مارتن لوثر".

إن الخلافات ما بين الملل ومعتنقيها نادراً ما ترتكن إلى تباينات ثيولوجية بعينها، وإنما إلى ما تنطوى عليه من مناخ سياسية واجتماعية. فهلم ندلف إلى لب بعض من التباينات الثيولوجية القائمة، بحق، ضمن إطار العلاقة ثلاثية الأبعاد بين اليهودية والنصرانية والإسلام. فإلى أى مدى أثرت تلك التباينات، بحق، فى البعد السياسى بالشرق الأوسط فى التاريخ القديم والأوسط؟ إذا ما أنعمنا النظر، ألفينا تكرارا لنقاشات جدلية بعينها بشأن مفهوم التوحيد وكنهه راجت فى ذلك الإقليم

وعمت ثقافته. كما نلحظ أن الإسلام بدلا من أن يحدث تحولا ثيولوجيا بالإقليم قد خلص إلى أن تبنى نهجاً وسطياً توافقياً بين اليهودية والنصرانية، مؤكدا على القاسم الثيولوجى المشترك فيما بين ثلاثتهم. أما النظريات الحديثة الرائجة، والتى تذهب إلى أن الإسلام يمثل قوة حضارية وثيولوجية مخالفة للاعتقاد اليهودى/ المسيحى بما لهذة القوة من طبيعة صدامية تدميرية، وأنها قد أرست أسس المشاعر المعادية للغرب والمناهضة له لاحقا ... فينطوى الإيمان بها على نزع الإسلام من سياقه الحضارى والتاريخى. إن الإسلام، وبحق، يمثل بعضا من أعمق النزعات الحضارية والفلسفية والدينية فى الشرق الأوسط، ويرسخ لها ... بما فيها مقاربته المتسمة بالحذر تجاه الغرب. على أن الإسلام لم يخلق تلك النزعات أو يؤسس لها، فإذا ما نحينا "الإسلام" جانبا – ألفيناها قائمة وسارية. إذا، فهلم نرى كيف تنظر كل ملة –من تلك الثلاث– إلى الأخرى.

رؤية اليهودية للنصرانية وللإسلام

كان للانتقادات اليهودية للنصرانية تأثير جلى فى بعض الهرطقات المسيحية اللاحقة، وفى الإسلام كذلك. بداية، فإن القضية الفريدة بالغة الحساسية فى الشرق الأوسط برمته هى قضية "طبيعة المسيح" فائقة الأهمية. فعلى حين يؤمن النصارى بأن عيسى بن مريم هو المسيح الذى سيبعث ثانية وفقا لنبوءة "العهد القديم"، ينكر اليهود ذلك الاعتقاد. وتذهب آراء بعض المسيحيين إلى كون اليهود أسوأ الهراطقة على الإطلاق، ذلك لأنهم ينكرون بالفعل ما تنبأت به التوراة من مبعث للمسيح. وينكر علماء اليهود وأحبارهم ذلك الطرح زاعمين أنه من الجلى أن عيسى بن مريم لم يكن ذلك "المسيح" الذى وردت نبوءته فى "العهد القديم". فوفقا لمزاعمهم، ينبغى للمسيح "الحق" أن تتوافر له بعض النبوءات، تحديدا، حتى يمكن القول، وبحق، إنه المسيح ذاته : إذ يجب أن يولد من النسل الذكورى للنبى داود (يتم الزعم بأن عيسى هو ولد الله)، كما يتعين عليه الالتزام بالشرعة التوراتية وإنفاذ تعاليمها (لم يقم عيسى بذلك، بل حرص على أن يغير تلك الشرعة). كذلك، يجب أن يجئ مولد

المسيح "الحق" مواكبا لحقبة من الزمان يسود السلام ربوع الأرض خلالها حيث تنتفى الكراهية والاضطهاد – وهو ما لم يحدث بالفعل. كذلك، ذهب "العهد القديم" إلى ضرورة تحقيق المسيح لذلك الوحى وتلك النبوءات من فوره، وليس عقب "مبعث جديد" أو "رجوع آخر"، ذلك المبعث الذى لا ذكر له مطلقا فى "العهد القديم". وفضلا عن ذلك، ينكر اليهود المفهوم القائل بأنه يمكن تخليص البشرية من خلال تضحيات المسيح وآلامه، بل ينكرون ذلك على أى من كان، فلا يأتى الخلاص، وفق آرائهم، إلا بالحياة الصالحة المستقيمة كما نص عليها الشرع اليهودى.

ويذهب اليهود، كذلك، إلى اتهام عيسى بن مريم وإلقاء اللوم عليه لإفساده عقيدة التوحيد اليهودية، ونشر بذور الفرقة والشقاق ما بين اليهود وتأليب بعضهم على الآخر، وإضعاف شوكة اليهودية ... إلى الحد الذى ذهب معه موسى بن ميمون، الفيلسوف واللاهوتى اليهودى القروسطى فى إسبانيا المسلمة إلى أن:

"أول من تبنى هذا النهج (إبادة العنصر اليهودى وطمس هوية الأمة اليهودية بأسرها لتضحى بلا أية معالم تذكر) هو عيسى "الناصرى"، قاتله الله ... الذى أكره الناس على الإيمان بأنه نبى مرسل من لدن الرب لكشف الغموض وتجلية ما استغلق على فهم الناس للتوراة، كما جعلهم يؤمنون بأنه "المسيح" الذى تنبأ كل عراف بمجيئه. لقد عمد إلى تأويل التوراة وتعاليمها على نحو أدى إلى محقها وإبطالها تماما، وإلى إلغاء جميع ما احتوته من وصايا، وانتهاك ما بها من نواه ومحظورات. ولقد فطن حصفاء الأمة وحكماؤها، تغمدهم الرب برحمة منه، إلى تدابيره وخططه تلك قبل ذيوع أخباره بين شعوبنا، بتعيين العقوبة الملائمة بحقه".

إذا، ومن وجهة النظر اليهودية، تذهب تلك الجدالات إلى رفض الطرح المسيحى بأن اليهود ينكرون المسيح عن عمد كما جاءت به نبوءة "العهد القديم"، وتجلى تلك الانتقادات أنه من الواضح تماما لعلماء اليهود وأحبارهم أن عيسى ابن مريم لا تجتمع لديه الشروط اللازمة لأن يكون "المسيح" الموعود.

ويأتى الإسلام كطرح وسطى، حيث يقر بأن عيسى بن مريم - عبد الله ورسوله، أيده الله بالمعجزات وخوارق العادات، وأنه ولد مريم العذراء ... مريم، التى تحمل السورة التاسعة عشرة من القرآن اسمها، والتى ذكرت به أكثر من أية امرأة أخرى، بل أكثر مما ذكرها الإنجيل ذاته، كونها المرأة الأكثر تبجيلا وتوقيرا فى الإسلام.

إلا أنه، ووفقا للإسلام، ليس عيسى بن مريم إلها بذاته، أو ولد للإله، بل بشرا نبيا موحى إليه من لدن ربه. ذلك أن الله واحد لا شريك له. ويعد إنكار كون عيسى بن مريم نبيا، من المنظور الإسلامى، انتهاكا للإيمان بالإسلام ذاته. فعلى سبيل المثال، يذهب المسلمون إلى اعتبار الأعمال الفنية المسيئة للمسيح عيسى بن مريم ضربا من الكفر والتجديف. ويرد ذكر عيسى بن مريم فى الإطار القرآنى بأنه "كلمة الله"، و"روح الله"، وتنتفى تماما أية إشارات تحط من قدره فى القرآن. لذا، وفى "عالم بلا إسلام"، يظل النقد اليهودى الفظ لعيسى بن مريم قائما، كما تم التعبير عنه فى الملة اليهودية.

وبالمثل، تنكر اليهودية محمدا كنبى مرسل من لدن الله. ورغما عن ذلك، فإن العلاقة فيما بين الإسلام واليهودية لتلفت الأنظار وتسترعى الانتباه، فهى أوثق صلة، فى روحها، من علاقة أى من هاتين الملتين بالنصرانية. فاليهودية والإسلام يشددان تماما على النهج التوحيدى المميز لهما، كما أن كليهما يعلن وحدانية الله مرات عديدة خلال شعائر الصلوات اليومية. كذلك فإن اليهود والعرب شعوب سامية اقتسمت، على امتداد آجال طوال، حيزا جغرافيا مشتركا، وجمعها تاريخ مشترك، كما أنها تتحدث لغتين شديدتى الشبه فيما بينهما. إن الإسلام واليهودية يلتزمان كلاهما بالشريعة المنتظمة لهما، حيث يتحقق الخلاص الفردى عن طريق اتباع تعاليم الشريعة وتطبيق مقتضياتها عبر الحياة اليومية. كذلك، توجد بهما محاكم شرعية للقضاء والبت فى شتى القضايا بموجب الشريعة. وتشدد اليهودية على عدم جواز تجسيد الإله أو تصويره، كما تذهب إلى أنه لا يوجد للإله قالب أو كيان

بشرى. كذلك ينظر الإسلام النظرة ذاتها إلى عدم جواز خلع الصفات البشرية على الله مطلقا. لذا، فإن الفن المسيحى، من وجهة نظرهما، يعد صادما، إن لم يكن تجديفا وكفرا ... ذلك الفن الذى لا يجد أدنى غضاضة فى تصوير الإله على نحو صريح ومباشر وبأسلوب سافر مفصل لا تحده أية ضوابط، وهو المشاهد أينما جال النظر فى غزارة تصوير المسيح وفق تنويعات جمة من التراكيب والأوضاع.

إن اليهودية والإسلام ليشتركان فى العديد مما ينظم طقوس الطعام، وذبح الحيوان، وتحريم أكل الخنزير، ومقتضيات النظافة والطهارة. ولقد تأثر اليهود الشرقيون (السفارديم) فى ممارساتهم لشعائر دينهم بقرون طوال عايشوا خلالها المسلمين فى حياتهم وطقوسهم اليومية. وفيما عانى اليهود كثيراً منه تاريخ دموى طويل، فقد عانوا كذلك فى أوقات بعينها جاوروا خلالها المجتمعات الإسلامية، إلا أن علماءهم وأحبارهم يكادون يجمعون على أن الحضارة والمجتمع اليهوديين قد تعايشا عبر القرون فى ظل مناخ أكثر عدلا وأقل عنفا مع "الإسلام" عما كانت عليه الحال مع "النصرانية". إن إقامة دولة "إسرائيل" فى عام ١٩٤٨، والتى أسست كوطن لليهود بعد تجربتهم القاسية والمريرة أثناء الهولوكوست فى أوروبا – وإن تضرر الفلسطينيون كثيرا جراء ذلك – قد مثلت عودة مؤسفة ومحزنة للعلاقات الغاضبة والمتوترة فيما بين اليهود والمسلمين. وبحق، فإن العلاقة المتوترة تلك هى جيوبوليتيكية بالأساس تدور وقائعها حول القضايا الحدودية والعلاقات مع دولة إسرائيل المستحدثة فى المنطقة.

رؤية الإسلام لليهودية والنصرانية

باعتباره خاتم الملل الإبراهيمية، يمكن للإسلام التعويل على تطور اليهودية والنصرانية والنظر إليهما بعين الاعتبار. ووفقا للقرآن، فقد اقترف اليهود العديد من الأخطاء الجسيمة حين تلقيهم للوحى. إذ اعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار، مع النظر إلى الرب على أنه إله اليهود وإلى الرسالة اليهودية على أنها

حكر عليهم. وقد نفى القرآن ذلك الأمر بالكلية، فلا يوجد لله شعب مختار ... (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)... القرآن/مريم الآية ٩٦ . ولقد كانت تلك رسالة القديس بولس أيضا فى الخلاف مع اليهودية - إذ إن رسالة عيسى ابن مريم تقول بأن الإله ليس إلها لليهود فحسب، وإنما هو إله العالمين. لذا ينطوى الإسلام على نظرة مراجعة لليهودية، ويتطابق مع النصرانية فى أن رسالة الله تشمل العالمين، وليست مقصورة على فصيل بعينه.

على أن الإسلام واليهودية يشتركان فى نقدهما للنصرانية، إذ يرى كلاهما فكرة وجود "ولد" للإله بأنها ضرب من الكفر والتجديف بما يخالف مفهوم الإله الواحد الذى لا يلد ولا يمكن إلا أن يكون فردا فى ذاته. إن مفهوم "الثالوث" هو ضرب من الشرك تحرمه الشريعتان. ووفقا للإسلام، فإن المسيح لم يصلب أو يمت، وإنما رفعه الله إليه. كذلك، فالمسيح، لا محمد، هو من سيهبط إلى الأرض يوم القيامة ليقتل المسيخ الدجال.

بيد أن للتطور التاريخى أثره فى تغيير الكيفية التى يدرك بها البشر ماهية الدين، ويساعد هذا الطرح فى تفسير التباينات فيما بين الملل. ويقر المسلمون بهذه الحقيقة، وإن بنهج نفعى بعض الشئ. ففى غير مرة، أخبرنى بعض المسلمين بـ"أن الملل الثلاث هى من لدن الله، وإن أرسل كل منها فى زمن مختلف على مسار تطور التاريخ البشرى. وفى كل مرة، يتطور وعى الإنسان وإدراكه بوجود الله. فوفقا للمصطلحات التقنية الحديثة، يمكننا النظر إلى اليهودية بأنها تشبه Word 2.0، ذلك التطبيق الحاسوبى الخاص بالكتابة، والذى عمل بكفاءة فى حينه، بل يمكنه العمل إذا أردت. ثم جاءت النصرانية فيما بعد، وكأنها Word 5.0، ذلك التطبيق الذى أضاف إلى خصائص سابقه ليجعله أكثر كفاءة وسرعة -أى بمدى تفهم رسالة الله وإدراكها. وبعد ذلك بستة قرون، جاء الإسلام، والذى يمكن تشبيهه بـ Word 8.0، ذلك التطبيق الأكثر تقدما وتعقيدا- فالإسلام هو الأكثر إدراكا ووعيا بالله ورسالته. لذا، فإن كل تطبيق مقبول وصالح للتطبيق، وإن أضيفت إليه بعض

التطويرات عبر الزمن".

بيد أننا غير ملزمين بقبول التعريف السابق للتطور الدينى، والذى طرحه بعض المسلمين، رغما عن أن التعريف والمفهوم ذاته قد تم تبنيه من قبل بعض علماء الدين، حتى ولو كانت المقارنة بتطبيقات الحاسوب جد مزعجة. وفى كتابها "تاريخ الرب"، أوردت كارين أرمسترونج – علامات فارقة فى مسيرة التطور الدائب للإدراك البشرى "للمقدس" عبر الزمن.

ووفقا لتشبيه مسار التطور الدينى بتطبيقات الحاسوب المتتابعة، يفتح المسلمون المجال لسؤال منطقى تتبعى يعد من قبيل الهرطقة إسلاميا : ألا يمكن، إذا، أن يأتى وحى جديد، أو بلغة الحاسوب Word 9.0؟ يذهب المسلمون إلى أن النبى محمداً قد جاء بالدين الخاتم والوحى الكامل، إذ إن محمدا هو خاتم النبيين، فلا نبى بعده. ويضع الاعتقاد السابق الإسلام فى موقف محير ومريب، إذ ينطوى على كون الإسلام يتسم بالتسامح حين النظر إلى ما قبله من أديان، فيما تنتفى تلك الصفة حين استشراف المستقبل وانتفاء إمكانية مجئ أى دين بعد الرسالة المحمدية يرتكن إلى وحى جديد. ويعد هذا التصور مصدرا للتوتر ما بين الإسلام من جهة، وأفكار المعتقدات القاديانية والسيخية والبهائية من جهة أخرى، والتى تجد بعض جذورها فى التربة الإسلامية، وإن عملت على "تحديث" الإسلام كما جاء بتعاليم أصحابها. لذا، فقد أدان رجال الدين الإسلامى تلك الأفكار بشدة، وتعرض أتباعها للاضطهاد فى غير بلد مسلم.

رؤية اليهودية والنصرانية للإسلام

وأخيراً، نأتى لنظرة اليهودية والنصرانية وآرائهما بشأن الإسلام الوافد الجديد عليهما ... تلك النظرة المتسمة بعدم التلطف أو الترفق. فعلى خلاف قبول الإسلام واعترافه بكم كبير من نصوص كل من العهدين القديم والجديد، فإن كلتا الملتين تنكران محمدا كنبى لله ورسوله. كذلك، فليس مستغربا عدم اعترافهما

بفكرة كون الرسالة المحمدية ناسخة لسابقتيها أو معدلة ومكملة لهما. ولقد تناولت الأدبيات المسيحية، عبر العصور، محمدا بوصفه "مهرطقا" إلى الحد الذى صور فيه فى الدرك الأسفل من النار فى "الجحيم "Inferno لدانتى. (وارتباطا بهذا، تنظر الكنيسة الكاثوليكية، تاريخيا، إلى البروتستانتية على أنها هرطقة ورجس من عمل الشيطان، وكذلك الأمر فى نظرة الأخيرة لها).

تأسيساً على كل ما سبق، فإن العلاقات فيما بين الملل الإبراهيمية الثلاث هى علاقات مركبة ولافتة للنظر : إذ تشترك ثلاثتها فى الكثير من المناحى، وتتعارض فى كثير آخر. بيد أن الإسلام قد مثل حلقة جديدة وقوية من حلقات امتداد النهج التوحيدى بالشرق الأوسط، ذلك أنه ولد من رحم اليهودية والنصرانية وتعايش معهما فى ذلك الإقليم. وفيما أرسى الإسلام، بحق، دعائم نظام سياسى جديد، فنحن لا نتحدث هنا عن دين لم نعهد تعاليمه من قبل، أو آلهة جديدة، أو رؤى أخلاقية مغايرة. فلو لم يكن ثمة إسلام، لكان العالم أقل ثراء حضارياً وثقافياً، بيد أن قاعدة التفكير الحضارى والثيولوجى بالإقليم لم تكن لتختلف كثيراً.

تنشأ الأديان، فى معظمها، من ملل وعقائد سبقتها على مسرح الحياة. فقد نشأت البوذية من رحم العقيدة والحضارة والفلسفة الهندوسية، والتى لم تنظر إلى لاحقتها على أنها تجديف أو هرطقة. كذلك، فقد ولدت السيخية من مزيج جمع بعضا من الهندوسية والإسلام، ونبعت البهائية كمزيج من تعاليم النصرانية والإسلام. وقد تستحيل "الهرطقة" فعلاً إبداعياً للتفكير الدينى ذى الطابع التطورى حيث تجاهد الأجيال الناشئة، جيلا تلو الآخر، لإعادة تأويل الإشارات والمفاهيم الخاصة بالأديان المتقدمة واستجلاء غوامضها، ويتم ذلك عادة تماشيا والمحيط الحضارى المعاصر.

ومن المفارقات المدهشة أن تكون التفصيلات الدقيقة والسمات الحضارية الخاصة لأى من تلك الملل هى تلك التى ينظر إليها أتباع كل ملة على أنها العامل

الأساسى والأكثر أهمية لهذه الملة أو تلك ... تلك التفصيلات التى يمكن أن تستنفر الأفعال العدائية بحق الآخرين. إذا، فعندما تؤدى التباينات الثيولوجية الطفيفة إلى تأجيج نيران الكراهية والعنف والتقاتل، فإن هذا لدليل دامغ على أن حقيقة الأمر تضمر بالفعل ما هو أبعد بكثير من مجرد خلافات ثيولوجية. ويشبه ما سبق انفجاراً خلافياً ينشأ بين زوجين بالمطبخ حول ما إذا كانت المكرونة قد تم إنضاجها على نحو مبالغ فيه : وهنا، فإن الغضب هو غضب حقيقى، بيد أن من يرقب ما حدث لحظيا ليدرك أن الأمر ينطوى على ما هو أبعد من الخلاف على كون المكرونة قد تم إنضاجها كما يجب أم لا.

لذا، ففيما يخص الشرق الأوسط ودياناته، فإن "الثيولوجيا" واعتباراتها ليست، فى واقع الأمر منشأ الصراع ومصدره، إذ هناك عوامل أخرى على المحك : الهويات، المجتمعات، الدول، اعتبارات السياسة وعوامل السلطة والنفوذ، القوميات الإقليمية. ويمثل الدين شعارا متداولا كونه عنصرا هاما من ركائز الهوية، حيث تكون "الثيولوجيا" عاملا ثانويا. وحقيقة الأمر، فنادرا ما نكون نصارى، أو مسلمين، أو يهودا بمحض اختيارنا، إذ نولد منتمين لإحدى تلك الملل التى نرتضى عمق محيطها وثراء جماعتها، فالأمر ليس مفاضلة ما بين جدالات وطروحات ثيولوجية بديلة تعرض علينا. إن "الجماعة اليهودية" كانت قوة حضارية ضاربة على مر السنين، لا بسبب دقائق الطقوس الخاصة بها، إذ يمكن أن تتعدد تلك الطقوس فى تنوعها، إذ تلك هى الحال بالفعل. إن "الهوية الحضارية" واللحمة الثيولوجية، أياً ما كانتا، هما ما يشدان أزر المجتمع إثنيا ودينيا. وينسحب ما سبق على النصرانية أيضا، إذ يدعم الدين إرساء أسس الجماعات وقواعدها، التى قد تنجرف نحو الخلاف بل وحتى التقاتل على امتلاك الموارد وإحلال النظام وإحراز السؤدد والاستئثار بالزعامة.

وخلال العهد الحديث خطا العالم خطوات بسيطة، وإن كانت جادة، على درب المصالحة والوفاق الدينى، بل وحتى على درب تقرير العناصر المشتركة فيما بين

الملل. فعلى سبيل المثال، فإن استخدامنا المطرد للفظة "اليهودى-المسيحى" يعد حديث العهد نسبيا، إذ لم تكتسب هذه اللفظة ذيوعاً إلا مع إرهاصات مولد القرن العشرين، وكان الهدف من نحتها توكيد مشتركات عقدية بذاتها لطالما تم تجاهلها إبان فترات التمييز ضد اليهود على امتداد معظم تاريخ النصرانية -حتى ولو كانت التباينات فيما بين النصرانية واليهودية هى الأعمق فيما بين الملل الثلاث- الإسلام واليهودية والنصرانية. ولقد شهدنا خلال العقدين المنصرمين، بل الثلاثة السابقة، نشهد مصطلح "الملل الإبراهيمية" وقد حاز قدرا من الذيوع والتداول ليدخل الإسلام ضمن دائرة المشترك فيما بينها. على أن الثيولوجيات لم تشهد تغيرات ذات بال على النقيض مما شهدته الرغبة البشرية فى تجاوز تلك التغيرات.

الدين/الدولة/السلطة/الهرطقة

يعد الدين قوة لا يستهان بها، إذ يتناول العديد من القضايا بالغة الأهمية مثل : معنى الحياة ومغزاها، الموت، الحرب، الجماعة، والسلوك الأخلاقى. كما يطبع الدين حالة الفرد النفسية وكذا سلوكه وتصرفاته وردود أفعاله. ونادرا ما يقتصر تأثير الدين فى الفرد فحسب، بل يتعداه ليشمل جماعة كاملة ممن يؤمن به ويضرب بسهم فى طقوسه التعبدية. كذلك، وفى الوقت ذاته، يساعد الدين فى تحديد جماعة ذوى التفكير المتقارب وتقوية شوكتها.

وتأسيساً على النفوذ بالغ الثقل للدين، هل لنا أن نعجب من أن مراكز الهيمنة وأساطين النفوذ يتعين عليها السعى نحو تطويع ما يمثله من قوة لخدمة أغراضها وتحقيق مآربها؟ يمثل هذا التساؤل محور اهتمام الكتاب : العلاقات والتشابكات فيما بين الدين والسلطة والدولة. وتسعى الدولة جاهدة إلى اعتماد الدين وتبنيه، وكذلك الهيمنة عليه بتسييسه وجعله "دين الدولة". وحالما تم ربطه وإلحاقه بالدولة، تمسى مبادؤه وعقائده موصولة بهيمنة الدولة ونفوذها. وقد يكون الدين، والحالة كتلك، هو اليهودية أو النصرانية أو الإسلام ... أيا ما كان. فعندها لا تكون

الخلافات العقدية شأنا ثيولوجيا فحسب، وإنما يكون لها خبايا ومضامين سياسية خطيرة. ويرمى كل من يخالف أيديولوجية الدولة أو دينها المسيس بالهرطقة، بل قد تضحى تلك المخالفة رديفا لخيانة الوطن.

إذا ... فما الهرطقة فى واقع الأمر؟ إن "الهرطقة" لتستدعى إلى الذاكرة مشاهد محاكم التفتيش، وأدوات التعذيب، والاعتراف بالذنب، وطلب المغفرة، والشهداء، والحرق صلبا وهى المشاهد التى ارتبطت بالهرطقة على امتداد الزمن. بيد أنها قد نظر إليها، فى غالب الأحوال، على أنها ظاهرة سيئة السمعة. وفى الحقيقة، فإنها موصولة بمنظومة ومسيرة إبداعية عبر تاريخ الأفكار وتطورها.

إن أصل كلمة "هرطقة" فى اليونانية ينطوى على معنى خال من أى ارتباط سلبى أو سوء نية لصيق بالكلمة. فالهرطقة تعنى "الاختيار" - أى القرار الواعى لاتباع مسار بعينه من مسارات الأفكار. أما فى النصرانية، فقد بدأت الكلمة تشير إلى الانحراف عن التعاليم الأرثوذكسية، حيث لا يقصد بالأرثوذكسية، بالقطع، أكثر من "العقيدة الصائبة". ولكن، من ذا الذى يمكنه تعيين ما هو "صائب" أو ما هو "حق"؟ ذلكم جوهر المشكلة : إذ تعتمد طبيعة "الهرطقة ومداها على من ينظر إليها. ويكون تحديد ما يندرج تحت "العقيدة الصائبة" امتيازا للسلطة وحكرا عليها.

وقد وجدت "الهرطقة" منذ البدايات الأولى لمعظم الملل والعقائد، حين اتهم كل من ناهض وانتقد الأعراف المجتمعية السائدة بشأن الآلهة وطبيعة الروح - واعتبر مسئولاً عن الكوارث التى حاقت بالمجتمع. وقد كان يتم نحر الضحايا على المذبح، وقذف العذارى فى البراكين الحارقة رغبة فى استرضاء الآلهة. إن المصاعب والأخطار التى واجهها أنبياء "العهد القديم" تسلط الضوء على ما أدت إليه معاصى اليهود وأخطاؤهم من معاناة لهم، وكيف سيوقع الرب جزاءات إضافية بجماعة اليهود لاستهزائهم بوصاياه. فقد ألقى النبى يونس بن متى فى البحر، وبشر المسيح بقرب نهاية هذا العالم الأثيم.

إن جماعة "العقيدة الصائبة" أو الأرثوذكسية تنحو إلى أن تكون مشكلة خلافية كبيرة للملل الإبراهيمية الثلاث، بأكثر مما قد تكون للهندوسية أو البوذية أو الطاوية أو الكونفوشيوسية. وقد يكون ذلك، فى جانب منه راجعا، إلى كون الملل الإبراهيمية قد أوحى برسالاتها من قبل الله، بما يعنى وجودها الأزلى منذ بدء الخليقة وكونها سابقة للحظة الوحى برسالاتها إلى الأنبياء الداعين إلى اتباعها. إذا، فلا توجد ثمة تنازلات أو مواءمات فيما يخص أمر المعتقد وشأن الملة.

ويحضرنى فى هذا السياق نقاش دارت وقائعه فى الهند منذ ما يربو على عقد مضى، حين كنت أقوم ببعض الأبحاث عما سأكتبه فى كتاب لى محوره "الإسلام فى مواجهة الغرب". ولقد أخبرنى العديد من العلماء والباحثين الهندوس بأن افتراضى معيب منذ البدء. فالمحك الحقيقى لا ينصرف إلى العلاقة ما بين الإسلام والغرب على الإطلاق، بل إلى ما بين الهندوسية، كمعتقد تعددى الآلهة، وما بين غيره من الأديان التوحيدية فى الغرب - اليهودية والنصرانية والإسلام تحديدا. فطبقا لوجهة النظر الهندوسية، تكون الملل التوحيدية فى التزامها بعبادة إله واحد أضيق أفقا وأقل تسامحا عما عداها من عقائد وملل.

ومن الأمور المألوفة لدينا فى هذا الصدد حسن استخدام الدين أو سوء توظيفه من قبل الدول وجماعات النفوذ فى الحرب والسياسة وغيرهما من الصراعات الناشئة لتحقيق مآرب بعينها، وذلك على امتداد التاريخ. على أنه يكون، بطبيعة الحال، من التبسيط والسذاجة بمكان اختزال ظاهرة "الدين" برمتها فيما لا يعدو كونه ذريعة أو ستارا للنفوذ والصراع، ومع ذلك، فإن استغلال الدين لمآرب دنيوية أو علمانية يكاد يكون عاملا ثابتا فى التاريخ السياسى والاجتماعى. لذا، تجد المؤسسات والهيئات الدينية نفسها تمضى أوقاتاً طويلة فى محاولاتها لحماية "العقيدة الصائبة". إذا، ووفق هذا المنطق، تجئ الأرثوذكسية كممثل للحق عند تعريف الأفكار التى تؤثر فى السلطة والنفوذ والتحكم فيها.

إذا، فدعونا لا ننحى باللائمة على الدين، إذ تسود الأرثوذكسية مناحى النشاط الإنسانى كافة، بما فيها التاريخ والفلسفة وحتى العلوم. وتوجد "الأرثوذكسية" أينما حلت الثقة الدوغماطيقية محل النزعة للتشكك (عدم الركون إلى صحة الأمور كلها) والميل إلى طرح الأسئلة والنقاش الجدلى، وحين تدعم السلطة من تلك الثقة وتساندها. وفى هذا الخصوص، يمكن أن نستدعى إلى ذاكرتنا كيف تم دعم الأرثوذكسية الشيوعية وتعضيدها بشدة فى الاتحاد السوفييتى الماركسى الملحد، عبر طيف ممتد من الحقول والمناشط الثقافية كالتاريخ والفنون والعلوم. وقد واجه المهرطقون الأيديولوجيون فى الكثير من مجالات النشاط قدرهم المحتوم، عادة، برصاصة أطلقت على مؤخرة رءوسهم فى زنازين سجون وكالة الاستخبارات الروسية. إذا، فقد تزاوجت الأرثوذكسية والأيديولوجية لتعزيز رفاه حكم الحزب الشيوعى والحفاظ عليه. كذلك، تتفاوت الأحزاب السياسية، وبخاصة تلك المؤدلجة، صعوداً وهبوطاً فى قدرتها على إيضاح المعتقدات التى تجتذب المريدين وتنظم صفوفهم. وتسعى الأحزاب لفرض الإجماع الأيديولوجى على أعضائها. إذ إنه، فى ظل غياب أى شكل من أشكال الإجماع، تتقوض أركان الحزب برمته. وتختلف صراعات الأحزاب السياسية للحفاظ على النقاء الأيديولوجى، على نحو طفيف – عند تحكم الدولة بالعقيدة الدينية عدا أن تلك التنظيمات الدينية تكون مرجعيتها "للقوة الكبرى"– الإله.

وتقع "الهرطقة" عند نقطة التقاء الإيمان والسلطة وتماسهما. فحين يتم مأسسة الأديان، فإنها تواجه مشكلة "امتلاك" المعتقد والتحكم به. فالإيمان لا يعنى شيئا ألبتة لو كان الكل حرا فى الإيمان بما يرتئيه ويرغب فيه، أو حرا فى إبداع ضرب من الإيمان يخلقه خصيصا لمقتضيات أحواله. ولقد كان الاهتداء إلى "الله" فى النصوص المقدسة الأساس المنطقى الذى انبنت عليه حركة الإصلاح البروتستانتى– وهو الحدث الذى أدى إلى تمزيق النصرانية ليحيلها شظايا مبعثرة من الجماعات الدينية الصغيرة. كذلك، فإن السلفية الأصولية أو "الفكر الوهابى"

تعد ثورية لدعوتها الفرد لتفسير "المقدس" وتأويله مباشرة، دون أى وسيط بين الفرد وبين ربه.

إذاً، فالسلطة هى الشرك النهائى والمفسد الأكبر، إذ كلما كان الدين ألصق بنفوذ الدولة وسلطتها، كان انحساره وخروجه من دائرة "الثقافة" و"الروح"، واقترابه من دائرة "السياسة" ونطاقها مع مضامين مباشرة لنفوذ الدولة وسلطتها. وعندها لا يمكن للدولة أن تكون حيادية تجاه "الثيولوجيا". وحين تكون معتقدات الدولة الرسمية مهددة، فإن سلطة الدولة ذاتها تكون مهددة كذلك – وهو الأمر الذى لا تتقبله الدولة أو ترتضيه.

ويبدو الأمر تبادلاً للأدوار والخدمات، إذ يكون المعتقد الثيولوجى فى خدمة مصالح الدولة التى توظف، بدورها، رجال دين يمنحون "بركاتهم" الثيولوجية لتأويلات الدولة لتبرير مصالحها التى تخدمها ... وهلم جرا. ويستمر الإسلام والنصرانية، بما لهما من ارتباط طويل بمختلف سلطات الدول ونفوذها على مدار الزمن، فى مواجهة ذلك التحدى إلى اليوم. بل إن الكنيسة والدولة فى المسيحية، فى حقيقة الأمر، كانتا أكثر ترابطا على امتداد معظم التاريخ المسيحى، بأكثر مما كانت عليه الحال فى الإسلام، حيث لم يمارس علماء الدين، فى الأعم، دورا فى سياسة الدولة– إلى أن حدث ذلك فى جمهورية إيران الإسلامية فى عالمنا المعاصر. وبالمقابل، فإن اليهودية والتى تفتقر إلى أدوات خاصة بسلطة الدولة، على امتداد أزمان طوال، أمكنها تجنب ذلك المسار، رغما عن أنها أصبحت موصولة بسياسات دولة إسرائيل ونفوذها، لذلك فلم تعد اليهودية، كذلك، مستثناه كما كانت فى السابق.

وفى المقابل، فحين يصبح الدين مستقلا عن الدولة، تفقد الأخيرة بالفعل نصيباً كبيراً من حماية الأرثوذكسية الدينية. بيد أن الأمر لن يكون سلسا للغاية حتى ولو كانت تلك هى الحال. إذ يمكن للمعتقدات الدينية الشخصية أن تمارس أثرا كبيرا فى الدولة إذا كان لبعض الآراء والمعتقدات أثر فى صورة الأفراد

الذهنيـة عن الدولة. وهكذا، فلبعض التنظيمات الإنجيلية فى الولايات المتحدة أثر مباشر فى رؤية الشعب لحكومته، كذلك يمكن للتنظيمات الأصولية الإسلامية، وفقا لوجهة نظرها تجاه الدولة، أن تكون مصدرا مباشرا لتهديد شرعية أعتى الأنظمة السلطوية العلمانية.

ولا يقصد من ذلك كله تبنى الانطباع بأن الدين لا يتعدى كونه واجهة غائمة لصراع السلطة. على أنه يمكن أن يكون كذلك. بيد أنه يجب ألا تحط القدرة على تطويع الدين لمآرب سياسية وتجارية من شأن القوة الروحية العظيمة للإيمان فى تشكيل الحياة الشخصية للفرد، وكذا فلسفته وسلوكه، وبالتالى سلوك المجتمع ككل.

إن التسامح ذاته يمكن أن يكون خادعا. فالهندوسية قد عمدت، على نحو كبير، إلى تجنب معظم المشاكل الخلافية الخاصة بالسلطة وبالعقيدة الصائبة - الأرثوذكسية. وبحق، فإن مفهومى "الأرثوذكسية" و"الهرطقة" لا وجود لهما، تقريبا، فى الهندوسية، إذ تستوعب جميع الأفكار الدينية فى بوتقتها، حيث تمثل كل فكرة إلهاما جزئيا، وشذرات من عناصر الحقيقة الشاسعة كمكونات من "حقيقة المقدس" ... تلك الحقيقة الهائلة العصية على الوصف أو التشبيه، وغير المدركة، بالكلية، على وجه الحقيقة. بيد أن أيا من عناصر "الهندوسية" المتسامحة متعددة الآلهة لا تستدعى الظن بأن الدولة الغالب عليها "العقيدة الهندوسية"، - أو أن أتباع "الهندوسية" ومريديها - ليس بإمكانها اتباع سياسة التمييز بجميع أشكاله، وكذا الاضطهاد والعنف الوحشى بوجه آخرين ينتمون إلى عقائد وملل أخرى. ولقد شهد العالم مؤخراً اللجوء إلى استخدام العنف من قبل قادة هندوس مسلحين من أنصار القومية الهندوسية - ضد المسلمين والسيخ والجماعات المسيحية.

ويرتبط ما سبق كثيرا بالاعتبارات السياسية والقومية، فيما يكون ارتباطه بالعقيدة الدينية فى ذاتها ضعيفا واهيا. فالهندوسية يمكن أن تتحول إلى قومية

دينية ضيقة وغير متسامحة إذا ارتبط الأمر بالصراع ضد الدخلاء أو غير المنتمين إليها، وهو الأمر بالغ الشبه بما تقوم به الأصولية الإسلامية حين تنشط "كقومية إسلامية" ضد "الغارات" الغربية. وحتى البوذية، رغما عن كونها، فلسفيا، دعوة سلام عالمية، إلا أنها حين ترتبط ببعض الصراعات الإثنية كتلك التى تخاض مع "السينهال" بسريلانكا ضد "التاميل" الهندوس، فسرعان ما تتخلى عن اعتباراتها الأخلاقية الداعية إلى السلام العالمى، حتى من قبل الرهبان البوذيين، حين يرتبط الأمر بالقتال على شرف الجماعة السينهالية البوذية. إذاً، تبدو "الثيولوجيا" غير ذات بال فى هذا السياق.

التسامح / الضم / الاستبعاد

يبدو أنه يمكننا تقسيم العالم، من وجهة النظر السيكولوجية، إلى معسكرين – أو بالأحرى عقليتين متمايزتين. فهناك من يسعى نحو ثقافة الاستبعاد، نحو إقامة سياج أو حدود بينه وبين الآخرين، من يرغب فى اعتبار معتقداته وما يؤمن به فريدا بمنأى عما يعتقده الآخرون أو يؤمنون به، من يرى صواب رأيه ووجهته وخطأ رأى الآخرين ووجهتهم. وعلى الجانب الآخر، هناك أولئك الذين يهدفون إلى البحث عن قواسم مشتركة ونقاط اتفاق تنتظم ما يؤمنون به هم والآخرون، من يسعون إلى استجلاء دوائر الاتفاق والتطابق ومساحات التقاطع مع الآخرين ورؤاهم. وينسحب هذا حتى ما بين المؤمنين بالملة ذاتها أو المعتقد نفسه، فكما ذهب رجل حكيم فى تصوير ما سبق : "لقد رسموا مربعا وتركونى بخارجه، فرسمت دائرة وضمنتهم بها".

ولكن، ما العامل السيكولوجى الذاتى الذى يدفع بعض معتنقى ديانة ما بعيدا للبحث عن أوجه الخلاف وترسيخ فكرة الاستبعاد وتكريسها، وذلك الذى يدفع آخرين نحو التلاحم وترسيخ مبدأ الاستقطاب؟ تبرز هذه الثنائية كثيرا فى المناقشات التى تجرى بالغرب حول قضية العلاقة مع الإسلام. فعندما أحاضر عن

أوجه الشبه ونقاط الاشتراك فيما بين الملل الإبراهيمية، أواجه فى بعض الأحايين باعتراضات وإنكار. وأذكر، على سبيل المثال، أن "الله" – عند المسلمين هو الإله ذاته مثل Dios عند الإسبان، و Dieu عند الفرنسيين، و Bog لدى الروس، و Tanri عند الأتراك. ويذهب نصارى العرب إلى الإشارة إلى إلههم بكلمة "الله". إذا، فتلك كلها كلمات متباينة للغات مختلفة تشير إلى المفهوم ذاته – الإله الواحد. بيد أن بعض المسيحيين الغربيين سيعترض قائلا : " "الله" ليس ربى، فربى قد جاء بعيسى كولده الأوحد ... عيسى هو شفيعى وخلاص البشرية، وهو ليس الرب فى "الإسلام" ". كذلك، سيعترض بعض اليهود بالقول بأن "الإله لدى النصارى ليس ربى لأنه وفقا لهم قد جاء بولد، وهو مفهوم تنكره اليهودية وتستهجنه. كذلك، فوفقا للعهد القديم، فإن عيسى لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون هو المسيح الذى يعتبره المسيحيون كذلك". ويذهب بعض محدودى الأفق من المسلمين إلى اعتبار اليهود والنصارى مشركين وغير مؤمنين، خلافا لصفتهم الواردة بالقرآن بأنهم "أهل الكتاب".

ولعل أولئك الذين يستشعرون خطرا يتهدد حضارتهم أو جماعتهم سينحون نحو إقامة حدود قاطعة وسيعتمدون نهجا استبعاديا فى محاولاتهم لحماية إرثهم الحضارى المهدد. وفى تلك الحالة، فإننا نتحدث بالفعل عن عناصر علم النفس الذاتى والاجتماعى ملامحه، وليس عن "الثيولوجيا" مطلقاً.

إذا، فقد رأينا كيف أن "الإسلام" يتوافق تماما وينسجم مع تطور الفكر الدينى بصفة عامة، بحيث يمكن اعتباره نقطة تتوسط القطبين اليهودى والمسيحى. فالإسلام لم يأت كصدمة دينية للإقليم، وإنما جاء ليتوافق مع المصالح الجيوبوليتيكية للقوى به كما فعلت المسيحية آنفا. لذا، فسيتناول سردنا، فى معظمه، تفاعل بلدان الإقليم مع تلك الملل، حيث تهيمن أهداف الدولة ونفوذها على أى دور استقلالى لهذه الملة أو تلك. وتمهد الحقيقة السابقة المناخ لطرح جدلى رئيسى تناوله الكتاب بالبحث، يذهب إلى أن تاريخ العلاقات فيما بين الشرق

الأوسط والغرب، يدور فى أغلبه، وبحق، حول الروابط الجيوبوليتيكية وترتيباتها فيما يخص الممالك والدول، ولا يكاد يرتبط بالشأن الدينى إلا قليلا، وذلك بغض الطرف عن الشعارات المرفوعة والحماسة الأيديولوجية المعتمدة شعبيا لنصرة هذه الدولة أو تلك. فإذا نحينا الإسلام جانبا عن تلك المعادلة، لألفينا حالة الشقاق واللدد ذاتها ما بين الغرب من جهة، والشرق الأوسط من جهة أخرى.



الفصل الثانى

السلطة - الهرطقة - وتطور المسيحية

كان القرن الرابع الميلادى حاسماً للمسيحية : فقد قامت خلاله الإمبراطورية الرومانية/البيزنطية باعتماد المسيحية كدين لها، وبذا أضحت العقيدة خاضعة للدولة على نحو مباشر. وسنشير هنا إلى تأثير السياسة المباشر فى الثيولوجيا. فقد أصبح الدين والهرطقة أهم السبل فى الصراعات السياسية داخل الإمبراطورية الرومانية/البيزنطية، فضلا عن كونهما الشعار وبؤرة التقاء شتى المدن والأقاليم والجماعات والبطاركة ذوى الطموح. كذلك، فقد أرسيت قواعد تأجيج الصراع الإقليمى فى الشرق الأوسط – حتى فى كنف المسيحية، إذ سيدخل الإقليم فى النهاية صراعا ثلاثى الأبعاد بين روما والقسطنطينية والإسلام. وسنقوم الآن بملاحظة كيف أثرت السلطة والهرطقة فى الاعتبارات الجيوبوليتيكية بالإقليم حتى قبل نشأة الإسلام، بما فيها العداء المتنامى بين الشرق والغرب، أى بين القسطنطينية وروما. وسرعان ما سيتبنى الإسلام ذلك الحذر والتشكك الجيوبوليتيكى إزاء الغرب.

ولقد نشأت قضية "الهرطقة" مباشرة بعد رفع المسيح، وذلك عندما دبت بذور الشقاق والانقسام بين أتباعه حول كيفية تفسير الأحداث المرتبطة بحياته ودعوته وانتقاله، وهو ما أدى إلى تمهيد الطريق لنشأة هرطقات لاحقة. وبمرور الوقت، أضحت الدولة والقوى السياسية المتصارعة مدفوعة بشدة لإرساء تعريف للثيولوجيا والهرطقة، وكيفية إدارتهما والتعامل بشأنهما لما لهما من تأثير مباشر فى سياسات هذه الدولة أو تلك. وكان من يقوم بالترويج لهذا المبدأ الثيولوجى أو ذاك يلقى الاهتمام ذاته الذى يلقاه المبدأ الذى يروج له.

ومنذ البداية، فقد تم الزج بالسياسة اعتبارا من قرار التخلص من المسيح. فلقد اعتبرت معظم القيادات والمرجعيات الدينية بأورشليم المسيح نبيا مزعوما ودعيا مهرطقا ونادت بقتله. وفى النهاية، رضخت الدولة –السلطات المحلية فى الإمبراطورية الرومانية– لمطالب زعماء الجماعة اليهودية الداعية إلى قتله. وبالنسبة

لروما، كان هذا قرارا سياسيا، لا قرارا ثيولوجيا. بل يمكن للمرء أن يذهب إلى أنه بالنسبة لقادة المجلس الأعلى اليهودى ذاته، فقد كان ذلك عملا سياسيا للتخلص من المسيح لما مثله من تهديد لسلطات اليهود ونفوذهم فى المجتمع.

ولقد كانت نواة نشأة الهرطقة وإرهاصاتها موجودة منذ البداية. فعلى أى نحو سيكون الرابط، إن وجد، بين اليهودية والدين الجديد؟ بطبيعة الحال، فإن جميع أتباع المسيح الأوائل، تقريبا، كانوا من اليهود الذين اعتبروا أنفسهم نصارى يهود. ولكن، إذا كانت المسيحية، حقا، فصيلا من اليهودية، أكان متوجبا على الوثنيين الراغبين فى اعتناق المسيحية قبول اليهودية قبيل الدخول فى الدين الجديد؟ يرى أغلب اللاهوتيين المسيحيين،اليوم، أن القديس بولس، وليس المسيح، هو من أسس المسيحية بحق كدين جديد مميز ومستقل بعض الشئ عن اليهودية. فبعد وفاة بولس، لم يعد لزاما على من يرغب فى اعتناق المسيحية أن يكون يهوديا. كذلك، فقد

كان بولس أول من دشن قاعدة ثيولوجية مفادها كون الدين والإيمان به المكون الأساسى للخلاص وليس التزام المرء طيلة حياته بمقتضيات الشريعة اليهودية. وقد أدى التوجه الجديد للكنيسة بقيادة بولس إلى أعظم الانشقاقات صدعا فى تاريخ اليهودية. وقد جاءت المسيحية، كدين جديد، لتزعم كونها دينا عالميا شاملا، متاحا للكافة ومشرعة أبوابه للجميع، حيث تنتفى التمايزات القائمة على الجذور الإثنية أو الدينية، فلن يكون هناك بعد اليوم "شعب مختار"، لأنه أضحى بمقدور أى من كان أن يصير "مختارا" باختيار المسيحية دينا له. وبذا، أصبح الإيمان، وليس "القانون" أو الشريعة، طريقا ومعبرا للخلاص المنشود.

لذا، فمنذ البواكير، انبثقت الكثير من الآراء المتباينة حول المسيح، إذ سعت الجماعة المسيحية الأولى لاستجلاء معالم حياته ومظاهر دعوته وتعاليمه. ولعل القضية الخلافية الأكثر إثارة للجدل ضمن القضايا الأولى هى التساؤل بشأن طبيعة وماهية المسيح عيسى بن مريم، تلك الخلافات الجدلية التى كان لها، حتما، أثر فى الإسلام.

* هل كان المسيح بشراً، أم إلهاً، أم كليهما؟

* هل حملت به العذراء ووضعته، بحق، من وجهة النظر البيولوجية، أم كان وجوده سابقا لميلاده؟ وطالما كان وجوده سرمديا، هل وجد على الدوام مواكبا لوجود "الرب"؟

* هل المسيح مساو للرب، أم هو "الرب"؟

* هل وجد "الرب" أولا، ثم قام بخلق المسيح؟ فإذا كان الأمر كذلك، ألا يجعل ذلك "المسيح" فى "مرتبة ثانية" بعد "الرب"؟

* هل الإله/"الرب" واحد، أم كيان ثنائى يضم المسيح و"الرب"؟ أم ثالوث يجمعهما والروح القدس؟

* إذا كان المسيح بشرا وإلها فى آن واحد، ما الطبيعة الأكثر أهمية: العنصر البشرى أم الكيان الإلهى؟ وهل يمكن، بحق، أن يتنزل إلى الأرض ليحيا كبشر ويموت مصلوبا؟

* ماذا حدث للمسيح بعد أن قضى وقام ثانية من بين الأموات؟ هل له وجود مستقل أم اتحد مع "الرب"؟ أم كان له على الدوام وجود مستقل؟

تلك الأسئلة وكثير أخر قد كدرت صفو الكنيسة ثم الإمبراطورية الرومانية لاحقا، وحرضت على موجات من العصيان، وأوجدت نحلاً جديدة، وأشعلت شرارة الصراع المدنى والعسكرى، وشرذمت السلطة الدنيوية. وظلت تلك الأسئلة بلا اتفاق أو إجماع بشأنها، كما أدت، وما تزال، إلى شق الصف واللحمة المسيحية.

ولم يكن للمسيحية، خلال ثلاثة القرون الأولى، أدنى وضع قانونى أو رسمى إذ كانت ما تزال "حركة" أو "تنظيماً" تم رفضه واضطهاد عناصره، على نحو متواتر، من قبل الدولة فى الإمبراطورية الرومانية. كذلك، فقد رفض المسيحيون المداهنة أو التزلف أو تقديم فروض الولاء فى حدها الأدنى للدين الرسمى (أو دين الدولة) فى روما - وهو ولاء ذو صبغة مرنة غير مقيدة تنطوى على انحناءة احترام وإجلال بسيطة للرموز القليلة النفوذ الإمبراطورى، حتى وإن شرع المرء حينها فى القيام بطقسه التعبدى. على أنه قد تم اعتبار رفض الإقرار بدين الدولة فى حدوده الدنيا مع قيام المرء بممارسة شعائر دينه - اعتراضاً ورفضاً للدولة ذاتها... ومظهرا من مظاهر الثورة والعصيان.

وفى تلك الآونة، كانت وجهات النظر المتعارضة بشأن طبيعة المسيح تحيا جنبا إلى جنب لفترات زمنية ممتدة إلى أن شرعت الكنيسة فى رفض الكثير من وجهات النظر المتعارضة فى محاولة منها لاستئصالها وخلق إجماع ما حول رؤية صائبة (أرثوذكسية) واحدة. ولقد عجل التبنى الرسمى النهائى للمسيحية من قبل القوة الإمبراطورية الرومانية فى القسطنطينية - تعضيد الإجماع حول العقيدة المسيحية،

وذلك من خلال قوى مستحدثة تم اعتمادها.

ومن وجهة نظر الدولة، فإن الثيولوجيا وما يرتبط بها تظل على قدر كبير من الأهمية من أن تترك فى أيدى علماء اللاهوت. فالقرارات ذات الطابع الثيولوجى يجب ألا يتم حصرها بأن تقتصر على نتائج الأعمال ومخرجات الأنشطة المبهمة لعلماء اللاهوت الجالسين بوقار ومهابة وإجلال فى مجامعهم، بل تمتد لتشمل كوكبة من مرجعيات متنافسة -المؤمنون، علماء اللاهوت على تباين مشاربهم، الساسة، وأخيراً، الإمبراطور- تتنافس جميعها لتحديد رسالة المسيحية الحقة بما يتماشى ومصالحها الذاتية. وتهدف تلك المرجعيات جميعها إلى تحقيق هدف واحد شديد الأهمية، ألا وهو التوكيد على هيمنة الكنيسة والدولة على الاعتبارات العقدية. إذ إن القيام بتحدى هيمنتها على تأويل تلك الاعتبارات هو تحد لقوة الكنيسة وسطوة الدولة ذاتهما. وفى غمار الحماسة المشبوبة للدين الجديد، تم تناول قضية طبيعة المسيح بالجدل والنقاش فى الأوساط العامة بين الجماعات اليهودية وغير اليهودية على امتداد العالم القديم - تحديداً فى الأناضول بتركيا، واليونان، ومصر. وقد تدوولت بعض الروايات عن الجدالات والنقاشات الشعبية التى جرت أحداثها داخل حوانيت الحلاقة والحانات فى القسطنطينية بشأن طبيعة المسيح وماهيته. ولقد كان اليهود الهيلينيستيون، والممثلون لقسم كبير من الجماعة اليهودية، فى بؤرة تلك الجدالات... بيد أن القضايا المرتبطة بطبيعة المسيح لن تنزوى أو تختفى، بل ستطفو إلى السطح مرارا وتكرارا فى هرطقات لاحقة، حتى فى ظل نشأة الإسلام ذاته.

وبتبنى الإمبراطورية الرومانية البيزنطية رسميا للمسيحية، شرعت الدولة فى إحكام قبضتها على جميع الاتجاهات التأويلية والمدارس الفكرية الموجودة بالإمبراطورية بغية إرساء قدر من الأرثوذكسية وتحديد "الآراء والعقائد الصائبة". كذلك، فقد تم التوفيق فيما بين المتحزبين ذوى الآراء المتباينة ووجهات النظر المختلفة، وإلا فقد تم مصادرة آرائهم أو قمع أفكارهم. لذلك، ليس مستغربا أن أثرت قوة بعض الرسميين ونفوذهم ذوى الآراء المخالفة، على نحو بالغ، فى

حسابات الدولة حين اتخاذها القرار. كذلك، فكيف للدولة القيام بتحديد سيل الأفكار والآراء الدينية العارم فى المحيط الشعبى منذ عهد المسيح، وكيف لها أن تنظمها وتصنفها وتوفق فيما بينها؟ كانت الخطوة الأولى على هذا الدرب السيل العارم للأفكار والآراء الدينية فى الدعوة إلى عقد عدة مجامع مسكونية لتحديد الصيغة الرسمية للعقيدة الدينية وإرسائها. فعندما دعا الإمبراطور الرومانى قسطنطين الأول (الكبير) إلى عقد مجمع نيقية فى عام ٣٢٥ لتشكيل التعاليم الأساسية للمسيحية وصياغتها فى قانون الإيمان المسيحى، ظن المجمع أنه أرسى الكلمة الفصل فيما يتعلق بقضية "الإيمان المسيحى" على مر العصور.

ولكن لم تكن تلك هى الحقيقة، فقد استوجب الأمر عقد مجامع أخرى، كما استلزم إحداث المزيد من التغييرات. وكان من أوائل مهام الكنيسة الرسمية تقرير النصوص التى يمكن اعتبارها، بحق، "كتابا مقدسا". فمن بين العديد من الكتابات عن المسيح وحوارييه والحركة المسيحية الأولى، أى منها سيتم تكريسه واعتباره مقدسا كجوهر العقيدة المسيحية ولبها؟ وأية نسخ من أية كتب سيتم اعتمادها، حيث ينتشر منها العديد؟ وقد كان لاعتماد كتاب ورفض آخر مستتبعات مباشرة تمخض عنها رابحون وخاسرون، فقد اعترف ببعض الكتب واعتبرت أصيلة، فيما رفض البعض الآخر باعتباره دخيلا. ولقد تباينت معايير الاعتراف بأصالة الكتب تباينا كبيرا، فبعض الكتب اعتبرت مدونة فى وقت لاحق للمسيح بمدى كبير بما يجعلها تفتقر إلى المرجعية والمصداقية لتناول حياته. كذلك، حظيت بعض الكتب بقبول واسع بين جماعات بذاتها، على حين انتفى ذلك عن البعض الآخر. وكانت بعض الروايات قد اعتبرت غير موثوق بصحتها إذ لا يستقيم الركون إلى مرجعيتها، فيما عُدّت أخرى بمنأى عن التعاليم القياسية للكنيسة إلى الحد الذى اعتبرت معه تجديفا وهرطقة صريحين. كذلك، فقد اعتبرت بعض الكتب مشتملة على قيمة تاريخية فيما يخص توثيق الحركة المسيحية الأولى، على أنه لم يعتد بها "ككتاب مقدس".

فما الكتاب المقدس، إذا؟ إنه الكتاب الحاوى لنصوص تم تبنيها من قبل مرجعيات معتمدة وموثوقة والاعتراف بكونها "أصيلة"، ومن ثم اعتمادها، واعتبارها "مقدسة" لاحقا. وتتحدد أصالة "المقدس" من خلال تحكيم تقوم به أطراف معنية. ونتيجة لذلك، رفضت الكثير من النصوص المسيحية الهامة من قبل المرجعيات المعنية وفقا لمعايير التحكيم. بيد أن تلك النصوص الأصيلة، ولو أنه قد رفض اعتمادها، إلا أنها تحوى وثائق ونصوصاً على درجة عالية من الأهمية لفهم المسيحية وإدراكها ... أعمال عظيمة كأنجيل متى، و"مخطوطات البحر الميت" و"ملفق أعمال الرسل" وأعمال أُخَرْ.

ولم تكن النصوص وحدها الطرف الخاسر، بل وجدت أيضا أبنية من الأفكار والمعتقدات منيت بالخسارة، حيث تم استبعاد جماعات بأسرها كانت تؤمن بهذه الأفكار والمعتقدات، وفقا لما حكمت به سلطات الكنيسة ومرجعياتها بموجب مرسوم الدولة فى هذا الشأن، فالأفكار القديمة والمتبناه لا تقاوم بعناد لا يلين. ويبقى السؤال : فيما يخص المجامع المسكونية التى تم عقدها، من ذا الذى ستتم توجيه الدعوة إليه؟ ومن ذا الذى سيتم الاستماع إليه؟ وكيف ستجرى عملية اتخاذ القرار؟ لقد كان زعماء الكنيسة والجماعات المختلفة الذين لم يتم اعتبار آرائهم مطالبين بالتبرؤ من وجهات نظرهم، وإلا عدوا هراطقة مجدفين.

لقد أضحت قوة الدولة وسطوتها تطرد فيما يخص مسيرة تأصيل الدين ونشره وتطبيقه. ورغما عن اتسام التحول إلى اعتناق المسيحية عن طريق التبشير باليسر والسلاسة، إلا أنه غالبا ما كان يتم دعمها عن طريق سيطرة الدولة على المعابد والمؤسسات ودور العبادة الوثنية القديمة فى حقبة ما قبل المسيحية، وحظر الممارسات والطقوس التى كانت تقام بها. وفى السنوات اللاحقة، لم تكن مسيرة التحول فى بعض الحالات سلسة على الإطلاق. فإذا أخذنا مثالا يوضح ذلك كغزو "الساكسون" وتحويلهم إلى اعتناق المسيحية على يد "شارلمان" خلال حرب الثلاثين عاما التى اشتعلت بدءا من عام ٧٣٢، والمتسمة بأقصى درجات الوحشية والعنف،

لوجدنا أن التحول إلى اعتناق المسيحية كان، بالأساس، تسويغا أيديولوجيا لتمديد رقعة إمبراطوريته الفرنجية الكارولنجية. وقد حكم على أولئك "الساكسون" الذين استمروا فى ممارسة طقوسهم التعبدية لآلهتهم التقليدية بعقوبة الإعدام. ولقد كانت تلك الحملات العسكرية من العنف بما جعل الأساقفة الفرنجة يخافون من العواقب طويلة الأجل لذلك التحول الدموى عن الملة بحد السيف.

لقد أدى دعم الدولة وتأييدها، بشقية القسرى والطوعى (الإقناعى) إلى تيسير النهج التبشيرى، فاستحسان الظهور بمظهر الولاء للعقيدة الرسمية للدولة جعل التحول إلى النصرانية أمرا حصيفا وسهلا. ولقد التجأت الدولة لاستخدام طرائق شتى للحط من قدر الوثنية واستئصال شأفتها. إذ عمدت، فى كثير من الأحيان، إلى جعل آلهة الوثنيين كما لو كانت شياطين يعبدها المرء وإن أدت إلى إلحاق الضرر به. وفى أحيان أخرى، ذهبت الكنيسة إلى صيغة توافقية مع الممارسات الوثنية بقبولها لبعض من آلهة الوثنيين واعتبارهم "قديسين" من فورهم، بما يضمن أن يكون وجودهم فى البيئة المسيحية الجديدة مستساغا، وإن تكن قد خبت أهميتها. كذلك، كان غالباً ما يتم إعادة تنظيم دور العبادة المقدسة للوثنيين وتحويلها إلى دور للقديسين الذين سلفت الإشارة إليهم. وكانت هذه الممارسات عادة ما تتم فى نطاق القبائل الهمجية فى أوروبا، وفى الآونة الحديثة فى قيام الكنيسة الرومانية بالتبشير حيث تحول بعض السكان المحليين فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى اعتناق المسيحية. ولقد صادف الإسلام المشكلة ذاتها تقريبا أثناء انتشاره فى أربعة أركان المعمورة، فى مواجهته للعقائد والملل السابقة و"القديسين"، والتى تم الحفاظ عليها، كحد أدنى، فى مظهر إسلامى، بواسطة المتحولين الجدد إلى اعتناق الإسلام.

ولقد مثل الافتتان بمريم العذراء توسعا آخر لنطاق "المقدس" والذى امتد ليشمل رموزا متزايدة فى "الهيكل الكنسى". ولقد بدأ الافتتان الرسمى بمريم العذراء بعد نحو أربعة قرون من رفع المسيح، رغما عن المعارضة الشديدة

لتجسيدها. ولم يبدأ تبجيل العذراء وتوقيرها كرمز فى الكنيسة الشرقية إلا بحلول القرن السادس الميلادى، وبعد ذلك بزمن فى الكنيسة الغربية. (وقد ذهبت كارين آرمسترونج إلى أن تبنى تجسيد مريم العذراء فى "الهيكل الكنسى" كان استعاضة -ولدت فى اللاوعى- عن تحريم تجسيد الإلهات فى كثير من الديانات الشرقية الأولى، وكذا بموجب المظهر التوحيدى الأبوى بالغ الصرامة والمميز لليهودية، وفى ظل المسيحية البروتستانتية لاحقا). أما كتاب ميرلين ستوون When God Was a Woman، فيشير إلى تحول المجتمعات التى اعتمدت النظام الأمومى، فى الغالب، والتى عبدت الإلهات، إلى النظام الأبوى الذى عمد إلى اعتبار المرأة مصدرا للإغواء والرذيلة، ذلك المنحى الذى تبنته الملل الإبراهيمية الثلاث.

وقد كانت القسطنطينية، وليس روما، المسئولة عن غالبية تلك القرارات الثيولوجية والعقدية. ورغما عن كونها عاصمة الإمبراطورية الرومانية، إلا أنه فى الوقت الذى أقرت فيه شرعية المسيحية، كانت روما تعانى أوقاتا عصيبة، بوصفها موضعا ملتهبا يضطرب تحت وطأة الغزوات الهمجية وتواترها واستيطانها لها. وتزامنا مع ذلك، فقد تم اختيار القسطنطينية، كمدينة استحدثت، عاصمة بديلة للإمبراطورية الرومانية لما لها من هيمنة وسطوة ... تلك العاصمة التى أضحت مقرا دائما لكرسى الإمبراطور الرومانى. وقد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بيزنطة، هى التى اتخذت قرار تبنى المسيحية كدين رسمى لها. كذلك، فقد اضطلعت هذه الإمبراطورية مترامية الأطراف بجميع مقتضيات الدولة كإمبراطورية لألف عام أخرى، فى ظل تضاؤل الأهمية الجيوبوليتيكية لروما كقوة إمبراطورية. ولقد كانت القسطنطينية هى من اضطلع بمعظم المهام الأولى لتحديد الأرثوذكسية، وتعيين مجمل الكتب المعترف بها، والبت فى تلك التى تعد تجديفا وهرطقة. كما كانت بيزنطة هى من نشر المسيحية على امتداد معظم بلدان الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط شمالا حتى دول البلقان، وفى معظم الأراضى السلافية.

وخلال سنى أوجها، غزت الإمبراطورية الأراضى المكونة لمعظم شمال إفريقيا، ومصر، وسوريا، ومعظم أراضى ما يعرف الآن بالعراق وآسيا الصغرى (الأناضول). وكانت الزرادشتية، في أرض فارس، هى المنافس الأوحد للمسيحية فى ذلك الإقليم، وذلك حتى نشأة الإسلام فيما بعد.

فسيفساءات هرطقية

انبثقت كوكبة مدهشة من الأفكار المسيحية تباعا فى شرقى المتوسط، والتى نعت معظمها، لاحقا، بكونه هرطقات تجديفية. وتكمن أهمية تلك الهرطقات فى إخبارها لنا إخبارا مستفيضا عن الديناميات المؤثرة فى سياسات القوى داخل الإمبراطورية البيزنطية. كذلك، فهى تفصح بقوة عن العقلية الدينية وثقافتها آنذاك - إلى حد تمهيدها الطريق لكثير من الآراء العقدية فى الإسلام. ويرشدنا إدراك ديناميات الهرطقة، مرة تلو الأخرى، كيف أن الدين كان يمثل قاطرة، وليس سببا، للخلافات والانقسامات والمواجهات البينية على اهتمامات ومنافسات تنزع إلى أن تكون دنيوية الطابع، لا أن تكون دينية النزعة. أفليست الطريقة المثلى، إذا، لاستنهاض طموح المرء ودفعه للأمام أن يُخلَع عليه إهاب دينى ومسحة إلهية؟!

لقد كانت إحدى أكثر الهرطقات تبكيرا فى النشأة وأطولها امتدادا عبر الزمن - المرقيونية. فوفقا لجورج روبرت ميد، الباحث فى الشئون المسيحية، كان مرقيون (١١٠-١٦٠) أحد مالكى السفن الموسرين فى سنوب، على ساحل البحر الأسود - ضمن الأراضى التركية الآن. وقد اقتفى مرقيون خطى أبيه فى أن يصبح أسقفا لسنوب. كذلك، فقد كان يخصص، على الدوام، جانبا كبيرا من أمواله الخاصة للكنيسة، وقام بزيارة روما كشخصية شهيرة للترويج لرؤيته، وذلك حوالى عام ١٤٠ - قبل أن تخلع الإمبراطورية الشرعية على الكنيسة بما يقارب ١٦٠ عاما. وحتى فى تلك الآونة، كانت الكنيسة تتخذ موقفا عدائيا من رسالة مرقيون، وقامت بتشليحه وحرمانه من شركة الكنيسة فى عام ١٤٤، كما عمدت إلى رد جميع

الأموال التى سبق له وأن تبرع لها بها.

وكان خطأ مرقيون من وجهة نظر الكنيسة أنه أضحى أكثر "بولسية" من القديس بولس ذاته. فقد ذهب بولس، بالطبع، إلى أن المسيح قد بشر برؤية دينية جديدة تماما ومختلفة عن اليهودية ... بينما أعلن مرقيون، بصفته أسقفا مكرسا بالكنيسة فى القرن الثانى الميلادى، وكزعيم شهير فى آسيا الصغرى، أن العهد القديم برمته يتعارض مع العقيدة المسيحية. كذلك، فقد قام بعرض بيانات محكمة ودقيقة عن خصائص "إله" اليهود وسماته كما وردت فى العهد القديم وموازاتها بخصائص "الرب" وسماته الذى بشر به المسيح. وقد خلص مرقيون إلى أن سمات "إله" اليهود من حسد وغضب وعنف وانتقام تتعارض تماما مع "إله" الحب والمغفرة والتسامح الذى بشر به المسيح، وبذا، فإن "إله" اليهود ليس هو الإله "الحق" ... ليس هو الرب وفقا للمسيحية، ولكن "معبود" أقل شأنا من "الرب" الذى بشر به المسيح ... ذلك الرب الذى فاقت قدرته، وعظمته قدرة "إله" اليهود ومعبودهم. بل بلغ الأمر بمرقيون أن أنكر معظم الحواريين كونهم، من وجهة نظره، شهوداً لا يعتد بهم ولا يركن إليهم، مشيرا إلى أن القديس بولس هو الوحيد الذى فهم رسالة المسيح وأدرك كنهها. وخلص مرقيون إلى أنه من غير المجدى ولا الضرورى محاولة التوفيق ما بين اليهودية والمسيحية.

ورغما عن اعتبار مرقيون مهرطقا، إلا أن جماعته كانت على قدر من القوة. وقد قام مرقيون بتأسيس العديد من الكنائس التى نافست روما لقرون، وذلك فى إيطاليا، ومصر، وفلسطين، وجزيرة العرب، وسوريا، وآسيا الصغرى، وبلاد فارس. كذلك، فقد عُدّت الكنيسة المرقيونية الثانية من حيث النفوذ والسلطان والأهمية ضمن الجماعات المسيحية الأولى، فلم تسبقها سوى الكنيسة الرسمية ذاتها.

وقد ظلت عناصر رسالة مرقيون ودعوته باقية إلى الآن، فى هيئة جماعات ومنظمات تقوم على نشر أفكاره ورؤاه والترويج لها. ويكمن العمر الممتد كسمة

أساسية ومميزة للفكر المرقيوني في المأزق الثيولوجي الهام الذي طرحه : كيف يمكن التوفيق بين العصبية القبلية اليهودية ضيقة الأفق، وكذا العنف الذي يصبغ العهد القديم، فضلا عن "الرب" ذى السمات الغاضبة والاستبدادية والمتقلبة – وبين "الرب" في العهد الجديد، فضلا عن رسالة المسيح وتعاليمه المنطوية على الحب والتسامح؟

لذا، يبقى السؤال : هل ثمة استمرارية وتواصل فيما بين اليهودية والمسيحية، أم أن الأمر ينطوى على انقسام عميق بعيد الشقة بينهما؟ فإذا كانت الاستمرارية والتواصل، فالمسيحية، إذا، هي هرطقة جلية من وجهة النظر اليهودية، أما إذا كانت الهوة عميقة بينهما، فلا يمكن، إذا، النظر إلى المسيحية على أنها "هرطقة يهودية"، وإنما على أنها كيان مستقل للإيمان حيث تكون الصلة بين العهد القديم وبين تعاليم المسيح موضعا للسؤال. ولا تنى تلك الأسئلة تكرر نفسها. كذلك، فهي تمثل نسخة مبكرة من جدال ما زال قائما إلى الآن يذهب إلى رفض وإنكار مفهوم وجود "إله واحد" للملل الإبراهيمية الثلاث، مشيرا إلى تباين الآلهة. بيد أن المرقيونية، وعلى أية حال، قد برزت كتحد سافر وكبير بوجه سلطة الدولة المسيحية ونفوذها في بيزنطة.

بعد أن خلعت الإمبراطورية صفة الشرعية على المسيحية في عام ٣١٣، كانت الهرطقة الكبرى والممتدة أثرا، والتي تلت المرقيونية في الظهور ... هي الأريوسية، التي تأتي طبيعة المسيح وماهيته في القلب منها. ولقد كان "أريوس" (٢٥٠–٣٣٦) لاهوتيا مرموقا ولد في ليبيا ونال تعليمه في أنطاكية (تركيا اليوم) حيث تشبع بالكثير من الأفكار التي ستلازمه لاحقا، ثم انتقل للعيش والتدريس في الإسكندرية بمصر ... وهي أحد أهم وأكبر المراكز والبطريركيات المنافسة في العهود المسيحية الأولى. وقد بشر أريوس بأن المسيح قد تم خلقه من قبل "الرب"، كما حدث بالنسبة للروح القدس، وأنهما معا خاضعان للرب، الذي هو "الرب الحق"، والخالق الأوحد. وبذا، فإن للمسيح نشأة وبداية، بينما لا ينطبق ذلك على "الرب"، فالرب ذاتي

الوجود، فيما لا يكون "الابن" كذلك، والذى لا يمكن أن يكون ربا بذاته. لذا، يصبح المسيح كيانا أقل درجة.

وقد أضعف هذا الإيمان والمعتقد بشدة من الموقف الأرثوذكسى والذاهب إلى أن مفهوم الأب والابن والروح القدس، ثلاثتهم كأرباب، كان موجودا على الدوام، وسيظل كذلك بوصفهم أكفاء وأندادا. على أن المعتقد الآريوسى قد تم شجبه باعتباره هرطقة وفقا للإيمان المسيحى الذى خلص إليه مجمع "نيقية" فى عام ٣٢٥ . بيد أن الحركة الآريوسية كان لها نفوذ وقوة حتى أنها نالت تعاطف خليفة الإمبراطور قسطنطين الكبير. كذلك، فقد أضحت الآريوسية متجذرة بين القبائل الجرمانية فى أوروبا، وكذا فى الشرق الأوسط، وبخاصة الإسكندرية، حيث كانت الفرصة مهيأة لقبول مثل هذا التفكير بشأن المسيح ككيان يأتى لاحقا للرب، وليس كفؤا له. وقد أضحت العقيدة الآريوسية محركا دفع بالإسكندرية للتطلع إلى اكتساب القوة وامتلاك النفوذ. وتكشف استمرارية الرؤية الآريوسية عن عدم الارتياح إلى مفهوم "الثالوث" المركب واعتبار المسيح على قدم المساواة مع الرب. وبعبارة موجزة، كان هناك تعاطف دائم مع عناصر التوحيد الخالص التى لا ترضى بديلا عن "الإله الواحد"، وهو جوهر العقيدة اليهودية، وكذا جوهر الإسلام الآتى لاحقا، كذلك فهذا ما تؤمن به "الكنيسة التوحيدية" فى عصرنا الحالى.

ورغماً عن الإعلان رسميا بأنها هرطقات ملعونة، إلا أن بعضا من تلك الهرطقات قد نجح بالفعل فى التحرر وإرساء دعائم ثابتة لكياناتها. وفى حقيقة الأمر، فإن الجدل الدائر حول ماهية المسيح وطبيعته الحق ظل جدلا دائرا لم يحظ، ولن يحظى بأى إجماع مسيحى بشأنه.

وفيما أنكرت "الآريوسية" أن يكون المسيح على قدم المساواة مع "الرب" ككفؤ له، فإن عقيدة "الطبيعة الواحدة" قد ذهبت إلى الاتجاه المقابل مؤمنة بامتلاك المسيح لبعض السمات البشرية على أن ماهيته وطبيعته هى "قدسية ربانية" بالأساس، وهو

ما يخالف تعاليم الكنيسة بأن المسيح ذو طبيعتين كاملتين، إحداهما بشرية والأخرى ربانية. وقد أعلن مجمع "خلقيدونية" الرابع فى عام ٤٥١ أن تعاليم عقيدة "الطبيعة الواحدة" تعد هرطقة وتجديفا، وهو حدث ذو شأن ونقطة فارقة أدت إلى أول تمزق جدى ودائم فى نسيج الكنيسة - وكذا الاستقلال والانفصال النهائى لما يطلق عليها اليوم الكنائس الأرثوذكسية الشرقية أو كنائس "الطبيعة الواحدة"، وقد تم احتضان وجهات نظر أصحاب "الطبيعة الواحدة" بقوة فى سوريا، والمشرق، ومصر ... وهى المراكز التى قاومت سطوة القسطنطينية ونفوذها، كذلك فقد تم احتضان وجهات النظر تلك فى كل من أرمينيا والحبشة.

وقد أدت التنويعات بشأن طبيعة المسيح وماهيته إلى خلق هرطقات أخرى كالإيبيونية، تلك الطائفة اليهودية/المسيحية، والتى انبثقت فى القرن الأول الميلادى، وأبرزت الانتشار واسع المدى لليهودية. وتذهب الإيبيونية إلى اعتبار المسيح نبيا لا إلها بالتعارض مع رؤية القديس بولس (وبالتوازى التام مع رؤية الإسلام للمسيح).

أما الأوطاخية، فقد ذهبت إلى أنه فيما امتلك المسيح بعض العناصر ذات الطبيعة البشرية، إلا أن السيادة كانت للعناصر الربانية. ولذا، فإن معظم الخلافات والجدل الدائر بشأن ذلك الأمر يرتبط بالعذراء مريم : هل كانت مريم أم المسيح كرب؟ أم أنها كانت أما له فى هيئته البشرية فحسب؟

وقد أدت الارتباطات والمصالح الجيوبوليتيكية إلى إذكاء النار فى الخلافات الثيولوجية بشأن طبيعة المسيح وماهيته. وقد ارتبطت الأوطاخية بشدة بسعى الإسكندرية فى عام ٤٣٣ للتوكيد على مركزها كثانى أكثر المدن المسيحية أهمية بعد القسطنطينية، وهو مركز سعت إليه بشدة غريمتها أنطاكية، والتى روجت لرؤية أكثر أرثوذكسية بشأن طبيعة المسيح.

أما الدوسطية، فقد ذهبت إلى القول بأن جسد المسيح ما هو إلا وهم من المنظور المادى، وأنه بدا ولو أنه قد مات، بيد أنه كان، فى الحقيقة، روحا محض لا

يصيبها البلى ولا يدركها الموت. ويرتبط هذا الاعتقاد بالمفهوم القائل بأن كل ما هو "مادى" فى هذا الكون يعد شرا، لذا فالرب وولده لا يمكن أن تكون لهما "طبيعة مادية". أما الإسلام، والمؤمن بكون المسيح ذا طبيعة بشرية مادية لا ربانية - فيشترك مع هذا التوجه بأن المسيح لم يمت على الصليب، وإنما شبه للناس ذلك، وأنه قد رفع إلى السماء بإرادة الله.

أما "البيلاجيوسية"، فقد جاء بها "بيلاجيوس"، وهو راهب مغمور من الجزر البريطانية. وقد أنكر "بيلاجيوس" تعاليم الكنيسة بشأن "الخطيئة الأولى" - وهو اعتقاد بأن البشرية متلبسة بالخطيئة نتيجة "للخطيئة الأولى" التى اقترفها كل من آدم وحواء. ولعل إشكالية إنكار مفهوم "الخطيئة الأولى" تكمن فى نفى الحاجة إلى الخلاص المدرك فقط بواسطة الإيمان كما تذهب إليه الكنيسة. وفى عام ٤١٦، أعلن أن "البيلاجيوسية" هى هرطقة صريحة. وفى هذا السياق، فإن الإسلام، أيضا، ينكر مشروعية مفهوم "الخطيئة الأولى"، ويرفض مقولة "الطبيعة البشرية المتلبسة بالخطأ".

أما مذهب "وحدة المشيئة الإلهية"، فقد تم الالتجاء إليه، وإن لم يحالفه التوفيق، لإرساء صيغة توفيقية بين الكنائس المتنافسة فى كل من الإسكندرية والقسطنطينية حول ما إذا كانت أفعال المسيح تمثل روحا ربانية واحدة، أم جماعا لكل من الإرادتين البشرية والربانية. ورغما عن كونها قد بدت غامضة ومبهمة، إلا أن تلك العقيدة كان لها أساس سياسى محض فى محاولتها لرأب الصدع بالكنيسة الشرقية، والذى أحدثته هرطقة أصحاب "الطبيعة الواحدة". وفى النهاية، تم رفض هذه الصيغة التوفيقية، بما يعنى أن السياسة قد بزت الثيولوجيا وكان لها الغلبة.

إن التفاصيل المرتبطة بتلك الهرطقات تبدو مذهلة لما تكشف عنه من نطاق واسع المدى من التأويلات المعقدة والمفصلة لطبيعة المسيح وماهيته. ولقد انبثقت تلك الهرطقات جميعها قبل نشأة الإسلام، والذى يتعين، بدوره، أن ينظر إليه كجزء من

سياق الجدل بشأن التعليل اللاهوتى لطبيعة المسيح وماهيته.

كذلك، فلا يعد أى نقاش أو تناول لتلك الهرطقات مكتملا دون إيراد بعض الإلماحات والإشارات الحديثة إلى تلك الأمور الخلافية. فقد يكون للقوة والنفوذ امتياز وحق تعيين ما يعد "هرطقة" وما لا يعد كذلك، بيد أن الهرطقة لا تعنى، بالضرورة وعلى الدوام، أمرا مستجدا على مسرح الأحداث. إن الجهد الرائع الذى اضطلع به اللاهوتى الألمانى، فالتر باور، فى نهايات القرن التاسع عشر لتحليل تطور العقيدة المسيحية فى بداياتها، ليصل إلى استنتاج مفاده أن ما نذهب إلى اعتباره "هرطقة" فى وقتنا الحاضر لا يعدو، فى حقيقة الأمر إلا أن يكون الإدراك المسيحى المبكر لطبيعة المسيح وماهيته. وقد جادل باور بأن الكنيسة ذاتها هى التى قدمت تأويلات جديدة للاهوت فى القرون الأخيرة، وأسست "أرثوذكسيات مستحدثة"، وقامت فى بعض الأحيان بتغييرات فى المعتقد المسيحى الأصيل، بل وحتى فى النصوص المقدسة ذاتها. وكانت تلك التأويلات قد نشأت استجابة للمقتضيات المؤسساتية والسياسية المستجدة للكنيسة للإفصاح عن كون التفهم المبكر ضربا من التجديف والهرطقة. وقد طرحت هذه الأفكار ووجهات النظر، فى الفترة الأخيرة، عن طريق الباحث الفذ بارت أرمان، رئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة "نورث كارولاينا" فى تشابل هيل، وذلك فى كتابه "مسيحيات مفقودة".

وبحق، فما زلنا نجد مرونة كبيرة فى التأويلات الثيولوجية لبعض الأفرع الصغيرة من الملل الإبراهيمية. فعلى سبيل المثال، فإن عقيدة "الوحى المستمر" لكلمة الله هى ما يميز منحى كل من "الكويكرز"، وكنيسة "يسوع المسيح لقديسى الأيام الأخيرة" (المارمون)، و"الخمسينية" و"المسيحية الكاريزمية"، بالإضافة إلى البهائية. فوفقا لهذه العقائد، فإن الوحى المرسل من لدن الله لم ينقطع أبدا، بل هو متاح للأجيال المتعاقبة لتلقى كلمة الله على المستوى الفردى أو الجماعى. وتحظى تلك الأفكار برواج وقبول على مر الأيام، فالبهائية، ضمن عقائد أخرى، تعتنق مبدأ "الوحى المتواتر"، بما فيه من تعاقب الأنبياء المرسلين من لدن الله على مر الزمن

لنشر كلمته. ويكون هذا "الوحى المتواتر" بحيث يتناسب مع البشرية فى تطورها واتسام فهمها للرب بالعمق والنضج المتواصلين. لذا، تستلزم الأزمنة التاريخية المختلفة وحيا متمايزا عما سبقه فى مسيرة الإنسانية وسعيها الحثيث نحو مزيد من الانضباط فى إدراكها للمقدس.

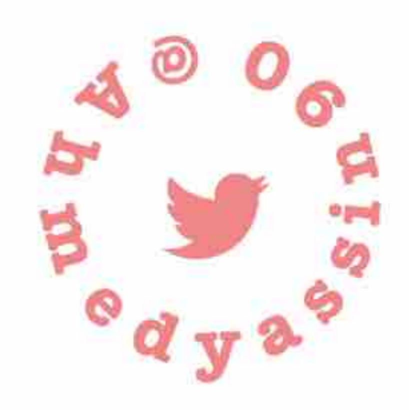
ويندرج الإسلام ضمن الكثير من تلك الأنماط والاقترابات. فانهيار الدولة الأموية – أول إمبراطوريات الخلافة – عام ٧٥٠ كان منشؤه ومرده إلى عاملين أساسيين، ضمن عوامل أخرى : فقد كان مركز نفوذ تلك الدولة وقاعدته فى "دمشق"، وقد ووجهت الدولة بالمعارضة من قبل "العباسيين"، الذين مثلوا مصالح بغداد والحضارة العراقية/الفارسية. كذلك، فقد مثل العباسيون مطالب فئات جديدة من غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام وكانوا مستبعدين من التمتع بحقوق متساوية وبقوى متعادلة فى ظل الدولة الأموية. لذا، فإن هذه الخلافات ترتكن فى صعودها وانهيارها إلى اعتبارات سياسية وإقليمية، لا على اعتبارات دينية أو عقدية.

وإلى يومنا هذا، نشهد على الدوام استمرارا للدور الذى تمارسه السياسة وارتباطه بالدين. ففى معرض تعليقه على الانتخابات الإيرانية ومدى نزاهتها من عدمه، ذهب سيد على أمين، مفتى الشيعة فى "صور" بجنوب لبنان فى حزيران/يونيو من عام ٢٠٠٩، فى خلافه مع زعيم جماعة "حزب الله" – إلى القول بأن تلك الحركة الشيعية اللبنانية تحاول أن تنهى المناقشات الدائرة حول "ولاية الفقيه" المعمول بها فى إيران، لأن القيام بمعارضة تلك الأيديولوجيا أو تحديها سيضعف من شوكة "حزب الله" ونفوذه فى لبنان. وأردف قائلا : "هذا هو الدليل الدامغ والبرهان الساطع على أن مفهوم "ولاية الفقيه" ليس جزءا من المعتقد الدينى، وإنما أيديولوجيا سياسية فى لعبة صراعات القوى".

إن الجدل المحتدم والخلاف المستعر حول القضايا ذات الطابع الدينى هو بالأساس جدل حول المصالح السياسية لهذه الدولة أو تلك. فحين نشأ الإسلام، لم

يكن البعد الدينى أو الثيولوجى هو ما يهم فى إقليم النشأة، وإنما كان انتقال مقاليد النفوذ والسيطرة الإقليمية إلى غريم جديد من مؤسسات الدولة. إذا، فهى السياسة فى الشرق الأوسط. فالصراعات بين الدول ومراكز النفوذ والخلافات الأيديولوجية والهرطقات المتباينة، يمكن أن تستمر فى التفاعل والحراك لقرون عديدة قادمة.

بيد أن بيت القصيد فى طرحنا الحالى هو التوتر المحتدم والمتسارع بين الإمبراطورية البيزنطية المسيحية من جهة، وبين الكنيسة الغربية من جهة أخرى. فكما سنرى فى الفصل التالى ... فإن الإسلام، كقوة جيوبوليتيكية جديدة، لم يرث فقط كثيرا من مشاعر العداء ومناهضة الغرب داخل أراضى الإمبراطورية الشرقية فى ثوراتها ضد القسطنطينية، بل بعضا من الآراء المناهضة لروما التى نمت بمرور الزمن داخل الإمبراطورية البيزنطية ذاتها. وفيما تستقى بيزنطة هويتها وكينونتها من الاعتقاد بتخليدها للتراث والتقاليد الأصيلة للإمبراطورية الرومانية، إلا أنها قد نظرت، وعلى نحو متزايد، إلى الكنيسة الغربية باعتبارها غريماً وخصماً جيوبوليتيكياً ذا نفوذ يتهدد النفوذ والهوية البيزنطية كما يتهددها الإسلام ذاته. لذا، ففى "عالم بلا إسلام" كان يمكن للشرق الأوسط بيسر وسهولة تصعيد وتأثر العداء فى صراعه مع الغرب.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث

بيزنطة وروما
قطبا المسيحية المتعاديان

لو لم يظهر الإسلام ألبتة على مسرح التاريخ، فإن الدين الذى كان سيهيمن، بلا شك، على منطقة الشرق الأوسط هو المسيحية الشرقية الأرثوذكسية، فلم يكن ثمة دين منافس له جدير بالثقة سوى الإسلام. كذلك، كان الغالب أن تنظر الكنيسة الأرثوذكسية، والتى كانت لتحرز الغلبة والسيطرة حال غياب الإسلام، بارتياب وتشكك عميقين تجاه الغرب إلى يومنا هذا. ولو كانت الأرثوذكسية الشرقية قد احتفظت بهيمنتها على امتداد البحر المتوسط وإقليم الشرق الأوسط، لكان الأرجح أن تكون اليوم حاملة لواء الغضب الشرقى المتراكم على امتداد قرون عديدة من المعاناة والصراعات مع الغرب. وسنشهد فى فصول الكتاب القادمة هذا المنحى وهو يتصاعد مقدما الدليل على أن الشرق الأوسط كان ليخاف الغرب ويتشكك فيه حتى لو لم يكن ثمة إسلام.

وقد دفعت تلك التباينات ما بين الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة) والإمبراطورية الغربية الرومانية ... تباينات دينية وحضارية وثقافية وجيوبوليتيكية وتاريخية وفنية وسيكولوجية ... - بعض الباحثين من أمثال صموئيل هانتنجتون إلى أن يذهب إلى أن الأرثوذكسية الشرقية كواحدة من حضارات العالم المختلفة كانت ستصطدم بالغرب، وجد الإسلام أم لم يوجد. وفى الحقيقة، فإن العداء ما زال قائما، حتى وإن باتت الكنيسة الشرقية غير مسيطرة فى الشرق الأوسط.

ووفقا لموروثنا الغربى، فنحن نتعامى عن وجود الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية التى غالبا ما تغيب عن أذهاننا ودائرة اهتمامنا كغربيين. إذ نشهد قليلا من تلك الكنائس فى المحيط الذى ينتظمنا، وغالبا ما يجانبنا الصواب فى تقدير الأهمية الكبيرة التى تمتعت بها الكنيسة الشرقية، وما زالت، على امتداد تاريخ المسيحية والشرق الأوسط. فبداية، تعد تلك الكنيسة ممثلة لأقدم ديانة مسيحية وأكثرها

ارتباطاً بسكان إقليم الشرق الأوسط المحليين، بالمقارنة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والتى نمت بمعزل عنها فيما يخص الطقوس الممارسة، والطابع الثيولوجى، والسياسات الحاكمة، وحتى المظهر الخارجى والتكوين، وكذلك بكون الكنيسة الكاثوليكية بعيدة عن أورشليم مقارنة بالكنيسة الشرقية. وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الأرثوذكسية ما زالت قائمة فى إقليم الشرق الأوسط ممثلة فى جماعات من الأقليات الأرثوذكسية. وتتيه الكنيسة الشرقية وتفخر كونها أشبه ما تكون، شكلا وروحا، بالكنيسة الأولى، وبكونها قد نشأت على الأراضى ذاتها التى نشأت عليها، وكذلك فهى تحمل اعتقادا راسخا بأنها قد تحاشت الفساد العقائدى والمؤسساتى الذى شهدته يصبغ الكنيسة اللاتينية الغربية.

إن الكنيسة الأرثوذكسية ما زال بداخلها جذور ضاربة أطنابها من مشاعر العداء للغرب. والشئ الذى يسترعى الانتباه هو أن الكثير من تلك المشاعر لدى

الأرثوذكس الشرقيين تشبه، على نحو كبير، مشاعر بعض المسلمين حيال الغرب، وهو ما يشير إلى رؤى وشكوك ومعاناة مشتركة إزاء نوايا الغرب وتدخلاته وهيمنته. ولقد أشرنا آنفا إلى ما تتقاسمه بعض المذاهب المسيحية مع الإسلام : كيف تتشابه العديد من تلك المذاهب، والتى اعتبرتها السلطات الكنسية لاحقا هرطقات تجديفية، فيما يخص طبيعة المسيح مع المنظور الإسلامى لتلك الطبيعة. إن المعاناة المشتركة للكنيسة الشرقية والإسلام من النفوذ الغربى وسطوته تشير إلى أن خطوط الاحتكاك الحضارية ليس منشأها التباينات الثقافية فيما بين تلك الملل فحسب، وإنما تجد أصولها فى طبيعة الغرب ذاته في مواجهاته التصادمية مع الشرق الأوسط لآماد طوال خلت، إذ غالبا ما تعمل الطبيعة السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتباينة على جعل الاختلافات الثيولوجية الطفيفة تستحيل ثورات وهرطقـــات جسام. (ويصدق ما سبق على الانقسام السنى/الشيعى داخل حدود الدين الإسلامى ذاته، إذ لا تعدو الخلافات الأولية بشأن الأحقية فى خلافة النبى محمد أن يكون لها أى ملمح دينى أو عقائدى، ولكنها نمت بمرور الوقت لتصبح عداءات طائفية عميقة الغور).

وهنا يلح سؤال دائرى محير : هل الاختلافات الثيولوجية هى ما يشعل فتيل الصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويؤجج نيرانها، أم بالمقابل، يكون للتباينات السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة والملموسة مردود على الأمور الدينية والمناحى الأيديولوجية؟ إنه بمجرد انبثاق صدع ثيولوجى طفيف فسرعان ما ترسخ آثاره فى الشئون المجتمعية الخاصة بالكينونة والهوية، بل وفى الوجود المجتمعى ذاته. وبعبارة أخرى، قد يختلف الناس، على نحو منطقى مقبول، بشأن مسائل ثيولوجية بسيطة ترتبط بطبيعة المسيح، ولكن ما الذى يدفعهم نحو التناحر والتقاتل بشأنها؟ من الجلى أن هناك عوامل أخرى هامة لها دور فى هذا الصدد.

إننا بحاجة إلى أن نعود إلى الوراء ... إلى زمن الإسكندر الأكبر لنشهد المشهد الافتتاحى لتاريخ يربو على الألفى عام من الصراع الجيوبوليتيكى بين

الشرق والغرب. فقد دشن الإسكندر أول هجوم عسكرى شامل للقوى الغربية باتجاه آسيا، وذلك فى عام ٣٣٤ قبل ميلاد المسيح، حيث عبرت قواته اليونان لتصل إلى الأناضول المسيطر عليها من قبل فارس آنذاك، لتغزو الإمبراطورية الأخمينية ذات القوة والنفوذ فى أرض الفرس. وقد مثلت تلك الأراضى جزءا فقط من إمبراطورية الإسكندر الأكبر، والتى امتدت لتشمل سوريا، ومصر، وأجزاء من العراق، لتصل إلى حدود شبه القارة الهندية. ومن وجهة النظر "الآسيوية"، فقد كان هذا غزوا حضاريا وثقافيا أجنبيا ترك تراثاً ضخماً من التفاعل المتبادل الثرى حضاريا والعدائى سياسيا. ولقد كانت فارس بالفعل فى صراع حربى تراوح بين كر وفر مع اليونان امتد لعدة قرون. فمن الوجهة الآسيوية، كانت اليونان هى الغرب، فضلا عن كونها الغريم والعدو.

وقد حافظت الدولة "السلوقية" -والتى خلفت إمبراطورية الإسكندر- على القوة العسكرية اليونانية، وكذا التخوم المرابطة عند حدود عالم يتقاسمه اللسانان السامى والفارسى حيث بدأ النفوذ اليونانى، آنذاك، فى الانحسار. ولقد مثلت سوريا والأناضول خطى المواجهة الأمامية الرئيسيين عند التقاء تلك الحضارات المتنوعة التى تقاتلت فيما بينها على امتداد مئات السنين. وفى النهاية، فقد خلفت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية الإسكندر الهيلينيستية. وبحلول القرن الرابع الميلادى، كانت قد امتدت إلى القسطنطينية، بل إلى أبعد من ذلك ... القسطنطينية، ذلك الإقليم الذى كان يعرف سابقا بالجناح الشرقى للإمبراطورية الرومانية. لذا، ففى الوقت الذى شهد تأسيس الإمبراطورية الرومانية الشرقية، كان هناك بالفعل تراث ضخم امتد لنحو ستة قرون من المواجهات والحروب فيما بين الشرق والغرب ... بين القوة الرومانية/اليونانية، والإمبراطوريتين الفارسية أو السامية.

بيد أن الصراع فى الإقليم لم يكن مقصورا على الصراع اليونانى ضد الحضارة الفارسية أو السامية. فالخصومة والعداء ما بين روما والقسطنطينية ذاتهما، داخل الإمبراطورية الرومانية، يعود تاريخها إلى القرن الثانى الميلادى،

على أقل تقدير، حين نشأ التنافس والتشاحن فيما بين البطريركات المسيحية الخمس الأولى : روما، والقسطنطينية، والإسكندرية، وأورشليم، وأنطاكية. فواحدة تلو الأخرى، خضعت الإسكندرية وأورشليم وأنطاكية للحكم الإسلامى فى القرن السابع الميلادى - مع احتفاظها بمراكزها الدينية، ولكن مع فقدان نفوذها العلمانى المحلى. وقد خلص الصراع إلى أن يكون ثنائيا ما بين روما والقسطنطينية. وبمرور الزمن، وبما أن التباينات فيما يخص الدين وما يرتبط به من طقوس وشعائر قد ازدادت اتساعا وفرقة فيما بينهما - فقد ظلت روما مصرة على تفوقها، فيما استشعرت القسطنطينية أنها كفؤ لروما وند لها. وكان تأسيس روما البابوية لتحل محل البطريركية فى روما جهدا إضافيا لفرض امتيازاتها على البطريركات الأدنى شأنا فى المراكز المسيحية الكبرى فى الشرق. وللآن، فإن قضية التفوق تلك ما زالت قائمة.

إن الاختلاف فى موازين القوى قد انعكس أيضا فى تنامى التباينات الحضارية. فحين الحديث عن القسطنطينية، فنحن نتحدث، بالأساس، عن إقليم تغلب عليه سمات الحضارة اليونانية. وقد كانت القسطنطينية فى القلب من العالم المتحدث باللسان اليونانى، فأدى هذا التباين الحضارى إلى المساعدة فى إشعال فتيل الصراع والمواجهة بين المسيحية اليونانية والمسيحية اللاتينية - أى الشرق أوسطية والغربية. وحقيقة الأمر، فإن الجذور والأصول اليونانية للقسطنطينية تضرب بعيدا فى أغوار التاريخ، فقد عرف ميناؤها فى السابق من قبل اليونانيين باسم "بيزنطيون" فى القرن السادس قبل ميلاد المسيح ... وبعد ما يقرب من تسعة قرون، وتحديدا فى عام ٣٣٠ ميلادية، أعيد إنشاء المدينة بواسطة الإمبراطور الرومانى قسطنطين، فأطلق عليها اسمه. وقد رأى قسطنطين المدينة عاصمة ثانية أكثر أمانا للإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف فى وقت كانت روما تضطرب خلاله تحت وطأة موجات الحصار الهمجى المتعاقبة. وبذا، فقد انبثق جناحان مستقلان للإمبراطورية الرومانية، أحدهما إلى الشرق، والآخر إلى الغرب.

وفى تلك الآونة، فإن مجرد وجود "إمبراطورية رومانية غربية" ذات معنى قد أضحى أقرب إلى "الخرافة"، وذلك على نحو متزايد، إذ واصلت الحروب والأباطرة المتشاحنون، وكذا الهجمات الهمجية المستمرة - تمزيق روما. وبالسقوط النهائى للإمبراطور الرومانى فى روما نتيجة الغزوات الجرمانية فى عام ٤٧٦ م، تحطم الجناح الغربى للإمبراطورية الرومانية نهائيا. وبذا، فقد ورث الجناح الشرقى فى القسطنطينية الإمبراطورية الرومانية بكامل هيئتها، بما لها من أراض شاسعة فى البلقان والأناضول وشرقى المتوسط وشمال إفريقيا.

لقد نجم عن بزوغ القسطنطينية كمقر جديد للحكم فى الإمبراطورية الرومانية تبعات حضارية جسام. فعلى خلاف الهيمنة المطلقة للسان اللاتينى السائد على امتداد الإمبراطورية الغربية، فإن اليونانية كانت اللسان المشترك واللغة السائدة فى بلدان شرقى المتوسط قاطبة، وهو ما صبغ الإقليم بمدنه المختلفة بطابع حضارى يونانى. وكانت إحدى الأوراق الرابحة للقسطنطينية كون الإنجيل قد كتب باليونانية، وليس اللاتينية، إذ لن تقوى اللاتينية على الصمود كلغة إدارية رسمية للإمبراطورية الشرقية إلا لقرون قلائل لاحقة. وفى القسطنطينية، كانت الطبقة المتعلمة، بلا شك، تتيه فخرا لإلمامها باللغة والثقافة اللاتينية، وكذا لاضطلاعها المستمر بمقاليد الحضارة الرومانية ولوائها. بيد أن اللغات ذاتها كانت قد شرعت فى تحديد ثقافاتها وحضاراتها واسعة المدى : ما تبقى من الإمبراطورية "اللاتينية" غربا، والإمبراطورية "اليونانية" ذات النفوذ شرقا. وفى القرون اللاحقة، اصطبغ مصطلحا "لاتينى" و"يونانى" بمعان إضافية تحمل فى طياتها معانى ازدرائية مشتركة : فإذا ما أطلقت لفظة "لاتينى" فى القسطنطينية، أو لفظة "يونانى" فى روما، فيقصد بها الازدراء والاحتقار للمنعوت بأيهما. وفضلا عن ذلك، فلن يمكن لإمبراطور بعد ذلك أن يجمع بين حكم روما والقسطنطينية فى آن واحد. ولقد تضاءلت روما حتى صار حجمها لا يذكر مقارنة بحجم عاصمة الإمبراطورية الشرقية، القسطنطينية. كذلك، فقد ترك البابا هناك ليعيش عزلة كان فيها لا يعدو إلا أن يكون رمزا فحسب... أو

سجيناً، بالفعل، للقوى المحيطة به لمئات من السنوات التالية.

وفى ظل غياب تام للإمبراطورية الغربية، ما، إذا، طبيعة تلك العاصمة "الرومانية" فى القسطنطينية؟ بمرور الزمن، نما لدى القسطنطينية شعور باضطلاعها بمهمة جليلة -- العمل على الحفاظ على الإمبراطورية الرومانية فى الشرق وديمومة بقائها، فقد أضحت القسطنطينية، وقتها، آخر معاقل الحضارة والروحانية المسيحية فى وجه الغزاة الهمج الجدد، سواء فى الغرب ضد القوطيين والفرنكيين والسيلتيين والعانيين والهون، أو فى الشرق ضد السلاف الوثنيين والفرس الزرادشتيين، ولاحقا مسلمى العرب والأتراك. إذا، فقد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تبلور هويتها الحضارية بالتمايز المتزايد آنذاك عن روما والغرب كمراكز للقوى والنفوذ.

حرب الأسماء

للأسماء دلالات سيكولوجية بما تدل عليه من كينونة حاملها وهويته. فمن الممكن أن تثار نقاشات جدلية بين اليونانيين عما يجب أن يطلق على القسطنطينية والكنيسة الشرقية من أسماء. ويوضح الصراع والخلاف الدائر حول اسم "الإمبراطورية الشرقية"، بجلاء، التوتر القائم فيما بين الشرق والغرب.

فالقسطنطينية، دونما أدنى تردد، تواصل الإشارة إلى نفسها بأنها عاصمة الإمبراطورية الرومانية، رغما عن جذورها فى عالم يتحدث اليونانية. إذا، فما الحد الفاصل الذى يمكننا أن نرصده لانتقال القسطنطينية من الإمبراطورية الشرقية الرومانية إلى الإمبراطورية "اليونانية"، أو البيزنطية كحقيقة قائمة؟ وواقع الأمر، فإن هذا التحول أو الانتقال الرسمى لم يحدث قط. (فالحقيقة، أن لفظة "بيزنطة" أو "البيزنطية" قد نشأت فى القرن السادس عشر فقط، حين نعت أحد المؤرخين الألمان الإمبراطورية الشرقية "بالبيزنطية". وقد اعتبرت القسطنطينية نفسها، بلا تردد، "الإمبراطورية الرومانية" حتى نهاية عهدها، ولم تتردد فى تبنى هذا الاسم حتى فى

اللغة اليونانية.

ولقد انتشرت لفظة "الرومانية" بما لها من قوة كنعت للإمبراطورية الشرقية إلى أبعد من الناطقين باليونانية، فانتقلت لتتداول على ألسنة المسلمين الذين سادت حضارتهم إقليم الشرق الأوسط. فمن الملاحظ أن الإمبراطورية المسيحية الشرقية، وفقا للغات السائدة فى ذلك الإقليم - العربية، والتركية، والفارسية - كانت تنعت بدولة "الروم" (روما)، الأمر الذى ظل قائما إلى اليوم. كذلك، فإن لفظة "الروم" ما زالت تطلق على كل ما يرتبط بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، أو بالأناضول (آسيا الصغرى). والقرآن ذاته به سورة تسمى "الروم" تتناول مسيحيى بيزنطة. أما الدولة التركية السلجوقية الأولى، ومقرها الأناضول، والتى خاضت حروبا ممتدة ضد القسطنطينية فى الصراع على أراض بالأناضول فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين - فقد انتحلت لنفسها لقب "سلطنة الروم". كذلك، فقد كان يطلق على البحر المتوسط باللغة العربية، آنذاك، "بحر الروم". (ولعشاق جلال الدين الرومي، الشاعر الصوفى الشهير، نود فقط أن نشير إلى أن الاسم "الرومى" هو صيغة النعت لمن يحيا فى بلاد الروم، التى تشغل ما كان، ذات يوم، أرضا للإمبراطورية الشرقية فى الأناضول).

إلا أن الغرب لم يكن ليتخلى عن "اللقب". فبالرغم من استخدامه الشائع والذى فشا فى إقليم الشرق الأوسط للإشارة إلى الإمبراطورية الشرقية، لم يكن الغرب يريد نقل مقاليد الأمر ولوائه من الإمبراطورية الرومانية إلى القسطنطينية، حتى وإن كان جليا كون الإمبراطورية الشرقية ما زالت مزدهرة فى الشرق، بعد سقوط الإمبراطورية الغربية فى قبضة الهمج لآماد طوال. ولقد كان الغرب مصرا على الإشارة إلى الإمبراطورية الشرقية فقط بأنها "الإمبراطورية اليونانية" أو "إمبراطورية اليونان" Imperium Graecorum، فى إشارة واضحة إلى رفضه تبنى أية لفظة موحية بإمبراطورية رومانية من قريب أو بعيد، إذ كان يرغب فى الاستئثار بلفظة "الإمبراطورية الرومانية" لإطلاقها على الحكام والملوك الغربيين.

ويمكننا التعرف إلى الكيفية التى عاد بها الصراع على "ماهية الرومانية" أو على من تطلق اللفظة – إلى الظهور ثانية، وبقوة. ففى عام ٨٠٠، وفى ذكرى مولد المسيح، قام البابا ليو الثالث، خلال القداس الجليل بكنيسة بطرس بروما، بتتويج شارلمان – الحاكم والقائد الجرمانى الهمجى، كإمبراطور الروم أو الرومان Im-perator Romanorum. وباستحضار ذلك اللقب بما له من دلالات، كانت الرغبة فى إعادة اللقب إلى ملكية الغرب، بانتزاعه من اليونانيين فى القسطنطينية الذين اغتصبوه فى حروب الأسماء تلك.

وعلى أية حال، فقد قرر شارلمان، والذى كان أكثر الحكام قوة ونفوذا فى الغرب آنذاك، عدم محاولة انتزاع لقب "الإمبراطور الرومانى" أو "إمبراطور روما" لنفسه، ولكنه سعى لإتمام زواجه بالإمبراطورة "إيرينى" فى القسطنطينية كسبيل إلى استعادة اللقب وتوحيد كلتا الإمبراطوريتين وإخضاعهما لنفوذه وهيمنته، بيد أنه قد أخفق فى تحقيق ما كان يصبو إليه. ولم يمض زمن طويل حتى قررت عصبة من القبائل الجرمانية تبنى لقب "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" ... ذلك اللقب الرنان الطنان، وإنكار حق استخدامه من قبل القسطنطينية والإمبراطورية الشرقية. وقد أدت إضافة لفظة "المقدسة" إلى ذلك اللقب المنتحل إلى تأجيج الصراع، إذ أشارت اللفظة إلى زعم تلك العصبة الجرمانية بحقها فى احتكار القوة "الروحانية" للإمبراطورية لنفسها، بالرغم من أن تلك العصبة لم تكن حتى تسيطر على مدينة روما أو تملك زمام الأمور بها. (ومن ثم ورد هذا السؤال العبقرى لطلبة المدارس ببريطانيا فى مادة "التاريخ الأوروبى" للتعبير والكتابة : «الإمبراطورية الرومانية المقدسة ... لم تكن إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة. ناقش !!»).

إن حروب الأسماء تلك قد حملت عبء الصراع الجيوبوليتيكى المستعر باستمرار على السلطة والشرعية، وحتى على "الروحانيات". فالبابا، شبه المعزول بروما، قد تشبث باللقب وتمسك بالاعتقاد بكونه "رأسا للمسيحية"، بالرغم من كونه واحدا فقط ضمن خمسة أساقفة للكنيسة فى القرن الرابع الميلادى. وبمرور القرن

تلو الآخر، تتجذر الهوة التى تفصل ما بين الشرق والغرب، وتتعمق الشقة. ففى القسطنطينية، أدى الشعور والانتماء لما هو يونانى إلى خلق نوع من "الهوية القومية" المرتكنة إلى اللغة والثقافة وتفاعلاتهما، خاصة على الصعيد الجماهيرى (الشعبى).

لقد تحولت المشاعر وتجمدت لتستحيل أهواء وأغراضا. فبمرور الزمن، ذهب الغرب، والمسيطر عليه من قبل الهمج، إلى اعتبار القسطنطينية لا تعدو إلا أن تكون موضعا أو بؤرة لموروثات شرقية فاسدة وعقيمة قدر لها أن تنهض للدفاع عن ذاتها ضد تعديات "المسلمين الفاسقين" وتجاوزاتهم فى "الأراضى المقدسة". ولقد اعتمد هذا النهج الاستبعادى بالرغم من إنجازات القسطنطينية السياسية والعسكرية والثقافية المذهلة على مدار أكثر من ألف عام، حيث امتد ليشمل بلدان شمال إفريقيا، وشرقى المتوسط، ودول البلقان، والهلال الخصيب. بيد أن سلطان القسطنطينية ونفوذها لم يكن ليستمر للأبد. فبحلول عام ١٤٥٣، سقط آخر ما تبقى من "الإمبراطورية اليونانية"، وبلا رجعة، في قبضة المسلمين الأتراك. بيد أنه، وخلافا للإمبراطورية الرومانية التى لم يستقر لها المقام طويلا، والتى تماسكت بالكاد إلى القرن الخامس الميلادى، فإن الإمبراطورية الرومانية الشرقية طال بها المقام لمدة ألف عام أخرى، لتقرع أبواب القرن الخامس عشر. وبالرغم من سقوط الإمبراطورية وانهيارها، إلا أن الكنيسة الشرقية كانت أبعد ما تكون عن الفناء أو الاندثار، حتى فى تلك الآونة. وتعد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، اليوم، ثانى أكبر تجمع للطائفة المسيحية بعد الكنيسة الكاثوليكية.

نشأة الكنائس القومية

فى معرض سردنا لإنجازات الإمبراطورية البيزنطية، لن يكتمل المشهد إذا ما أغفلنا الحديث عن تأثيرها الحضارى الضخم فى كل المناطق المحلية، والتى سيتم إنشاء كنائس أرثوذكسية بها، على نحو مستدام.

ولعل أهم تراث قد ميز الإمبراطورية الشرقية، وهو ما سنعرض له ضمن طيات هذا الكتاب، كان قيامها بإنشاء كنائس فى كل من أوروبا الشرقية وإقليم الشرق الأوسط ... كنائس استمرت حتى يومنا هذا موصولة حضاريا وعاطفيا بجماعات إثنية ولغوية بذاتها. فما زالت عواقب تأسيس تلك الكنائس القومية تتملكنا حتى اليوم، كما فى التاريخ الدموى الذى أعقب انهيار الاتحاد اليوغوسلافى خلال تسعينيات القرن العشرين، وما صاحبه من تحريض الصرب كأرثوذكس شرقيين ضد الكروات كروم كاثوليك.

وبعيداً عن حروب الأسماء وصراع الثيولوجيا، فإن يونانيى الشرق قد أمضوا قرونا فى صراعهم الرئيسى مع روما بشأن الهيمنة الإقليمية، وخاصة فى إقليم البلقان وأجزاء من الشرق الأوسط. فبمقتضى أحد القرارات الحضارية الخطيرة فى التاريخ، بعثت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بإرساليات تبشيرية صوب الجهات كلها لتنصير العالم الوثنى، وإرساء كنائس محلية جديدة تعتمد لغة البلد المقامة به - البلغارية، الصربية، الروسية، المقدونية، القبطية، الألبانية، الأرمينية، الرومانية،...، وهكذا، على امتداد أراضى الإمبراطورية البيزنطية، بل فيما وراء ذلك من أراض. وقد كانت تلك الكنائس الشرقية "القومية" أو "الإثنية"، بما تنطوى عليه من استخدام للغات المحلية فى الطقوس التعبدية - على النقيض تماما من الموروث "فوق القومى" و"الشمولى" الكاثوليكية المرتكن أساسا إلى اللغة اللاتينية باعتمادها فى كل ما يتعلق بالكتاب المقدس والشعائر الكنسية. كذلك، فسيكون لكل كنيسة من تلك الكنائس الأرثوذكسية القومية علاقة مستقبلية ما بالإسلام فى ظل تعايش متقلب ومتوتر. وعلى الجانب الآخر، فإن الكنيسة الغربية لم تعايش أو تخبر علاقة قوية بالإسلام، عدا فى إسبانيا.

لم يكن لدى الكنيسة الأرثوذكسية أية نية لتضمين العنصر الإثنى كركيزة من ركائزها، وإنما تم ذلك عفو الخاطر دونما أى تخطيط. ولقد تولد الرابط ما بين الدين والإثنية عندما أرسلت البعثات التبشيرية البيزنطية إلى الشعوب الوثنية،

خاصة فى العالم السلافى، لتعليمها عن طريق الوعظ وترجمة الإنجيل إلى لغاتها المحلية. وقد بدأ تحول السلافيين إلى المسيحية فى القرن التاسع الميلادى بواسطة البعثة التبشيرية لسيريل وميثوديوس إلى دول البلقان، حيث قاما بوضع أول نظام لحروف الهجاء باللغات السلافية.

لقد كان لهذا العمل التبشيرى مغزى ودلالات عميقة أكثر من مجرد قضية "الدين" : ففى الصراع المحموم ما بين الكنيسة الشرقية من جهة، وروما من جهة أخرى، كانت استراتيجية الكنيسة الشرقية الهامة تحويل الوثنيين، على اختلاف بلدانهم، إلى اعتناق المسيحية الشرقية، وألا يجنحوا إلى الإيمان بالكاثوليكية الغربية. كذلك، فقد أصبحت ترجمة الإنجيل إلى اللغات العامية (الدارجة) لأولئك القابعين عند حدود الإمبراطورية - أداة هامة وعاملاً حاسماً فى دفعهم نحو اعتناق المسيحية، فقد عملت الترجمة على نقل الإنجيل إليهم وفقا للغاتهم المستخدمة مع ضمان ولائهم الحضارى، خاصة وأن هذا الإنجيل المترجم كان السفر الأول الذى كتب بتلك اللغات، حيث لم تكتب بها أية نصوص من قبل -كالذى يطلق عليه الآن "السلافونية الكنسية القديمة"- لغة الطقوس والشعائر الدينية فى العالم السلافى الأرثوذكسى. وكرد فعل، فقد جاهد القساوسة الكاثوليك الألمان فى ذلك الإقليم بغية إثناء السلافيين عن تبنى اللغة السلافية فى الطقوس والشعائر الدينية، ولكن بلا طائل. (واللافت، أنه فى الوقت ذاته لم يكن الإنجيل قد تمت ترجمته كاملا، بصفة رئيسية، فى الغرب، إلى اللغات العامية المحلية، ولم يتم ذلك حتى نشأة حركة الإصلاح البروتستانتى بعد ذلك بخمسة قرون ... أما الكنيسة الكاثوليكية، فقد أصرت على بقاء اللاتينية كلغة الطقوس الدينية الوحيدة، وذلك إلى القرن العشرين، رغما عن أن "العهد الجديد" قد كتب فى الأصل باللغة اليونانية.

والملمح الثانى اللافت من ملامح المسيحية الشرقية كان الاستقلالية الكبيرة نسبيا، والممنوحة للكنائس الشرقية بالمقارنة بشرط الولاء التام والإذعان الكامل لروما، حتى فيما يرتبط بالشئون الإدارية والتنظيمية الكنسية، وذلك فى ظل

الكاثوليكية. أما البابا، فقد أصرّ بالإضافة إلى ما سبق، على الاستئثار بنفوذ دنيوى فائق على نحو لم يكن يتمتع به البطريرك البيزنطى. إن تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى يحفل بأمثال تلك الصراعات الهائلة من صراعات القوة والنفوذ ما بين البابا والأمراء "الدنيويين". وهذا يرشدنا إلى أنه، فى حقيقة الأمر، ثمة إرث ثقيل من التدخلات الدينية فى سياسات الغرب الدنيوية من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأكثر مما كان عليه الحال فى الإسلام فيما ارتبط بالحكام المسلمين الدنيويين (وهو الوضع الذى ظل قائما إلى أن نشأت الدولة الثيوقراطية، وولاية الفقيه فى إيران الحديثة).

وفى الوقت الذى استمر فيه التنافس بين الشرق والغرب فى أوروبا الشرقية، فإن الصرب، والبلغار، والرومانيين، والروس، بالإضافة إلى النصف الجنوبى من الألبان كانوا قد تحولوا إلى اعتناق الأرثوذكسية، فى حين استمالت روما كلاً من البولنديين، والتشيك، والسلوفاك، والكروات، والسلوفينيين، والهنغاريين نحو اعتناق الكاثوليكية. وقد أدى هذا الاختيار البسيط لما يعتنق من عقيدة إلى وضع قالب بعينه للتوجه الحضارى والسياسى المستقبلى الشامل لهذه البلدان، والذى ما زال قائما إلى اليوم. إذا، فهناك حد فاصل بين الأرثوذكسية والكاثوليكية ينحدر من الشمال عند بحر البلطيق ليخترق يوغوسلافيا القديمة صوب بحر إيجه.

وبذا، وبلا أدنى نية للقيام بذلك، فقد قامت القسطنطينية بدمج كل من الدين والإثنية ضمن التقليد الأرثوذكسى ... وهو مزيج يتمتع بدرجة كبيرة من القوة والثقل. وبحق، فإن ثراء الكنائس الأرثوذكسية يكمن فى تنوعها الحضارى والثقافى حتى وإن ظلت جزءا من جماعة أرثوذكسية قوية متسعة النطاق ومتحدة فيما بينها، فيما يخص كلاً من القيم الروحانية والمعتقد المتبع والطقوس الممارسة. وعلى النقيض تماما، فقد قاوم الإسلام بضراوة إنشاء أية حركات أو تجمعات إسلامية ذات طابع إثنى، كما رفض اعتماد أية لغات محلية كبديل عن العربية فيما اختص بالعبادة، بيد أن الإسلام لم يتبن مطلقا النموذج شديد المركزية الذى تبنته روما ...

فروما لديها البابا، والإسلام لديه الخليفة، وهذا الأخير لم يكن ليستأثر مطلقاً بالسلطة الدينية المركزية كما استأثر بها البابا.

تجذر الصراع الشرقي-الغربي

استفحل الخلاف بين بيزنطة المسيحية وبين الغرب على امتداد عدة قرون لاحقة سبقت سقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ . وقد ظلت الكنيسة الشرقية فى رعب دائم مما شهدته باعتباره انتحالاً بابوياً للكثير من الصلاحيات القضائية والتشريعية فيما يتعلق بجميع مناحي الكنيسة الغربية. فقد كان من الجلى أن ما يضمر هو افتراض البابا لضرورة تقبل الشرق لتلك الصلاحيات في استئثاره بها. ومن وجهة نظر القسطنطينية، لم يعد البابا إلا أن يكون "بطريركا لروما"، فلا يحق له ادعاء امتلاك أية سلطات أو نفوذ شامل على الكنيسة الشرقية، ومن ثم لا يسمح له مطلقا بالقيام بذلك.

لذا، فقد قام الصراع على فرض الهيمنة والنفوذ وتحويل الشئون الدينية الهامشية إلى رموز للتشاحن والصراع. وفى عام ٧١٧، قام الإمبراطور البيزنطى "ليو الثالث" بحظر استخدام الأيقونات الدينية فى الكنائس فى الخلاف الشهير، والذى ذهبت فيه الكنيسة الشرقية إلى مناهضة جميع ما يتم تجسيده من رموز بشرية فى الفن الدينى (عاكسة بذلك، فى أغلب الظن، وجهات نظر مشابهة فى كل من اليهودية والإسلام). ولقد حاول البابا فى روما بالفعل الإطاحة بـ"ليو الثالث" بشأن ذلك المنحى، بيد أنه لم يوفق فعمد إلى تجريد بطريرك الكنيسة الشرقية من حقوقه الكنسية، الأمر الذى أدى، بدوره، إلى قيام الكنيسة الشرقية بتجريد البابا من حقوقه أيضا. وقد تم رأب هذا الصدع الجسيم لاحقا، إلا أنه كان دالا على وجود ضغائن وأحقاد فيما بين الفريقين مشيرا إلى إمكانية حدوث ما هو أسوأ فى المستقبل.

وخلال القرن العاشر الميلادى، نشب صراع وخلاف جيوبوليتيكى حول الفريق

الذى سيكون له الغلبة فى تحويل بلغاريا، تلك الدولة الفتية الناشئة، إلى اعتناق المسيحية ... فكان انتصار القسطنطينية فى تحويلها إلى الأرثوذكسية ضربة قاصمة لروما.

وفى عام ١٠٥٤، بلغ الخلاف الثيولوجى والسياسى المستعر، والممتد لفترة طويلة، نقطة جائحية فارقة فى تاريخ المسيحية : إذ انساقت روما والقسطنطينية إلى هاوية تبادل موجات الحرمان الكنسى اللامعقولة، والتى بدأ عندها "الصدع العظيم" فى الكنيسة المسيحية. وكانت الذريعة التى سيقت فى هذا الصدد هى الجدل اللغز غير المعقول حول ما "إذا كان الروح القدس ينبع مباشرة من الرب" كما هو رأى القسطنطينية، أم "أن الروح القدس ينبع من الرب وولده معا" وهو ما أصرت عليه روما. ومن المؤكد أن تلك القضية قد أضحت مثقلة بتراكمات من الصراعات والعداءات الجيوبوليتيكية العميقة والممتدة عبر قرون عدة - كأشبه ما تكون بـ"حرب باردة" تدور رحاها بين الفريقين. وكان من المتعين تجسير الفجوة وتضميد الجراح. كذلك، فقد أنكرت الكنيسة الأرثوذكسية مفهوم روما "الجديد" بشأن (الحبل بلا دنس لمريم العذراء)، فضلا عن رفضها للبدعة التى أتت بها روما والقائلة بوجود فكرة "الأعراف" - أى وجود موطن تطهر فيه نفوس الأبرار - وهى معتقدات تبنتها روما بعد مئات عدة من سنين تلت رفع المسيح.

إلا أن ذلك التجريد المتبادل للحق الكنسى من قبل الشرق والغرب لم يكن ليعادل الشكوك المتبادلة والتى أفضت لاحقا إلى الصدام المسلح بين الفريقين المسيحيين خلال سنى الحملات الصليبية (والتى ستناقش فى الفصل الخامس)، حيث نهب الصليبيون اللاتينيون (الكاثوليك) القادمون من أوروبا -- القسطنطينية ذاتها، وما استتبع ذلك من آثار باقية لا حصر لها. وكان اكتمال المشهد فى عام ١١٨٢ فيما عرف باسم "مذبحة اللاتينيين" فى القسطنطينية. وقد كانت مشاعر العداء ضد الغرب ومناهضته تتملك الوعى الشعبى وشعوب الشرق التى استاءت بشدة من جماعة تجار البندقية (الكاثوليك) ذات النفوذ والسطوة، والتى أدارت

بالفعل اقتصاد القسطنطينية. وفى مظاهر الفوضى والشغب التى انبثقت كردة فعل ضد انتهاكات الكاثوليك، نشبت مذبحة هائلة راح ضحيتها ثمانون ألفا من "اللاتينيين" الذين جرى قتلهم فى المدينة ... الأمر الذى أدى إلى دق أسفين جديد من الكراهية والصراع الدموى والضغينة المتبادلة فيما بين روما والقسطنطينية.

واليوم، وبعد ستة قرون من غزو الأتراك العثمانيين للقسطنطينية، وسقوط المدينة فى أيديهم، فإن العالم الأرثوذكسى ما زال يندب خسارته "لدرة العقد وواسطته"، والتى ما زالت تحيا فى الذاكرة الجمعية له، تلك الفاجعة التى لا يقيم لها الغرب الأوروبى ما يناسبها من ثقل وجسامة. وبالرغم من كون الأوروبيين يعتبرون سقوط المدينة فى أيدى المسلمين خسارة كبيرة للمسيحية، إلا أنهم لا يسيغون كثيرا "حملات صليبية" جديدة، كما لا يستشعرون حنينا يربطهم بالعاصمة "اليونانية" القديمة للإمبراطورية الشرقية. فمن وجهة نظر المسيحيين الغربيين، لا تعدو القسطنطينية وإرثها إلا أن تكون كيانا أرثوذكسيا أصابه العطب وطاله الفساد، فأضحى كسقط المتاع، أو كونها حدثا تاريخيا عابرا معيبا يتعين عدم الالتفات إليه إلا قليلا. بيد أن ذلك الإرث المشئوم لن يطويه النسيان مطلقا فى الشرق، لأثره الجسيم في روسيا على وجه التحديد، كما سنرى فى فصل لاحق. فمن ذا الذى يملك فى الغرب وعيا بالمسيحية الشرقية أو استشعارا بقيمتها؟

إلا أن المسيحية الأرثوذكسية لم تكن لتذوى أو تفنى بسقوط الإمبراطورية الشرقية فى أيدى الأتراك، بل لقد ظل البطريرك ذاته محتفظا بوجوده فى اسطنبول المسلمة (حتى إلى اليوم)، حيث سمح له من قبل الأتراك بمواصلة ممارساته وسلطاته الدينية، لا الدنيوية، فى نطاق بعض المناطق من العالم الأرثوذكسى. فحتى بعد انهيار الإمبراطورية الشرقية، ما زال فى حلوق البيزنطيين غصة تجاه روما إلى الحد الذى ذهبوا معه إلى أفضلية الهزيمة على أيدى الأتراك المسلمين، لا على أيدى المسيحيين اللاتينيين. كذلك، فلإدراكهم أن الكنيسة ستحيا وتدار تحت حكم المسلمين، كما بدا جليا فى أراض مسيحية أخرى سقطت قديما فى قبضة الهيمنة

الإسلامية بما فيها الأراضى المقدسة، فإن الأرثوذكسية، إذاً، يكون مقدرا لها أن تحيا. وفى المقابل، فإن الغزو عن طريق روما يعنى تحويل الكنيسة لتصبح "لاتينية"، وهو أمر بغيض، كما يعنى نهاية الأرثوذكسية إلى الأبد، وهو بالطبع مصير أكثر مأساوية. لذا، فإن الخيار ما بين الخضوع لسيطرة المسلمين من جهة أو لهيمنة المسيحيين اللاتينيين من جهة أخرى يبقى غير ذى موضوع لدى غالبية المؤمنين من المسيحيين الأرثوذكس.

مرايـــا وأصــــداء

فيما مضى، رأينا نطاقا واسعا من المشاحنات والعداءات والشكوك يتكشف لنا فى العلاقة ما بين العالمين المسيحيين الشرقى والغربى. وحتى ولو تزيا الصراع، عادة، فى حلة خلاف ثيولوجى، إلا أنه، وفى حالات عديدة، قد انطوى على أمور دنيوية كصراع المتحولين إلى اعتناق المسيحية بشأن حيازة الأراضى وامتلاك القوة المؤسساتية. وفى النهاية، فإنه من الجلى أن الدين الرسمى للدولة، فضلا عن الخلافات الثيولوجية العقدية لم يكونا إلا أدوات تعمل على تلبية الاحتياجات الاجتماعية والسياسية، وحتى السيكولوجية، للدولة.

وقد أشار الباحث فاسيليوس ماكريدس، الباحث فى الشئون البيزنطية بجامعة "ايرفورت" إلى "أن حركات المقاومة الشعبية ذات الطابع الدينى السافر عادة ما يكون لها طابع آخر خفى. وبعبارة أخرى، تعكس تلك الحركات عدم الرضا، اجتماعيا واقتصاديا، فى مواجهة السياسات التغريبية وهيمنتها ... وقد تتخذ مناهضة الغرب شكلا أو قالبا قوميا صارخا، والذى قد يكون بديلا عن الدين ذاته". وفى العصر الحديث، فإن القضايا على شاكلة العولمة المقادة من قبل الغرب، داخل نطاق العالم الأرثوذكسى القديم، قادرة على خلق مخاوف مشابهة، كأصداء للصراعات الجيوبوليتيكية المبكرة، والتى خضع فيها الشرق لهيمنة الغرب وقوة نفوذه.

وتنطبق هذه الملامح، على نحو دال، فى انسحابها على الصدع ما بين العالم الإسلامى والغرب، وفق ما نشهده الآن. وحتى لو وجدت ديناميات التصارع الشرقى-الغربى، والتوتر فى علاقاتهما البينية - فى نطاق المسيحية ذاتها، فيعكس ذلك تطابقا فى أركان الخلاف والتوتر ما بين العالم الإسلامى والغرب، إذ تكون الهويات وآليات النفوذ مهددة بأكثر مما يكون الدين كذلك، وعندها تؤدى قضايا الاعتزاز بالهوية إلى تعزيز الخلافات الجمعية. فكما عقب ماكريدس : "ما زال الكثير من المسيحيين الأرثوذكس على يقين بتفوقهم وتميزهم عن غيرهم، فضلاً عن إيمانهم أشد الإيمان برسالة الخلاص التى يبشرون بها على امتداد العالم بأسره". ويمكن أن نقول الشئ ذاته بالنسبة للمسلمين وإيمانهم بأن الإسلام، أيضا، قادر، إن عاجلا أو آجلا، على الإسهام فى إنقاذ الغرب الذى يشبه سفينة بلا هاد تكاد تغرق فى بحر لجى.

وفى حين تتعمق الفجوة وتترسخ الشقة بين غرب قوى متقدم من جهة، وشرق ضعيف تابع ومتأخر من جهة أخرى، يكون من الطبيعى أن يبحث الفريق الأضعف عن تفسير لتلك الظاهرة. وفى هذا الخصوص، فقد ذهب اتجاه ما إلى اعتبار الغرب مسئولا عن كل إخفاقات العالم الإسلامى، وكذا العالم المسيحى الأرثوذكسى. وأضاف ماكريدس :

"فى حالات بعينها، تمثل مناهضة الغرب وسيلة ملائمة لإعطاء حلول جاهزة ومخارج من العديد من مشكلات العالم الأرثوذكسى ... فآلية الحد من المسئولية الذاتية والتخفيف من الشعور بالذنب بالعمل الدائم على عزو مصادر الشر الرئيسية إلى قوى خارجية (الغرب، فى هذه الحالة) ... هى ظاهرة مألوفة ولصيقة بالشرق الأرثوذكسى، فضلا عن كونها ضربا لتحويل مشاعر التململ والاحتقان الاجتماعى نحو وجهة أخرى".

وفى الختام، فقد لاحظ ماكريدس أن الجماعات السياسية المناهضة للغرب فى

اليونان الحديثة وفى غير دولة من العالم الأرثوذكسى، كروسيا على سبيل المثال – تسعى نحو صيغة اتحادية (كونفدرالية) ما مع تركيا ترتكن فى جانب منها إلى قوة الأجندة المناهضة للغرب. وسنرى لاحقا وجود مشاعر موالية للمسلمين والأتراك، ولو لم تكن جزءا من الاتجاه السائد للتفكير، وذلك فى روسيا المعاصرة اليوم، وهو الأمر الذى يعكس بعضا من ردود الأفعال التاريخية تلك.

كذلك، نرى هنا الجذور المبكرة لظاهرة اشتراك كل من الإسلام والأرثوذكسية الشرقية فى تبنى العديد من وجهات النظر بشأن الغرب. فلو لم يكن ثمة إسلام فى الشرق الأوسط، كذلك فإذا كانت الأرثوذكسية الشرقية قد استمرت فى إحكام قبضتها وفرض هيمنتها هناك، فهل من العسير أو غير المحتمل تخيل الأرثوذكسية وهى ما تزال تحمل بمفردها لواء المشاعر المعادية للغرب فى إقليم الشرق الأوسط اليوم؟

الفصل الرابع

الإسلام والمسيحية الشرقية

تحت تأثير حماستها المتقدة بفعل الأفكار الاجتماعية والسياسية والدينية الجديدة التى أتى بها الإسلام، شرعت الجيوش العربية فى التقدم حثيثا خارج شبه الجزيرة العربية، وباتجاه الشمال. وهنا نشهد لقاء أو مواجهة تقليدية فيما بين التالد والطريف. ولقد كانت سوريا، تلك المقاطعة البيزنطية الكبرى، الموضع الذى شهد أول مواجهة عسكرية بين المسيحية والإسلام. وبالنظر إلى اكتساح الجيوش العربية شمالا داخل الأراضى البيزنطية فى المشرق، تتضح لنا بعض الملامح المذهلة.

أولاً، مدى المشاعر العدائية التى يضمرها الكثير من أهالى إقليم الهلال الخصيب ذى الأغلبية السامية تجاه محاولات الغرب السيطرة عليهم -ومن وجهة نظر تلك الأقاليم، فلا يقتصر "الغرب" على روما فحسب، بل يمتد ليشمل القسطنطينية "اليونانية" كذلك. وهنا، فنحن نتحدث عن بلدان ذات تاريخ وحضارة شرقية وسامية بالأساس- حيث ظلت طويلا جزءا من المنافسة الصراعية المحمومة بين مختلف الإمبراطوريات الفارسية من جهة، وبين اليونان من جهة أخرى. كذلك، فلا توجد هنا مشاعر ارتياح أو مودة تجاه "بيزنطة" أو "اليونانيين". إذا، فنحن نشهد هنا معاداة متجذرة للغرب -بمعنى مقاومة محاولات الغزو أو الهيمنة من قبل اليونان أو روما- حتى قبل أن يظهر الإسلام على مسرح الأحداث.

ثانيا، نشهد مرارا كيف مثل الدين وقود المقاومة واستنهاض الهمم ضد روما وبيزنطة. وقد احتضنت المدن المشرقية باستمرار ضروبا من الهرطقة بما يدل على

تجذر روح المقاومة بداخلها. فلم يكن الأمر أنها تتبع العقيدة التى تقول بأن المسيح ذو طبيعة واحدة، ومن ثم معارضتها للقسطنطينية. وإنما الواقع أنها كانت تخالف القسطنطينية، ومن ثم استعدادها لاحتضان عقائد تعادى صيغة الحكم المركزى التسلطى. لذا، فقد كان الفتح الإسلامى لتلك المدن المشرقية الكبرى داخل الإمبراطورية البيزنطية ميسرا بفعل ما ترسخ من مشاعر العداء تجاه بيزنطة لآماد طوال.

وأخيراً، تبدو غزوات الجيوش الإسلامية، فى جانب منها، كما لو أنها قد أحدثت تغيرات فيما يخص العالم الدينى - أى تغيرات دينية، ولكن الحقيقة، أنها نزعت فى ذلك الوقت نحو إحداث تغيير فى كيفية هيمنة الدولة وسطوتها. وتمدنا آليات انتشار الإدارة والحكم العربيين برؤية ثاقبة تمكننا من إدراك عدم احتلال الدين للقلب من تلك الصراعات، وبالمقابل توضح تلك الآليات كيف كان الإسلام،

بالأساس، الراية الأحدث على مسرح الأحداث ... تلك الراية التى انضوت تحتها الصراعات الجيوبوليتيكية الراسخة بإقليم الشرق الأوسط والتى تم إذكاء نيرانها على الدوام، فلقد كانت "الجائزة الكبرى" التمتع بثمار الحكم والسيطرة.

وبالطبع، فلا يستقيم استبعاد دور الإسلام نهائيا من ديناميات الصراع بين حكام إقليم الشرق الأوسط ومدنه ومقاطعاته. فالإسلام قد مثل، وعلى نحو فريد، روحا جديدة فى الأفق. بيد أن إقليم الشرق الأوسط، فى الواقع، كان متهيئا لاستقبال قوة محفزة جديدة قادرة على دفع الحكام المحليين، وكذا المدن للنهوض والمقاومة ضد السلطة المركزية للقسطنطينية. إن الأيديولوجيا، أينما وجدت، غالبا ما يتم استخدامها وتطويعها لخدمة الأغراض الجيوبوليتيكية المحلية. وبعبارة موجزة، نشهد هنا الدور الذى اضطلعت به المشاعر المناهضة لبيزنطة فى تيسير الفتح الإسلامى للكثير من الأقاليم السامية.

سوريا وثقافة الشقاق

وتعد سوريا مثالا جيدا فى هذا الصدد، إذ أوى الإقليم العديد من مشاعر عدم الارتياح المضمرة، على تنوعها، والتى تفجرت، بشكل دورى، على امتداد القرون المتعاقبة. وقد كانت الغزوات التى قامت بها جيوش الإسلام كالشرر الذى ساعد على تأجيج نيران الثورة ليس فقط ضد القسطنطينية، بل وضد روما أيضا. وتعطى شخصية سوريا المتسمة بإرث ممتد من المشاكسة والخلاف، والكامن فى مناخها الجيوبوليتيكى، تفسيرا للمشاكل اللانهائية التى واجهت الإمبراطورية البيزنطية فى محاولاتها للدفاع عن أراضى ذلك الإقليم ضد الغزوات الإسلامية الأولى.

فما الذى هيأ سوريا لمثل هذا الدور الثورى؟ تعد سوريا واحدة من أبرز نقاط الالتقاء الحضارى، حيث تتعانق الأيديولوجيا مع معطيات القوة والنفوذ لتضفى على "دمشق" دورا فاعلا فى استجلاء سياسات إقليم الشرق الأوسط. وقد امتد نطاق

سوريا، قديما، ليشمل ما يعرف الآن بسوريا والأردن وفلسطين ولبنان وإسرائيل وغربى العراق ككيانات سياسية مستقلة. وعلى امتداد التاريخ، انضوى تحت لوائها العديد من أطياف القوى التى أضفت عليها طابعا فريدا وشخصية عنيدة. فاعتبارا من عام ٣١٢ قبل ميلاد المسيح، كانت سوريا قلب الإمبراطورية الهيلينستية السلوقية مترامية الأطراف، والتى خلفت أجزاء من إمبراطورية الإسكندر الأكبر، والتى امتد سلطانها من الأناضول وحتى شبه القارة الهندية على امتداد أكثر من ٢٥٠ عاما. كذلك، فقد كانت سوريا جزءا من الشرق مثلما كانت جزءا من الغرب لتأثرها، على وجه الخصوص، بالحضارة الفارسية وحضارات الشرق، ومثلت كذلك النقطة الحدودية، قاعدة الانطلاق للتوسع اليونانى صوب المشرق ضد الحضارة الفارسية، والحضارات السامية بالإقليم.

وتعطى مدينة "الرها" فى شمال سوريا مثالا واضحا على العداء الشديد الذى يضمره أهلها لهيمنة الغرب وسيطرته. وقد كانت "الرها" حامية عسكرية يونانية للإمبراطورية الرومانية الشرقية، بيد أن اللغة اليونانية السائدة لحكام المدينة تم الاستعاضة عنها، على نحو تدريجى، باللغة السريانية، وهى لغة سامية قريبة الشبه بالآرامية، وبذا شرعت الثقافة السريانية فى إضعاف مكانة اليونانية فى المواقع التى انتشرت بها. ورغما عن وجودها ضمن نطاق الإمبراطورية الرومانية الشرقية، إلا أن ولاء "الرها" وتعاطفها غالبا ما اتجه إلى الشرق، وتحديدا إلى إيران الفرثية الزرادشتية، لا إلى بيزنطة.

على أنه لا يمكن القول بأن "الرها" كانت مناهضة للمسيحية، ومن ثم مناهضة لبيزنطة. بل لقد كانت "الرها" أول ولاية مسيحية فى العالم فى ظل حكم "أبجر الأسود"، والتى أسستها القبائل العربية والنبطية فى عام ١٣٢ قبل ميلاد المسيح. ولقد كانت الإرساليات التبشيرية المسيحية ، والتى انطلقت من "الرها" هى من نشر المسيحية النسطورية شرقا صوب بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين، حيث سيكون للكنيسة النسطورية مقرا بها. إذاً، فقد كان ذلك الإقليم أحد أوائل التجمعات

المسيحية، بيد أن الكنيسة النسطورية الناطقة بالسريانية كانت شرقية النزعة من الوجهة الحضارية والثقافية بمعزل عن نفوذ الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية الناطقة باليونانية. وفى عام ٤١٠م، خطت الكنيسة النسطورية خطوة على طريق الاستقلال برفضها الانتساب أو التبعية "للأساقفة الغربيين". حيث انصرف المقصود "بالأساقفة الغربيين" ليس إلى روما، بل إلى السلطات البيزنطية ذاتها والتى اعتبرها النساطرة كقوة غربية. ولقد كانت تلك الخطوة النسطورية باتجاه الاستقلال الدينى إشارة سياسية واضحة، وإن تزيّت بإهاب دينى.

على أن "الرها" لم ترتض احتضان هرطقة وحيدة، فعمدت لاحقا إلى اعتناق هرطقة أخرى توحيدية النزعة، ألا وهى عقيدة "الطبيعة الواحدة للمسيح" ... تلك العقيدة التى انتشرت، على نحو سريع، فى ربوع سوريا فى قرون لاحقة رغما عن اعتراض القسطنطينية الشديد، والتى أصرت على الإيمان بالطبيعتين المتمايزتين والمستقلتين للمسيح. وبذا، فقد أصبحت العقيدة الدينية اختبارا لمدى الولاء السياسى لمعتنقها. وقد عكست الطبيعة الهرطقية الراسخة للمسيحية السورية شخصيتها شديدة الاستقلالية. فكما أوضح الباحث الألمانى أرتور فوبوس : "تفصح المنابع الأولى للمسيحية السورية عن روح وثابة ووعى ذاتى يتوق إلى الاستقلالية، وتصطبغ كل صفحة من صفحات التاريخ بتلك الروح وذلك التوق". وفى بعض كتابات أحد القادة من مسيحيى سوريا الأوائل، نجد "الكراهية لكل ما يحمل الصبغة أو الشعار اليونانى أو الرومانى ... فالاستقلالية والحكم الذاتى هما سمتا التوجه السورى المبكر لمفهوم الكنيسة". وتأتى تلك الأحداث جميعا فى سياق زمنى يسبق الإسلام، والذى سيتبنى بيسر ثقافة معاداة الغرب ومناهضته، بل والإمبراطورية البيزنطية ... تلك الثقافة المنتشرة فى أغلب أرجاء إقليم الهلال الخصيب.

على أن الأمر لم يقتصر على "الرها". فبالنظر إلى ما حدث فى تدمر، وهى مدينة سورية شهيرة، نجد أنها أجبرت الإمبراطورية اليونانية بالفعل على الإذعان لها خلال ثورة كبرى جرت أحداثها فى منتصف القرن الثالث الميلادى، قبل

الانقسام ما بين شرق وغرب، إذ كانت تدمر مصدر تهديد بإعادة صياغة هيكل القوة برمته فى شرقى المتوسط. فقد ظلت تدمر كمحور تجارى رئيسى فى سوريا، نقطة التقاء الحركة التجارية فيما بين بلاد فارس، والهند، والصين، وروما. وقد تبنت تدمر السريانية كلغة لها، بما يعكس ثقافتها "السامية" المزدهرة وتأثرها بالحضارة الفارسية مثلما هو تأثرها بحضارة روما والحضارة اليونانية. وفى عام ٢٦٩م، دشنت زنوبيا، ملكة تدمر الأسطورية، حملة عسكرية كبرى ضد الحكم الرومانى. فمن كانت زنوبيا تلك؟ يبدو أنها انحدرت من سلالة ملكية من قرطاج (تونس اليوم) – تلك المدينة التى انصهرت فى بوتقتها مشاعر الكراهية والعداء لغريمتها المتوسطية الرئيسية، روما، والتى دمرتها قبل ذلك بعدة قرون.

وفى غضون سنوات قلائل، اجتاحت جيوش تدمر أراضى شاسعة، سوريا بأكملها، ومصر، ونصف الأناضول. وبالفعل، فقد مثلت تلك "الإمبراطورية التدمرية" لسنوات قليلة – كامل الثلث الشرقى من الإمبراطورية الرومانية، والتى قسمت إلى ثلاثة أقاليم متمايزة. وقد كان يمكن لتدمر أن تخلف الإمبراطورية الرومانية فى الشرق، وهو الحدث الذى لو كتب له النجاح آنذاك، كان سيرسخ الحكم المسيحى السريانى/السامى فى شرق المتوسط عوضا عن الحكم البيزنطى اليونانى. أما الملكة الجميلة زنوبيا فقد هزمت على أيدى القوات الرومانية حيث أرسلت إلى روما مغللة بأصفاد ذهبية ليتم العفو عنها بعد ذلك وتصبح رمزاً رائداً من رموز المجتمع الرومانى، على الرغم من سحق إمبراطوريتها منذ زمن بعيد. بيد أن روح الثورة المنتشرة فى أجزاء كثيرة من الأراضى السورية ظلت فتية ومتأججة، فى مواجهة روما، وكذلك فى مواجهة القسطنطينية. وقد انتهزت الإمبراطورية الفارسية الميزة الاستراتيجية التى صبغت الخلاف داخل الإمبراطورية البيزنطية للقيام بالدعم العلنى للمسيحيين النساطرة وإعطائهم حق اللجوء إلى الأراضى الفارسية. وبذا، فقد كان الدين هو أيديولوجية تلك الحقبة، بما له من دور داعم للمصالح الجيوبوليتيكية المتضاربة.

إن الخلاف السياسى والأيديولوجى والدينى مع روما واليونان كان مضمرا فى نزوع الثقافة الدينية السورية نحو رؤية أكثر توحيدية للمسيح -لأن يكون ذا طبيعة واحدة (إما إلهية تماما، أو بشرية تماما)- وكذا رفض معتقدات القسطنطينية المركبة القائلة بوجود الثالوث (الأب والابن والروح القدس ككيان واحد). وسرعان ما انتشرت عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح على امتداد مناطق شاسعة : الأناضول، سوريا، المشرق، مصر - حيث حظيت بدعم جماهيرى وشعبى كبير، واستمرت قائمة، بلا شك، إلى يومنا هذا.

أما التطور التاريخى لعقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح فلم تكن أقل إثارة وقوة. فقد تم احتضان تلك العقيدة من قبل الإسكندرية ... تلك المدينة المصرية التى كانت إحدى أبرز المنافسات للاستئثار بالنفوذ الكنسى فى شرقى المتوسط. كذلك، فقد ناصرت الإسكندرية، وبشدة، عقيدة الطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح - تلك العقيدة البسيطة يسيرة المأخذ والتى كان لها رواج شعبى كبير فى سوريا ومصر والأناضول. أما القسطنطينية، فقد تبرأت من تلك العقيدة خلال أعمال مجمع "أفسوس" الأول فى عام ٤٣١ . بيد أن سياسات الكنيسة ورجالاتها قد سلكت دروبا متباينة، فبعد ثمانية عشر عاما، وخلال انعقاد أعمال مجمع "أفسوس" الثانى، حدث تغيير وتعديل ثيولوجى انبنى على قاعدة سياسية، فأصبحت عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح معترفا بها رسميا، كما أصبح هناك من يعتنقها. ومع كل تحول كبير فى تبنى العقائد المتباينة، تصعد رموز كنسية مؤثرة، وتسقط أخرى، بما كان من شأنه تأجيج الصراع. وخلال الاضطرابات السياسية التى أعقبت ذلك بأربعة أعوام، قامت الكنيسة بتغيير موقفها ثانية بشأن عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح، وذلك خلال انعقاد أعمال مجمع "خلقيدونية" فى عام ٤٥١، لتعلن أن تلك العقيدة هى من قبيل الهرطقة والتجديف. وبذا، فقد ظهر رابحون وخاسرون جدد، كذلك، فقد تم عزل بعض الأساقفة الرئيسيين ورموز الكنيسة من مناصبهم، وهو الأمر الذى أدى إلى انعكاسات وعواقب سلبية أثرت على قوة المدن وهيمنتها التى

كانت تحتضنهم. إلا أن القصة لم تنته بعد. ففى هذه المرة، ورغما عن الجهود الفائقة المبذولة لإعادة الصياغة الثيولوجية لإحداث نوع من التوافق والمواءمة فيما بين طرفى النزاع، إلا أن أعدادا كبيرة من معتنقى عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح رفضوا بتاتا قبول سيطرة القسطنطينية وأحكامها. وفى النهاية، فقد قاموا بشق عصا الطاعة بوجه القسطنطينية، وعمدوا إلى إعادة تأسيس كنائسهم المستقلة، على تنوعها، ليعرفوا بالأرثوذكس الشرقيين، بصفة رئيسية، فى الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية.

وكما كانت توصيات مجمع "خلقيدونية" شديدة الوطأة على عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح، فقد اتخذ المجمع أيضا قرارا صادما لروما إذ أعلن أن القسطنطينية هى "روما الجديدة"، ومساواتها بروما. وبالفعل، فقد كان للقسطنطينية أن تكون "روما الوحيدة" فى ظل انهيار البقية المتبقية من الإمبراطورية الرومانية فى الغرب أمام هجمات الهمج. أما مفهوم "روما الجديدة" فلن يفقد صداه الرنان أبدا : فبعد ألف عام، ومع سقوط بيزنطة (الإمبراطورية الشرقية) ذاتها، ستنتحل موسكو لنفسها لقب "روما الثالثة"، بما يدل عليه من امتداد الإرث المتعاقب للهيمنة المسيحية.

ولقد كانت رموز المسيحية القوية -البابا، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ومختلف الأساقفة والبطاركة على تعدد مصالحهم- لديها فى جعبتها الكثير فى تلك النقاشات والجدالات من مجرد الشئون الدينية. فعلى سبيل المثال، فإن الخلاف المعتقدى حول طبيعة المسيح وماهيته قد أرسى الأساس لتطلع البابا إلى السيطرة. فإذا كانت طبيعة المسيح إلهية فحسب، فكيف، إذاً، يزعم البابا كونه "الحبر أو الكاهن الأعظم"؟ فلا يمكن أن يكون ثمة كاهن للمقدس ذاته – أما إذا كان المسيح ذا طبيعة بشرية، فمن الطبيعى أن يكون هناك سلسلة متعاقبة بداية من القديس بطرس مرورا بآباء الكنيسة، وحتى البابا ككاهن للمسيح ذى الطبيعة البشرية.

وبالفعل، فنحن نشهد هنا صراعا هائلا على مقاليد الهيمنة والقوة تدور رحاه وفق مستويات ثلاثة : الأول، صراع بين روما والقسطنطينية حول أيهما، بالفعل، يمثل الإمبراطورية الرومانية الحقيقية بما فى ذلك أحقية قيادتها، الثانى، صراع يدور فى الكنيسة الشرقية بشأن العقيدة فى أرجاء الإمبراطورية الشرقية، وأخيرا، صراع القوى المسيحية الثورية والهرطقية فى الشرق ضد الهيمنة السياسية القسطنطينية فى المقاطعات الشرقية. كان هذا هو المشهد الذى واكب نشأة الإسلام فى إقليم ممزق بفعل الصراعات السياسية، وما انطوى عليه الإقليم من تهيؤ تاريخى وحضارى وسياسى للقادم الجديد ... ذلك القادم الذى سيضيف إلى، وأيضاً سيرث، المعادلة المركبة بالفعل لصراعات القوى والأيديولوجيا.

الإسلام يغزو أراضى بيزنطة

تكشف الطريقة التى توسع بها الإسلام بالفعل جليا عن المنظومة المعقدة للتحول الدينى والتغير الحضارى، فضلا عن إفصاحها عن طبيعة التعايش والمواءمة الدينية. لذا، فلا يعدو المصطلح السطحى المبسط "الحدود الدموية للإسلام" والذى تبناه صموئيل هانتنجتون إلا أن يكون صورة تبسيطية غير كاشفة عن التداخلات السياسية والاجتماعية المتشابكة التى جرت بالفعل.

فعقب الانتفاضات البطولية المبكرة فى "الرها" و"تدمر" ضد الهيمنة البيزنطية، كانت دمشق المحطة التالية. وهنا أيضا نشهد بواكير حركة الجماعات الدينية المعارضة فى تسهيل غزو المسلمين للمدينة فى عام ٦٣٥ – فغدت بذلك الأولى ضمن المدى الكبرى الواقعة تحت أيدى القوات العربية المسلمة.

ولقد وقعت دمشق بالفعل فى أيدى الفرس قبل ذلك بعشرين ونيف عاما، بعون من اليهود ومسيحيى "الطبيعة الواحدة" للمسيح ... والذين ضجوا من عسف بيزنطة وضرائبها. وبرغم أن المدينة قد آلت ثانية إلى بيزنطة، إلا أنه سرعان ما سقطت مرة أخرى، ولكن فى أيدى المسلمين العرب فى هذه الجولة. كذلك، فقد تم

تسهيل الغزو العربى، أيضا، من داخل المدينة بمساعدة المعارضة المتمثلة فى النساطرة ومسيحيى "الطبيعة الواحدة". على أن المعتقد الإسلامى بشأن الطبيعة البشرية للمسيح ورفضه الصارم لما عداها لم يكن ليمثل مفاجأة للسكان المسيحيين المنغمسين بالفعل فى جدالاتهم وهرطقاتهم بشأن طبيعة المسيح، وبذا فقد كان الإسلام حلقة جديدة فى سلسلة النقاشات المحتدمة. وقد كان ما يشغل البال ليس ثيولوجية الإسلام، بل نفوذه السياسى وطبيعة نظام الحكم ونوعيته المفروض من قبله.

وبعد جدال واسع، تم إقناع القادة العرب المسئولين عن حصار دمشق بأن قبول استسلام المدينة سلميا يعد حصيفا من الوجهة الاستراتيجية إذا كان المراد تجنب المقاومة الشرسة من قبل مدن سورية أخرى أثناء تقدم العرب. لذا، وبعد مواجهات ممتدة فيما بين الجيوش العربية والبيزنطية، وافقت المدينة، فى النهاية، وفى عام ٦٣٤ على الاستسلام بعد أن وعد القائد المسلم خالد بن الوليد بما يلى :

"حين دخول المسلمين، سيكون الأهالى آمنين على أنفسهم، وممتلكاتهم، ودور العبادة، وأسوار المدينة، فلن يتم تدمير أى مما سبق. وسيكون هذا الوعد أمام الله ورسوله وأمام الخليفة والمسلمين الذين سيعاملونهم بالحسنى كإخوة طالما كانوا يدفعون الجزية".

أما أورشليم، فكانت التالية حيث سقطت فى أيدى القوات العربية فى عام ٦٣٨ . وقد وافقت المدينة على الاستسلام إذا ما تعهد الخليفة ذاته بسيادة الأمن بها. وقد دخل الخليفة عمر بن الخطاب بصحبة بطريركها، وأبرما معا اتفاقا يضمن أمن المدينة ويحفظ للمسيحيين حقهم فى العبادة وممارسة طقوسهم الدينية. وقد أفادت المصادر العربية بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد أزال بقايا معبد الهيكل اليهودى المهجور، وأدى الصلاة هناك، وأمر لاحقا ببناء مسجد فى الركن الجنوبى الغربى مما كان يشغله المعبد.

الهداية واعتناق الإسلام

إن التحول إلى اعتناق الإسلام فى تلك الأقاليم كسوريا وغيرها من أقاليم خضعت فى السابق لبيزنطة - ليكشف عن الكثير بشأن القوى السياسية والحضارية والتفاعل فيما بينها. وكما أشرنا آنفا، يكون من الحماقة أن نتصور، على نحو مبسط، وقوع "مسيحيين مخلصين وأوفياء فى أيدى قوات مسلمة مناهضة للغرب"، وهى الرؤية الشائعة التى يروج لها الغرب. فلم يكن المسيحيون فى تلك الأقاليم السامية بالضرورة سعداء أو أوفياء لبيزنطة، بل كانوا مهيئين لمناهضة الغرب. أما النظريات المبسطة عن "إسلام فى مواجهة الغرب" كثنائية، فتنهار هنا حين نواجه حقائق الأمور. فبالفعل لم يكن للإسلام إلا القليل من المواجهات مع القوة العسكرية الغربية أو البيزنطية، إذاً فلم يكن ثمة استعداد مسبق أو تهيؤ لمناهضة الغرب كما حدث داخل قطاعات كبيرة من الإمبراطورية البيزنطية. وفى سوريا، سرعان ما سقطت مدن كبيرة أخرى فى أيدى المسلمين لتتراجع حدود الإمبراطورية، ولتبدأ سلسلة ممتدة الحلقات من التحول إلى اعتناق الإسلام فى الإقليم.

ومرة أخرى، ترسم الصور الشائعة التى يروج لها الغرب للغزو الإسلامى التحول إلى اعتناق الإسلام بكونه قد جرى تحت حد السيف. أما حقيقة الأمر فجد مختلفة... إذ تشبه عمليات تحول إلى اعتناق أديان أخرى شائعة فى معظم الحضارات والثقافات الدينية حين تتبدل الأحوال السياسية بها على نحو كبير. ففى العقود الأولى، تم المبادرة إلى إرساء السلطة السياسية الإسلامية عقب عمليات الغزو العسكرى مباشرة. ففى غضون ثلاثين عاما من وفاة النبى محمد، اكتسحت الجيوش العربية المسلمة أراضى شاسعة فبلغت على امتداد ساحل المتوسط الأراضى التى تشغلها تونس حاليا، وحدود القوقاز وشطر الأناضول شمالا، وحدود باكستان الحالية شرقا. وبذا، انهارت الأنظمة القديمة وتهاوت ليحل محلها حكم إسلامى يقوم عليه حكام مسلمون. بيد أن عملية التحول الفعلية إلى اعتناق

الدين الجديد، إن على الصعيد الفردى أو ذلك المجتمعى، قد تأخرت (العملية) طويلاً. ففى كتابه البارز "تاريخ المجتمعات الإسلامية"، أشار ايرا لابيدوس إلى أن "الغزوات، إذا، كانت انتصارات حربية للمسلمين على قوى منهكة عسكريا ... تلك الانتصارات التى عززت فى العقود الأولى من حكم العرب نظرا لشعور أهالى الإقليم بالارتياح والرضا لتقبل النظام الجديد". ولقد أدت عوامل الاستياء الداخلى بالإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية -النساطرة وأنصار "الطبيعة الواحدة" فى سوريا، والمسيحيون واليهود فى إيران- إلى تسهيل الإطاحة بهاتين الإمبراطوريتين، مدينة تلو الأخرى، خلال زحف المسلمين عليهما. ووفقا لميرلين شفارتز، أستاذ التاريخ الإسلامى الوسيط بجامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن معظم اليهود داخل الإمبراطورية البيزنطية كانت تتملكهم مشاعر الاستياء إزاء ما عانوه من اضطهاد بها، لذا فقد رحبوا بالجيوش الإسلامية والتى سيتبدى أن حكمها قد عمل على تعزيز وازدهار، بل وإعادة بعث للحضارة والثقافة اليهودية.

وبالإضافة إلى ذلك، وخلافا لما هو متوقع، لم يكن تحول الشعوب المنهزمة إلى اعتناق الإسلام ، مطلقا، الهدف المباشر للمنتصرين العرب، بل كان الهدف فرض الهيمنة وبسط السلطة. وهنا، وبالفعل فنحن نتحدث عن التغيير الدنيوى -تغيير الحكام- بأكثر مما نتحدث عن الدين فى ذاته على المستوى الاجتماعى. وكما يشير لابيدوس، "فإن المنتصرين العرب لم يكونوا يريدون تحول المنهزمين إلى اعتناق الإسلام بقدر ما كانوا يرغبون فى خضوع غير المسلمين لهم. وفى البدء، كان أولئك العرب غير راضين بإسلام المنهزمين على الفور، لأن "المسلمين الجدد" سيعملون على تحجيم المكاسب الاقتصادية وامتيازات المنزلة الجديدة بالنسبة للعرب".

وبالفعل، كان ثمة حافز لحكام تلك الأقاليم من العرب ألا تمتد مزايا ومنافع أن يكون المرء مسلما للأهالى ككل. فالقوى العربية تمتلك من الامتيازات والمنافع ما لا تمتلكه الفئة المهزومة، حيث يتوجب على تلك الفئة دفع الجزية المفروضة على غير

المسلمين كبديل عن انخراطهم فى الخدمة العسكرية، ومقابل تمتعهم بالحماية والأمن من قبل المسلمين. وكان على الأقليات فى المجتمع الانصياع للحكم السياسى للمسلمين، والامتناع عن أية جهود من شأنها تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحية. وقد أشار المؤرخ الشهير "أرنولد توينبى" فى مؤلفه الجليل "دراسة التاريخ" إلى :

"أنه فى المقام الأول يمكننا أن نسقط من الحسبان اتجاهاً – كان شائعا فى المسيحية –للمبالغة فى تقدير مدى استخدام القوة وحدودها فى نشر الإسلام، فمظاهر الالتزام بالدين المتطلبة من قبل خلفاء النبى محمد كانت مقصورة على أداء عدد محدود من الشعائر والطقوس غير المرهقة ... وفى الأقاليم المهزومة فى الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية، لم تكن البدائل المطروحة "الإسلام أو الموت" ... بل "الإسلام أو الجزية" – وهو طرح تم الإشادة بكونه تنويريا حين طبق بعد قرون عديدة فى إنجلترا بواسطة الملكة إليزابث الأولى، والتى لم يكن يعنيها أمر الدين كثيرا".

لم يكن العرب يريدون اقتسام القوة والسلطة فى بداية الأمر، إذ حافظت الإدارة الإسلامية الجديدة على الوضع القائم دونما أدنى تغيير عما سبق إلا فى شكل الحكم الجديد – وهو الاتجاه السائد والشائع لدى جميع الشعوب التى تحيا فى أقاليم تتداول فيها السلطة فى مستوياتها العليا سجالا من خلال غنائم الحروب، مع عدم تغيير شكل الحياة فى المستويات الأدنى، بالضرورة. وفى حقيقة الأمر، لم يكن هناك الكثير من التحول إلى اعتناق الدين الجديد. فكما يقرر لابيدوس :

إن المبدأ الثانى من مبادئ الخليفة عمر بن الخطاب بشأن الاستيطان يذهب إلى ضرورة إعطاء الشعوب المهزومة حرياتها قدر الإمكان مع أدنى تدخل ممكن. ويعنى ذلك أن المسلمين العرب، وبخلاف ما هو شائع، لم يحاولوا أن يجبروا أحدا على اعتناق الإسلام. وقد ضرب النبى محمد المثل والسابقة فى سماحه لليهود والنصارى فى شبه الجزيرة العربية بالبقاء على دياناتهم إذا ما دفعوا الجزية ...

ففى زمن الفتوحات، كان يراد للإسلام أن يكون دينا للعرب، كدليل على التمايز ووحدة الطائفة. ولم يكن لدى العرب حماسة شديدة تجاه التبشير بالدين الجديد، فلما أن كانت التحولات إلى اعتناقه، حدثت الارتباكات إذ خلقت مشاكل تتعلق بمنزلة من اعتنق الدين الجديد، كما أدت إلى المطالبة بالحق فى الامتيازات المالية.

وتجدر الإشارة إلى أنه فى ذلك الزمن المبكر، كان الفاتحون العرب الأوائل ما يزالون متمسكين بشدة بانتماءاتهم الإثنية حيث رأوا الإسلام "كدين عربى" وأنهم الفئة المختارة التى خصت بتلقيه. وتعكس تلك النظرة إدراك العرب للوحى المنزل على موسى بدين يكون لليهود دون سواهم. إذا، فقد كان ينظر للإسلام على أنه جائزة العرب الممنوحة لهم كونهم المفضلين. بيد أن ذلك الوضع للعرب المفضلين، والمكانة الأدنى مرتبة من حيث حقوق المواطنة حتى لغير العرب المتحولين إلى اعتناق الإسلام- هما ما أدى إلى اعتمال الضغينة بشدة فى النفوس ... وقد أدت تلك التوترات، فى النهاية، إلى الإطاحة بالدولة الأموية ذات التوجه العربى على يد الدولة العباسية الأكثر تنوعا من الوجهة الإثنية، وذلك فى عام ٧٥٠ . وبالطبع، فإن هذا الوضع التفضيلى للعرب فى الإسلام يخالف تماما ما أقره النبى فى خطبة الوداع :

أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمى على عربى، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

إن تاريخ الإسلام يمثل تحولاً تدريجياً من المنظور الإثنى لعمليتى الغزو واعتناق الدين الجديد باتجاه النهج المثالى لعالمية الإسلام، إلا أن مشكلة إصرار العرب على فكرة كونهم متفوقين رغما من أخذها بالانحسار، إلا أنها لم تخفت تماما على المستوى الشعبى عند كثير من العرب. وقد نبعت تلك الفكرة من حقيقة

أن الإسلام قد ولد فى شبه الجزيرة العربية، وأن القرآن، السفر الحاوى لكلمات الله، قد أنزل بلسان عربى، وأن النبى محمداً عربى، إلى جانب بلاغة اللغة العربية شديدة الثراء والتى لا نظير لها كما اشتمل عليها القرآن، والتفوق المذهل الذى أحرزته الفتوحات العربية الأولى. بيد أن الحكمة التى ينطوى عليها الحج كفريضة دينية إسلامية تكمن فى جمع المسلمين من كل بقاع العالم، على اختلاف ألسنتهم وأعراقهم، فى مكان واحد لعبادة ربهم. كذلك، فقد أسهمت وسائط الاتصال الحديثة فى زيادة وعى المسلمين وإدراكهم للمساهمات الكبرى لغير المسلمين فى شمولية الحضارة الإسلامية بغض الطرف عن الخصوصية الإثنية.

فكيف، إذاً، سارت عملية التحول نحو اعتناق الدين الجديد؟ تنطوى جميع عمليات اعتناق دين جديد على تعقيدات جمة، إذ تشتمل على اعتبارات ذاتية وأخرى دينية. وقد لاحظ لابيدوس ظاهرتين متمايزتين فى هذا الخصوص. فقد كان التحول نحو اعتناق الإسلام من قبل الأرواحيين والمشركين فى تلك البقاع الصحراوية يكمن فى الإغراء الذى ولدته الرغبة فى أن يصيروا جزءا من حضارة عظيمة وثرية حيث كان هناك الكثير من المغريات للانضمام إلى صفوف المسلمين. واتسمت تلك العملية بالتمايز الشديد عن أولئك "الموحدين"، سواء فى الحضر أو التجمعات الزراعية، والذين رأوا "الإسلام بديلا عن البيزنطية أو الساسانية كهوية سياسية، وبديلا عن المسيحية واليهودية والزرادشتية كانتماء دينى ... وقد انصهرت الصفوة القديمة، وكذا الطبقة الإدارية لكل من الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية فى النظام الجديد".

وبذا، فقد جرت تحولات غير مسبوقة على امتداد أراض شاسعة فى أقل من قرن واحد. وكما قرر لابيدوس :

"لقد تحول العرب من عشائر بدوية وقبليات إلى جماعات "حضرية"، كذلك تم الاختلاط والمصاهرة مع غير العرب، كما شغل العرب مهاماً ومناصب مدنية،

وخفتت حدة احتكارهم للإسلام. وبالتبعية، انضم غير العرب لصفوف الجند والخدمة بمصالح الدولة، وتحولوا إلى اعتناق الإسلام متبنين اللغة العربية، وطالبوا بنصيب لهم فى الحكومات المتعاقبة بالإمبراطورية كأكفاء بعد أن كانوا، فى السابق، مجرد رعايا لا يحق لهم المطالبة بذلك الامتياز*.

كذلك، فقد أملت الأقليات المستاءة من الحكم البيزنطى والساسانى وغيرهما فى أن يتحسن وضعها تحت الحكم الإسلامى، وقد أثبتت الأيام والتجارب فى ظل الخلافة الإسلامية صحة تلك الآمال. وبلا شك، فإن الخوف من المنتصر قد يجبر البعض على اعتناق دينه ومعتقده، كذلك تكون الرغبة فى المداهنة والتزلف لكسب رضا السلطات الجديدة بغية اجتناء ثمار ومنافع - دافعا لاعتناق الدين. أما الذين عاشوا كثيرا كأقليات، فقد بدأوا يلمسون فوائد جمة إن هم اعتنقوا دين الأغلبية وأصبحوا جزءا من الثقافة السائدة، للتمتع بالحماية، والإفادة من الحراك الاجتماعى الجديد. كذلك، يذهب البعض إلى الالتحاق بصفوف الجند ضمن حملات الغزو الإسلامى بدافع المغامرة واقتسام الغنائم والأسلاب.

بيد أن عملية التحول إلى اعتناق الإسلام تلك لم تكن بالسرعة التى تم تصويرها والترويج لها، فقد أظهر بحث اريتشارد بولييه، من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، عن معدلات اعتناق غير العرب للإسلام - بطئا فى تلك العملية خلال القرن الأول الهجرى. ففى ظل خلافة الدولة الأموية، لم تزد نسبة من تحول للإسلام من الشعوب المهزومة عن عشرة بالمائة، وبمقارنة تلك النسبة بنظيرتها فى ظل خلافة الدولة العباسية ذات التوجه متعدد القوميات، نجد أن الأخيرة قد ارتفعت من أربعين بالمائة إلى مائة بالمائة تقريبا مع نهاية القرن الحادى عشر الميلادى.

كذلك، فلم تتحول جميع المجتمعات نحو اعتناق الإسلام. فقد أظهر وجود جماعات مسيحية كبيرة من طوائف شتى على امتداد الشرق الأوسط، بالإضافة إلى الجماعات اليهودية - أن "أهل الكتاب" كان لهم مطلق الحرية فى اعتناق الدين

الجديد أو عدم اعتناقه بأن يظلوا يتعبدون كنصارى ويهود ويؤدون الجزية، وبذلك يعفون من الانخراط فى صفوف العسكر ويتمتعون بحماية الدولة الإسلامية. وفى ظل خلافة الإمبراطورية العثمانية، بعد ذلك بألف عام، ظلت الغالبية العظمى من رعايا الدولة فى البلقان على دينها المسيحى، ولم يحدث تغير ملحوظ فى مجريات حياتها أو ممارساتها للطقوس التعبدية الخاصة بها.

إذا، وتحقيقا، كانت عملية التحول إلى اعتناق الإسلام تتسم بالتدرج، ولم تستتبع إحداث تغييرات كبرى أو فجائية فى الحياة بإقليم الشرق الأوسط، حتى وإن شرعت حضارة إسلامية عالمية جديدة فى الانبثاق وئيدا. لذا، كان الأثر الدينى أقل درجة من أثر التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد شهدنا عناصر الاستمرارية فى شخصية الشرق الأوسط السياسية والاجتماعية والجيوبوليتيكية مع الانتشار والهيمنة التدريجية للإسلام كدين جديد. وبذا، تبقى المقولة السطحية : "الإسلام فى مواجهة الغرب" أو "الإسلام إزاء المسيحية" غير ذات معنى كونها فارغة من أى مضمون أو دلالة.

ولقد أسهم الإسلام فى تغيير المناخ السياسى بالمنطقة، إلا أنه قد تأثر أيضا بذلك المناخ. فباشتمال الدولة العباسية على عناصر متزايدة من الإثنيات والثقافات واللغات من الأندلس غربا وحتى جنوب أسيا ووسطها شرقاً، فإنها أخذت مظهرا كوزموبوليتانيا بتوظيفها لمهارات تلك الشعوب ومواهبها. ولقد ساعد رجال اللاهوت والفلسفة والمفكرون النساطرة والسريان فى إرساء دعائم الثقافة بالدولة العباسية. كذلك، فقد كان للبطريرك النسطورى فى كنف الإمبراطورية الإسلامية سلطة وتأثير كبير إبان الدولة العباسية. كذلك، فقد كانت ثمة عوامل نهضة ثقافية وحضارية تختمر ... تلك النهضة التى أدت إلى احتلال الحضارة الإسلامية مكانة سامقة وشأوا بالغا على امتداد العالم بأسره فى تلك الآونة، وخلال قرون أخرى لاحقة.

كذلك، فمن المشاهد هنا أيضا عملية هامة من الدمج والانصهار حيث تشربت

الثقافة الإسلامية، وعلى نحو تدرجى، بالثقافات والتقاليد واللغات والفنون والتجارب وتاريخ الشعوب المتاخمة، بما جعل الإسلام جزءا من الإقليم وليس مجرد صنيعة عربية تم فرضها على المنطقة. أما انصهار الحضارة الإسلامية وتكاملها العميق مع أقدم أقاليم الحضارة فى العالم فيشير، وفقا لعدة أوجه، إلى سلسلة متواصلة الحلقات من المخزون الحضارى والتشابه الثقافى والتوجه المشترك. فلم يتحول الشرق الأوسط على يد الإسلام إلى كيان جديد كل الجدة، وإنما أضاف إلى رصيده، على نحو بديع، طبقة جديدة من الحضارة والثقافة المتمثلة فى الإسلام، ليراكمها ضمن فسيفساء عميقة الغور بالغة الثراء.

لذا، فإن أشكال اندماج الإسلام والحضارة الإسلامية مع تقاليد حضارية وثقافية أخرى تعد جزءا هاما من رؤيتنا وفهمنا للمقولة الذاهبة إلى تعانق مسيرة المعطيات الجيوبوليتيكية والمتغيرات الثقافية بالإقليم. فلو لم يكن ثمة إسلام، فإن أغلب تلك القوى والمعطيات كان لها أن تستمر وتبزغ، كما كانت الحال حين ظهر الإسلام وأضاف طبقة جديدة من الحضارة والثقافة إليها. كذلك، فإن الكثير من التوترات الجيوبوليتيكية قد ظلت سارية. ولا شك أن الإسلام كان قادرا على توحيد تلك الأقاليم بنمط حضارى مشترك أثبت قابليته للاستمرار بجدارة حتى يومنا هذا، بغض الطرف عن التغيرات فى الخريطة السياسية للإسلام.

كذلك، فقد رأينا كيف كانت الهرطقات المسيحية المتنوعة تعمل كمحركات أيديولوجية للمقاومة المحلية ضد هيمنة روما والقسطنطينية، فمن غير المستغرب، إذاً، أن نجد مشكلات الهرطقة ذاتها، وقد استمر وجودها فى ظل الإسلام. فإذا أخذنا شمال إفريقيا كمثال، لوجدنا أنه بينما توغلت الجيوش العربية "السنية" بامتداد ساحل المتوسط بالشمال الإفريقى لترسى هيمنة عربية، رأى الأهالى، وأغلبهم من البربر بلغتهم وثقافتهم وتقاليدهم المتميزة - هذا المد للهيمنة العربية باعتباره تهديدا إثنيا وسياسيا بالأساس. وكنتيجة لذلك، فعندما تم تدشين أركان الحكم الإسلامى الجديد هناك، عمد البربر إلى اعتناق الفكر الشيعى وأفكار

الخوارج. وقد مثلت تلك المذاهب الإسلامية غير التقليدية ضربا من الاحتجاج ضد القوى العربية السنية التقليدية.

القـوة المستدامـة

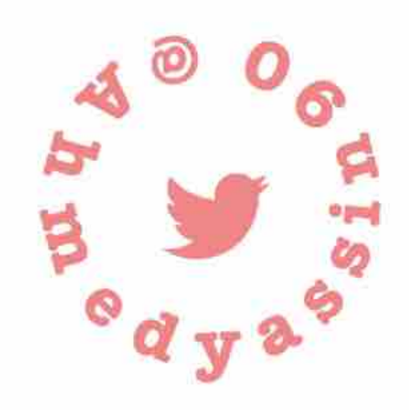
أن نشهد مدى توغل الفتح الإسلامى بفضل المهارات الحربية والاستراتيجية، فهذه حقيقة ... أما قدرة الإسلام على الاحتفاظ بقوة مستدامة وتغلغل داخل أقاليم شاسعة وثقافات متباينة وشعوب شتى إلى الآن، فتلك حقيقة أخرى تثير الإعجاب. على أننا يمكننا أن نعزو ذلك إلى مجرد تفوق القدرة العسكرية الإسلامية عبر القرون. فلماذا لم تعد سوريا، على سبيل المثال، إلى اعتناق المسيحية، أو أى من ديانات أخرى سابقة، بعد أن ضعفت شوكة العرب لاحقا؟ ولماذا لم تعد إيران لاعتناق الزرادشتية حين ضعفت الدولة العباسية ثم انهارت على أيدى المغول؟ فإذا كان الإسلام قد أجبر تلك الشعوب المتنوعة على اعتناقه، أفلا يكون لنا أن نتوقع قيام تلك الشعوب، فى مرحلة زمنية أو أخرى على امتداد الأربعة عشر قرنا التالية، بالثورة ضد الحكم الإسلامى لاستعادة معتقداتهم وثقافاتهم؟

فحين قامت جيوش المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى بسحق القوة الإسلامية فى أغلب بلدان المشرق، كيف تأتى للحضارة الإسلامية أن تنفض عن نفسها آثار تلك الهزيمة، وتبعث من جديد من الرماد كطائر الفينيق؟ هنا، فإن مرونة الإسلام كعقيدة وثقافة ونمط مجتمعى ونظام سياسى تبدو مذهلة، حتى فى أدنى مستوياتها. إن ترابط المجتمعات الإسلامية وتلاحمها فى وجه مختلف الظروف والحوادث إلى يومنا هذا، بما فيها، الكولونيالية الأوروبية والحروب الكونية والحرب الباردة – تشير إلى وجود "رابط حضارى" ينتظم عناصرها ويقيها من التحديات الخارجية، حتى حين تأخرت الحضارة الإسلامية عن مسيرة القوة والتقنية التى قادها الغرب فى العصر الحديث. لذا، فإن الإسلام قد ساعد فى تماسك الإقليم واتحاده فى ظل ثقافة وحضارة راقية مشتركة. بيد أن المشاعر

والمواقف تجاه الغرب وروما وحتى القسطنطينية لها أصول موغلة وجذور ضاربة سبقت ظهور الإسلام واستمرت أثناءه.

إن رسالة الإسلام المباشرة قد خاطبت مشاعر الجماهير التى آمنت بها. كذلك، فإن بساطة الإسلام ووضوح عقيدته، بالمقارنة بالطبيعة المركبة للمسيحية وإلغازها وعسر استيعابها ذهنيا، وهو ما يتضح من المجامع الكنسية اللانهائية ذات الصبغتين الدينية والسياسية - قد عملا بما فيه صالحه. إن سحر الإسلام كعقيدة وانتشاره السريع قد يكونا السبب فى خوف القوى المسيحية منه، ومحاولاتها المبكرة وصمه بعكس ما هو عليه من روحانيات. وبينما نجد أن جميع الحكام بإمكانهم استخدام الغلظة والقسوة فى إدارتهم لشئون ممالكهم ومعاملتهم لرعاياهم، فإننا نلفى الصيغة الإسلامية للحكم وقد بزت تلك المعتمدة من قبل خصوم الإسلام فى أغلب الحالات، من خلال رؤيتنا للمدى الزمنى الممتد الذى سادت فيه تلك الصيغة بنجاح وسداد. ذلك أن السيف قد يكون له كلمته فى البداية، ولكن تعن الحاجة إلى مهارات الحكم الجيد فيما بعد. انظر كيف انهار العديد من الإمبراطوريات العظمى.

فبتسيده السياسى والدينى فى إقليم الشرق الأوسط، نجد الإسلام قد جاء ليتواءم مع المعتقدات والأفكار الدينية التى سبقته، ليمثلوا معا انصهارا للتالد والطريف من الأفكار ووجهات النظر. وهنا، لايستقيم الزعم بأن الإسلام قد جاء ليمثل قوة عدائية جديدة عمدت، على نحو مفاجئ، إلى تغيير الطبيعة الجيوبوليتيكية لإقليم الشرق الأوسط أو إرساء صنوف غير مسبوقة من مشاعر مناهضة الغرب. إن المشاهد أن الحضارات والتوجهات والأمور الجيوبوليتيكية التقليدية قد استمرت كما كانت عليه فى السابق، إلا أنها قد تزيّت بإهاب إسلامى. فلو لم يكن ثمة "إسلام"، أكان للأنماط القديمة من المناهضة السامية للحضارة اليونانية والحضارة البيزنطية الرومانية أن تخفت وتتلاشى؟


@Ahmedyassin90

الفصل الخامس

الحروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٧٢)

بقلوب تملؤها الحماسة المسيحية، وبرايات خفاقة وألوية مشرعة فى الفضاء - مضى الصليبيون الغربيون صوب الشرق بموجب مرسوم البابا وأمره فى القرن الثانى عشر الميلادى بتحرير الأراضى المقدسة وتخليصها من قبضة الكافرين (المسلمين) ... تمثل تلك المشاهد ومثيلاتها جزءا من أسطورة التاريخ الغربى. أفليس الإسلام ضد الغرب؟! بالنسبة للكثير من الأصوليين، مسيحيين ومسلمين، تؤرخ الحملات الصليبية لبداية صراع الحضارات. بيد أنه إذا ما ألقينا نظرة أعمق وأشمل، لاتضح أن الأمر ينطوى على ملامح أكثر تعقيدا. فهل نحن نتحدث، بالفعل، عن صراع للحضارات - باعتباره طورا آخر من أطوار "الصراع الأزلى" بين الإسلام والغرب؟ أم أنه ربما يكون هناك ما هو أكثر تعقيدا يجرى بالفعل؟

سيناقش هذا الفصل كيف كان الدين الخلفية المصورة والرواية الشائعة والمسوغ لما كان خطوة جيوبوليتيكية كبرى من قبل الغرب حين أرسل جيوشه صوب الشرق. فهل كان يمكن أن تكون ثمة حروب صليبية في الأراضي المقدسة ما لم يكن ثمة "إسلام"؟...

فلننظر بعمق إلى هيكل الأحداث والعلاقات، فلعل الإجابة تكون غير متوقعة.

إذاً، ما الحدث التاريخي شديد الصلة بالدين غير "الحروب الصليبية"؟ لقد لاحظ المؤرخون نموا عاما في "التقوى" في أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي، والذي سرعان ما وظفته الكنيسة لصالحها. ولقد انطوت "المغامرة" على بعد رؤيوي، إذ آمن الكثيرون بأن تأسيس دولة مسيحية في أورشليم ثانية قد يتواكب مع نهاية الزمان – وهي رؤية سائدة واعتقاد شائع. فلأول مرة في أوروبا، بزغ وعي جديد

بوجود "عالم مسيحى" قائم، حين شرع الواعظون فى إخبار العامة بوجود "آخر" وثنى فى الشرق الأوسط - وهو طرح لم يكن شائعا فى فترات التاريخ الأوروبى المبكرة المتسمة بالظلامية والعزلة الشديدة.

وقد شجعت الكنيسة الرجال على تسجيل أسمائهم "كجنود الكنيسة" للقتال لتوسعة رقعة الأراضى المسيحية. وتسرد الروايات التاريخية الطقوس المهيبة والجليلة لمراسم تسجيل الأسماء، حيث كان كل مقاتل يقسم يمينا بأن يواصل المسيرة نحو أورشليم ليتلقى هناك صليبا من ممثل البابا تقديرا لمكانته كجندى من جنود الكنيسة. وقد أعفى المسجلة أسماؤهم من التقاضى المدنى خلال فترة الخدمة تلك. كذلك، فقد شغلت اعتبارات يوم القيامة الكثيرين - وبخاصة كيف يمكن أن يحظى المرء بمغفرة ذنوبه ... يكمن ذلك فى مجرد الانضمام والانخراط فى مجريات الحروب الصليبية؟ فإذا ما انخرط المرء، هل ستقتصر الذنوب التى سيتم غفرانها

على تلك المقترفة قبل لحظة الرحيل للانخراط فى تلك الحروب، أم سيتم غفران جميع الذنوب اللاحقة إلى الأبد؟ وهل على المرء حقا أن يموت ليحظى بالمغفرة؟ كذلك، فبعد أن يتم إنقاذ أورشليم، هل سيظل الباب مشرعا لغفران الخطايا والذنوب، أم أنه سيغلق ثانية؟

تلك كانت أسئلة محيرة واجهت المتطوعين للانخراط فى الحروب الصليبية، ربما كانت شبيهة للغاية بتلك الجدالات الدائرة اليوم بين بعض المسلمين الأصوليين عما يمكن أن يطلق عليه، وبحق، "الموت كشهيد". إن الشهادة، فى واقع الأمر، تشير بالتحديد إلى التضحية بالنفس دفاعا عن الدين ونصرته، والعمل على نشر رسالته. ولكن، إذا قام أحدهم بعملية انتحارية ضد العدو -الأمر الذى يحرمه الإسلام- فهل يعد ذلك الموت الذى جره المرء على ذاته "شهادة حقة"؟

نداء البابا «ايربان» الثانى

إن الجدل حول الطابع الدينى للحروب الصليبية لا يمكن استحضاره بأفضل من خطاب البابا ايربان الثانى للعامة فى مجمع "كليرمون" فى عام ١٠٩٥، إذ يعد وثيقة غربية مبكرة على درجة عالية من الأهمية تناشد المسيحيين للجهاد ضد الشرق المسلم (الكافر)، على أنه لا توجد سجلات دقيقة لما قاله ايربان تحديدا، وإنما شذرات لقادة شتى من الحضور، على ما بها من اختلافات وتباينات. ولكن المهم فى الأمر هو البلاغة الخطابية، إذ نشهد إرهاصات لما أطلق عليه لاحقا "صراع الحضارات" الذى طال كلاً من المسيحيين والمسلمين. وتدرك "نكهة" آراء البابا وتعليقاته من بعض الفقرات المنتقاة من واحد فقط من المراقبين العديدين، فولشر من شارتر، مقتبسا ومجليا مخاوف البابا من غزو المسلمين للغرب :

فكما سمع معظمكم، فقد هاجم الأتراك والعرب "البقاع المقدسة" وغزوا أراضى الإقليم ... حتى وصلوا غربا إلى شواطئ المتوسط والدردنيل ... كذلك فقد قتلوا وأسروا أعدادا كبيرة، ودمروا الكنائس وخربوا الإمبراطورية. فإذا ما تركوا

ليواصلوا ما هم عليه بلا رادع. فإن خلصاء الرب ستتم مهاجمتهم على نحو كبير لا محالة. وفى هذا الخصوص، فأنا ألتمس، بل إن الرب ليطلب، منكم كجند المسيح ورسله نشر كلمتى هذه فى كل مكان، وإقناع جميع البشر أياً من كانت رتبته أو مركزه، ... المشاة والفرسان، الفقراء والأغنياء، أن يدعموا هؤلاء المسيحيين على الفور، وأن يدمروا هذا الجنس الخبيث ويجلوهم عن ديار أصدقائنا وأراضيهم. لقد أبلغت الحاضر، وليبلغ الحاضر الغائب. فذلك أمر المسيح.

فما أشأمه من خزى، وما أذله من عار لو تمكن هذا الجنس الوضيع الحقير العابد للطاغوت – من هزيمة الشعب المؤمن بالله وصاحب المجد بكلمة المسيح.

فليهب أولئك الذين درجوا على السرقة لأمد طويل ليصبحوا الآن فرسانا ... وليهب أولئك الذين كانوا يقاتلون إخوانهم وذويهم ليقاتلوا بمجد وفخار أولئك الهمج.

ولعل السمة اللافتة فى خطاب البابا، على اختلاف رواياته، هى اختفاء لفظة "المسلمين" و"الإسلام" تماما. إذ كانت الإشارات إلى "وثنى"، و"كافرين"، و"الأتراك"، و"العرب" الذين قمعوا إخواننا المسيحيين وعاثوا فسادا فى "الأراضى المقدسة". أما السلطات المسيحية فلم تشر إلى هؤلاء حتى بأنهم "مسلمون" – بما للكلمة من دلالة سلبية. إذاً، يتم النظر إلى العدو صراحة، ونعته وفقا لمصطلحات إثنية، أو بأنه كافر، أو بأنه مضطهد للمسيحيين. فأى دين يعد، إذاً، من تلك الوجهة، ممارسة وثنية.

مذبحة اليهود

فى ندائه بمجمع "كليرمون" لحملة صليبية، أشار البابا ايربان الثانى، على نحو متواتر، إلى "الكافرين" بأنهم العدو. بيد أن هذا قد يتضمن المسلمين واليهود. وقد كانت معاداة السامية، بالفعل، ظاهرة مألوفة فى أوروبا، حيث اعتبر اليهود، بشكل عام، "قتلة المسيح". ونتيجة لذلك، وحتى قبل أن يغادروا أوروبا فى مهمتهم،

طافت فرق الصليبيين أراضي واسعة من ألمانيا، وبخاصة وادى "الراين"، حيث خير اليهود ما بين التحول إلى اعتناق المسيحية أو الموت. ووفقا لهذا الشرط، تم قتل نحو اثنى عشر ألف يهودى، فضلا عن قيام عدد من الجماعات اليهودية بعمليات انتحار جماعية لقتل أنفسهم، وذلك على نطاق واسع.

وبذا، فقد أدى نداء البابا إلى تعظيم شأن العنف ورفعته فى سبيل الأهداف السامية، كما رسم صورة للعطايا والنعم فى الآخرة لقاء قتل جميع غير المسيحيين. كذلك، فمن المذهل أنه بينما لم يضمن البابا المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين فى عداد الكافرين، على المستوى الشعبى، إلا أن الكثير من المسيحيين الأوروبيين كانوا ينظرون باقتناع إلى المسيحيين اليونانيين على أنهم كافرون أيضا، خاصة بعد "مذبحة اللاتينيين" التى اقترفت فى القسطنطينية فى عام ١١٨٢، بعد قرابة مائة عام من الحملة الصليبية الأولى.

وعلى أية حال، فإن الاستجابة الشعبية الواسعة لنداء البابا كان قوامها عدد قليل من الفرسان فى مقابل حشود كبيرة من العامة الذين تطوعوا للقيام بالرحلة الشاقة، بما فيهم أعداد كبيرة يفتقرون إلى أية مهارات قتالية، ويجهلون المهام العسكرية الفعلية التى عليهم إنجازها. كذلك، فقد انضم إلى تلك الحشود أعداد ضخمة من النساء والأطفال. ولم تكن تلك الجماعات تعدو إلا أن تكون حشدا من الغوغاء عديمى المهارة، لا ينتظمهم رابط حاكم سوى أحلامهم الرؤيوية بالخلاص، ورغبتهم فى الانعتاق من مآسى الحياة اليومية داخل أراضيهم وبلدانهم. وبالفعل، فقد كشفت أفعالهم وأبانت سلوكياتهم أثناء رحلتهم تلك عن طبائعهم وحقيقة شخصياتهم. فقد وجدت تلك "الحملة الشعبية" نفسها منخرطة فى مواجهات مع مسيحيين آخرين حتى عند اجتيازهم أراضى مسيحية فى البلقان. فعقب عقود قليلة تلت "الصدع الكبير" ما بين روما وبيزنطة فى عام ١٠٥٤، كان المسيحيون الأرثوذكس الشرقيون ينظر إليهم نظرة دونية ويوضعون فى مرتبة أدنى. ولقد فطن الإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية إلى خطورة تلك الحركات الغوغائية منفلتة

العقال، إذ بينما كانوا يتقدمون صوب المدينة، حرص الإمبراطور على جعلهم يسرعون خارج حدود المدينة تلقاء أجزاء الأناضول المسيطر عليها من قبل الأتراك. وما حدث بالفعل أن الكثير من تلك الحشود الشعبية لم تصل أبدا إلى أورشليم، إذ هلكوا جراء الأمراض والمشقة الهائلة، أو أبيدوا على أيدى الأتراك فى القسطنطينية.

أما أولئك الذين دخلوا بالفعل الأراضى المقدسة فكانوا، فى غالبيتهم، جاهلين، متخبطين لا يهتدون، مفتقرين إلى وجهة سليمة، متضورين فى بعض الأحيان، يأتون بأعمال عنف وحشى خلال غزو المدينة الشرقية بقتلهم لأغلب سكانها، وتدميرهم للمساجد ونهبهم للمدن. كذلك، فقد انخرطوا فى العديد من الانتهاكات التى رصدت كأكلهم لحوم البشر على ما ذهب إليه الغربيون أنفسهم :

فقد كتب رادولف من "كاين"، وهو شاهد عيان على ما حدث فى معرة النعمان فى عام ١٠٩٨، : "فى المعرة، قامت القوات بوضع الوثنيين البالغين على قدور تغلى، وقامت بوضع الأطفال فى سفود والتهمتهم بعد شيهم".

أما المؤرخ ألبير من "ايكس"، فقد وضع المسلمين فى مرتبة الكلاب، إذ كتب : "لم تأنف قواتنا من أكل لحم الأتراك والعرب المسلمين أمواتا، فقد أكلت الكلاب من قبل".

لقد مثلت تلك الحملة الصليبية "الشعبية" أول مواجهة عسكرية بين الغرب الأوروبى والشرق الأوسط، عدا الأندلس فى أقصى الغرب، حيث امتد الحكم العربى لها طيلة ثمانية قرون. كذلك، فقد أرخت الحروب الصليبية لغزو الغرب الأوروبى لإقليم الشرق الأوسط بما له من آثار قائمة حتى الآن.

أما فى الحملات المتأخرة، فقد لبى نداء الذهاب إلى أورشليم فرسان أكثر دربة وحنكة. بيد أن تلك القوات العسكرية ذات الخبرة نفسها كانت مصدر تهديد لبيزنطة بقدر ما كانت كذلك للمسلمين : فقد كانت تصول وتجول فى أرض بيزنطية،

ولكن بعيدا عن سيطرة بيزنطة. وسرعان ما تحققت مخاوف بيزنطة فى الحملة الصليبية الرابعة.

فحين وطئت أقدام الحملة الأولى أراضى أورشليم فى عام ١٠٩٩، فإن ذلك الغزو كان عملا وحشيا عنيفا، فى تناقض صارخ مع الكيفية والسلوك الذى فتح بهما العرب المدينة قبل نحو خمسة قرون. ففى عام ٦٣٧، ترد إلى الأذهان كيف دخل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب بنفسه المدينة بعد حصار دام لعدة أشهر، وكيف حافظت القوى العربية على انضباطها العسكرى، وكيف لم تنهب المدينة أو تسلب، وذلك وفقا للمعاهدة التى أبرمها الخليفة مع بطريرك أورشليم حين استلامها. وفيما يرتبط بالنصارى، فقد جاءت المعاهدة لتؤكد على :

"أن تترك الكنائس والصوامع ودور العبادة كما هى، فلا تسلب، ولا يتم تدميرها، ولا تتعرض لأى انتقاص أو حط من قدرها، وكذلك الأمر بالنسبة للصليب والأموال، ولا يجبر النصارى على ترك دينهم وتغيير ملتهم، وألا يؤذى أحد منهم أيا من كان".

وقد أشارت المصادر اليهودية إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب قد راعه ما آل إليه المعبد اليهودى من دمار، إذ صارت أطلاله تؤوى ركاما من النفايات خلال العهد الرومانى، فالموقع له قدسيته أيضا لدى المسلمين. ويذكر أن الخليفة ذاته، وبمعاونة رجاله، قد قام بتنظيف المكان بيديه. وقد سمح لليهود بممارسة عقيدتهم وطقوسهم الدينية فى المدينة للمرة الأولى منذ أن طردهم الرومان منها قبل نحو خمسة قرون.

على أن دخول الحملة الصليبية الأولى أورشليم فى عام ١٠٩٩ كان مختلفا تماما. فقد حارب اليهود، الذين خشوا قدوم الحكم المسيحى، جنبا إلى جنب مع المسلمين دفاعا عن المدينة، ولكن بلا جدوى. فبعد حصار طويل ومكلف، دخل الصليبيون المدينة فى الخامس عشر من تموز/يوليو، وقاموا، خلال أربع وعشرين

ساعة فقط، بقتل كل سكانها -الرجال، والنساء، والأطفال، والمسلمين، واليهود، ومعظم المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين- وكان عدد القتلى نحوا من ستين ألف فرد، بمن فيهم آلاف اليهود الذين لاذوا والتجأوا إلى معبدهم، وآلاف أخر من المسلمين فى المسجد الأقصى. وقد أشارت دائرة المعارف الكاثوليكية، فى تقدير محكم لها، إلى أن "المسيحيين قد دخلوا أورشليم من كل الجهات، وذبحوا أهلها دونما أدنى اعتبار لأعمارهم، ودون تفرقة بين رجل أو امرأة".

وقد كتب فولشر من شارتر، وهو صليبى شارك فى تلك الحملة "حقا، فإذا ما كان لك أن تشهد ما جرى، لرأيت أقدامنا وقد اصطبغت بلون دماء القتلى. ولكن، من أين أبدأ روايتى؟! فلم يترك ساكن من أهل المدينة إلا وقتل، حتى النساء والأطفال لم ينجوا من تلك المذابح".

وتوجد العديد من الروايات الأخرى حول العنف والوحشية المفرطة التى أنزلها الصليبيون بالمدن الإسلامية وأهلها فى طريقهم إلى أورشليم. على أنه لمن السذاجة الاعتقاد بأن مظاهر الوحشية والدمار كانت حكرا على طرف واحد دون غيره، فالحروب على مر العصور تتسم بالوحشية. إذا، فلا يفهم من إيرادنا هنا لبعض من الروايات المنتقاة أن الصليبيين كانوا أشرارا، فيما كان المسلمون مجرد ضحايا أبرياء. ولكن القوى الأوروبية، آنذاك، كانت بالفعل تجتاح القلب من الشرق الأوسط. وكانت تلك هى بداية تاريخ طويل من التدخل الأوروبى المسلح فى الشرق الأوسط لقرون عديدة لاحقة. إن العقلية الدموية للصليبيين أنفسهم نادرا ما يشار إليها فى الأقاصيص الشعبية عن فروسية الصليبيين وشهامتهم. كذلك، يوجد تناقض صارخ بين المناحى الدينية والقانونية فيما بين الفتح الإسلامى لأورشليم فى عام ٦٣٧، والاجتياح المسيحى لها فى عام ١٠٩٩ . فالمسلمون، وفقا للعقيدة الإسلامية، مطالبون باحترام مكانة اليهود والمسيحيين داخل المجتمعات الإسلامية، وهو ما قاموا به، على نحو كبير (بالرغم من وجود حالات أخرى، بطبيعة الحال، لم يراع المسلمون فيها التقيد والالتزام بتعاليم دينهم)، وبالمقابل، فلم يكن المسيحيون

مطالبين، وفق عقيدتهم، باحترام مكانة اليهود والمسلمين داخل المجتمع المسيحى، وبالفعل لم يقوموا باحترامها. وأخيرا، فالغرب بحاجة إلى أن يفطن إلى الرؤية العكسية للمسلمين بشأن ما يروى عن تلك الحملات من جانب الصليبيين، إذ ما تزال رواياتهم ذات الوجه الآخر بشأن أحداث تلك الحملات تهيمن على الثقافة الإسلامية إلى اليوم.

الحملة الثانية

إذا كانت الحملة الصليبية الأولى تعرف "بالحملة الشعبية"، فإن ما ميز الحملة الثانية هو مشاركة العديد من الملوك الأوروبيين فيها، حيث سعت لمزيد من التوسع عما أحرزته الأولى. إلا أن النتائج عسكريا كانت مخيبة للآمال، إذ دحر الأتراك السلاجقة معظم الجيوش الملكية فى آسيا الصغرى قبل أن يصلوا إلى الأراضى المقدسة. وكما كان الوضع فى الحملة الأولى، فقد أدى التوغل المستمر لمجموعات جديدة عديدة من القوات العسكرية الغربية داخل الأراضى البيزنطية إلى تزايد مخاوف بيزنطة وارتيابها فى نوايا الصليبيين . وقد عمد الإمبراطور، ثانية، إلى تعطيل دخول الغربيين إلى الأراضى البيزنطية، ثم قام بحشدهم وإخراجهم بأقصى سرعة عبر البوسفور وفى الطريق جنوبا عبر الأراضى ذات السيادة التركية. وقد قامت القوات الصليبية القادمة من صقلية، فى تلك الآونة، بسلب العديد من المدن اليونانية، وذلك فى أثناء رحلتها صوب الشرق، مؤكدة بذلك مخاوف بيزنطة بشأن نواياهم الحقيقية.

وفى النهاية، فشل الصليبيون فى الاستيلاء على دمشق، باعتبارها هدفا رئيسيا ومحطا للأنظار، ولم يكن للحملة الثانية بذاتها شأن يذكر. ويذهب برنار من كليرفو إلى أن خطايا الصليبيين هى التى أدت إلى إخفاقاتهم. أما ثالثة الأثافى، فكانت حين وحد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى القوى المسلمة بالمنطقة فى عام ١١٨٠، وقام باستعادة أورشليم من أيدى الصليبيين.

الحملة الثالثة

لقد أدت استعادة المسلمين الصادمة لأورشليم إلى توحيد أوروبا فى حملة صليبية ثالثة. وقد كانت استعادة صلاح الدين لها شبيهة جدا بأحداث سقوط المدينة فى أيدى المسلمين فى عام ٦٣٧ بقيادة الخليفة عمر بن الخطاب، إذ لم يلحق أهالى أورشليم المدنيين من المسيحيين إلا نزرا يسيرا من الضرر بعد دخول المسلمين المدينة، وهو الأمر ذاته حين فتح الخليفة لها. كذلك، فلم يتم المساس بالغالبية العظمى من كنائس المدينة، كما تمت مطالبة الصليبيين بدفع فدية للمسلمين. ومن الأمور التى ميزت الحملة الثالثة مشاركة الكثير من الرموز الملكية البارزة، كريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا، وفيليب الثانى ملك فرنسا آنذاك. وقد تحققت المخاوف والشكوك البيزنطية المستمرة، حين استولى ريتشارد، فى طريقه إلى البلاد المقدسة، على قبرص وانتزعها من قبضة الإمبراطورية البيزنطية. كذلك، فقد تهاوت النزاهة المزعومة للأوروبيين، وكذا ما روج له من تعاطف ومشاعر إنسانية لديهم ... حين وعد ريتشارد، أثناء حصاره لعكا، جميع المواطنين المسلمين بإعطائهم الأمان إن هم استسلموا، إلا أنه قد عمد-حين سقطت المدينة واستسلم أهلها، إلى قتلهم جميعا. وبعد إخفاقه فى استعادة أورشليم، أبرم ريتشارد اتفاقا مع صلاح الدين يقضى بتنظيم شروط ضمان انتظام قيام المسيحيين بالحج إلى المدينة.

الحملة الرابعة

كانت الشكوك الدائمة التى ساورت "اللاتين" و"اليونان"، كل منهما تجاه الآخر، وذلك خلال الحملات الصليبية الثلاث الأولى لتبلغ الآن أوجها. فقد نجم عن الحملة الرابعة العديد من الأحداث التى اكتنفها العار، وما زالت تحيا فى ذاكرة اليونانيين بما اصطبغت به من خزى وشنار. فبتجاهل مهمة تحرير أورشليم وإعادتها إلى حظيرة المسيحية مرة أخرى تجاهلا تاما، قام الصليبيون فى عام

١٢٠٤ بتوجيه اهتمامهم بعيدا عن أورشليم، وبالمقابل قاموا بالهجوم على القسطنطينية ذاتها لمدة أعوام عديدة تحت شعار "الكنيسة الرومانية"، وقاموا بسلب المدينة واحتلالها وتصريف الحكم بها. وكانت هذه، بحق، جائحة حضارية ... لحظة الافتراق السيكولوجى الأخير بين الشرق والغرب، وما انطوت عليه من أصداء لا حصر لها استمرت إلى يومنا هذا.

وحقيقة الأمر، فلم يوافق البابا "اينوسنت" الثالث أو يبارك مطلقا أى هجوم على القسطنطينية. على أن رجال الدين "اللاتينيين" القريبين من المشهد كانت تتجاذبهم نوازع أخرى، مثل حب المال، والطمع فى امتلاك السلطة، والرغبة فى تجاهل رؤية البابا وتجاوزها. وهنا، فإن المؤرخ اليونانى المعاصر الشهير، سبيروس فريونيس، يصف هجوم الصليبيين على القسطنطينية، فى السطور التالية :

"قام الجنود "اللاتينيون" بتعريض أعظم مدن أوروبا إلى موجات من النهب والسلب لا يمكن وصفها. فعلى مدار ثلاثة أيام، قاموا بالقتل والاغتصاب والنهب والتدمير، إلى الحد الذى كان سيجعل الوندال والقوطيين أنفسهم غير مصدقين ما جرى بالفعل. فقد أضحت القسطنطينية متحفا حقيقيا للفن القديم والفن البيزنطى، وسوقا كبيرة لثروات طائلة، إلى الحد الذى جعل اللاتينيين مذهولين مما وجدوا من ثروات عميمة. وبالرغم من تقدير أهالى البندقية للفن الذى اكتشفوه ومحافظتهم عليه ما أمكنهم إلى ذلك سبيلا (فقد كانوا أنفسهم أشباه بيزنطيين)، فقد قام الفرنسيون وآخرون بالتدمير من غير تمييز، ليستريحوا مقتسمين أقداح الخمر، ومنتهكين لأعراض الراهبات، فضلا عن قتلهم لرجال الدين الأرثوذكس. ولقد نفس الصليبيون عن كراهيتهم لليونانيين، على نحو كبير، بانتهاك قدسية أكبر كنيسة فى المسيحية. فلقد قاموا بتحطيم الحاجز الأيقونى الفضى الذى يفصل المذبح عن الجزء الأساسى للكنيسة، وتحطيم الأيقونات وإتلاف الكتب المقدسة فى "آيا صوفيا". كذلك، فقد أجلسوا على الكرسى البطريركى بغيا تؤدى أغانى رديئة فى حين كانوا يحتسون الخمر فى آنية الكنيسة المقدسة.

إن مشاعر العداء بين الشرق والغرب، والتى تواصلت حلقاتها عبر القرون، قد بلغت ذروتها فى المذبحة المروعة التى صاحبت غزو القسطنطينية. فقد كان اليونانيون على يقين بأن الأتراك أنفسهم، إذا كان قد كتب لهم الاستيلاء على المدينة، فلن يكونوا بمثل وحشية أولئك المسيحيين اللاتينيين وعنفهم. لقد أدت هزيمة بيزنطة، والتى كانت بالفعل تشهد انحسارا وتراجعا، إلى التعجيل بالفساد السياسى الذى نجم عنه أن أضحى البيزنطيون، فى النهاية، فريسة سهلة أمام الأتراك. إذا، فقد أدت الحملات الصليبية إلى انتصار "الإسلام" ... وهى نتيجة كانت، بالطبع، على النقيض تماما مما كانت النوايا معقودة عليه بادئ الأمر".

كان البابا اينوسنت الثالث يدرك تماما ما انطوت عليه تلك الهجمات اللاتينية على القسطنطينية من عواقب مستقبلية كارثية ... ذلك البابا الذى كان طموحه، فى الأجل الطويل، أن يعيد أواصر الوحدة واللحمة الكنسية ما بين الشرق والغرب، ولو تحت لوائه وقيادته. بيد أن نهب القسطنطينية قد أبطل أية إمكانية لإحداث مثل ذلك التقارب لفترة امتدت إلى نحو ألف عام، وهو مدى زمنى لم يكن ليدركه حينها. فكما كتب البابا نفسه :

"كيف يمكن إعادة الكنيسة اليونانية، التى ابتليت بمثل هذا الاضطهاد، إلى الوحدة مع الكنيسة اللاتينية أو تكريسها للكرسى الرسولى (البابوى)؟ إذ لم تشهد من اللاتينيين سوى نموذج الخراب والدمار والأفعال الظلامية إلى الحد الذى تمقتهم معه بأكثر مما تمقت الكلاب. ذلك لأنهم من يفترض أن يخدموا رسالة المسيح لا أن يخدموا مصالحهم الخاصة، هم من توجب عليهم إشهار سيوفهم بوجه الوثنيين، تقطر سيوفهم من دماء المسيحيين. إن اللاتينيين لم يحفظوا الدين، ولم يعبأوا بالاعتبارات العمرية وفروق النوع، إذ مارسوا الرذيلة والفاحشة على الملأ، وبمرأى ومسمع من العامة، تاركين العقائل، بل والراهبات نهشا ونهبا لبذاءة قواتهم الوحشية وفحشها. فبالنسبة لهم، لم يكن يكفيهم استنزاف ثروات الإمبراطورية وسرقة الشريف والوضيع ... بل كان عليهم بسط أيديهم على كنوز

وثروات الكنيسة بانتزاع النفائس الفضية من المذبح وتحطيمها إلى قطع لاقتسامها فيما بينهم، ناهيك عن انتهاك حرمة الكنيسة ومقدساتها واجتثاث الصلبان والتذكارات المقدسة".

بعد ذلك، عمد الصليبيون إلى تنصيب مطران فى المدينة. وفى هذه الأثناء، رفض المواطنون مرشح الصليبيين لاعتلاء سدة الإمبراطورية وانفجر الغضب الشعبى ضد اللاتينيين، إلا أن ذلك لم يمنع أن يعتلى إمبراطور لاتينى العرش فى القسطنطينية ليحكم الإمبراطورية لمدة سبعة وخمسين عاما، إلى أن سقطت المدينة فى أيدى البيزنطيين فى عام ١٢٦١ . ولم تنس الكنيسة الأرثوذكسية أيا من تلك الأحداث أو تغفر لمرتكبيها فعلاتهم، كما رفضت الجهود المتعاقبة لإحلال تسوية أو تأسيس اتحاد ثيولوجى بواسطة البابا فى أزمنة متفاوتة أعقبت نهب القسطنطينية. وقد صدرت أعلى الاعتراضات صوتا عن "الرأى العام" بالمدينة، الذى كان ليحط من قدر أى قس أرثوذكسى لمجرد التفكير فى التفاوض بشأن شروط محتملة للوحدة وفقا لإملاءات روما.

وبعد ذلك بنحو ثمانية قرون، وتحديدا فى عام ٢٠٠١، أعرب البابا يوحنا بولس الثانى للكنيسة الأرثوذكسية عن مشاعر أسفه خلال زيارته الأولى لأراض أرثوذكسية ... رومانية. وأخيرا، وفى عام ٢٠٠٤، تم قبول اعتذار البابا من قبل البطريرك المسكونى "بارتلميو الأول". وتشكل تلك المبادرات خطوات أولية هامة لتضميد جراح العلاقات الشائكة والمحتقنة فيما بين الشرق والغرب، والتى يعود تاريخها إلى قرابة الألفى عام. إن المواجهات ما بين روما والقسطنطينية خلال الحروب الصليبية لتحتل أهمية لا تقل فى المرتبة عن تلك التى تحتلها المواجهات فيما بين الإمبراطورية الشرقية من جهة، و"المسلمين" من جهة أخرى، بل غالبا ما تبزها، إذ تصدر عن رفاق مسيحيين كما تبدى ظواهر الأمور. إذاً، فقد أحدثت تلك الحروب الصليبية صدعا عميقا فى العلاقات ما بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، والذى ربما فاق مشاعر الغضب الذى نثرت بذوره، آنذاك، بين العالمين

الغربى والإسلامى ... تانك الظاهرتان اللتان لا يزال العالم يعانى إرثهما إلى اليوم.

نظرة فاحصة

كان اهتمامنا، إلى الآن، منصبا على المظهر الدينى المعلن للصراعات ما بين الغرب والشرق والعالم الإسلامى. دعونا، إذا، نتناول التفسيرات البديلة للأحداث ذاتها والتى لا تنطوى على بعد دينى. تشير الحقائق التاريخية إلى وجود قوى هامة أخرى، كالنزعة إلى بسط النفوذ والهيمنة الغربية بالخارج، والتأثير القوى للتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى أوروبا. فلو لم يكن ثمة "إسلام" – كونه الأساس المنطقى والمبرر الظاهرى للمغامرة الصليبية برمتها– أكان يمكن لشكل ما من الحملات الصليبية الغربية ضد الشرق أن ترى النور؟

لماذا تكون بعض الدوافع الدينية المعلنة للقوات الصليبية الغربية، فى جانب منها، موضعا للشك والارتياب؟ أولا : فإن الزمن الذى شنت فيه تلك الحملات يبدو غريبا. إن أورشليم قد سقطت فى أيدى قوات المسلمين في عام ٦٣٨، بينما استحثت الحملات الصليبية الخطى استجابة لسقوط المدينة وكردة فعل بعد وقوع الحدث بخمسمائة عام. ولم تكن تلك المرة الأولى التى تفقد فيها المسيحية أورشليم بسقوطها فى أيدى غير المسيحيين : إذا قامت الإمبراطورية الساسانية الزرادشتية فى بلاد فارس بالاستيلاء على المدينة فى عام ٦١٤، وحرقت كنيسة القيامة، وقامت بالاستيلاء على "الصليب الحقيقى". وبعد ذلك بعدة سنوات، وتحديدا فى عام ٦٢٩، استعاد البيزنطيون المدينة ثانية، لتقع فى أيدى القوات العربية بعدها بتسعة أعوام. إذاً، كان المسيحيون قد فقدوا الأراضى المقدسة مرتين – قبل نحو خمسة قرون من الاستجابة الصليبية لما جرى.

وخلال فترة الحكم الإسلامى، مارس المسيحيون واليهود شعائرهم وطقوسهم التعبدية، فى الجزء الأعظم منها، بسلام وأمان فى أورشليم، فضلا عن انتظام

رحلات الحجيج المسيحيين إلى المدينة. وقد تم خرق ذلك التعايش السلمى لمدة وجيزة عند نشأة الدولة الفاطمية الشيعية، وانتقالها لحكم مصر فى بدايات القرن الحادى عشر الميلادى، حيث أمر الخليفة الفاطمى الجديد بتدمير الكنائس وهدم المعابد فى أورشليم، بما فيها كنيسة "القيامة". وقد أحجم الفاطميون لاحقا عن سياسة الاضطهاد تلك حين أدركوا حجم المنافع الاقتصادية والمالية الكبيرة التى ستعود على الدولة من السماح بإعادة بناء دور العبادة، واستئناف مسيرة رحلات الحج، وتدفق الحجيج إلى الأراضى المقدسة دونما عوائق. وعلى أية حال، فلعل تلك الفترة الوجيزة التى اصطبغت بمشاعر عدائية، وبمظاهر من عدم التسامح - قد أشعلت فى الغرب شرارة نيران بدت خامدة، وحركت المياه الراكدة لقضية طال النظر إليها لقرون عديدة على أنها ساكنة هادئة.

أما فى الغرب نفسه، فقد كانت ثمة قوى فاعلة جديدة أسهمت كمحفز اجتماعى لتدشين الحملات الصليبية. فقد شهدت أوروبا قرونا طويلة من تعاقب الغارات الداخلية المدمرة، فضلا عن المناوشات، بل والحروب الصريحة فيما بين مختلف القبائل الهمجية التى غزت وطافت أوروبا طمعا فى الأسلاب. وفى الوقت ذاته، فقد ولدت الهجمات الانقضاضية على أوروبا على يد الهنغاريين وقبائل الفايكنغ - الحاجة إلى أعداد كبيرة من الفرق المحاربة للدفاع عن حدود أوروبا. وبمرور الزمن، وبتقلص وتيرة التهديدات الخارجية، انحسرت الحاجة إلى تلك الجماعات المسلحة على نحو كبير، إلا أنهم استمروا فى تطوافهم وقتالهم لبعضهم البعض، إلى جانب نهبهم للمدن، وانتهاكهم للنظام العام. وقد جاهد البابا طويلا، ولسنوات عديدة، لإيقاف هجماتهم ضد الأهالى، ووضع حد لحروبهم المدمرة فيما بينهم، إذاً، فقد كانت هناك حاجة إلى متنفس لتصريف طاقاتهم العدوانية التوسعية. وفى تلك الأثناء، كانت الهجمات الصليبية ضد المسلمين قد أضحت مألوفة من خلال حملات الفرسان المسيحيين شمالى الأندلس ضد الإمبراطورية الإسلامية فى الجنوب، والتى طال حكمها للبلاد طويلا. (إلا أن طرد المسلمين

واليهود من الأندلس لم يتم إلا بعد نهاية الحروب الصليبية بزمن طويل، وتحديدا في عام ١٤٩٢).

وفي خطابه بكليرمون، ألمح البابا ايربان الثالث إلى الحاجة لأن "يهب أولئك الذين درجوا على السرقة لأمد طويل ليصبحوا الآن فرسانا". ونحن ندرك جيدا ما للبلاغة الخطابية الدينية المشتعلة حماسة من أثر فاعل في استنهاض الهمم واستنفار الحملات العسكرية ضد الأعداء أينما كانوا ومهما بعدوا. إن الرمزية الدينية "للكافرين" -دون "المسلمين"- وكون أفعالهم تعد إساءة للرب، لتعطي القاعدة وترسي الأساس العاطفي والأيديولوجي الرئيسي لشن تلك الحروب الخارجية. كذلك، فقد ناشد البابا المسيحيين مطالبا إياهم بالتضامن مع إخوانهم من مسيحيي الشرق الأوسط، والذين انتهى الحال بهم بالفعل بأن يذبحوا، هم والمسلمون، بأيدي تلك الفرق الصليبية. إذاً، فماذا كانت الدوافع الرئيسية التي حركت الضالعين في تلك الحروب؟ لقد كان هؤلاء أطيافا شتى ومشارب عدة. أما البيزنطيون، فقد انتزعت الأراضي المقدسة من أيديهم بواسطة العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي، كما انتزعت منهم أراض أخرى لصالح المسلمين حين انحدر الأتراك السلاجقة في قرون لاحقة من آسيا الوسطى، وتوغلوا في أعماق الأناضول، مما أدى إلى تقلص حجم الإمبراطورية البيزنطية. وقد كانت القسطنطينية، آنذاك، في مسيس الحاجة للعون العسكري لمواجهة الجيوش التركية والعربية، وطالما ولت شطر الغرب لطلب المدد للذود عن حياض المسيحية والذب عنها. بيد أننا قد رأينا، آنفا، كيف تحققت بالكامل شكوك بيزنطة المبررة تماما فيما يتعلق بنوايا الغرب الحقيقية. وقد احتضن العديد من الملوك الغربيين، فضلا عن البابا، الأمل في إضعاف شوكة الحكم البيزنطي اليوناني، وإعادة زمام إدارة الإمبراطورية الشرقية إلى أيدي "اللاتينيين"، أي إلى "قبضة روما". إذ إنه لو قدر لروما أن تنجح في انتزاع الأراضي المقدسة من براثن الحكم الإسلامي، فحينها لن تكون فقط قد أعادت "المسيحية" إلى ذلك الإقليم، بل ستكون حصنا لتوسع قوتها

ضد القسطنطينية ذاتها. ومن ذا الذى كان بإمكانه التكهن بأن يؤدى ذلك إلى إعادة توحيد الإمبراطورية المقسمة، وذلك تحت رعاية روما الكاملة هذه المرة؟ إذاً، ألم تكن القسطنطينية، فى سعيها لاجتذاب مناصرة الغرب لها ضد المسلمين، تدعو الثعلب لحماية حظيرة الدجاج؟!

كذلك، فقد كان هناك العديد من العوامل الاقتصادية. إن المدن التجارية الكبرى، كالبندقية وجنوا، كان لها نصيب كبير ودور بارز فى تنامى وتيرة النشاط العسكرى شرقى المتوسط. وقد مثل ذلك صفقة رابحة لكلا الطرفين تحت شتى الظروف، إذ سيبلغ الطلب على السفن والمؤن والإمدادات اللوجيستية أقصى حدوده، علما بأن تينك المدينتين مؤهلتان، بجدارة، للقيام عن طيب خاطر وباقتدار بدور الوسيط فيما بين الأطراف المتقاتلة.

وفى أثناء الحملة الصليبية الأولى، انبثقت احتياجات جيوبوليتيكية إضافية. فقد أدى الاستقرار الاجتماعى المتزايد فى أوروبا إلى نشأة ارستقراطية قتالية أوروبية جديدة، كانت نواة "الحملة الصليبية الملكية" وعصبها. فعقب وصولهم إلى المشرق، قام بعض "الأمراء" الأوروبيين بتأسيس أربع ممالك مستقلة لهم على أراض إسلامية بامتداد ساحل المتوسط من آسيا الصغرى، وحتى الأراضى المصرية. وقد مثلت تلك الممالك، والتى عرفت بالإمارات الصليبية، وهى : أورشليم، وأنطاكية، والرها، وطرابلس – ربما النمط المبكر من الكولونيالية الأوروبية الفعلية فى قلب إقليم الشرق الأوسط. وبينما كانت حدود تلك الممالك وثرواتها ما بين مد وجزر من معركة إلى أخرى، فقد استمرت ثلاث منها تحيا كإمارات صليبية لما يزيد عن ١٥٠ عاما، لتسقط جميعها فى النهاية فى قبضة الجيوش الإسلامية. كذلك، فقد كان إنشاء قوة صليبية لاتينية فى تلك الممالك المستحدثة يعنى، عرضيا، طرد البطاركة الأرثوذكس من أورشليم وأنطاكية، وهى خسارة فادحة لمركزين دينيين هامين منيت بها الكنيسة الأرثوذكسية.

لذا، فقد كان سقوط الأراضى المهزومة فى قبضة المسلمين مبررا مقبولا لما حدث. ولكن، هل كان ثمة شك فى أن المغامرين الأوروبيين، فى لحظة زمنية ما، لم يكونوا ليقوموا بأنشطة استيطانية وتوسعية مماثلة فى الشرق الأدنى، إذا كانت المنطقة بأسرها قد سقطت فى أيدى المسيحيين الشرقيين، وليس فى قبضة المسلمين؟ إن ذرائع أخرى كانت لتساق، خاصة وقد كانت شتى القوى الملكية الأوروبية تتقدم لتنتزع أجزاء من الأراضى البيزنطية فى الوقت ذاته. وبحق، فقد كان يمكن أن تتخذ "المذبحة اللاتينية" كمبرر جيد إذا لم تكن أهداف المسلمين الأكثر وضوحا وجلاء قائمة حينها. وبعبارة موجزة، فإن القوى الأوروبية كانت تامة التسليح، موفورة العتاد فى تأهبها للانطلاق أينما وجدت. كذلك، كان من المستبعد تماما تصور إعداد حملة صليبية تحت لواء الكنيسة اللاتينية وإرسالها لمواجهة الكنيسة اليونانية، والتى كانت مزدراة من قبل الأولى. وبالفعل، فقد وقع هجوم على الكنيسة الشرقية خلال الحملة الصليبية الرابعة، بيد أن الهدف المعلن كان، بالطبع، مواجهة ما هو إسلامى.

ولقد كان التبادل الثقافى والتفاعل الحضارى فيما بين الإسلام والغرب ينحو لأن يكون محدودا بعض الشيء نظرا لتمسك الطرفين بتراثهما والتصاقهما بمجتمعاتهما. وقد كان الصليبيون مشدوهين بما بلغته الحضارة الإسلامية من رفعة وازدهار، كما أعجبوا بفنون الإسلام الرفيعة ومنتجاته النسجية، والتى كان لها جميعا تأثير جلى فى فنون أوروبا وإبداعاتها. وبينما كان ينظر إلى المسلمين، بصفة عامة، على أنهم "كافرون"، انبثقت وسط تلك النظرة أسطورة راجت فى أنحاء الغرب بشأن القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى، الذى استعاد أورشليم. فقد كان ينظر إليه كتجسيد لصفات النبل والشهامة والفروسية. أما المسلمون، فلم تكن نظرتهم إلى الصليبيين جيدة، إذ اعتبروهم أجلافا يفتقرون إلى التهذيب والصقل، ذوى رائحة كريهة تنبعث منهم، غير معتادين على ما درج عليه المسلمون من استخدام "الحمامات العامة" لاعتبارات النظافة وأغراض حفظ الصحة، كما عدوهم

أفظاظا فى سلوكياتهم ومعاملاتهم.

كذلك، فمن المثير ملاحظة أن الحملة الصليبية الأولى قد شهدت أول استخدام للمناداة باعتماد "الجهاد" وتبنيه من قبل المسلمين لصد الغزاة الغربيين. ونشأ ذلك الاستخدام وفقا لما ذهب إليه "على بن طاهر السلمى" -وهو عالم شرعى وفقيه لغوى دمشقى- إذ لم ير الصليبيين بمعزل عن، بل كجزء من، تهديد خطير للحضارة الإسلامية، خاصة وأن تلك الحملات قد تزامنت مع الصراع المستمر الذى دارت رحاه على أرض الأندلس بين الولايات المسيحية الصليبية، وبين تلك الإسلامية. وكانت الحروب الصليبية قد شهدت أول مواجهات متوالية فيما بين المسلمين والغربيين على أراض إسلامية، أما قبل ذلك، فقد واجهت القوات المسلمة، على وجه العموم، شعوبا شرقية كان أفرادها يعملون كمرتزقة بيزنطيين. ولقد كانت بيزنطة ملء السمع والبصر، ولكن العالم الإسلامى كان يشرع، بالكاد، فى اعتبار التحدى ذى الصيغة الأشمل من قبل الغرب الأوروبى. وكما أرجع البابا مسئولية هزيمة الصليبيين فى الحملة الصليبية الثانية إلى خطايا الصليبيين أنفسهم، فقد عزا "السلمى" هزيمة المسلمين خلال الحملات الصليبية إلى ابتعاد المسلمين عن جوهر الدين الحق، وطالبهم أولا "بالجهاد الداخلى" أو "الجهاد الأكبر"- بضبط النفس وإعلاء القيم الروحية فوق غرائز الإنسان الدنيا للتمكن من قيادة حرب إسلامية ناجحة (جهاد) ضد الصليبيين. وقد صور كلا الطرفين الصراع فيما بينهما على أنه حرب مقدسة متعامين عن مظاهر الصراع الجيوبوليتيكية. ولقد تجاهل القادة المسلمون نداء "السلمى" للجهاد، ولم يتم الالتفات إلى ذلك "المصطلح"، وربطه بالغزوات العسكرية إلا بعد سنوات عديدة من الحروب الصليبية، حين جسد القائد صلاح الدين تلك الرابطة.

الحروب الصليبية الشمالية

إذا كان ثمة شك حول ماهية الحملات الصليبية وكنهها أو حول طبيعتها التوسعية الشرهة، فإن الجانب السياسى المتسمة به قد اتضح بجلاء فى حملات صليبية أخرى وقعت في الآونة ذاتها، دون أن يكون لها أدنى علاقة بالإسلام أو المسلمين. فبالتزامن مع الحملة الصليبية الثانية، والتى دارت وقائعها بعد نحو خمسين عاما من الحملة الأولى، انبثق متنفس جديد لتلك الروح الصليبية داخل أوروبا ذاتها. فالقبائل الجرمانية التى لم ترغب فى تلبية نداء البابا للزحف نحو الأراضى المقدسة قد علمت أن بوسعها القيام بما عليها من التزامات دينية عن طريق شن حملات وغزوات ضد ما تبقى من قبائل سلافية وثنية فى البلطيق بغرض تحويلها نحو اعتناق المسيحية.

وقد أعلن برنار من كليرفو، المتحدث الرئيسى بشأن خطط البابا الصليبية، أن الحاجة تعن إلى محاربة السلاف الوثنيين إلى أن يتم قتلهم أو قيامهم باعتناق المسيحية. ولكن، بطبيعة الحال، لم تقتصر تلك الحملات على "هداية" الوثنيين. فقد كان الفرسان الجرمان الكاثوليك متحمسين لإزالة الأحقاد القديمة، والتى ارتبطت ببعض الخلافات الإثنية والنزاع على أراض بعينها، مع نظرائهم وشركائهم فى الحماسة الدينية المفرطة فى بولندا الكاثوليكية. كذلك، فقد كانت مملكتا الدانمرك والسويد المسيحيتان متحمستين لبسط نفوذهما جنوبا فى منطقة البلطيق، فحتى روسيا المسيحية الأرثوذكسية كانت هدفا لهما. وكنتيجة لتلك الحملات الصليبية المتعددة، "فإن شرق البلطيق قد شهد تحولات جراء تعرضه لتلك الحملات العسكرية.

فقد تعرض الليفونيون اللاتفيون والاستونيون أولا، ثم السلاف والفنلنديون فيما بعد للهزيمة والاحتلال والإبادة على أيدى جماعات من الجرمان والدانمركيين والسويديين".

إذاً، فقد كانت الحملة الصليبية الثانية مبررا دينيا لقيام القوى الجرمانية ببسط نفوذها وإحكام قبضتها الاقتصادية شرقا داخل البلطيق. ولقد أصدر البابا يوجين الثالث، فى عام ١١٤٧، مرسوما بابويا بخلع قيم روحانية واستحقاقات متساوية على جميع من انخرط فى الحملات الصليبية، سواء إلى الأراضى المقدسة أو ضد السلاف الوثنيين.

وفى عام ١٢٤٢، انطلقت كتيبة من الفرسان الجرمان الكاثوليك باتجاه "نوفغورود"، الإمارة الروسية الأرثوذكسية، بالقرب من "سان بطرسبرغ" الحالية، ولكنها هزمت، حيث حوصر عدد كبير من الفرسان الجرمان كثيفى العتاد فى الثلوج خلال معركة دارت رحاها على مياه بحيرة "لادوغا" المتجمدة. وقد تم تصوير تلك الواقعة فى الثقافة الروسية الشعبية بأنها واحدة من عدة انتصارات للأرثوذكسية، كهبة من السماء، فى دفاعها عن نفسها ضد قوى الشر الكاثوليكية الغازية – وهو مفهوم وتصور راسخ فى العقلية القومية الروسية. لذا، فحتى فى أوروبا، فإننا نلحظ صراعا جيوبوليتيكيا ثلاثى الأبعاد فيما بين الإسلام، والمسيحية الغربية، والمسيحية الشرقية الأرثوذكسية.

والملاحظ، باستدعاء ما ذكر آنفاً، أن البابا هو من دعا إلى كل تلك الحملات والحروب التى امتدت لنحو مائتى عام. فالبابا قد قام بالفعل بالتحريض، وبتوجيه وقيادة التحركات السياسية والعسكرية للأمراء الأوروبيين. ولا نجد مطلقا أدنى تشابه حين مقارنة ذلك بالمرجعيات الدينية الإسلامية ورموزها، والذين تنتفى مشاركاتهم فى توجيه أية تحركات للجيوش الإسلامية. (فحين اعتلاء الخليفة لسدة الحكم، وبخاصة خلال القرون القليلة الأولى التى أعقبت نشأة الإسلام، تكون أولى مهامه تدبير الأمر واستخدام نفوذه وقوته الدنيوية). ولا شك فى أن العلماء المسلمين قد باركوا الغزوات العسكرية للجيوش المسلمة، إلا أنهم لم يكونوا أبدا المحرضين عليها، أو الموجهين لدفة قيادتها. وهنا نلحظ، كما شهدنا آنفا، كيف ارتبطت الدولة والكنيسة ارتباطاً وثيقاً على امتداد الجزء الأعظم من التاريخ

المسيحى، وهو الأمر قليل الحدوث فى التجربة الإسلامية.

الحملات الصليبية فى ميزان التاريخ

تجدر الإشارة إلى أن المصادر التى تناولت تاريخ الحملات الصليبية بأى من لغات العالم، كانت بالأساس مصادر غربية. فالحملات الصليبية كانت، فى مجملها، حروبا غربية خيضت لأسباب غربية وفق سياق سياسى واجتماعى واقتصادى أوروبى. إذ كانت أوروبا، فى الحقيقة، مستعدة للقيام بمهمة كبيرة فى الشرق قادرة على امتصاص وإعادة توجيه جميع الدوافع المتباينة للمناخ السياسى والاجتماعى الأوروبى المحتقن. فقد كانت أوروبا الكاثوليكية مستعدة للشروع فى حملتها التوسعية المحمومة ضد السلاف الوثنيين، وكذا ضد اليهود والمسيحيين الأرثوذكس الشرقيين، أو المسلمين – وذلك بغض الطرف عن الدين السائد فى إقليم الشرق الأوسط آنذاك.

ولقد كان معظم المسلمين ممن كانوا لا يعيشون بالقرب من ملتقى الطرق التى ارتبطت بمسيرة الحملات الصليبية، أو ممن لم ينخرطوا فى تلك الصراعات الحربية– يجهلون ما حدث على نحو كبير. وحين اشتعال الحروب الصليبية، لم يكن المسلمون ينظرون إليها على أنها "حدث تاريخى" مثلما نظر إليها الأوروبيون وقتذاك، أو كما ينحو الفكر المعاصر إلى رؤيتها الآن. وحتى بالنسبة للمسلمين الذين تضرروا جراء المعارك المتواصلة للسيطرة على سواحل المشرق، فقد كانوا ينظرون إلى "الصليبيين"، أو كما كانوا يعرفون آنذاك "بالفرنجة" – على أنهم فصيل آخر من المرتزقة البيزنطيين، أو تلك الميليشيات الإثنية التى سيقت للخدمة من تخوم الإمبراطورية البيزنطية.

وكانت تلك الفترة هى التى تدوولت فيها لفظة "الفرنجة" للإشارة إلى الأوروبيين فى مجملهم. وما زالت تلك اللفظة مستخدمة على امتداد آسيا المسلمة للإشارة إلى الأجانب القادمين من الغرب، أياً ما كانت جنسياتهم وأعراقهم.

وأخيراً، فقد أدت الحملات الصليبية إلى خلق إطار من المواقف والاتجاهات المتبناة من كل طرف إزاء الطرف الآخر، وبصفة خاصة فى الغرب. وكما أوردت "كارول هيلينبراند"، الباحثة فى الشئون الصليبية:

"إن اتصال الأوروبيين بالعالم الإسلامى واحتكاكهم بالمسلمين كان له أثر فى إنعاش ذائقتهم تجاه الكثير من السلع كالعاج والمصنوعات المطعمة بالمشغولات المعدنية وغيرها من الكماليات الواردة من العالم العربى. ولعل أهم المصنوعات التى اشتهروا بها : الحرير الدمشقى، والأنسجة القطنية، فضلا عن ضروب أخرى من المنسوجات المخملية كالموسلين والساتان والتفتا...

ولدى عودتهم إلى أوطانهم عقب تلك الحملات التى استهدفت الأراضى المقدسة، انصب حديث الصليبيين على البلدان التى رأوها بما لها من غرائبية وسحر أخاذ. أما ظاهرة "الاستشراق" بداية من القرن الثامن عشر الميلادى وحتى يومنا هذا، وتجلياتها فى الأدب والفن الغربيين، والتى تناولها إدوارد سعيد باقتدار فى زمننا المعاصر - فقد استقت زادها واستمدت زخمها من تراث الصليبيين. فالعالم الإسلامى كان موطن الصحارى الشاسعة، والمدن ذات الأسوار، والنساء المرتدين الحجاب، والحريم، والخصيان، والحمامات العامة، والأسرار، وما ليس بمألوف من حيوان، كما كان موطن اللغات، والكماليات، والدين المغاير... وبعبارة موجزة، فقد كان العالم الإسلامى موطن الأخطار والغموض الرومانسى".

حين سئل عن رأيه فى الثورة الفرنسية، أورد شواين لاى - رئيس الوزراء الصينى الشهير خلال خمسينيات القرن العشرين ملاحظته ذائعة الصيت، "إن الوقت ما زال مبكرا جدا للحديث عنها". إذاً، فلا ينى الزمن أن يعكس الأحداث الماضوية وفق أنماط مغايرة، والتى تبوح لنا بالملاحظات المعاصرة كبوحها بأحداث سابقة بعينها. فبمرور الزمن، خضعت الحملات الصليبية للكثير من التأويلات ووجهات النظر، الإيجابية والسلبية. ففى العالم الغربى اليوم، ثمة نزعة ضمن أولئك

ذوى التوجه العلمانى لرؤية الأحداث على أنها تمثل ذراع التوسع الغربى، واعتبار تلك الحروب صفحة قاتمة من صفحات التاريخ الغرب. أما المراقبون المسيحيون ذوو النزعة المحافظة، فيعمدون إلى تبنى وجهات النظر التى تبرر التوسع الغربى فى الأراضى المقدسة كاستجابة للتحديات الخطيرة التى تهددت المسيحية بفعل التوسعات الإسلامية المستمرة حينذاك. إذا، فإن الجدل الدائر الآن فى الغرب حول الإسلام يجد جذوره فى استحضار الحوادث التاريخية.

وبالنسبة للمسلمين، فقد كان التحول فى المنظور أكثر حدة وأبعد أثرا. فاليوم، يلقى المسلمون نظرة على الماضى ليروا أن الحملات الصليبية قد اشتملت على أولى بذور النزعة الإمبريالية فى سياق السياسات الغربية. وقد وصف أسامة بن لادن، ضمن آخرين، الممارسات الغربية الحالية فى "الحرب العالمية ضد الإرهاب" بأنها عدوان "صليبى صهيونى" ضد الأراضى الإسلامية. وللأسف، فقد استخدم جورج بوش الابن المصطلح ذاته حين أشار إلى "تلك الحروب الصليبية، تلك الحرب على الإرهاب"، فى الأسبوع الذى أعقب تفجيرات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ . أما الأوروبيون المدركون لجميع ما انطوت عليه فترة الحملات الصليبية تاريخيا، فقد راعهم استخدام بوش لذلك المصطلح.

كذلك، فلا شك أن رؤيتنا ووجهات نظرنا بشأن الحروب الدائرة حاليا بالشرق الأوسط، يغلب عليها عدم الموضوعية، إذ ترتكن إلى استشعارنا للطرف الذى تأثر واستجاب للاستنفار أو الاستفزاز الأول، فى تتابع ارتدادى لانهائى من إلقاء اللوم وتحديد المسئولية – تلك المشكلة الأبدية للسياسة وأحداثها الماضوية، بصفتها مشكلة دائرية قوامها أى العاملين هو السابق، وأيهما اللاحق. إن الإسلام، اليوم، هو اختزال مناسب ومريح لتوصيف التعقيدات الجيوبوليتيكية الهائلة التى انطوت عليها الوقائع الصليبية. كذلك، فإن الحملات الصليبية، اليوم، هى ركن من أركان المنظومة التصادمية فيما بين الشرق والغرب. إلا أننا قد لاحظنا بعضا من أسس ذلك الصدام قبل نشأة الإسلام، والمتمثل فى الثورات الإقليمية داخل الامبراطورية

البيزنطية ضد القسطنطينية، وقد احتضنت تلك الحركات التصادمية العديد من الرايات والألوية الدينية (الهرطقية) كمحركات ورموز لما كان، فى الأساس، منافسة محمومة لامتلاك أسباب القوة واستلاب الأراضى. وقد وجدت هذه المصادمات قبل الإسلام، وزامنت نشأته وتطور مسيرته، وما زالت قائمة إلى الآن فى إقليم الشرق الأوسط. فهل يمكننا أن نطرح السؤال : أكان يمكن أن تقع حروب صليبية لو لم يكن ثمة إسلام؟ ربما لم تكن لتقع على النحو ذاته ووفق المسار نفسه، ولكن ربما استطاعت أوروبا الطموح المتململة أن تشق طريقها حثيثا صوب الشرق، فى أى من الحالات. إذ قامت، بالفعل، بشن حروب ضد بلدان حدودية أخرى فى أوروبا. فإذا لم يكن ثمة إسلام، لكانت المصادمات والمواجهات فيما بين روما والقسطنطينية أكثر مباشرة وأمضى حدة عما كانت عليه بالفعل آنذاك.



الفصل السادس

أصداء مشتركة: الإصلاح البروتستانتى والإسلام

فى ظل تصاعد وتيرة الاضطراب الداخلى والتدخل الأجنبى، استولت مجموعة من الأصوليين على مقاليد الحكم فى المدينة الصغيرة وقامت بتأسيس مجتمعها الدينى، وإعادة تنمية المدينة وفقا للنصوص المقدسة. وقد قام زعيم دينى سلطوى متعصب، بدعم وتأييد من أتباعه ومريديه الكثيرين، بتنصيب نفسه على رأس السلطة بالمدينة وأمضى نحو ثمانية عشر شهرا من الحكم الثيوقراطى الصارم، فى حين طرح ذلك المجتمع الدينى رؤيته عن متطلبات التخلق بالإيمان.

كذلك، فقد قام أفراد المجتمع الجديد باقتسام أملاكهم وأغراضهم مع أولئك ممن كانوا مؤمنين، كما عمدوا إلى تسويغ استخدام العنف ضد "غير المؤمنين". وفشا بين رجال ذلك المجتمع مفهوم "تعدد الزوجات"، وكان البعض لديه أكثر من أربع زوجات. وبالرغم من أن ثورتهم ظلت مهددة لإمكانية تعرضها للحصار العسكرى من الخارج من قبل الحكام المحليين والذين خشوا من تهديد المجتمع الجديد لشرعيتهم، إلا أن أولئك المتمردين قد طرحوا نهجهم الرؤيوى لإرادة الرب السياسية والاجتماعية والدينية يحدوهم الأمل فى أن تكون بداية لحركة تبشيرية عالمية. على أن ذلك العصيان قد تم إخماده بواسطة تضافر جهود وقوى السلطات الخارجية، وتم تعذيب زعماء العصيان وإعدامهم. وبذا، فقد تم استعادة الوجه الأرثوذكسى للعقيدة الدينية.

لم يكن ما سبق تصويرا لحركة أصولية إسلامية، إذ وقعت تلك الأحداث فى

•

مدينة "مونستر" الألمانية في عام ١٥٣٤، حين كانت حركة الإصلاح البروتستانتي في أوج زخمها. ولقد كانت الحركة وزعيمها من القائلين "بتجديد العماد"، وهي الفصيل الأكثر راديكالية ضمن الفصائل الثلاث المكونة للإصلاح البروتستانتي، أما الفصيلان الآخران فكانا "اللوثرية" و"الكالفنية". وقد عمد "مجددو العماد" إلى إعادة تسمية مدينتهم لتصبح "أورشليم الجديدة"، بيد أن ما اتسمت به رسالتهم انطوى عليه منهجهم من راديكالية مفرطة كان كافيا لقيام القوى الكاثوليكية والبروتستانتية (اللوثرية) بالاتحاد فيما بينها لتطويق المدينة والقضاء على تلك المعتقدات المنطوية على فتنة وخطر داهمين.

وقد أدت تلك المقاومة العنيفة إلى القضاء نهائيا على حركة "مجددي العماد"، وما ارتبط بها من فورة سياسية. ومثلما حدث للكثير من الحركات الإسلامية عقب تفجيرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فلم يأل زعماء حركة "مجددي

العماد" جهدا لإبعاد الاتهام باستخدام العنف عن أنفسهم. وقد رفض "اللوتريون" و"الكالفنيون" تماما البرنامج الثورى "لمجددى العماد"، فيما كانت أوروبا فى هلع من تلك الحماسة المفرطة وراء "ملحمة مونستر" تلك !! وبالتبعية، أصبح الإصلاحيون البروتستانت، الذين وصموا من قبل بكونهم "راديكاليين" بواسطة الكاثوليك، يبدون أكثر قرباً وتواؤماً مع التيار السائد، وذلك بمقارنتهم "بمجددى العماد". ونستطيع فى عصرنا الحاضر أن نميز بعض النظائر لتلك الحالة. ذلك أن الكثير من الأصوليين الإسلاميين قد راعه ما حدث من تفجيرات فى الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وتوابع تلك الأحداث ... ففى حين أخذت ما اكتنفت عليه الراديكالية الدينية من خفايا سياسية وعسكرية مضمرة - فى التبدى، هرع عدد كبير لشجب العنف المعتمد أسلوبا، بالرغم من إدراكهم لطبيعة المظالم التى أدت إلى تفجير الوضع على النحو الذى جرت أحداثه.

إذاً، ففى كتاب يهدف لتجاوز النظرة قصيرة المدى لدور الدين، وتلمس الأسباب بعيدة الغور لما يحدث عن طريق التنقيب فى الأحداث التاريخية بالشرق الأوسط، يعن السؤال التالى : لماذا نتناول بالبحث ملف الإصلاح الدينى فى أوروبا، وما أثمره من مستتبعات ونتائج؟ حقيقة الأمر، فإن حركة الإصلاح البروتستانتى تجسد، بطرائق جد متنوعة، الكثير من المفاهيم التى أثرناها آنفا، وتحديدا، الطبيعة السياسية المحض للأحداث، والتى ينظر إليها باعتبارها دينية بالأساس. لكننا نكرر أن الدين هو محرك الاضطرابات والمصادمات السياسية، وليس مسببا لها. فالقادة السياسيون يحاولون إحكام قبضتهم على زمام الدين كوسيلة لتحقيق غاياتهم ومصالحهم الذاتية. إلا أن الأحداث التى صاحبت الإصلاح البروتستانتى تظهر جليا نقيض ذلك، فقد كشفت عما يحدث حين تفقد الدولة أو الكنيسة سيطرتها على مقومات الدين وعناصره، تاركة للآخرين، حتى الدهماء منهم، حرية تعيين الثيولوجيا، وتحديد ما هو دينى بإعطاء تعريفات ذاتية للدين، والكيفية التى يمكن التعامل بها تماشياً مع التعريفات المستحدثة. وقد كان للمسيحية باع طويل من

النجاح فى الإبقاء على العقيدة الدينية، وإحكام الهيمنة عليها على نحو مركزى مسيس، بأكثر مما كان للإسلام، حتى انفرط عقد ذلك خلال حقبة الإصلاح، وما زالت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تسعى لاستعادة تلك الهيمنة.

فإذا لم يكن ثمة إسلام، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ما زالت تحكم قبضتها وتمسك بمقاليد الأمور فى الشرق الأوسط – لكانت الكنيسة اللاتينية، فى روما، فحسب المهددة من قبل الأمراء الألمان ذوى النزعة البروتستانتية الناشئة، وكذا من قبل آخرين، فى التنافس على حيازة القوة السياسية، وامتلاك الثروات، والتحكم فى العقيدة الدينية. كذلك، فالأغلب أن تكون القسطنطينية ما تزال حصنا للأرثوذكسية الصارمة، وإدراكها التام خطورة وضلال، بل وكارثية المسار المتبع من قبل المسيحية فى الغرب.

أما الإسلام، فلم يشهد، بطبيعة الحال، أية حركات إصلاحية كالبروتستانتية، وكذا لم يشهد العالم مثل ذلك النمط. وبالنسبة للغرب، فقد كان "الإصلاح البروتستانتى" هزة عنيفة لأوروبا فى مجملها، فقد أدى، ضمن أمور أخرى، إلى نشوب حرب "الثلاثين عاما"، والتى كانت إحدى أكثر الحروب دموية فى التاريخ الأوروبى قاطبة– والتى كان مظهرها دينيا بالكلية، فيما كانت حقيقتها صراعا لاقتسام القوى والنفوذ فيما بين الدول المتحاربة. كذلك، أدى "الإصلاح" إلى تغيير موازين القوى بداخل البلدان ذاتها بإطلاقه للعديد من الطاقات الغاضبة والاتجاهات العنيفة كما حدث فى "مونستر" على نحو ما رأينا. ولقد أحدث الإصلاح قلاقل اجتماعية حين حرر الأفراد من قبضة الدولة المركزية وهيمنتها على آرائهم الدينية، وشجع المزيد من التفكير الفردى الذاتى فى المشاكل السياسية والدينية، حين أدى، أخيرا، إلى إطلاق بعض الأفكار الراديكالية من عقالها.

وبالمثل، فقد تبنى المسلمون، على امتداد المائة سنة الأخيرة، نهجا جديدا للتفكير بشأن العلاقة فيما بين الدين والسياسة، وما يربط بينهما. كذلك، فقد قاموا

بتوليد العديد من القوى المثيرة للقلاقل مثل الانتقادات الحادة الموجهة لأنظمتهم الحاكمة، وتأسيس منظمات جديدة تعمل على بلوغ الأهداف السياسية والاجتماعية المنشودة، بل وصل الأمر إلى حد تبنى استخدام العنف والإرهاب ضد من ينتقون من غزاة وأعداء، بالداخل والخارج. وما تنظيم "القاعدة" إلا قوة من تلك القوى.

ولقد كان "الإصلاح"، وفقا لأوجه عدة، حقبة لدمقرطة الدين، ولا يعنى ذلك أنه قد وجدت أية أنظمة سياسية ديمقراطية بالفعل، بل يعنى تشجيع الأفراد على تدبر النصوص الدينية المقدسة وإعمال الفكر فيها، والتفكير، من دون أية مؤثرات أو إيحاءات، فى طبيعة الدين ومعناه. وقد كانت تلك، بالفعل، بداية تصاعد المشاركات الشعبية فى الشئون السياسية والاجتماعية. بيد أن الفصل الحالى يشير أيضا إلى العواقب الراديكالية التى قد تنجم حين تخترق النزعات الديمقراطية التقاليد الدينية. وتوجد بعض الأصداء اللافتة للنظر للراديكالية البروتستانتية فى الأصولية الإسلامية - بل وحتى فى بعض التأويلات البروتستانتية الراديكالية المعاصرة بشأن المسيحية. وتكون الدولة، وبخاصة الدولة السلطوية، مهددة من قبل تلك الاتجاهات الجديدة نحو المزيد من الأفكار التنويرية والمتحررة بشأن القضايا الدينية. وبالفعل، فهناك ارتباط وثيق ما بين حرية الفكر السياسى وحرية الفكر الدينى، إذ يعمل كل منهما على تحرير الآخر.

وتجدر الإشارة إلى أن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لم تشهد أى "إصلاح" قط، الأمر الذى يشير إلى أن الشرق الأوسط بلا إسلام -أى الشرق الأوسط الذى ظل مسيحياً أرثوذكسياً- لم يكن، فى الغالب، ليصير أكثر علمانية أو رشادة عما قد أصبح عليه فى ظل الإسلام. وفى حقيقة الأمر، فإنه من الجلى أن الإسلام قد أصبح أكثر ديمقراطية فى العصور الحديثة، وأكثر تضمينا فى سياسات العامة عما حدث فى الكنيسة الأرثوذكسية (فما إذا كان ذلك حسنا أم لا، فهو أمر من الممكن أن يخضع للجدل والنقاش).

وأخيراً، يتناول الفصل بعضا من التأويلات الدينية المتطرفة فى المسيحية الحديثة، والتى ما زال أثرها ملحوظا فى التفكير المسيحى المعاصر، حتى ولو لم يكن اتجاها سائدا. كذلك، توجد هنا أشباه ونظائر مذهلة مع عناصر راديكالية فى التفكير الإسلامى. وفى هذا السياق، إذاً، فإن الإسلام ينظر إليه، أقلا فأقل عما كان ينظر إليه من قبل من كونه ظاهرة شرق أوسطية فريدة واستثنائية، بل أصبح ينظر إليه على كونه جزءا من عملية "التطور الدينى" العالمية بما لها من تضمينات سياسية، أو، على العكس، بأنه جزء من عملية تطور سياسى لها تضمينات دينية.

لقد عصفت حركة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر الميلادى بالكنيسة الغربية ونظامها الشامل، إذ يمكن القول بأنها تعد الصدع الأكبر فى تاريخ الكنيسة ... ذلك الصدع الذى فاق فى قوته وآثاره "الصدع الكبير" ما بين الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنيسة اللاتينية الذى وقع قبل ذلك بعدة قرون. وقد جرى ذلك كله داخل أوروبا، ونتج عنه انقسامات حادة لا تزال قائمة إلى اليوم. فالعالم الذى كانت تسيطر عليه عقيدة دينية مركزية فى الغرب، قد تم تفتيته مخلفا علاقات جديدة فيما بين الكنيسة والدولة والفرد. فلن تكون الكنيسة، ولن يكون الغرب كالعهد بهما سابقا.

إلا أن الإصلاح البروتستانتى لم يكن مفاجئا تماما، بل إن الزمن الذى شهد انطلاقه يفصح فى الحقيقة، بجلاء عن طابعه السياسى. فعندما قام الراهب "مارتن لوثر" بتعليق عريضة اتهاماته (٩٥ اتهاما وحيثياتها) بحق الكنيسة، وذلك على باب الكنيسة فى "فيتنبرغ" فى عام ١٥١٧، فقد قام، فى الحقيقة، بالنفاذ إلى القلب من مشاحنات دامت قروناً عديدة مع الكنيسة. ولطالما أبدت القوة العلمانية الناشئة حديثا للولايات الألمانية ولبلدان شمال أوروبا - الاعتراضات ضد الممارسات السياسية والهيمنة الاقتصادية التى احتكرتها الكنيسة. ولقد شهدت أوروبا، بالفعل، قرونا عديدة من الصراعات المهينة فيما بين مختلف البلدان رغبة فى حيازة الكرسى البابوى لمصالحها وغاياتها الذاتية. ولم تكن حركة الإصلاح البروتستانتى

لترى النور، لو كان "مارتن لوتر" مجرد أحد الرهبان القلائل المنشقين الذين يتجادلون بشأن الثيولوجيا، فقد كان النجاح الذى توج حركته بسبب الدعم المباشر للأمراء الألمان الذين شاركوه رغبته فى تحجيم قوة الكنيسة ونفوذها اللذين استفحلا آنذاك. وبالرغم من كون الاعتراضات دينية الطابع ضد الكنيسة واقعا مشهودا، إلا أنها أضفت غطاء ثقافيا ودينيا على الهجوم ضد هيمنة الكنيسة وفسادها ... ذلك الهجوم الذى كان، فى حقيقته، هجوما سياسيا واقتصاديا، وإن تزيا بإهاب دينى. وبعبارة أخرى، فإن هجوم "لوتر" وانتقاداته للكنيسة يشيران بجلاء إلى أزمة بين الدولة والكنيسة لم يكن النظام السياسى مستعدا لمواجهتها فى حقب سابقة. أما بحلول عام ١٥١٧، فقد أضحى مستعدا لذلك.

فالإصلاح، فى انتقاداته المعتدلة، قد طالب بإصلاح الكنيسة إصلاحاً شاملاً – عقائديا وتنظيميا وهرميا، إلى جانب إنهاء هيمنة روما المركزية. إلا أنه بتطور عملية التغيير واللامركزية والتفكير المستقل، انبثقت صيغ للتفكير أكثر راديكالية إلى الحد الذى ذهبت معه بعض تلك الصيغ إلى تحدى الكنيسة، والتشكيك فى مصداقيتها ككل، ومصداقية تاريخها وأنشطتها وتعاليمها الدينية وتراتبية السلطات بها، إذ كانت الكنيسة، على حد زعم تلك الصيغ، انحرافا عن المسيحية الحق فى بادئ نشأتها.

أما الإسلام، فلا توجد به أشباه لتلك العلاقات الوثيقة فيما بين الكنيسة والدولة كما فى الغرب، حيث تسيطر الكنيسة بنفسها على القوتين السياسية والاقتصادية للدولة. وبينما يشدد الإسلامويون اليوم ... أولئك الذين يطالبون باعتماد صيغ الإسلام السياسى، على نحو دائم، على الوحدة غير القابلة للتفكيك فيما بين الدين والدولة فى الإسلام، فإن هذه الرؤية، فى الحقيقة، هى بالأساس صنيعة أيديولوجية معاصرة : فمهام الدولة وتصريف شئونها فى الإسلام كانت على الدوام بعيدا عن رجال الدين، إذ لم يتبوأ أى منهم أية مناصب سياسية قيادية، ولم يشاركوا –ألبتة– فى إدارة حكم البلاد (أما سيطرة رجال الدين على

مقدرات الأمور السياسية في إيران المعاصرة، فذلك استثناء صارخ كونه بدعة شيعية مستحدثة). وحتى في المملكة العربية السعودية، فإن الأسرة الملكية الحاكمة، في معظم الأحوال، لها الباع الأكبر واليد الطولى المهيمنة بالمقارنة بالمؤسسات الدينية هناك.

وبلا شك، فإن شرعية الحكام المسلمين على امتداد التاريخ الإسلامي كانت مستمدة من قيامهم بتطبيق الشريعة الإسلامية في أوطانهم، على الأقل نظريا، بيد أن أولئك الحكام، على مدى أغلب فترات الحكم الإسلامي، لم يلتزموا جديا بروح الشريعة، ونادرا ما كان يعزل أي منهم جراء تلك "الزلة الدينية". فبالفعل، انزلق بعض رجال الدين المسلمين، إبان العصور الوسطى، على نحو غير مقصود إلى القول بجواز إساءة استخدام السلطات السياسية الدنيوية بحجة أن الفتنة أو الفوضى أشد وطأة من الظلم. فعلى مدار التاريخ الإسلامي برمته، لم يجث أي سلطان أو حاكم مسلم لطلب المغفرة من السلطة الدينية الأعلى مثلما حدث مع "هنري الرابع"، ملك ألمانيا الذي أجبر على طلب المغفرة من البابا في "كانوسا" في عام ١٠٧٧، عن تحديه للسلطة البابوية بشأن بعض الأمور الدنيوية الهامة. أما هنري الثامن، ملك بريطانيا، فقد تعين عليه الانفصال عن روما تماما، وذلك لضمان أن يتم الطلاق الذي كان يريده، ويترك زوجته. إذاً، فقد كانت العلاقة الوثيقة فيما بين الدولة والسلطة الدينية طابعاً ميز معظم التاريخ المسيحي، وهو الأمر الذي لا نجد له نظيرا، ألبتة، في الإسلام.

لقد تناولت الفصول السابقة كيف قامت العقائد، في انتشارها، باستيعاب التقاليد الدينية المحلية ودور العبادة والرموز المقدسة والممارسات الخاصة بما سبقها من أديان، لتسهيل عملية اعتناق الأفراد للدين الجديد. وقد شهد كل من الإسلام والمسيحية بعض الإضافات والزيادات التي لم تكن موجودة في أي منهما في بدايتهما، وإنما أضيفت عليهما بمرور الزمن. وقد سعى الإصلاحيون المنتمون لكل منهما إلى إزالة تلك الزيادات، والعودة إلى منابع الدين الأصيلة. وكان ذلك

هدفا من أهداف الإصلاح البروتستانتى - العودة إلى الرسالة كما أنزلت. كذلك، يحاول الأصوليون الإسلاميون العودة إلى الأصول والمنابع لتخليص الدين وتطهيره مما يكون عساه قد ألحق به من زيادات. وكانت "الوهابية" فى شبه الجزيرة العربية فى القرن التاسع عشر الميلادى إحدى تلك الحركات الأصولية، والتى عادة ما يطلق عليها "حركات التجديد". وينصرف المراد من "التجديد" إلى أمرين : ... يتمثل الأول فى العودة إلى المنابع الأصيلة للدين ... فيما يذهب الثانى إلى النظر إلى المستقبل بحيث يتم تأويل النصوص التقليدية على ضوء الفهم المعاصر.

إذاً، فكيف كان إقليم الشرق الأوسط سيبدو اليوم إذا ظل معتنقاً الأرثوذكسية؟ من بين المعتقدات الثلاث : الإسلام، والمسيحية الغربية الكاثوليكية، والمسيحية الشرقية الأرثوذكسية ... كانت الأرثوذكسية أقلها تعرضا للتغيير. وقد تبنت روسيا، فى القرن السابع عشر الميلادى، بعضا من أكثر الإصلاحات إثارة للخلاف ... تلك الإصلاحات الخاصة بالطقوس الدينية، لتتماشى الممارسات الأرثوذكسية الروسية مع نظيرتها اليونانية، وهى أجندة سياسية، بالأساس، أدت إلى معارضات شعبية واسعة لها. وقد عززت بعض الإصلاحات الأرثوذكسية من إحكام الدولة الروسية لقبضتها على الكنيسة. ومنذ سقوط القسطنطينية فصاعدا، حافظت الكنيسة الأرثوذكسية على بقائها بمنأى عن الشئون السياسية. وتعد الأرثوذكسية أكثر العقائد الثلاث المذكورة آنفا ارتباطا بالآخرة وأكثرها إذعانا لسلطة الدولة، إذ تجنبت الانخراط الشديد فى الأجندات السياسية والاجتماعية. لذا، يمكن القول إنه لو كان الشرق الأوسط ما زال معتنقا الأرثوذكسية إلى اليوم، لكان، فى الأغلب، أكثر تحفظا فيما يتعلق بالأمور السياسية والاجتماعية بالمقارنة بالمسيحية اللاتينية أوالإسلام.

النصوص المقدسة كمصدر للتشريع

إن الدروس المستفادة من حركات الإصلاح لا تدع مجالا للتشكك فى إحدى النقاط الهامة، وهى أنه حينما تفقد الدولة، أو أية مؤسسة قوية كالكنيسة، سيطرتها على الدين، يمكن حينها للدين أن يصبح أداة لمحاربة الدولة وسلطانها. ففى بعض الحركات البروتستانتية الراديكالية - خاصة "الكالفنية" و"مجددى العماد" - فإن قوى الاستقلالية الفردية والدمقرطة لتفتح الباب أمام تأويلات أكثر راديكالية، وأوفى ذاتية للنصوص المقدسة. وتكون لتلك العملية مضامين مباشرة للمجتمع القائم ونمط الحكم المطبق.

كذلك، فقد شهد الإسلام عملية للتحرر بعيدا عن تفكير رجال الدين المسيس من قبل الدولة، والذى ساد فى الماضى، وذلك باتجاه انبثاق حركات إسلامية معاصرة شتى. فحين يفقد رجال الدين التابعون للدولة شرعيتهم ومصداقيتهم، يحل آخرون محلهم فى فهم طبيعة الإسلام وتأويل نصوصه، ويمكن لأولئك "الآخرين" أن يوجهوا رسالة الإسلام ضد الدولة ذاتها. إن بعض تلك الحركات، رغما عن كونه حادا وعنيفا وراديكاليا، يعد ناتجا مباشرا لعملية "إعادة التفكير فى الإسلام". وبما أن الحركات الإسلامية المعاصرة لم تعد رؤيتها هى رؤية رجال الدين التابعين للدولة، وبما أنها لا تقتصر على الإجابة عن الأسئلة "الآمنة" بشأن الطقوس الدينية وأمور الطهارة، فقد انبثقت تلك الحركات ضد رغبة الدولة وإرادتها. وتدعو تلك الحركات أن يضطلع الدين بمحاربة الأنظمة السياسية الفاسدة والمتسلطة قمعيا والمفتقدة للكفاءة، والتى لا تمثل، ألبتة، الشعوب التى تهيمن عليها ... وأن يضطلع، كذلك، بالقضاء على الظروف الاجتماعية والاقتصادية غير المواتية.

وتسعى الحركات الإسلامية، بشتى مشاربها، إلى الإفصاح عن وجهات نظرها والتعبير عن آرائها بحرية وشجاعة، كما تسعى إلى كسر احتكار السلطة السياسية

والنظام الإدارى لها، بل حتى إلى تغيير الوضع القائم بالقوة بما يتماشى ومثاليات الإسلام. ولقد أدى تخفيف قبضة النظام السياسى، بعض الشئ، إلى إطلاق سراح مخزون هائل من العنف والراديكالية المكبوتة، والتى انفجرت فى وجه الدولة. وبينما تبنت بعض الجماعات تأويلات أكثر ليبرالية للإسلام بما يتماشى وروح العالم المعاصر، فإن كثيرا من الجماعات قد نهجت نهجا يفتقر إلى التسامح، وذلك بالإصرار على الالتزام بحرفية النصوص والسعى لتطبيقها كما أنزلت، وذلك على ظروف العالم المعاصر ومعطياته. وكما حدث فى حركة "الإصلاح البروتستانتى"، اندلعت حرائق جمة فيما يرتبط بالحالة الإسلامية ... إذ ستنشأ مصادمات ثقافية فى المجتمعات الإسلامية عند التأمل فى العلاقة ما بين القيم الدينية والتطور المجتمعى فى عالم اليوم المتضارب. وما يزال التصادم قائما : فقد أشعلت تفجيرات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، و"الحرب العالمية ضد الإرهاب" نيران الراديكالية، ومن ثم ابتكار ما يلزم لمجابهة آثارها.

وبعد أن انهارت السلطة الدينية المركزية للكنيسة الرومانية جراء حركة الإصلاح البروتستانتى، أصبح المجال مفتوحا لسؤال على شاكلة : كيف يمكن تطبيق محتوى النصوص الدينية لخلق مجتمع مثالى (ربانى)؟ فى الحقيقة، فإنه لا يوجد نص دينى يتيح صيغة قانونية (شرعية) جاهزة بحيث يتم تطبيقها مباشرة على مخرجات المجتمع. فما على الأتباع المخلصين من معتنقى العقيدة إلا أن يسعوا فقط إلى إدراك القيم التى تحويها النصوص المقدسة وفهمها كأحسن ما يكون الإدراك. إن المسيحية والإسلام قد عانا حين حاولا تطبيق النصوص والقيم فيما يتعلق بالمجتمع وأنظمة الحكم السائدة – وما زالا يعانيان. فالمسيحية البروتستانتية، على وجه الخصوص، قد سعت لتأسيس ثيولوجيتها وأحكامها الأخلاقية، فيما يخص المجتمع، وفقا للنصوص ذاتها، لا على توصيات المجامع الكنسية غير الممثلة، والتى اضطلعت بأدوار كبيرة فى ظل التقاليد الكاثوليكية الرومانية، والأعراف الأرثوذكسية المبكرة.

ويواجه الإسلام، تحديدا، الأسئلة ذاتها : ما الدور الذى يضطلع به "القرآن" فى تشكيل وعى الفرد وفهمه للإسلام، وكذا فى صياغة التشريع الإسلامى المنشود؟ ويشترك كل من الإسلام والمسيحية البروتستانتية فى الاهتمام بالأفعال ونتائجها، أى الاهتمام بتطبيق القيم الدينية وما لها من آثار اجتماعية، وليس فى المظاهر الثيولوجية التجريدية فحسب.

تعد "الكالفنية"، بجانب "اللوثرية" و"مجددى العماد"، إحدى الحركات الثلاث الرئيسية للإصلاح البروتستانتي. وقد خاض "جون كالفن" -مؤسس الحركة- تجربة دينية ذاتية عميقة تغلب عليها النزعة الصوفية، دفعته بقوة نحو اعتناق الأفكار ذات الطابع البروتستانتي. وقد ورد عنه أنه قال: "لقد أخضع الرب روحى وجعل نفسى سلسة القياد بالهداية المفاجئة". وكان "كالفن" مؤمنا بأن أمامه "مهمة مقدسة" كأداة للرب لإحياء الإيمان والروحانيات فى العالم. ونظرا لاعتباره مهرطقا فى فرنسا الكاثوليكية، فقد التجأ "كالفن" إلى جنيف، والتى كانت تجاهد آنذاك القوى الخارجية الطاغية رغبة فى نيل استقلالها. وفى عام ١٥٣٦، اتخذت المدينة ثلاثة قرارات راديكالية مباغتة : إلغاء الأديرة، وإبطال إقامة أى قداس دينى، ورفض الخضوع للهيمنة البابوية. وقد أيد "كالفن" بشدة فكرة "الحاكمية" بالمدينة، أى قيام رجال الدين البروتستانت بتولى مقاليد الحكم -ثيوقراطية بالمعنى الحقيقى- وكأنما كان رائدا وسابقا لما سيفعله آية الله خومينى بعد ذلك بعدة قرون فى إيران من تقرير للحكم وفقاً "لولاية الفقيه". كذلك، فقد جاهد "كالفن" على مدى أربعة عشر عاما لاستمالة القادة فى جنيف وإقناعهم بفكره، كما جاهد لبسط هيمنته على عقيدة كنيسته، والتنظيم الذى تعتمده، والمناحى الأخلاقية لها. ونلمس هنا ما يشبه التمهيد أو الأساس الذى سوف ينتهجه "الفكر الوهابى" فى شبه الجزيرة العربية فيما بعد. وقد أرسى "كالفن" ما يمكن تسميته "بمدينة الرب" فى جنيف، ونادى بأن يكون "الإنجيل" مصدرا لجميع التشريعات والقوانين المجتمعية- فيما يشبه اتجاهات وأفكار "الإسلاميين" الداعية لاعتبار "القرآن" المصدر الوحيد

لجميع التشريعات، بل إن المملكة العربية السعودية تعتبر "القرآن" دستورها الحاكم.

أما جميع عناصر الصلوات ومكوناتها وفقا لعقيدة "كالفن" فمستقاة برمتها من الإنجيل، وكما سيفعل الوهابيون فيما بعد، فقد اعترض "كالفن" على استخدام الآلات الموسيقية، وأجراس الكنائس، والأردية الكهنوتية المبهرجة، والأعمال الفنية أثناء الصلوات العامة. كذلك، فقد تم إلغاء معظم الأعياد المقدسة التقليدية، وذكرى مولد القديسين. وقد كان الاعتقاد بقابلية الجنس البشرى للإغواء واقتراف الخطايا والمعاصى ملمحا رئيسيا من ملامح الأفكار الكالفنية. ووفقا لتلك الأفكار، فقد تم تطبيق قواعد الالتزام بالأسس الأخلاقية الصارمة، والتى يتعرض من يخالفها لعقوبات مشددة كالحرمان الكنسى، والنفى، والإبعاد لمخالفة التشريعات الدينية، وكذلك عقوبة الإعدام لمن يتهم بالكفر والتجديف. كذلك، فقد روعى أن تكون الملابس فى أبسط هيئة ممكنة، وأغلقت الحانات، ومنعت العروض المسرحية وحلقات الرقص، ووضع العامة تحت المراقبة الشديدة من قبل العسس (المخبرين). كذلك، فقد طافت "شرطة الأخلاق"، أو "شرطة الآداب" بالمصطلح الحديث -(المطوعون فى المملكة العربية السعودية الآن)- بالأحياء والبيوت لضمان التزام الأفراد بالمعايير الأخلاقية المقررة، وكانت جميع الملذات الحسية آنذاك، ووفقا للكالفنية، موضعا للشك والارتياب.

وكان من أهداف "كالفن" أن تصبح جنيف "مملكة الرب" فى الأرض، كمجتمع بلا خطيئة أو وصمة عار. وبالرغم من كون "كالفن" وحركته الإصلاحية جزءا هاما من حركة الإصلاح البروتستانتى، إلا أن آراءه كانت متناقضة مع روح الفصيل "اللوثرى" من الحركة ... ذلك الفصيل الذى شدد على مسئولية الفرد فى تفهم معانى الإنجيل وتأويلها وإدراك رسالة الرب. وقد عمدت الكالفنية إلى استخدام مناهج وأدوات سلطوية لفرض رؤية "كالفن" واتجاهه الأخلاقى، والذى كان يحيا حياة صارمة متشددة تفتقر كثيرا إلى البهجة، فضلا عن اعتلال صحته على امتداد أغلب سنى عمره.

وبالرغم من بعض مظاهر الاستياء وعدم الارتياح لدى قطاع من أهالى جنيف، إلا أن "جون نوكس"، زعيم البروتستانتية الاسكتلاندية، قد نعت المدينة بأنها "المدرسة المُثلى على الأرض لتطبيق تعاليم المسيح". كذلك، فقد أضحت جنيف مركزا للتدريب حيث جابت الإرساليات التبشيرية المنهجة وفق التعاليم الكالفنية، وذرعت البلدان الأوروبية، فى الواقع، "لتصدير الثورة". وسرعان ما احتلت الحركة الكالفنية مكانة عالمية من خلال اعتمادها فى نشر أفكارها ومبادئها على المبعوثين السريين، وكذا الاتصالات الخفية، ما مكنها من الانتشار فى بلدان الشمال الأوروبى، لتصل أفكارها، فيما بعد، إلى القارة الأمريكية.

مسيحية «كالفن» الهرمية

مرة أخرى، نجد تشابها مع الإسلام الأصولى تزخر به التأويلات المتشددة والصارمة للنصوص الدينية كأسس للتشريع والتنظيم الاجتماعى. فالوهابية، فى إصرارها وتمسكها بالعودة إلى النصوص التراثية الأصيلة، تشبه إلى حد بعيد كلا من "اللوثرية" و"الكالفنية". كذلك، فهى تشجب الالتصاق الأعمى بالتأويلات المبكرة لعلماء الدين الأوائل فى تفسيرهم للنصوص والطقوس، كما تستنكر تقليد الآباء بدون تفكير أو ترو، وتخليد الأجيال المتعاقبة للموروث العائلى والطقوس الدينية التقليدية. وبالمقابل، تصر الوهابية على كون كل مسلم مسئولاً بذاته عن إدراك النصوص وتفهمها على نحو شخصى.

ولا شك فى أنه ملمح من ملامح الحداثة التنويرية أن يتم التأكيد على مسئولية الفرد فى السعى نحو إدراك ذاتى تأملى لمعتقده ولقيمه الأخلاقية، بالمقارنة بالانصياع المطلق للتقاليد الموروثة. إلا أن الخبرة والتجربة "الإصلاحية" -وكذا الأصولية الإسلامية- تشيران إلى أنه حين يؤمن الأفراد بأنهم مؤهلون وقادرون بأنفسهم على تأويل النصوص المقدسة، تنشأ -حينئذ- آراء بديلة غير معتمدة، بل وشاذة تفشو على نحو كبير. وساعتها، يفقد رجال الدين ذوو الخبرة والمكانة،

الكاثوليك منهم والإسلاميون، السيطرة على ماهية "صحة" النصوص الدينية. وبالفعل، ففى "اللوثرية"، يفترض أن يتنازل رجال الدين عن سيطرتهم ويتخلوا عن سلطاتهم للمؤمن بصفته فردا. وهنا نعود ثانية إلى المأزق الدائم للنصوص الموحى بها فى الملل الإبراهيمية الثلاث : فمن له أحقية الزعم بامتلاك القدرة على التأويل دون غيره؟ ومن ذا الذى يستطيع تحديد الاستقامة الحقيقية؟ لا يوجد أية مرجعية وحيدة بذاتها يمكن اعتبارها ذات سلطة فى هذا الخصوص، بل يمكن أن يعقب ذلك بسهولة انتشار ما يمكن أن يعرف "بالدين للجميع" من منطلق الحق فى التأويل، وما له من مستتبعات غير رشيدة، بل وشديدة الخطورة. وهذا ما حدث تماماً فى كل من حركة "الإصلاح البروتستانتى" والحركات الأصولية الإسلامية. وهنا أيضا، لا يبدى الإسلام الأصولى أية سمات غريبة أو غير مألوفة، بل يحذو وفقا لمسارات يمكن التنبؤ بها بشأن انبثاق الأديان الموحى برسالاتها وتطورها.

وتظل هذه القضية على الدرجة ذاتها من الأهمية، الآن، كما كانت إبان حركة "الإصلاح البروتستانتى"، وكذا حين انبثاق الفكر الوهابى. ويسعى العديد من علماء الدين خارج شبه الجزيرة العربية اليوم إلى الحط من قدر الاتجاهات نحو التفكير المستقل كما تدعو "الوهابية"، إذ يذهب هؤلاء العلماء إلى أن "الوهابية" تمثل "فكرا دخيلا" يناقض التقاليد والتفكير المحلى. وكما فى المسيحية، فثمة توترات أصيلة ما بين الفهم السلطوى المركزى للدين، ووجهات النظر الشخصية المحلية غير السلطوية. أجل، قد تؤدى التأويلات الشخصية إلى إدراك أعمق للنصوص المقدسة، إلا أنها قد تصبح بوابة مشرعة للراديكالية غير الواعية.

ففى حركة "الإصلاح البروتستانتى"، فإن المخاوف من احتمال انتشار الأفكار الدينية المتطرفة سرعان ما باتت حقيقة. فقد شهدت البروتستانتية، فى بادئ نشأتها، انتشارا واسعا للملل والطوائف، والتى قدمت تأويلات متطرفة عدة للإنجيل. وبما أن لأية فكرة مستتبعات وآثار، فقد خلقت تلك التأويلات العديدة جماعات سياسية واجتماعية راديكالية اعتمدت العنف كمنهج عمل، وغالبا ما كان

يتم استغلالها من قبل السلطات والقوى المحلية كسلاح ضد القوى الأخرى.

ووفقاً لتقديرات "معجم المسيحية البروتستانتية"، فإن عدد الطوائف البروتستانتية المختلفة على مستوى العالم يبلغ الآن ٢٠٨٠٠ طائفة، بينما تذهب "موسوعة العالم المسيحي" إلى تقدير العدد بنحو ٣٣٨٢٠ طائفة. وإذ يكون بالإمكان الجدال حول العدد الحقيقي لتلك الطوائف، فإن تلك الأعداد تمثل، بلا شك، ثمار ما تم بذره على يد حركة "الإصلاح البروتستانتي". كذلك، فإنها تأتي لتؤكد مخاوف الكاثوليكية تماما بشأن عواقب انفراط عقد قبضة الرقابة المركزية على عقيدة الكنيسة، والتسلسل الهرمي للسلطات بها.

أما الإسلام، وخاصة في مذهبه السني، فيتسم بغياب الرقابة والهيمنة الدينية المركزية، أو حتى وجود سلطة مرجعية واحدة كما البابا في المسيحية. لذا، فإنه يشارك البروتستانتية ذلك المأزق. فلا يوجد شخص واحد في الإسلام السني له حق التحدث بسلطة مطلقة أو ملزمة للآخرين بشأن التساؤلات حول تأويلات النص الديني في الإسلام. فرئيس جامعة "الأزهر"، وهي جامعة دينية بالقاهرة، يحظى بالاحترام والتقدير، إلا أن آراءه وكلماته تعكس التقاليد القائمة واتجاهات النظام السياسي المصري بأكثر مما تمثل سلطة أو مرجعية حقيقية. ولعل الشيخ "يوسف القرضاوي"، والمقيم بقطر، يتمتع بتقدير لا تحظى به أية شخصية دينية أخرى نظرا لبرنامجه التليفزيوني الأسبوعي، والذي تبثه قناة "الجزيرة"، والذي يسعى الشيخ من خلاله إلى تفسير وجهات النظر الإسلامية الأرثوذكسية بشأن القضايا الدينية وفق الظروف والمعطيات القائمة والمعاصرة.

ولقد أدت حركة "الإصلاح البروتستانتي" إلى توالد العديد من الجماعات الراديكالية منذ قرون عديدة خلت. وبغض الطرف عن بعض الجماعات المتطرفة تاريخيا في الإسلام، فإن التأويلات الراديكالية الكاسحة لم تنفذ إلى الفكر السياسي والاجتماعي الإسلامي إلا بحلول القرن العشرين. وقد قامت تلك الأفكار

المتطرفة بنثر البذور التى أثمرت لاحقا وأسفرت عن اتجاهات شديدة التطرف، كما فى الاتجاه الراديكالى لتنظيم "القاعدة". أما الجماعة الراديكالية المصرية "التكفير والهجرة"، والتى تذهب إلى أن تصم الآخرين بالمروق والكفر، وتسعى إلى أن يهجر المرء ذلك العالم الدنيوى الآثم إلى رحابة العالم الأخروى - فتتشابه مع الأفكار الكالفنية، وإن كانت الأخيرة لم تلتجئ إلى الإرهاب كمنهج عمل. وتذهب جماعة "التكفير والهجرة" إلى انتفاء وجود "الإسلام الحق" فى هذا العالم إلا فيما ندر وفى أضيق الحدود، وأن الطريق الوحيد أمام المرء للخلاص من الشرور المحيطة به هو أن يدين المجتمع الإسلامى المعاصر بوصفه "مجتمعا جاهليا" أو "كافرا"، وأن يطلب الخلاص عن طريق الانتماء إلى جماعة صالحة مؤمنة (قارن : "مدينة الرب" فى جنيف لكالفن)، أو على نحو أعم، بالخلاص الذاتى من داخل المرء نفسه للوصول إلى نقاء المعتقد الإيمانى وأصوله الحقة، كما جاءت من المنابع الأولى، وللممارسة السليمة لتعاليم الدين بعيدا عن التأثيرات الفاسدة للمجتمع المعاصر.

فماذا، إذاً، عمن تستهدفهم تلك الرسائل، ومن المخاطب بتلك المواعظ؟ من المدهش، أنه فى الحالتين المسيحية والإسلامية لا يكمن الهدف فى استقطاب مؤمنين جدد إلى هذا الدين أو ذاك. فبالنسبة لغالبية الإسلاميين، تهدف "الدعوة" إلى تصحيح المفاهيم لدى "المسلمين" أنفسهم ... أولئك الذين يفهمون تعاليم دينهم فهماً مغلوطاً، لذا فإن الهدف هو إعادتهم ثانية إلى "الدين الحق". فمن وجهة نظر الكثير من أولئك الأصوليين، فإن المجتمع المسلم اليوم ينتشر الفساد بين جنباته، إذ فقد جادة الصواب وطريق الهداية الأخلاقية، وعادة ما يشار إلى المجتمع الإسلامى اليوم بأنه مجتمع "جاهلى" تشبيها له بسميه الذى ساد شبه الجزيرة العربية وما حولها قبل نشأة الإسلام. وقد استخدم المفكر الإسلامى المصرى الراحل "سيد قطب" المصطلح ذاته فى منتصف القرن العشرين للإشارة إلى الحالة العامة التى آل إليها المجتمع الإسلامى آنذاك كما ترآى له، بانغماسه فى "جاهلية" تنأى به عن الدين الحق.

ولعل الفصيل الأكثر راديكالية من بين فصائل البروتستانتية الثلاث خلال حقبة الإصلاح الديني كان فصيل "مجددي العماد"، والذين يشاطرون الكثير من الإسلاميين التزاما جادا وقويا بالعمل الدعوى أو التبشيرى. إذ يعنى "تجديد العماد" إعادة تعميد المرء بخلاف تعميده الأول حين مولده، فوفقا لهذا الفصيل تبدو فكرة "التعميد" غير ذات معنى ما لم تمثل قرارا واعيا من قبل المرء البالغ لإرساء رابطة ذاتية جديدة مع خالقه. وقد نادى الفصيل بإعادة "تعميد" البالغين، الذين سيكونون -حينئذ- على وعى تام بطبيعة قرارهم لإرساء الرابطة. كذلك، فمن الأمور الرئيسية التى يحتضنها فكر "مجددى العماد" - تفعيل قوة المرء وإرادته، ورفض التقليد، والذى غالبا ما يكون محاكاة للأعراف العائلية المتوارثة بشأن الدين، بل وفى انتقال المعتقد الدينى من جيل إلى جيل تال، وقبول ذلك دونما أدنى تفكير أو تدبر. وبالمثل، ووفقا للعديد من الأصوليين الإسلاميين، فإن انتقال المعتقد الدينى بالوراثة لا يكفى، فالمرء الذى يدرك ويتفهم طبيعة التزامه كمسلم، عن طريق دراسة النصوص الدينية هو الوحيد الذى يمكن إدراجه فى عداد "المسلمين" بحق. وقد اشتهر "مجددو العماد"، مثلهم فى ذلك مثل الأصوليين الإسلاميين، بمعرفتهم العميقة للنصوص الدينية. وقد بلغ هذا الفصيل ذروة الراديكالية أثناء ثورة "مونستر" التى دامت لثمانية عشر شهرا، والتى ذكرناها آنفا فى مفتتح الفصل الحالى.

وتساعد الأحوال الاجتماعية المشابهة فى توليد ردات فعل دينية مماثلة عبر مختلف المجتمعات. فمن بين عناصر الاهتمام المكثف إبان "الإصلاح البروتستانتى" بما يرتبط بالثيولوجيا، كانت القوى السياسية والاجتماعية هى المحركات التى دفعت تلك الحركة قدما. وكان هذا عصر التغيير الكبير : فقد شهد انهيار النظام الإقطاعى وما ارتبط به من ظلم اجتماعى واقتصادى، كما شهد نشأة المدن ومولد نمط حضارى جديد للحياة بمنأى عن الأعراف الإقطاعية، وهو مناخ ساعد فى انبثاق قيم بورجوازية جديدة، وتنامى التأكيد الواعى على احترام حقوق الأفراد.

وقد جوبهت تلك التحولات بمعارضة قوى الإقطاع، أحيانا بواسطة الأمراء، وأحيانا بدونهم، وذلك اعتماداً على مدى تأثر مصالحهم الشخصية بالأحداث. كذلك، فقد سعت الدول الناشئة حديثا -آنذاك- إلى إحكام قبضتها وبسط نفوذها على الإيرادات الكنسية والاستيلاء عليها. ولعل الأهم أن حركة "الإصلاح البروتستانتى" كان لها مردود سياسى هائل بعيد الأثر على الأمراء الألمان وغيرهم من حكام شمالى أوروبا. فالذى يحدد الموقف من ثيولوجيا "الإصلاح البروتستانتى" قد اعتمد، بالأساس، على اتجاهات المصالح الاقتصادية والسياسية، إذ مالت المواقف حيثما مالت المصالح.

وقد شهدنا مثل تلك التوجهات فى اضطرابات المجتمع المكى المتحول من النظام القبلى والعشائرى إلى النظام التجارى ذى الصبغة المركنتيلية، فضلا عن انهيار منظومة الأمان التى كفلتها التقاليد العشائرية فى ارتباطاتها البينية، وكذا فى ظهور الدعوة المحمدية. وبالمثل، فقد كان ظهور المسيح، من قبل، فى مناخ اجتماعى متحول قد اشتمل على عناصر عدة من بينها كون مدينة "الخليل" مضمرة للعداء بسبب تفوق أورشليم الاقتصادى والعقائدى.

وكانت السمة السائدة التى صبغت هذا كله هى الرابطة بين الدولة من جهة، وسلطتها من جهة أخرى : فماذا يحدث حين تفقد الدولة سيطرتها على الأمور العقائدية. من المشاهد أن ذلك قد انطوى دائما على انبعاث المشاركة الشعبية فى الأحداث السياسية والاجتماعية، والذى عادة ما ارتبط بإطلاق عقال الراديكالية، خاصة عندما تكون الأحوال غير مواتية.

الردة الكبرى

لعل الهجوم الكاسح والأكثر تطرفا ضد دعائم الكنيسة المسيحية وتعاليمها هو مفهوم "الردة الكبرى"، وهى عدد من الأفكار التى استحوذت على تفكير فئة قليلة، وإن كانت محددة ولها صوت مسموع، كذلك، فقد خصص لذلك المفهوم مدى زمنى

كبير من ساعات البث الإذاعى المسيحى، وأفرد له مساحات كبيرة فى وسائل النشر ووسائط الإعلام. وينحو هذا الاتجاه إلى شجب المؤسسة الكنسية ذاتها، منذ نشأتها تقريبا، كما يذهب إلى توجيه العديد من الاتهامات الصريحة لها:

* إن التعاليم والممارسات الكنسية الأصيلة قد شُرع فى تشويهها وتغييرها، بل وإفسادها على نحو خطير فى مرحلة مبكرة، ربما قد تزامنت مع حياة بعض الحواريين أنفسهم، وذهبت الكنيسة إلى ترسيخ تلك الخطايا باضطهاد أولئك المدافعين عن تعاليم المسيحية الأصيلة وطردهم.

* شرعت الكنيسة، على نحو حثيث، فى الانخراط فى الشئون الدنيوية الفاسدة حين تم تبنى المسيحية رسميا من قبل الإمبراطورية الرومانية، وهو الحدث الذى أدى إلى زواج السلطة الدينية (الكنيسة) بالسلطة الدنيوية (الدولة). وقد قامت الدولة باستغلال الكنيسة ومعتقداتها فيما يصب فى مصلحتها الشخصية ومآربها الخاصة. ولم يقتصر الأمر على اقتراف الكنيسة لأخطاء جسام فحسب، بل امتد لأن تكون الكنيسة ذاتها عاجزة عن إحداث أى تغيير أو إصلاح فى هذا الخصوص.

* قامت الكنيسة بتضخيم تلك الأخطاء حين تبنت مفهوم "عصمة الكنيسة" فيما يرتبط بالأمور العقائدية، ناهيك عن قيامها بتخويل تلك "العصمة" وجعلها فى قبضة البابا. وحقيقة الأمر أن الكنيسة -سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية- لن يكون بمقدورها نهائيا أن تمتلك أية "عصمة"، أو تتحدث وفقا لذلك الحق مطلقا.

* ينحو "الضعف البشرى" بالسليقة والفطرة إلى ضرب من "الدين المغلوط" المتسم بكونه دنيويا زائفا فى اهتمامه بالطقوس السطحية، والشرك، وتجسيد الإله، والتأثر بالكهانة وأعمال السحر، وإعلاء قيمة المنجزات البشرية لمرتبة تفوق أعمال الرب أو (المشيئة الإلهية). كذلك، يميل الإنسان إلى أن يصدق الأعراف السائدة، واعتبارها صنواً أو كفئاً لدلائل الإنجيل وبيناته الموحى بها من قبل الرب.

وتمثل المفاهيم السابقة نقداً ثورياً بل هجوما مدمرا على الكنيسة وفقا للعديد من فصائل الفكر البروتستانتي الراديكالي، الذى انتظم عبر تاريخه وتطوره مذاهب من أمثال "مجددى العماد"، و"كنيسة يسوع المسيح لقديسى الأيام الأخيرة"، و"السبتيين"، و"شهود يهوه". كذلك، فقد زلزلت تلك المفاهيم تفكير الطوائف الليبرالية فى الكنيسة حين اتهمتها، صراحة، بإفساد الدين عن طريق إقحام السياسة فى شئونه. والملاحظ هنا، أن الشيعة الكلاسيكية تتبنى المفهوم ذاته، إذ تذهب إلى الإيمان بإفساد العقيدة الأصيلة والدين الحق، وهو الأمر المحتوم جراء قيام علماء الدين بالتحالف مع سلطة الدولة الدنيوية (وإن تعارض هذا مع ما نشهده من الأيديولوجيا المتبعة فى إيران المعاصرة). واليوم، ينادى الإسلاميون السنيون ذوو الاتجاه الراديكالى –المسلمين بالتفكير بالإصالة عن أنفسهم، بل يطالبون بمعارضة الدولة ومقاومتها حين تكون بعيدة عن الشرعية الإسلامية. بيد أن كل ما سبق هو أمر مستحدث على الإسلام السنى– بل إنه ذو صبغة "جيفرسونية" فى إيمانه بضرورة وجوب الإطاحة بالأنظمة الظالمة وغير الشرعية.

الإحياء - أو «إعادة التأسيس»

ذهب الإحيائيون أو "دعاة إعادة التأسيس" –وهو فصيل آخر من فصائل الفكر المسيحى الراديكالى– إلى إصابة كبد القضية : ما مقدار الإجبار والقسر اللازمين لإرساء الدعائم الأخلاقية للنظام الاجتماعى؟ وبموجب التعريف ذاته، فإن وجود الدولة، فى حد ذاته، يستلزم الالتجاء إلى آليات القسر والإجبار للإبقاء على التماسك المجتمعى واستدامة النظام لسد الطريق أمام ظهور الفوضوية، وبذا، فإن الأمور غير المحددة فى هذا الخصوص تبقى : درجة القسر الواجب تطبيقها، ووسائل التطبيق وآلياته، ومن المخول بإقرارها. ويواجهنا هنا سؤال ذو طبيعة سوسيوسياسية، فضلا عن تلك الدينية، إذ تصدر جميع الدول تشريعاتها بشأن مناح أخلاقية بذاتها فى المجتمع، كالتشريعات المعتمدة ضد الجريمة، والقتل، والتخريب، والسرقة، واغتصاب الأحداث.

وتبدو الدولة كهدف جذاب لأى ساع لإحداث إصلاح مجتمعى، دينى أو دنيوى، إذ يتيح التحكم بمقدرات الدولة والإمساك بزمام أمرها -بالإقناع أو الجبر- إملاء القيم الدينية وتطبيقها بين أفراد المجتمع. وبطبيعة الحال، فلا يشترط فى القيم أن تكون دينية فحسب : فاللينينيون قد ارتأوا أن السيطرة على الدولة أمر حتمى، وضرورة واجبة لإرساء نظام شيوعى على المستوى السياسى والاقتصادى والاجتماعى. وبالمثل، حرص بعض الإسلاميين، خلال أزمنة مبكرة، على توظيف سلطات "الدولة الإسلامية" لإنشاء مجتمع إسلامى حقيقى. وبمرور الزمن، فقدت تلك الفكرة كثيرا من جاذبيتها حين أصبح الكثير من الإسلاميين، بفعل تراكم الخبرات، يركن إلى الذهاب بإعفاء المجتمع من معاقبة المخطئ، تاركين ذلك الخضوع للعقاب من قبل الله. وكما صورها لى أحد الأتراك قائلا : "الدولة ليست ملزمة بالإبقاء على أبواب جهنم مغلقة، إذ يجب أن تكون تلك الأبواب مفتوحة ومشرعة أمام الجميع".

وفى هذا الصدد، توجد عناصر مشتركة فى المسيحية، حتى فى الغرب، تقدم لنا أشباها جلية. فخلال الأعوام المائة الماضية، انبثقت حركة "للإحياء" أو "لإعادة التأسيس" تقوم على التنظير بشأن الإرساء الفعلى لدولة ترتكن إلى تعاليم المسيحية ومبادئها. وكما ينظر الكثير من المسلمين للقرآن بأنه مصدر التشريع، فإن "الإحيائيين" المسيحيين يرون أن الإنجيل، وليس دستور الولايات المتحدة الأمريكية، هو الوثيقة التى يجب أن يسير مستقبل البلاد على هداها ويحذو حذوها. كذلك، يذهبون إلى ضرورة أن تكون المبادئ الأخلاقية مشتقة من تعاليم "الإنجيل"، بحيث تمثل تلك المبادئ الأسس التى تنبنى عليها قوانين الأسرة والمجتمع والحكومة المدنية - ظلال من كالفنية جنيف. بل يذهب بعض "الإحيائيين" إلى المطالبة بوجوب تخويل رجال الدين مقاليد الأمر بالحكومة ذاتها، على النحو الذى يذكرنا بالثيوقراطية الإيرانية المعاصرة فى ظل حكم الملالى وولاية الفقيه، وبذا تكون الحكومات أنفسها مسئولة على ضوء من المبادئ الأخلاقية للعهدين القديم والجديد.

كذلك، يؤيد بعض "الإحيائيين" إعادة تجريم الإجهاض، والمثلية الجنسية (الانحراف السلوكى الجنسى)، وفيما لا يدعون، بالضرورة، إلى تطبيق عقوبة الإعدام، يشيرون إلى وجود نحو عشرين اعتداء يعاقب العهد القديم مرتكبى أى منها بعقوبة الإعدام، ومنها: غشيان المحارم، والبغاء، والزنا، والتجديف، و"تدنيس السبت"، والشرك بالله. ويذهب "الإحيائيون" إلى أنه لن يتحقق أى تقدم عن طريق التوصل إلى تفاهم أو ترضية مع أولئك المنكرين للدين المسيحى، لعدم وجود قواسم مشتركة بين طرفى النزاع. كذلك، فيجب ألا يسمح بتأسيس أية منظمات سياسية تعددية، إذ تنطوى على ضرورة التعاون مع أولئك الذين لا يستقون قيمهم وأخلاقياتهم من الإنجيل باعتباره كلام الرب ووحيه.

وكما يؤمن الكثير من المسلمين بأن الإسلام، لتفوقه العقدى المتأصل فيه، ستكون له اليد العليا والغلبة يوما ما إذ سيعتنقه جميع البشر، فإن "الإحيائيين" يؤمنون كذلك بأن المسيحية ستسود العالم بأسره يوما ما. إذاً، فإن فرض الدين بالجبر والإكراه يعد مذموما، وغير ضرورى، بل سيأتى بعكس المستهدف منه فى الأجل الطويل ... لذا، فإن اليوم المنتظر آت لا محالة، فكل آت قريب.

ووفقاً "للإحيائيين"، فإن "التسامح" ليس مفهوما سلبيا يقرر كون جميع المعتقدات الدينية سواسية أمام القانون، ولكن بالمقابل، فإنهم يتحدثون عن "تسامح مسيحى" يكفل معاملة متساوية لجميع الأديان دون أن يضمن قبولها جميعا بالدرجة نفسها. كذلك، لا يسعى "الإحيائيون" إلى تنظيم المعتقدات لكل شخص على حدة، وإنما إلى تنظيم السلوك والأخلاق العامة للمجتمعات. وتتطابق تلك الرؤية، تقريبا، مع رؤية بعض الإسلاميين الداعين إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وفقا لشروط مماثلة إلى حد بعيد. ووفقا لهذا المنظور، يعنى "التسامح" فى ظل الدولة الإسلامية – أن الدولة ستعتمد منهج "التسامح" مع أتباع العقائد الأخرى، ولكن لا ينصرف ذلك إلى قبول شرعية تلك العقائد على نحو متساو.

إن أعداد "الإحيائيين" يمثل قطاعا صغيرا من المسيحيين، بيد أن مجمل تأثيرهم فى الآراء السياسية لليمين المسيحى يعد بارزا، ليخلق اتجاها أكثر شمولية ورحابة عرف "بالدومينيونية".

ووفقا لعالمة الاجتماع "سارة دايموند"، فإن الملمح المميز لمفهوم "الدومينيونية" هو "أن المسيحيين هم من يخولهم الإنجيل لشغل جميع المناصب بالمؤسسات العلمانية (الدنيوية)، وذلك حتى قيامة المسيح". ويتجاوز هذا الملمح من المسيحية نطاق الدين ليدخل النطاق الدنيوى للسياسة، بل والقومية ذاتها. وقد ميز الباحث "فريدريك كلاركسون" الدومينيونية بأنها تروج لتمجيد "القومية المسيحية" وإعلاء شأنها، مطالبة الولايات المتحدة الأمريكية بالعودة إلى ما كانت عليه سابقا "كأمة مسيحية" تضطلع فيها "الوصايا العشر" بدور محورى فيما يتعلق بالنظام القانونى ونمط حكم البلاد. كذلك، يوجد الكثير من الكتب التى تتناول "الوطنية المسيحية".

وفى الولايات المتحدة، يدور الجدل حول تلك الحركات المسيحية، ويتهمها كثير من معارضيها ومنتقديها بسعيها لفرض نوع من "الشمولية المسيحية"، وهو الاتهام الذى ينكره "الدومينيونيون" بقوة. ويشبه هذا الجدل كثيرا بعض عناصر الحركات الإسلامية، والتى تجادل بشأن مظاهر الجبر أو القسر لحركات الإصلاح، أو "أسلمة" البلدان الإسلامية، لا المسيحية.

وفى هذا الخصوص، فإن النص القرآنى يعد صريحا وواضحا كل الوضوح فى تقريره أنه "لا إكراه فى الدين" – القرآن، سورة البقرة، آية ٢٥٦ . وفى الوقت ذاته، فإن معارضى الإسلام ومنتقديه يشيرون مباشرة إلى أن ما يحويه القرآن من سور وآيات، شىء ... فى حين أن الممارسة الاجتماعية ومؤسسات الدولة فى هذا البلد أو ذاك، شىء آخر. ويحتوى القرآن على العديد من النصوص المتقاطعة، يعكس كل نص منها الوحى المنزل وفقا لأزمان مختلفة وأحوال متباينة، وأن كل نص يشير إلى قضايا مختلفة. لذا، فكل من يسعى نحو فرض تأويلات صارمة

للنصوص المقدسة تفتقر إلى روح "التسامح"، وإكراه الآخرين على قبولها – يمكنه أن يجد متسعا ثيولوجيا رحيبا لتحقيق ذلك. فوفقا لمقولة "مارتن لوثر" الشهيرة : "يمكن للشيطان نفسه أن يستشهد بالنصوص المقدسة لتحقيق مآربه الخفية".

وحتى فى أثناء حركة الإصلاح البروتستانتى، فقد برز السؤال بشأن الأرثوذكسية الدينية والعلاقات بين المسيحية والإسلام أثناء القضية الخاصة بميخائيل سرفيتوس، الطبيب وعالم الدين الشهير. وقد اختلف سرفيتوس بشدة مع كالفن حول طبيعة "الثالوث"، فذهب الأول إلى أن يسوع والروح القدس كانا تمثلا للرب دون أن يكون لهما وجود ذاتى مستقل – كلام معلوم !! بيد أن سرفيتوس قد مضى قدما ليصرح بأن مفهوم "الثالوث" فى الثيولوجيا المسيحية كان عائقا على الدوام حال دون تواصل العلاقة بين المسيحيين من جهة، وبين المسلمين واليهود من جهة أخرى. وباتهامه بالتحيز لصالح "اليهود والأتراك"، فقد أدانه قاض كاثوليكى لقيامه بذلك، كما اتهم بقراءته لنصوص القرآن. وفى عام ١٥٥٣، أمر كالفن بحرق سرفيتوس فى جنيف. واليوم، يعد سرفيتوس أول شهيد لقى حتفه بسبب آرائه التوحيدية.

ظلال مسيحية للإسلام السياسى المعاصر

إن الصراعات والمصادمات السياسية التى نشأت خلال فترة الإصلاح البروتستانتى لتلقى الضوء على عناصر وقضايا نشأت إبان بدايات ظهور المسيحية. فقضايا الهرطقة التى صبغت تلك البدايات عاد أغلبها ليطفو على السطح، وعلى نحو أعمق، خلال القرن السادس عشر الميلادى، مدفوعة هذه المرة بالالتزامات الاجتماعية والاقتصادية المستحدثة للمراكز الحضرية الأوروبية الناشئة، وكذا الأنشطة التجارية المزدهرة، ونمو قوميات جديدة، فضلا عن الطموح السياسى للحكام وللدول القومية الوليدة. ويواجه الإسلام أمثال تلك القضايا فى إشارة للطبيعة الملزمة لتلك الأمور عبر شتى الأديان ... تلك القضايا التى تجرى

وقائعها فى وقت يشهد فيه العالم الإسلامى ضغوطا وتوترات عنيفة. إذ يواجه أى دين تربطه بالدولة ونظمها روابط مؤسساتية مأزق مماثلة : العلاقة فيما بين الدين والسلطة السياسية، دور الإجبار والقسر فى توطيد الممارسات الأخلاقية، فضلا عن مشكلة تطبيق القيم الأخلاقية فى المجتمع، وكذا مشكلة إدارة الحكم من خلال الفعل السياسى. إلا أنه عندما يتم تحرير الدين من قبضة الدولة، فسرعان ما سيتم استخدامه كأداة سياسية لمناهضة الدولة والمطالبة بإحداث إصلاحات تحت شعار القيم الدينية.

رأينا فى فصول سابقة كيف كان الصراع على التحكم فى المعتقدات الدينية وإحكام القبضة عليها عاملا أساسيا فى الصراع على السلطة والنفوذ. ولقد جسد "الإصلاح البروتستانتى" ذروة هذا الصراع فى الغرب. ففى الماضى، لم تكن رموز الإسلام الدينية تستطيع تحديد السياسات والزعامة التى تنطوى عليها قوة الدولة كما كانت الحال بالنسبة للمسيحية لنحو خمسة عشر قرنا فى الغرب. أما اليوم، فإنه، ووفقا للإصلاح الدينى فى الإسلام، فإن مجمل الاتجاهات قد تبدلت، فمع انبثاق الأصولية الإسلامية المعاصرة، لم يعد الإسلام، كما العهد به سابقا، قانون الدولة الرئيسى. فرجال الدين ذوو الضحالة العلمية والفقهية قد أضحوا يمارسون تأثيرا متزايدا فى المجتمع، كما أصبح لهم صوت مسموع عن ذى قبل، إذ يتصارعون مع الدولة لنيل الأحقية فى "امتلاك" القوة الدينية. ويسعى الإسلاميون الأصوليون، المؤهلون منهم وغير المؤهلين، لاستغلال الدين كأداة للإصلاح السياسى والاجتماعى، وللإطاحة بالدولة ... والتى يرونها لا تخدم أيا من الإسلام أو المواطنين.

لذا، فحين ننظر إلى الأصولية الإسلامية اليوم، فنحن لا نتحدث عن "نتاج دينى غريب" فى الشرق الأوسط. فالإسلام والمسيحية يتشابهان فى مسيرتيهما مع توالى ظهور قوى جديدة للتفاعل – وهى السمة المميزة لتطور المسيرة الدينية فى سعيها للتعايش مع معطيات القوى المحيطة. ففى عصر ديمقراطى معاصر، ليس

غريباً أن نلقى "الشعوب" تسعى لانتزاع مقدرات السلطة الدينية من براثن الصفوة أو الدولة والتى سيطرت عليها على امتداد معظم سنى التاريخ. فإذا لم يكن ثمة إسلام، لكان لهذا الأمر أن يحدث فى "شرق أوسط" تهيمن عليه مسيحية أرثوذكسية شرقية.



الجزء الثاني

الحدود الحضارية للإسلام

فى كتابه "صدام الحضارات"، أورد "صموئيل هانتنجتون" المصطلح غير الموفق "حدود الإسلام الدموية". ففى عالم تسوده الصراعات الدموية، علينا أن ندرك أن الحدود الدموية تنشأ عن اصطدام طرفين على الأقل. وسنقوم هنا بتنحية الإسلام بعيدا عن موطن بعثته فى إقليم الشرق الأوسط، وننظر كيف تفاعل مع أربع حضارات عظمى حين تم اللقاء، وكيف تم إرساء صيغ للتعايش المشترك مع روسيا وأوروبا والهند والصين.

أولا، أرغب فى الابتعاد عن الاستخدام الشائع لمصطلح "الإسلام"، إذ إنه، ومع انتشار ذلك الدين، فإننا نكون نتحدث -حقيقة- عن "المسلمين" ... فيم كانوا يفكرون، وعما كانوا يتحدثون، وماذا كانوا يفعلون، وكيف كانوا يتفاعلون مع الحضارات غير الإسلامية. وهنا، فإن المحك والأمر الأكثر أهمية هو كيف ينظر المسلمون إلى دينهم وحضارتهم، وكيف تجىء أفعالهم تجاوبا مع تلك النظرة. وهو

الأمر الذى يفوق فى أهميته نظرة الآخرين إلى الإسلام، وتفكيرهم بشأنه. فالإسلام، فى نهاية المطاف، هو ما يقول المسلمون إنه كذلك، وهو ما تسفر عنه أفعالهم. وبالطبع، ينصرف ذلك إلى أمور جد متباينة.

ومن خلال تناولنا لتفاعل المسلمين مع غيرهم من المجتمعات غير المسلمة، سنتمكن من إدراك النهج الذى يسلكه الإسلام فى ظل مختلف المواقف، كما سنتمكن من معرفة مدى مرونته وصيغه العديدة التى يتشكل وفقا لها. وبينما نقوم بملاحظة تلك التفاعلات، نلمح ثانية أن العقيدة الدينية ليست هى العامل الحاسم، إذ إن الإثنية والبعد المجتمعى ينهضان ليمثلا ذلك العامل. فهل ارتبط الإسلام بنوع من عداء لا يتزحزح، وحرب دينية ضد تلك الحضارات غير الإسلامية؟ أم تراها هدنة ما، أو بالأحرى حرباً باردة، ... أو لعله تعايش فيما بينها؟ وهل يشارك الإسلام تلك الحضارات بعض المصالح المشتركة؟

إن معظم حالات "حدود الإسلام" التى سنوردها تباعا، لا تنصرف، حقيقة، إلى الحدود ذاتها، وإنما إلى العلاقات التى تربط المسلمين بالغير داخل الحضارات غير الإسلامية باعتبارهم أقليات دينية. ففى كل منحى وشأن، أرسى المسلمون دعائم علاقات مميزة للحياة بجوار غير المسلمين. بيد أنهم لم ينحرفوا قط عن مبدأ مهيمن وذى سطوة : التمسك الشديد بمعتقدهم الدينى، واحتضانه، وحمايته، ورعاية المجتمع المسلم داخل حدود البلدان ذات الحضارات غير الإسلامية. وذلك يعنى الرفض الشديد للتخلى عن الهوية الإسلامية المميزة لهم، وكذا مقاومة امتصاصهم أو استيعابهم بحيث تتلاشى حضارتهم وتذوى. على أنه لا يفهم من ذلك أنهم لن يندمجوا بالكامل كمواطنين فاعلين منخرطين فى نسيج مجتمعاتهم. وبالمثل، فقد مر اليهود بتجربة مشابهة إلى حد بعيد على امتداد تاريخ صراعهم لحماية مجتمعاتهم، والحفاظ على الطابع الفريد لحضارتهم المميزة عن طريق المقاومة الواعية لمحاولات استيعابهم وتذويبهم، ومن ثم اندثارهم بالكلية. ونلحظ، كذلك، قدرة المسلمين الفائقة على التعايش مع غير المسلمين، بل ومشاركتهم فى التلاقح الثقافى البينى فى مجتمعات تفتقر إلى روح التعددية الثقافية. وفى تناولنا للحالات الأربع، نلمح استراتيجيات "إسلامية" متعددة : التواؤم، والانصهار، وأحيانا المقاومة حال التهديد، مع إدراك كامل لحقيقة كون المسلمين أقلية فى تلك المجتمعات.

على أن مصطلح "الحدود الدموية" لا يخلو من بعض وجاهة، إذ يذكرنا هانتنجتون -وإن سبقه آخرون- أنه وعلى امتداد التاريخ، فإن "الحضارات" يمكنها بالفعل أن تمثل "خطوطا فاصلة". فالخطوط الفاصلة هى، فى حقيقة الأمر، أية "حدود" يمكن أن تنفجر إلى صراع : يمكن أن توجد بين العشائر، وفى القرى أو الأقاليم، أو الدول، أو فيما بين القارات والحضارات.

كيف، إذاً، للحضارة أو الجماعة أن تتجانس أو تتماسك؟ يعتمد هذا على الأحوال المحيطة، إذ يمكن أن تتشظى أية جماعة، فى ظل ضغوط بعينها، إلى

مكونات أصغر. ولكن، ما الذى ينشئ الحدود فيما بين الجماعات – وما مدى صلابتها؟ يعتمد ذلك، كما سلفت الإشارة، على الظرف المحيط. ولعل المثل الشعبى الذى يصور الحالة هو : "أنا وأخى ضد ابن العم، وأنا وابن العم ضد الغريب".

وهنا، فإن ما سبق كله يبقى ذا أهمية، فالإسلام ليس بالضرورة الحد الفاصل الذى يتفاعل المسلمون إزاءه فى كل مرة. فقد تتنوع الجماعات التى يمكن أن تواجه بعضها البعض عند خطوط المعارك. فتارة يكون المسيحيون إزاء المسلمين، وأخرى يكون المسلمون إزاء الهندوس، كذلك يمكن أن تكون المواجهة بين السنة والشيعة، أو بين المسلمين الأتراك والمسلمين الأكراد، أو بين العديد من الميليشيات الشيعية العراقية. إذاً، فالجبهة التى تنتظم عناصر متضامنة تختلف على الدوام كما هى الحال بين الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية. ولعله يمكننا، فى هذا الصدد، أن نتخيل كوكبا أرضيا تتجاذبه الانقسامات وقد أضحى فجأة كلا موحدا متضامنا لصد أى عدوان محتمل من "قاطنى المريخ".

إذاً، فليس مستغربا أن نجد الصراع "المحلى" أينما كان الأكثر شيوعا مقارنة بالصراعات ذات المدى الأعم، وهو ما نشهده فى الصراعات الناشئة عن "التجاور الجغرافى"، حيث تصطرع الأطراف فيما بينها بسبب ذلك "التجاور". بل إن الصراعات الناشئة بين المسلمين أنفسهم، أو المسيحيين فيما بينهم هى أكثر ذيوعا من أية صراعات "حضارية". إذاً، "فالصراعات الحضارية" الكبرى التى تحدث عنها هانتنجتون هى تصور "نظرى" بحت، بل هى محض خيال. فمن العسير أن تنخرط حضارة بأكملها فى صراع ضد حضارة أخرى – إلا أن الأمر قد غدا أكثر يسرا فى الآونة الأخيرة، حيث قامت وسائط الإعلام المتعددة بخلق شعور من التضامن الجماعى وفقا لنطاق أوسع وأرحب. إذ يمكن للإعلام أن يظهر عدوا نائيا –وفق البعد الجغرافى– على شاشات التلفاز بحيث تتم مشاهدته فى "غرفة المعيشة"، وبذا يتم تأجيج المشاعر ضده "من البعد". إذا، "فها هم المسلمون" أو "ها هم المسيحيون" أو "ها هو الغرب". وربما كانت الحملات الصليبية أشبه حدث شهده

العالم، حتى اليوم، لما يمكن أن نطلق عليه "صراعا حضاريا" ... تلك الحملات التى صيغت الدعوة إليها بوهج وألق فى خطابات البابا "ايربان الثانى" المثيرة عن التهديد الذى يمثله "أولئك الكافرون". بيد أن معظم المسلمين لم يكن يعلم شيئا، وقتذاك، عما كان يجرى حينها.

وتبدو أهمية كل ما سبق ذكره حين نتناول قضية الأقليات المسلمة التى تحيا فى مجتمعات على خلاف معتقدها. كيف سيتفاعل المسلمون هناك؟ أمن خلال "كتلة" إسلامية؟ ربما لن يكون الأمر كذلك، إلا إذا كان المسلمون يرزحون تحت ضغوط جسيمة أو تفرقة أو تمييز بالغين نظرا لكونهم مسلمين فى المقام الأول. وبالمثل، فمن المحتمل أن تنطوى الحالة على صراع بين جميع مواطنى إقليم جنوبى من جهة، وبين مواطنى آخر شمالى من جهة أخرى. أو بين مجتمعات تضم خليطا من مسلمين ومسيحيين، أو أخرى تنتظم طوائف مسلمة وأخرى هندوسية تنتمى لجماعة لسانية واحدة تأتلف ضد إثنيات جماعة لسانية أخرى، كما فى حالة الأكراد الشيعة والسنة ضد الأتراك الشيعة والسنة. إذاً، فلا يمكن لنا أن نتنبأ، إذ إن الأمر كله يرتبط بالموقف المحيط، وكذا فهو متغير حيث يعمد الأفراد والجماعات إلى إعادة تقييم مصالحهم الذاتية باستمرار. لذا، يصبح من الحماقة التسليم بوجود عداء إسلامى تلقائى للجار غير المسلم، إلا إذا وجدت أمور سيئة تأخذ مكانها فيما بينهم، وهو الأمر المحتمل الحدوث بين الحين والآخر. إذاً، فالدين – وبخاصة الإسلام إزاء غيره من الأديان– يعد أساسا "مراوغا" للصراع. كذلك، فالتسليم بوجود صراع دائم ما بين المسلمين وغير المسلمين لهو أمر شديد الحماقة. لذا، فإنه حتى فى ظل "عالم بلا إسلام"، يكون هناك الكثير من "خطوط التماس" التى تصارعت، فى ظلها، مجتمعات، وما تزال – بل والتى ستتصارع أيضا فى ظلها مجتمعات فى المستقبل. فعلى امتداد التاريخ البشرى الممتد والموغل فى القدم، تبدو "الإثنية" على رأس القائمة، أيا ما تم تعريف "الإثنية" ... باعتبارها هوية أرسيت بوعى تام.

هل هو احتكار لمناهضة الغرب؟

تبدو دراسة المسلمين فى المجتمعات غير الإسلامية على قدر من الأهمية، إذ تكشف عن وجه آخر من أوجه الهجوم الموجه ضد الإسلام : كون الإسلام مناهضا للغرب بالأساس. والحقيقة أن أكثر بلدان العالم وشعوبها قد تراكم لديه، عبر الزمن، مبررات للإعجاب بالغرب، ومبررات لكراهيته. فمناهضة الغرب ليست حكراً على المسلمين - بالرغم من أن ملابسات الحرب العالمية ضد الإرهاب خلال العقد الأول من القرن الحادى والعشرين قد نجم عنها حالة من العداء لأمريكا بين صفوف المسلمين. على أن تلك المرحلة سوف تنتهى يوما ما. إلا أن مناهضة أمريكا أو مناهضة الغرب يمكن أن تنفجر مرة أخرى، كما حدث فى الماضى من قبل حضارات أخرى كالصين وبلدان أمريكا اللاتينية.

وفى هذا الخصوص، فقد صدرت آلاف الكتب عن الفكر المنطوى على عداء الغرب ومناهضته -والتى تمحورت حول السؤال : "لماذا يكرهوننا؟"- والذى قدمت بشأنه إجابات هزيلة كالعادة. بيد أن إشكالية الجدل الأساسية كانت، حقيقة، تنحو إلى السؤال عما إذا كانوا "هم" يكرهوننا بسبب أمور قد قام بها الغرب؟ أم يكرهوننا لأسباب تعكس حيرتهم وأحقادهم وقصور فهمهم؟ ترى على من ننحى باللائمة ... أنلوم أنفسنا أم نلومهم لكراهيتهم لنا؟

ويبدو أنه سؤال بلا إجابة، أو بالأحرى، وتحريا للدقة، هو سؤال بحاجة إلى إجابات متعددة. فمن ناحية، فإن المسلمين وغيرهم يكرهون الغرب بسبب ما اقترفه بحقهم : الغزو، المستعمرات، المد الإمبراطورى، الحروب، الانقلابات، الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية، نهب الموارد واستغلالها، الصلف، اللامبالاة، عدم احترام خصوصية الحضارة والثقافة الغربية. ولقد سمعنا ذلك الطرح مرارا ... وهو طرح ينطوى على كثير من أوجه الحقيقة.

وبالنسبة لأولئك الأمريكيين الذين يجدون غضاضة فى تقرير أى تراث ممتد

ومتصل الحلقات من الممارسات الأمريكية المدمرة ضد بلدان العالم الأخرى - تكون الاستجابة الأكثر إغراء، "تلك هى الحقيقة، فلوموا أمريكا". لذا، نقوم بالبحث عن إجابات مريحة تخدم أهدافنا : "إنهم يكرهوننا بسبب ما نتمتع به من حريات"، إنهم يحسدوننا لما نمتلكه من ثروات ولأسلوب معيشتنا المميز، إنهم يفضلون أن يلوموا الغرب بدلا من أن ينظروا إلى ما بهم من نقائص. وينطوى كل ذلك أيضا على قدر من الحقيقة، وإن لم يصب كبد الحقيقة بعد.

وأيا ما كانت جذور مناهضة الغرب وعدائه، فلا تزال الظاهرة تمثل مشكلة للغرب وللولايات المتحدة الأمريكية. فكيف يتوافق ذلك كله مع نظرة الإسلام للعالم ككل؟

إن نظرة معظم البلدان النامية تجاه الغرب المعاصر، وبخاصة الولايات المتحدة، تمثل مزيجا من إعجاب وتقدير وخوف وغضب. فنظرة الإعجاب بالغرب قد نشأت نتيجة لتنامى وتائر التنمية الاقتصادية والسياسية به بدءا من القرن السادس عشر، إلا أن التطور الهائل على الصعيدين التقنى والعسكرى بالغرب هو، تحديدا، المسئول عن الغزو الغربى للحضارات الأخرى.

إذاً، فما القواسم المشتركة لعناصر مناهضة الغرب بين الحضارات الأخرى المعادية له؟ وهل يمكن لجبهة مناهضة للغرب أن تتحد فيما بينها لتثمر ردة فعل ملموسة ضد الولايات المتحدة؟ هل نحن ماضون نحو عالم تصدق عليه صفة "الغرب ومن عداه". يبقى هذا كله تجريدا للواقع. فالغرب ليس كيانا موحدا أو كتلة متجانسة، فهناك أكثر من "غرب" يتناوبون الحروب فيما بينهم على امتداد معظم سنى التاريخ. وبالمثل، فهناك أكثر من "شرق"، وأكثر من "إسلام"، وبالطبع أكثر من "من عداه". على أن هذه المصطلحات لا تكون ذات نفع أو مغزى إلا إذا اندمجت لتشكل نوعا محددا من القوى السياسية الناشطة القادرة على تغيير ما يلزم مما يعنينا.

وفى الآونة الأخيرة، فإن ائتلافا "ممن عدا الغرب" يشهده مسرح الأحداث جزئيا ... وهو ائتلاف مناهض للغرب وللولايات المتحدة. فالعالم الإسلامى، اليوم - وهو عالم راديكالى مشتت مستثار يضج جراء "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، والمعلنة من قبل جورج بوش الابن وإدارته- ليمثل درجة عالية من تضامن ذاتى الوعى ... وهى درجة تفوق كل ما خلاها على امتداد التاريخ. ولعل ذلك النوع من تضامن المشاعر لا يمكن توظيفه واستغلاله مباشرة من قبل أية دولة على حدة، ولكنه يمكن أن يحدث ثورات وممارسات إرهابية متكررة، وتعطيلا وتسويفا للأهداف الأمريكية، وذلك على الصعيد الدولى. فالرؤى الإمبريالية للإدارة الأمريكية بقيادة بوش، والتى اقترحها الاستراتيجيون من المحافظين الجدد على نحو صريح، وأشكالها الأخف ظلالا فى عهد كلينتون، - قد ولدت المزيد من المشاعر المناهضة للولايات المتحدة على امتداد معظم بلدان العالم، فى العالم الإسلامى، وروسيا، والصين، وأمريكا اللاتينية. وحتى لو لم تستطع تلك القوى الاندماج لتشكيل تهديد عسكرى متماسك ضد الولايات المتحدة، فإنه يمكنها بسهولة تكثيف الجهود لإعاقة الاستراتيجية الدولية لأمريكا عن تحقيق مآربها. وهو بالفعل ما نجحت فى تحقيقه، إذ أدى مجرد سلوكها العدوانى إلى تقليص هيمنة إدارة بوش، وشل قدرتها على القيام بما تريد.

لذا، فكلما تفكرنا بشأن "حدود الإسلام الدموية"، وجدنا أننا نتحدث، بالفعل، عن منظومة معقدة من الظواهر والأحداث : حماية الجماعات ذات الحضارة والثقافة من خطر الهجوم عليها، والاستياء المشترك من المظاهر العدوانية للغرب، ومحاولات الدول لجعل رعاياها وحدة متجانسة. فإذا ما ذهبنا إلى أن الإسلام هو العامل الفاعل فى الخلافات المجتمعية ... فكأنما نكثف توجهاتنا ونركز أبصارنا على حالات بعينها من الصراع الدولى فى لحظة تاريخية بعينها. كذلك، فإن الإيمان بأن زخم العداء للغرب لم يكن ليوجد إذا لم يكن ثمة إسلام على الإطلاق ليعد محض سذاجة. فروسيا، والصين، والهند - كحضارات ثلاث من تلك الأربع التى

ستتناولها بالتحليل - لديها جذور راسخة من مناهضة الغرب وفقا لوجهة نظر كل طرف على حدة. ويتواءم المسلمون مع تلك الأنماط بشكل أو بآخر.

أولا : سنتناول "روسيا" بشئ من التفصيل، كونها بلداً محورياً فى سردنا الذى سيلى. إن روسيا على قدر كبير من الأهمية يفوق أهمية البلدان الثلاثة الأخرى: فقد ورثت روسيا مباشرة عن الحضارة البيزنطية نظرة الاشمئزاز للغرب، فضلا عن قيامها بترسيخ تلك النظرة، كذلك فهى تضم أعدادا كبيرة من المسلمين بداخل حدودها، فضلا عن تقليب نظرها على امتداد القرون للاهتداء إلى الطريقة المُثلى للتعامل معهم فى ظل الحكومات المتعاقبة إبان الإمبريالية، والشيوعية، وأخيرا، فى ظل "حكومات ما بعد انهيار الشيوعية". وأخيرا، فإن روسيا ما تزال منخرطة بعمق فى الشرق الأوسط ... ذلك الإقليم الذى يمثل، بصورة أو بأخرى، عداء مشتركا للغرب وارتيابا تجاه أفعاله وممارساته.

الفصل السابع

روما «الثالثة»:
روسيا والإرث الأرثوذكسي

باقتراب القرن الخامس عشر الميلادى، كانت بيزنطة تحتضر إذ قضى الغزو العثمانى فى عام ١٤٥٣ على آخر بقايا الإمبراطورية. على أن مفهوم الكنيسة الأرثوذكسية -الكنيسة الكبرى (الأم)- كان محفورا فى وجدان الإقليم على امتداده، فلم يكتب عليه الموت كما كتب على الإمبراطورية. وفى الفصل الحالى، سنرى كيف انتقلت الشعلة البيزنطية إلى روسيا حيث احتفظت بشرارة الاستياء من الغرب والتشكك به، وكيف تم احتضان تلك الشرارة لتتخذ شكلا جديدا على مدار خمسة قرون إلى يومنا هذا. وقد استمر عداء الكنيسة الأرثوذكسية للغرب قائما حتى بعد أن تزيت الإمبراطورية بإهاب إسلامى فى أعقاب الغزو.

إذاً، فقد استطاع الإسلام -في تلك المرحلة- أن يستكمل فرض هيمنته، ويبسط نفوذه على امتداد كامل الإمبراطورية البيزنطية البائدة - وقد تشابهت الإمبراطورية العثمانية مع سابقتها البيزنطية في العديد من المناحي والأمور، إلا أن الأولى كانت ترتدي حلة إسلامية. فالعثمانيون كانوا قد ورثوا العديد من مؤسسات بيزنطة الطليعية الكبرى، وعمدوا إلى استكمال اضطلاع تلك المؤسسات بمهامها في إدارتهم لإمبراطوريتهم متعددة الملل والإثنيات، وتصريف شئونها. وعلى حين كانت الضربة التي وجهت إلى المسيحية الشرقية ضربة قاصمة أدت إلى هزيمتها وفقدان سلطانها، إلا أنه من المهم ملاحظة أن الإسلام لم يصبح العدو الأبدي اللدود للمسيحية في تلك البقاع الشرقية من العالم. بل كان التعايش هو السمة السائدة هناك. وأيا ما كان شعور المسيحيين الآن فيما يتعلق بتلك الحقبة، فلم يكن ثمة بديل -آنذاك- سوى التعايش الحميمي بين كلا الطرفين. وبالطبع، وجدت توترات عدة

هنا وهناك ... كبعض الانتفاضات والثورات المحلية التى اشتعلت بين الحين والآخر، خاصة عندما بدأ نفوذ الإمبراطورية العثمانية يضعف تدريجيا، وتتنامى الحركات الانفصالية القومية والمدعومة من قبل أوروبا. وقد تم إخماد بعض الثورات المندلعة على نحو وحشى قاس. إلا أن الرعايا المحليين من المسيحيين كانوا قد انتفضوا وثاروا -أيضا بين الحين والآخر- ضد الحكم البيزنطى فيما مضى، كذلك فقد ثار الرعايا المسلمون وانتفضوا ضد الحكم العثمانى الذى امتد لأجل طويل.

إن الإمبراطوريات الكبرى لا يخلو تاريخها، أبدا، من أن يشهد بعض مظاهر الاستياء العميقة من قبل الرعايا فى هذا المكان أو ذاك. فنظرا لعشرة قرون من عدم ثقة الأرثوذكس بروما والغرب من جهة، وضرورة التعايش الأرثوذكسى مع الإسلام كوضع مستحدث من جهة أخرى -لم يشهد الإسلام، فى بسطه لنفوذه على امتداد الإقليم، قلاقل أو اضطرابات محلية تذكر. ولقد عاشت جماعات مسيحية

عديدة فى الأقاليم العربية فى ظل الحكم العربى لنحو ستة قرون قبل سقوط القسطنطينية. وبينما يمكن النظر إلى عام ١٤٥٢ باعتباره رمزا أو حدا فاصلا، إلا أن الحقيقة تكمن فى سيرورة الأحوال واستدامتها فى الإقليم. فأيا من أضحت بيده مقاليد الأمور فى الأراضى المشرقية والأناضول والبلقان، فقد غدا حاملا لإرث جيوبوليتيكى من التوترات مع الغرب. وفيما يتعلق بروسيا، سنرى ملامح ذلك الإرث تنتقل إلى العالم السلافى الشرقى لتخلق علاقات جديدة متشابكة فيما بين المسلمين والمسيحيين هناك.

وفقا للمصادر التاريخية الروسية القديمة، فقد شقت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والأرثوذكسية طريقها، منذ أكثر من ألف عام، إلى كييف، مهد الدولة الروسية الوثنية المبكرة. فعقب انتصار القسطنطينية على روما -- فى قرن سبق ذلك، فضل البلغار والكثير من الشعوب السلافية الأخرى اعتناق المسيحية الأرثوذكسية على المسيحية اللاتينية. ويذكر أن الأمير "فلاديمير العظيم" -أمير كييف- كان قد أرسل مبعوثين إلى مراكز الديانات الكبرى لتحديد مدى مناسبة أى منها لاعتماده وتبنيه فى روسيا رسميا. وتزخر الروايات والنوادر المتواترة بردود أفعال أولئك المبعوثين حين عادوا إلى روسيا يحملون تقاريرهم وانطباعاتهم :

فبالنسبة لمسلمى البلغار فى وادى نهر الفولغا، فقد أورد المبعوثون أن البسمة والسعادة لا تعرفان طريقا إليهم، إذ يتسمون بمظاهر الحزن التى تعلو وجوههم، فضلا عن رائحتهم الكريهة المنتنة. كذلك، فإن دينهم غير مستحب لتحريمه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير. وقد أورد الأمير "فلاديمير" مقولته كانطباع لما سبق : "إن شرب الخمر هو لذة الروس ومتعتهم".

كذلك أرسل "فلاديمير" مبعوثين إلى اليهود سائلا إياهم عن دينهم الذى رفضه أيضا، إذ ذهب إلى أن فقدانهم لأورشليم دليل على أن الرب قد نبذهم. وأخيرا، انحصرت المقارنة ما بين المسيحية الكاثوليكية والمسيحية الأرثوذكسية. "ففى

كنائس ألمانيا المقبضة، لم يستشعر مبعوثو "فلاديمير" أى ملمح جمالى، أما فى "آيا صوفيا" بالقسطنطينية، حيث أديت الطقوس الاحتفالية بالكنسية البيزنطية لإبهارهم، فقد وجدوا ضالتهم المنشودة هناك. وقد ورد عن المبعوثين قولهم : "فى آيا صوفيا، لم نكد نعرف ما إذا كنا فى الجنان، أم ما زلنا من أهل الأرض ... إن الجمال الذى شهدناه ليعجز البيان أن يوفيه حقه، ويكل اللسان عن تصوير كنهه". إذاً، فقد تم الاختيار بما انطوى عليه من دلالات حضارية عميقة تستشرف المستقبل، على أننا واثقون من المكاسب السياسية والدينية الكبيرة التى حققها "فلاديمير" من خلال تحالفه مع القسطنطينية.

إن اعتناق روسيا للمسيحية كان نصرا ومكسبا جيوبوليتيكيا كبيرا للأرثوذكسية : فإلى اليوم تظل روسيا أكبر تجمع للطائفة الأرثوذكسية على الصعيد العالمى. كذلك، فإن روسيا هى المعبر الدينى الوحيد الذى تمتلكه الكنيسة الأرثوذكسية لقوة عالمية عظمى. وفى الوقت ذاته، ستدخل أفواج تلو أفواج من الرعايا المسلمين تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية النامية لتتحول روسيا، كذلك، إلى "دولة إسلامية" هامة.

ولم يخامر العثمانيين أية شكوك فى الطابع التاريخى والثقافى "للجائزة" التى حازوها، وانتقلت من البيزنطيين إلى أيديهم، فقد كانوا يلمون، عبر فترات ممتدة، بنظم الإدارة والحكم البيزنطى وهم يضمون، على نحو تدريجى، مناطق قصية وأراضى نائية من الإمبراطورية إلى حيازتهم. فسرعان ما سعى السلطان الغازى "محمد الفاتح" إلى جعل القسطنطينية عاصمة ذات طابع عالمى متعدد الثقافات. كذلك، فقد دعا جميع المسيحيين الذين نزحوا من الإمبراطورية للعودة إليها، وإعادة المدينة إلى ما كانت عليه سلفا. أما بطريرك القسطنطينية، فقد خول سلطة الإشراف على الجماعات الأرثوذكسية بأكملها على امتداد الإمبراطورية. وفى حقيقة الأمر، فإن سلطات البطريرك ومساعديه، فى ظل دولة الأتراك العثمانيين، قد جوبهت بالاستياء من قبل بعض الجماعات الأرثوذكسية باعتبارها انتهاكا لما تمتعت

به من حكم ذاتى آنفا. بيد أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تستعد، آنذاك، لأربعة قرون طوال من التعايش فى ظل الإمبراطورية العثمانية ... ذلك التعايش الذى سيعمل على تغيير كل منهما.

وفى الوقت ذاته، فقد تجشمت الكنيسة تكلفة حضارية باهظة. فبالرغم من تمكنها من تسيير أمورها وفق سلطة دينية قوية فى ظل الإمبراطورية العثمانية، إلا أن نفوذها السياسى، الذى جرد من مؤازرة دولة أرثوذكسية أيا ما كانت، قد تم تقليصه على نحو كبير. وفى ظل الإمبراطورية العثمانية، زادت عزلة الكنيسة الأرثوذكسية، وتقلصت روابطها بالاتجاهات الثقافية والدينية السائدة فى الغرب آنذاك. كذلك، فقد أضحت الكنيسة أكثر انطواء على ذاتها، وواصلت اتجاها تراجعيا سابقا من قضايا وأمور ثقافية و"عقلانية" لتمثل ما كانت تصطبغ به الأرثوذكسية كسمة مميزة غالبة - أهمية الإيمان والبعد الدينى فى الحياة "الروحانية" للفرد. وفضلا عن ذلك، غلب على الكنيسة شعور عميق بالثنائية ما بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية. فوفقاً للرؤية الأرثوذكسية، تصطبغ الكاثوليكية اللاتينية و"الغرب" بالمظاهر المادية و"العقلانية" (تغليب قيمة "العقل" وإعلاؤها على الإيمان و"الروحانيات") وكذا بالنزعة الفردية الخالصة، ناهيك عن الفساد الناجم عن العلاقة وثيقة العرى ما بين الكرسى البابوى والكنيسة من جهة، والسلطة السياسية الدنيوية من جهة أخرى ... تلك العلاقة التى أفضت إلى خواء روحانى عميق. فالكنيسة الأرثوذكسية ترى روحانياتها بأنها انبثاق مباشر من التعاليم المبكرة للمسيح نفسه، والتى لم تلوث بفعل "سياسات" الكنيسة اللاتينية والكرسى البابوى. إذ دائما ما كان ينظر إلى روحانيات وأخرويات الأرثوذكسية بأنها تمثل ما كان يفتقر إليه الغرب المفصح عنه، باستحقاق وجدارة، فى جدبه وخوائه "الروحانى". وتهيمن تلك الأفكار بقوة على روح الأرثوذكسية وعقلها، وتبقى حاضرة فى "بلاغاتها الخطابية" إلى يومنا هذا.

روسيا أو "روما الثالثة"

لقد آذنت شمس الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالأفول، ولكن ما كان للأعراف والتقاليد الإمبريالية للمعتقد الإيمانى الأرثوذكسى لتذوى مع سقوط القسطنطينية ... إذ تم الحفاظ عليها بواسطة "إيفان الثالث" - قيصر روسيا، والذى أعلن موسكو "روما الثالثة" لتخلف مركزى النفوذ المسيحى الرومانى والبيزنطى. ولتعضيد ادعائه، فقد قام "إيفان" بتعزيز أواصر رابطة ملكية مع القسطنطينية من خلال زواجه من صوفيا باليلوغ - سليلة آخر أباطرة بيزنطة. كذلك، فقد استخدم شعار النبالة البيزنطى -النسر ذو الرأسين- شعاراً لملكته، والذى ما زال، إلى اليوم، شعارا للنبالة فى روسيا.

إن اعتماد مصطلح "روما الثالثة" من قبل موسكو قد تجاوز مجرد الصفة الإمبريالية، فقد مثل رؤية تبشيرية لدور حضارى وروحانى جديد ... التزام قد وضع على عاتق روسيا للحفاظ على الإيمان الصافى والحقيقى للمسيحية إزاء شرور وهرطقات كل من الكاثوليكية الرومانية والإسلام. ولعل أبرز ما يوضح تلك "النكهة التبشيرية" الروسية الجديدة - الرسالة التى بعث بها الراهب "فيلوطيوس" البسكوفى إلى القيصر "باسيلى الثالث" :

لقد سقطت كنيسة "روما" القديمة بسبب ممارساتها الهرطقية، كما انهارت أبواب "روما" الثانية تحت معاول الأتراك "الكافرين". أما كنيسة موسكو، كنيسة "روما الجديدة"، فهى تشرق كما الشمس أو يزيد على الكون بأسره ... فأنت -يا باسيلى- عاهل جميع الرعايا المسيحيين، عليك أن تدبر مقاليد الأمور فى إطار من خشية الرب ... عليك بخشية الرب الذى جعلك على هذا الملك، لقد سقطت روما الأولى والثانية، ولكن هاهى "روما الثالثة" تقف شامخة ... فلن تكون ثمة "روما رابعة" أبدا. لا، لن تزول مملكتك ولن تخلفها أخرى.

إذاً، فالتواصل لم يتوقف عند هذا الحد، أكان ثمة إسلام أم لم يكن. كذلك، لم

يندثر مفهوم "روما الثالثة" بسبب العثمانيين. ففى تلاحم رائع ما بين الرؤى التاريخية الإسلامية والمسيحية شرقى المتوسط، شرع السلطان "محمد الثانى"، بعد الغزو العثمانى، باعتبار نفسه وارث الأعراف الإمبراطورية التى سادت فى بيزنطة، كما أطلق على نفسه لقب "قيصر الروم". وقد قام "محمد الثانى" بانتقاء بعض الأعراف القضائية والإدارية البيزنطية لاعتمادها فى الإمبراطورية بما من شأنه الحفاظ على طابعها القومى والدينى التعددى. وفى تنويعة رائعة على اللحن ذاته، ذهب المؤرخ التركى "ألبير أورطاى" إلى أن "محمد الثانى" قد رأى "القسطنطينية العثمانية" آنذاك -روما الثالثة" التى جاءت لتخلف "روما" الوثنية فى إيطاليا، وتخلف "روما" الأرثوذكسية الشرقية فى القسطنطينية- إذاً، فهى "روما الإسلامية" الآن فى اسطنبول. ووفقا لتلك الرؤية، لم يمثل الإسلام اعتراضا أو رفضا للمسيحية الشرقية، بل عمد، فى امتداد وتواصل كبيرين، إلى انتقاء العديد من الأعراف الإمبراطورية الشرقية المستقاه من المسيحية وتبنيها ودمجها فى إطار ما سيصبح لاحقا أكبر إمبراطورية إسلامية شهدها العالم ... تلك الإمبراطورية التى امتدت لآجال طوال. وفى هذا التحول الكبير، نجد الإمبراطورية تطغى فى مرتبتها على قضايا المعتقد الدينى ذاته.

وقد ورد بإحدى مراجعات كتاب يتناول العثمانيين والغرب :

... إن المناوشات والمعارك التى اندلعت بين الهابسبورج والعثمانيين (عند بوابات ڤيينا)، والتى احتشد فيها كثير من التابعين فى صفوف كل فريق – لم تمثل "صراعا للحضارات" بقدر ما مثلت "صداما للإمبراطوريات". فرغما عن الشعارات الدينية التى صاحبت تلك المعارك، فلم يكن الصراع صداما بين الإسلام والمسيحية إلا عرضا، إذ كان الهدف المرجو هو بسط الهيمنة على الأراضى كلما أمكن ذلك، إلى جانب هدف لم يقل أهمية وإن بدا أقل تحديدا، وهو الحق فى ادعاء حيازة إرث الإمبراطورية الرومانية ... ألم يزح "محمد الفاتح" الحكم البيزنطى باستيلائه على القسطنطينية قبل قرنين؟ إذ لم تكن الرغبة، مطلقا، طمس معالم التجربة البيزنطية

أو محو تاريخها، بل عمد العثمانيون إلى الحفاظ عليها كحق لهم.

الشكوك الأرثوذكسية الروسية إزاء الغرب

منذ أن انحاز الوثنيون الروس الأوائل إلى المسيحية الشرقية الأرثوذكسية بتفضيلهم إياها على المسيحية الكاثوليكية، شرعت الكنيسة الأرثوذكسية فى صبغ روسيا بقوة بطابعها الحضارى والثقافى، وتضمن هذا مهمة روسيا الجديدة المتمثلة فى خلاص البشرية وانعتاقها عن طريق نشر المعتقد الإيمانى الحق. وقد انتشرت عدة مظاهر إيمانية جاءت لتصبغ الثقافة الروسية : الينابيع الأصيلة للتصوف الروسى، تقاليد الإيمان الصوفى وأعرافه، القديسون وتجوالهم، الإيمان بزهد الفلاح الروسى وبساطته... بما يشبه زهد المسيح وبساطته، وكذلك نقاء الروح الروسية وأصالتها، فضلا عن مهمة روسيا الحضارية التنويرية. وقد اجتمعت العوامل السابقة جميعها لتعضيد المعتقد الراسخ لدى المؤمنين الأورثوذكس بشأن التفوق "الروحانى" لمعتقدهم وكنيستهم بالمقارنة بالغرب المتسم بالوحشية، والنزعة التوسعية، والمادية المفرطة، والحرص المبالغ فيه، والطابع الفردى، ومظاهر الفساد ... ذلك الغرب فى تعطشه الأبدى لحيازة القوة فى عجب وخيلاء. وقد تنامت تلك المظاهر التى اصطبغ بها الإيمان الشعبى الروسى لاحقا خلال القرن التاسع عشر فى مناهج التفكير الفلسفى الروسى فى تمجيدها للرؤية العالمية للأرثوذكسية وشمولية السلافية وعالميتها.

وإلى اليوم، تبقى روسيا تعانى ازدواجية تجاه الغرب – وهو جانب من صراعها لتأكيد هويتها. فلطالما اصطدمت الآراء والمشارب الموالية للغرب مع تلك المناصرة للعنصر المحلى، ذلك الصدام الذى اتخذ، لاحقا، شكل الصراع بين "المستغربين" الروس، وبين عاشقى "السلافية"، إذ كان "عاشقو السلافية" يمثلون رؤية رومانتيكية للحضارة الروسية وأعرافها "الروحانية" الفريدة فى مواجهة الغرب بوحشيته وماديته. وقد كان هذا الخوف مبررا : فبعد أن انحسر التهديد

المغولى/التترى لروسيا فى القرن الرابع عشر، كانت أخطر التهديدات الخارجية لموسكو تلوح من الغرب سواء من قبل بولندا الكاثوليكية الرومانية، أو من قبل الفرسان الجرمانيين، أو فرنسا بقيادة "نابوليون"، أو السويد والولايات الألمانية البروتستانتية، أو من قبل هتلر.

كذلك، فقد تولد لدى الروس شعور بالدونية تجاه الغرب بمنجزاته التكنولوجية، وبلدانه القوية المسيطرة، وقوته الاقتصادية والعسكرية. وفى كتابهما الاستشرافى، "التغريب"، أشار "أيان بوروما" و"افشاى مارغاليت" إلى أن جذور الفلسفة العاشقة للسلافية والمناهضة للغرب مستقاة من الفلسفة الرومانتيكية الألمانية، والتى مثلت بدورها، فى جانب منها، ردة فعل إزاء قوة فرنسا الاقتصادية والعسكرية المهيمنة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع اندلاع الثورة الفرنسية، أضحت فرنسا تجسيدا للشعور التنويرى بتفوق المنطق والعلم مقارنة بالدين والحدس. ولقد كانت فرنسا "الرشيدة" أيضا خلال حكم "نابوليون"، والتى بدت ممثلة للغرب – هى من شنت هجوما شاملا على روسيا، وحاصرت موسكو، إلا أنها سرعان ما منيت بهزيمة نكراء مذلة على أيدى القوات الروسية المتداعية، وبفعل "الشتاء القارس" كقوة من قوى الطبيعة التى أسهمت فى حماية "روسيا المقدسة".

إذاً، فلم يكن مستغربا أن يعتبر المفكرون الروس الأيديولوجية المحركة لفرنسا ... تلك الدولة الغربية الصليبية ذات البعد التوسعى الاستيطانى – تهديدا لروسيا وقيمتها. ولقد كانت الرومانتيكية الألمانية بإعلائها من شأن العاطفة، والحدس، والفن الشعبى، ومكانة "الطبيعة" إزاء "التصنيع" ووحشيته المفرطة – أكثر توافقاً وتواؤماً مع الفكر الروسى المنحاز للسلافية. ولقد تم تمجيد الطابع السرمدى للقيم الروسية القومية فى روايات أساطين الأدب الروسى من أمثال تولستوى ودوستوفسكى. كذلك، فقد أفرزت روسيا خلال القرن التاسع عشر نتاجا ضخما من الفكر الفلسفى الذى انتقد الأساس المادى البحت، بل والعدمى، للفلسفة الغربية. (وفى المقابل، فقد أفرزت، أيضا، نتاجا هائلا من الجدالات المضادة التى

قدمها الفلاسفة الروس المؤيدون للتغريب).

ولعل أهم وأبرز أمثلة ذلك النوع من الفكر الروسى نجده فى كتابات "قسطنطين ليونتييف"، فيلسوف القرن التاسع عشر المحافظ ذى النزعة الملكية الأرستقراطية، والذى قام بنشر مفهوم "البعد البيزنطى" - وهو المفهوم الذى يذهب إلى أن جذور روسيا الأصيلة تجد امتداداتها فى بيزنطة - المملكة والكنيسة الأرثوذكسية . وقد دعا ليونتييف إلى ضرورة مناهضة روسيا للتأثيرات الكارثية للغرب، والتى تزيت بالعدالة والمنفعة والثورة. ووفقا له، يكون على روسيا، بالمقابل، أن تتجه فى توسعاتها الثقافية والجغرافية صوب الشرق ... صوب الهند والتيبت والصين. كذلك، فقد احتوت كتابات ليونتييف على آراء صائبة سديدة ذات بصيرة ثاقبة وعمق جلى - نادى بها قبل بداية القرن العشرين بشأن التطور المستقبلى للغرب، بما فيها الإيمان بأن ألمانيا سرعان ما ستتسبب فى اشتعال حرب أو حربين كونيتين فى أوروبا . وكذلك بأن روسيا سوف "تشهد ثورة دموية تقودها عناصر لا تؤمن بالمسيح أو المسيحية، وإنما تنحو طبيعتها إلى النهج الاشتراكى والاستبدادى ... تلك الثورة التى سيعمد قادتها إلى السيطرة على مزيد من النفوذ والقوة بأكثر مما حازه أسلافهم القياصرة". وقد تنبأ ليونتييف "نبوءة" خارقة بأن "الاشتراكية هى إقطاع المستقبل".

إن الكثير من الغربيين يرفضون فكرة "مناهضة الغرب" على أنها مغالطة، لا على كونها جدلا ونقاشا يخضع للمنطق" - فكيف يمكن للمرء أن يكون مناهضا للغرب على أسس عقلانية رشيدة؟!". بيد أنه إذا كان مفهوم "مناهضة الغرب" تكتنفه بعض المغالطات، فإن طابع القوة الغربية نفسه وممارساتها ذاتها فى سعيها للغزو والهيمنة، وفى اتسامها بالتفرقة العنصرية - ينطوى على مغالطات أيضا. ولربما لا يكون الغرب فريدا فى إبراز تلك السمات، إلا أنه قد مارسها فى سياساته العالمية وفق شكل جارف وكاسح بالمقارنة بأية قوى أخرى فى العالم على امتداد معظم سنى العصر الحديث. إذاً، فالغرب كونه أكثر ممارسى تلك العناصر السلبية

فى العالم هو من يثير مشاعر الكراهية والعداء. وفيما يذهب البعض إلى تسمية تلك الظاهرة "صدام الحضارات"، فإنه من الجلى أن ذلك "الصدام" لا يرتبط كثيرا بالقيم الحضارية، وإنما يرتبط بحقائق بعينها بشأن المواجهات الغربية العنيفة مع الشرق على امتداد القرون الخمسة المنصرمة.

وفيما يمكن أن تكون صدمة للأذن الأمريكية، يذهب "فاسيليوس ماكريدس"، الباحث فى الشئون البيزنطية بجامعة "ايرفورت" إلى القول بأن "مناهضة الغرب قد بلغت أوجها خلال هجمات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وتكون أشكال مناهضة الغرب هى النتيجة الطبيعية للغزو السياسى والاقتصادى والثقافى الغربى على امتداد العالم ككل خلال العصور الحديثة فى أعقاب تنامى قوى الإمبريالية والكولونيالية".

ويضيف "ماكريدس" قائلا:

"من المثير أن نلاحظ بعض الائتلافات المناهضة للغرب، والتى تشكلت وقتذاك وفق خطوط كانت لتكون غير متناسبة أو متكافئة فى ظل ظروف مغايرة - وتحديدا، ذلك الائتلاف بين الأرثوذكس والمسلمين فى منطقة شرقى المتوسط ... فمناهضة الغرب وفقا للأرثوذكس، ونظيرتها وفقا للمسلمين كانا مختلفين تماما، إلا أن ائتلافهما لم يكن غريبا أو شاذا ... ويمكننا ملاحظة اتجاه مشابه إزاء المسلمين والمسيحيين الغربيين فى روسيا الأرثوذكسية خلال القرن الثالث عشر الميلادى. إذ فضل القيصر "الكسندر نفسكى" عقد ائتلاف مع التتار والمغول من أن يدخل مع روما فى تحالف مناهض للمسلمين، وهو ما اقترحه البابا "اينوسنت الرابع" عام ١٢٤٨ .

وبلا شك، فقد تخلف العالم الأرثوذكسى - روسيا، وشرقا أوروبا، والبلقان، وأجزاء من الشرق الأوسط - بالمقارنة بأوروبا الغربية فيما يتعلق بالتنمية الصناعية والاقتصادية المعاصرة، وهو الأمر الذى أدى إلى خلق شعور بالدونية لدى العالم

الأرثوذكسى تجاه الغرب. وقد عضد الغرب من هذا الشعور من خلال استعراضه المغرور الصلف لنفوذه الإمبريالى الذى طال الكثير من بلدان العالم ككل إبان العهد الإمبريالى، بما فيها الصين. إن جل مشاعر كراهية الغرب ومناهضته قد تولدت خارج العالم الإسلامى، كما حدث فى الصين خلال القرن التاسع عشر، على أن المسلمين قد شاركوا أيضا فى تلك المشاعر، مما ساعد فى تعزيز نوع من التضامن بين المفكرين المناهضين للغرب.

أما الغرب، فقد كانت له بدوره نظرة عدائية استبعادية وقف بموجبها بمنأى عن العالم الأرثوذكسى. ففى أعقاب "الصدع الكبير" عام ١٠٥٤، أصبحت الكنيسة الشرقية، بالفعل، منافسا صريحا – إن لم تكن خصما لدوداً لروما. فالتخوم ما بين الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية شرقى أوروبا، وفى منطقة البلقان ظلت تصبغها الصراعات والمواجهات حتى يومنا هذا – قارن التوترات والانقسامات ما بين الأرثوذكسية والكاثوليكية فى أوكرانيا، وكذلك مشاعر العداء والانقسامات الحضارية المستمرة ما بين روسيا الأرثوذكسية وبولندا الكاثوليكية، والتى اتخذت طابعا جيوبوليتيكيا.

وخلال القرون المنصرمة، فإن الأوروبيين قد ذهبوا إلى تعريف "أوروبا" بأنها "أوروبا الغربية"، حتى أنهم اعتبروا أوروبا الشرقية، عالماً آخر مختلفاً. أو بالأحرى موضعاً منعزلاً قلما تكامل مع باقى القارة الأوروبية. فوحدها الثقافات الكاثوليكية/ البروتستانتية للتشيك والبولنديين والهنغاريين هى التى أجيزت ضمن الحدود الثقافية الأوروبية. وحين سقطت أوروبا الشرقية، الكاثوليكية والأرثوذكسية، فى قبضة الاتحاد السوفييتى، فإن الفجوة الحضارية بين كلا المعسكرين قد تم ترسيخها أكثر من ذى قبل. كذلك، فقد واجه الاتحاد الأوروبى مشاكل جمة فى سعيه لإحداث تكامل بين بلدان أوروبا الشرقية ذات المعتقد الأرثوذكسى أكثر مما واجهه بالنسبة لتلك ذات المعتقد الكاثوليكى أو البروتستانتى. لذا، فقد كانت بولندا، وجمهورية التشيك، وسلوفاكيا، وهنغاريا أيسر أن تستوعبها أوروبا، أما رومانيا،

وصربيا، وبلغاريا، وبطبيعة الحال أوكرانيا وروسيا، وكلها ذات معتقد أرثوذكسى، فلم يكن الأمر بمثل هذا اليسر.

كذلك، فقد تم الإفصاح عن التباينات الحضارية والثقافية من خلال الفن والطقوس الكنسية. فالغرب قد أجاز استخدام الآلات الموسيقية فى الطقوس والشعائر بالكنائس الغربية لتحل محل الموسيقى والغناء الجريجورى المميز للطقوس الشرقية. أما المعمار، فقد هجر الغرب التصميمات الكنسية الأرثوذكسية التقليدية التى اعتمدت أسلوب القباب -والتى اعتمدها المسلمون لاحقا فى تصميماتهم لأبنية مساجدهم- وتبنى (الغرب) العمارة القوطية والتى كان ينظر إليها الأرثوذكس على أنها أكثر "قسوة" و"جفافا". كذلك، حافظ التصوير الدينى فى الشرق على التصاوير الأكثر انضباطا وكمالا، والتى ميزت العالم البيزنطى، تلك التى كانت على النقيض تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية المميزة للغرب، بما فيها التصاوير التى تمثل "الرب" ذاته على نحو أقرب إلى الكفر والتجديف.

روسيا الجديدة

منذ انهيار الاتحاد السوفييتى عام ١٩٩١، تعكف الدولة الروسية الجديدة، والتى انبثقت من رماد الاتحاد السوفييتى المنحل، على استعادة هويتها التقليدية ومكانة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. وبينما عانت الكنيسة كثيرا إبان الحكم السوفييتى وتم تسييسها، على نحو كبير، فى انخراطها لخدمة الدولة ومصالحها، إلا أنها شاركت الحزب الشيوعى الروسى خوفا تقليديا من الغرب وكراهية له – وعلى حين خافت الكنيسة الروسية من الكاثوليكية، فقد رأى الحزب الشيوعى، وفقا لمعتقده الماركسى-اللينينى، الغرب على أنه معقل الرأسمالية. إذاً، فالكنيسة الروسية والحزب الشيوعى كانا مدركين لتاريخ الهجوم الغربى على روسيا، والذى استهدف الإطاحة بالدولة الروسية.

إن المواقف والاتجاهات الثقافية تبقى وترسخ رغما عن مرور الزمن. لذا،

فليس من المستغرب أن نشهد، ثانية، في ظل الفيدرالية الروسية الجديدة إحياء وانتعاشا للمخاوف والشكوك والكراهية ذاتها تجاه الغرب، تشاركها في ذلك، على نحو مستحدث، الكنيسة الأرثوذكسية التي تم إحياؤها وتفعيلها ثانية. كذلك، فسرعان ما احتضنت الدولة الروسية الجديدة، في مرحلة ما بعد الحكم السوفييتي، الكنيسة الأرثوذكسية ثانية كرمز ومكون أساسي من مقومات القومية الروسية. ولا تزال الكنيسة الروسية تمتلك قوة شعائرية وطقسية جاذبة يمكنها أن تستحث الشعور القومي- ذلك المزيج القديم الذي ينتظم الدين والخلاص والإثنية والقومية.

إن المخاوف الأرثوذكسية المعاصرة من الغرب لها ما يبررها. فالمشاعر قد استثيرت بقوة حين هرعت إرساليات التبشير الغربية بالكاثوليكية الرومانية وبالبروتستانتية إلى روسيا عقب انهيار الاتحاد السوفييتي لملء الفراغ "الروحاني" في هذه المرحلة بالسعي لجعل الأرثوذكس يعتنقون المذهب الكاثوليكي أو المذهب البروتستانتي. وقد تم تكريس مخصصات غربية طائلة لتسهيل عملية تحول الأرثوذكس إلى اعتناق أي من المذهبين، في وقت كانت المصاعب الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي على أشدها. وفي هذا الإطار، فقد اتهم البطريرك الروسي روما بالسعي لشراء ذلك التحول المذهبي لمواصلة هدفها القديم لاختراق العالم الأرثوذكسي لإرساء دعائم الهيمنة الكاثوليكية. وفي معرض تعليقه على هذا الشأن، أورد أحد المراقبين الغربيين :

"هنا في موسكو، إلى جانب سان بطرسبورج، وغيرها من المدن الروسية الكبيرة، فإنه من الصعب عدم ملاحظة مواكب الوعاظ، والتبشيريين، ورجالات الكنيسة، والمعلمين غير المقيمين تفد من الولايات المتحدة الأمريكية، وغرب أوروبا، وكوريا، والهند ... وقد انتشرت دعوتهم ورسالاتهم داخل محطات الترام، وبداخل صناديق البريد، كما أمطرت تلك الرسالات أثير الإذاعات وموجاتها ... لذا، فليس مستغربا أن يشعر العديد من الروس بالانكشاف والخوف وأنهم غير مستعدين لأولئك الأجانب من حاملي "كلمة الرب ورسالته". وقد رغب البعض منهم في كبح

جماح ذلك الإعصار الدينى إن لم يخمدوه بالكلية. وفى هذا الصدد، قام البرلمان الروسى، "الدوما"، بالكشف عن تعديلين مقترحين بشأن قانون "الحريات الدينية" بما يتماشى مع تلك المشاعر كونها انعكاسا لها.

وفى محفل دولى للشعوب الروسية عام ٢٠٠١، أشار العديد من المتحدثين إلى انتشار الملل والمعتقدات الدينية الغربية فى الأراضى الروسية. وقد مرر البرلمان الروسى مشروعات قوانين للحد من حرية التبشير فى روسيا - حيث كان الهدف هو الحد من انتشار التحول إلى المسيحية الغربية، لا الإسلام. وفى هذا الصدد، فقد آزر الكثير من الروس هذا الدفاع عن الإيمان الروسى المحلى إزاء التأثيرات الخارجية، والتى كانت أهدافها ونواياها موضعا للشك. لذا، فقد جعلت الكنيسة الأرثوذكسية من الصعب على الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية، وعلى نحو خاص الكنيسة الإنجيلية أن تمارس التبشير فى روسيا أو القيام بتدشين كنائس جديدة أو تنظيم أخرى قائمة. ولمرة أخرى، أضحى المعتقد القومى التقليدى محركا رئيسيا للتيه الحضارى والزهو القومى، وتتوازى هذه الظاهرة، تماما، مع الدور الذى يضطلع به الزهو القومى على امتداد العالم الإسلامى حين تواجه الجماعة المسلمة "غربا" ذا ثراء وسطوة ... ذلك الغرب الذى ينظر إليه بأنه يسعى إلى إضعاف شوكة الإسلام. ولا يرتبط ما سبق كله بالدين، وإنما يرتبط بالهوية والتقاليد.

فالكنيسة الأرثوذكسية، وبحق، تحمل تاريخا يربو على عشرة قرون من الإيمان، والشعائر الكنسية، وموسيقى الطقوس، والقديسين، والأيقونات. وبينما لا يجعلها ذلك بالضرورة كنيسة للدولة، يرى الكثير من الروس أن الأرثوذكسية هى دين الدولة، إذ يذهبون إلى أن روسيا لا يمكن إلا أن تكون أرثوذكسية، وأنه، وفقا للتاريخ، فإن الكنيسة الأرثوذكسية كانت على الدوام كنيسة الدولة.

إذاً، فالدولة الروسية تقوم بإحياء قوميتها وإنعاش الأعراف القومية والأمجاد

بخاصة من خلال الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بوصفها محركا ثقافيا وحضاريا بعيد الأثر. وفى هذا الخصوص، فقد تم استعادة المقومات المسيحية الآن ودمجها بالمشهد السياسى فى روسيا، والذى اصطبغ بالإلحاد إبان الحكم السوفييتى، إذ أخفقت ثلة قليلة من السياسيين خلال ذلك الحكم فى استحضار أهمية المبادئ والقيم الدينية. وقد أورد "جريجورى يافلينسكى"، زعيم حركة "يابلوكو" السياسية ملاحظته بأن "غياب الإيمان يعد مقدمة للفساد والبيروقراطية، مما يؤدى بالتبعية إلى استشراء ظاهرة الإرهاب ... فالإصلاحات الاقتصادية المطبقة فى دولة لا تؤمن بوجود "الرب" تعد ضربا من المستحيل".

أما "فاليرى غانشيف"، رئيس اتحاد الكتاب الروس، فقد صرح وأعلن مخاوفه من "أن روسيا تقوم باستنساخ خلايا "اللاأخلاق"، والتى اكتسبتها من الثقافة الغربية"، كما طالب بأن يعرض مطلباً جماهيرياً على الحكومة مفاده أن يتم إنقاذ البلاد من الفساد والفسوق. كذلك، فقد يتم تأجيج تلك التوترات وترسيخها عن طريق ما يعرف "بالإشكالية التوحيدية"، القائمة حتى الآن، فيما بين الكاثوليكية والأرثوذكسية حول أحقية وجدارة من سيمنح حق التحكم فى الكنيسة "النسطورية"، وكنيسة "أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح"- وذلك فى أوكرانيا وبيلاروسيا – وهى قضية شائكة تماما فى الصراعات الجيوبوليتيكية فيما بين روسيا والغرب.

إعادة إحياء الأرثوذكسية

يمكن أن يسلك التحول لاعتناق دين آخر أو ملة مغايرة مسارا ما، كما يمكن أن يسلك المسار المضاد. وقد لاحظت الكنيسة الأرثوذكسية، على امتداد العالم، فى شعور يملؤه الرضا، اهتماما متناميا بالأرثوذكسية، واتجاها من الطوائف والملل المسيحية الأخرى إلى اعتناق رسالتها الدينية الأكثر أصالة ونقاء. وقد نادت بأن جوهر الدين هو "الروحانيات" ... هو كلمة "الرب" التى تملأ حياة المرء بالورع

وتصبغها بالصلاح والتقوى، ويكون المرء فى ذلك ساعيا أن يصبح "عبدا ربانيا" فى مختلف مناحى حياته. إذ يمكن أن يأتى خلاص المرء وانعتاقه فى هذه الحياة الدنيا، لا أن يؤجل إلى الحياة الآخرة - إذا حررت "الروح القدس" المرء من الخطيئة، وغمرت النفس "بالروحانيات". إذاً، فالطقوس والشعائر الدينية قد أريد بها أن تملأ القلوب بكلمة "الرب"، وأن تثير المشاعر والحواس من خلال حرق البخور، وسماع الألحان الروحانية، ورؤية الإيقونات، والاستمتاع بالأردية والملابس الطقوسية، واستشعار السعادة والوجد، واستحضار "الرب" فى حياة المرء، وتزكية النفس بالتأمل "الروحانى"، والاقتراب من العمق الإيمانى، وتلمس الطاقة الروحانية المقدسة والنهل من معينها خلال الحياة الدنيا، وعدم الانتظار للتمتع بها فقط فى الآخرة... فى المجمل، إنها تجربة دينية يراد بها إنعاش "الروحانيات" لدى المرء. ويؤمن معتنقو الأرثوذكسية أن الخصائص الروحانية للكنيسة يتم تحجيمها وتهميشها فى المناخ العلمانى الدنيوى الجارف، والذى تحيا فيه الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية فى الغرب، واللتان تذهبان، فى بعض الأحايين، إلى الاهتمام بالصرعات الاجتماعية ونزعات الممارسات السياسية المختلفة. ويذهب الباحث الأمريكى "نيقولاى بترو" إلى القول بأنه "إذا ما قدر لأوروبا القرن الحادى والعشرين أن تتزيا بإهاب دينى، فسيكون هذا الإهاب، بالأساس، متمثلا فى المسيحية الأرثوذكسية الشرقية"، فى إشارة منه إلى نزعتها الروحانية الغالبة.

إن الصدع القائم بين المسيحية الأرثوذكسية والمسيحية اللاتينية هو صدع بعيد الغور عميق المدى، وهو أقدم من ذلك الصدع بين الإسلام من جهة، والمسيحية من جهة أخرى. وقد تأثر كلا الصدعين، على نحو كبير، بالاعتبارات الجيوبوليتيكية للهيمنة والنفوذ، وقاما بتوظيف الدين كرمز، أو بالأحرى كمحرك لذلك التنافس. وبالقطع، فإن هناك تباينات عقدية عدة، إلا أنها قد اتخذت أشكالا جديدة حين تم ربطها بالبلدان المتصارعة وبقوى المشاعر القومية المتأججة.

ولعل المثال الأوضح والذى يعكس أصداء أمثال تلك المشاعر هو الطيف الدينى

واسع المدى الذى تتراوح بين طرفيه العديد من الطوائف الدينية اللبنانية اليوم - السنة، الشيعة، المارون، الروم الكاثوليك، البروتستانت، الأرثوذكس الشرقيون، الدروز ... وكثير آخرون، وعلى امتداد ذلك الطيف الواسع، فإن الأرثوذكس الشرقيين، على وجه الخصوص، هم الأكثر امتلاكا لحس فطرى بطبيعة الملمح النفسى للمسلمين، وكذا بممارساتهم السياسية. لذا، فليس من قبيل الصدفة أن يحتفظ على الدوام بمنصب وزير الخارجية فى لبنان لفرد من الطائفة الأرثوذكسية. إن الأرثوذكس الشرقيين فى لبنان يدركون، بالفطرة، طبيعة التوازن ما بين المسيحية والإسلام، ودورهما المشترك المؤدى باقتدار وبراعة ضمن فعاليات السياسة الدولية ومعطياتها. ويحوز الأرثوذكس الشرقيون هناك ثقة المسلمين بأكثر مما تحوزه أى من الطوائف المسيحية الأخرى. وتنبع تلك الحساسية الأرثوذكسية، فى جانب منها، من قدر من الحذر والاحتراز إزاء السياسات الغربية، كما تنبع من إدراكها أن المسلمين والأرثوذكس، حتى ولو لم تكن علاقاتهما البينية تصبغها المودة والألفة على الدوام، فإنهم يتقاسمون بالفعل تاريخا حميميا ورؤية عالمية مشتركة. إذا، فالمواقف والاتجاهات الشرقية تتجاوز فى نظرتها "الإسلام" باعتباره دينا ومعتقدا.

ولكن، كيف تأتى لروسيا أن تحافظ على علاقاتها بسكانها من المسلمين ذوى الكثافة العددية المرتفعة نسبيا، وكيف تفاعلت مع التوترات الإثنية والأيديولوجية الناشئة؟



الفصل الثامن

روسيا والإسلام:
بيزنطة ما زالت تحيا!

روسيا والإسلام

لقد عاشت روسيا جنبا إلى جنب مع الإسلام لما يقرب من ألف عام، إذ يقيم بها أكبر تجمع للمسلمين بالمقارنة بأية دولة غربية أخرى - يقدر بنحو عشرين مليون نسمة بما يتراوح ما بين ١٢٪ و ١٥٪ من إجمالى السكان. وفضلا عن ذلك، فإن هؤلاء المسلمين ليسوا مهاجرين كما هى الحال فى أوروبا الغربية، وإنما جزء أصيل من السكان الذين أضحوا من رعايا الإمبراطورية الروسية من خلال الغزو الروسى للبلدان المجاورة. وفى الاتحاد الفيدرالى الروسى الجديد، يمثل المسلمون أكبر أقلية دينية من حيث العدد، كذلك فإن الإسلام هو أكبر معتقد دينى فى روسيا بعد الأرثوذكسية. وتضم موسكو، الآن، تجمعا للمسلمين يفوق أى تجمع آخر فى أية مدينة فى العالم بأسره.

وبفضل تعداد مسلميها الكبير، تسعى روسيا، الآن، لأن تصبح عضوا مراقبا بمنظمة العالم الإسلامى، ومقرها مكة بالمملكة العربية السعودية.

ولعل الحقيقة الأكثر دلالة هى أن جميع المسلمين فى الأراضى الروسية هم، فى الحقيقة، ليسوا من الروس، وإنما ينتمون إلى أعراق وإثنيات أخرى تركية بالأساس. وقد غزت الشعوب التركية والتترية والمغولية أراضى روسيا خلال القرن الثالث عشر الميلادى، مع ما اتسمت به تلك الشعوب من حكم وحشى قاس حين أخضعوا "موسكوفى" لعدة قرون. لذا، ففى روسيا، فإن أى اختلاف دينى غالبا ما يكون اختلافا إثنيا بالأساس - باعتبار العامل الإثنى عاملا هاما فى تكريس الخلاف وترسيخه. إذاً، فالمسلمون الروس باعتبارهم ينتمون، بالأساس، إلى أعراق "تركية" هو أهم كثيرا من كونهم مسلمين فحسب.

وبما أن الإمبراطورية البيزنطية قد سقطت على أيدى المسلمين من الأتراك والعرب، فإنه من المنطقى افتراض أن يكون الروس شديدى العداء للإسلام والمسلمين. بيد أنه من الصعب أن نعزى سقوط القسطنطينية إلى الإسلام. فهل لنا، حقيقة، أن نصدق أنه لو كان العثمانيون الأتراك غير مسلمين لكانوا امتنعوا عن غزو بيزنطة اليونانية ودحرها، وهى الإمبراطورية الغنية المنهكة آنذاك، بغض الطرف عن المعتقد الذى تعتنقه؟

خلال حقبة الحكم السوفييتى لروسيا، كانت السياسات الإلحادية العنيفة للدولة تهدف إلى تدمير جميع الأديان والعقائد على امتداد الأراضى الروسية. بيد أنه بينما أضعف السوفييت ممارسة الإسلام كمعتقد، على نحو كبير، إلا أنهم قد عجزوا عن القضاء عليه. فكما كان متوقعا، عاد الإسلام ليمثل قضية أساسية وهامة لموسكو فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتى. وقد نالت ست جمهوريات

إسلامية استقلالها ولم تعد جزءا من روسيا. وبخصوص المسلمين المقيمين فى روسيا، فقد كانت النظرة تتراوح بين اعتبارهم أعداء، ثم دعائم لروسيا القيصرية، ثم أعضاء أوفياء للإمبراطورية الروسية، ثم قادة محتملين للحركة الشيوعية المناهضة للإمبريالية فى الشرق، ثم شركاء أيديولوجيين بوجه الإمبريالية الغربية، أو كقوميين مشكوك فى ولاءاتهم، أو كإرهابيين أو انفصاليين خطرين، أو -مرة أخرى- كحلفاء محتملين ضد الهيمنة الإمبريالية الأمريكية. كذلك، فقد أوضحت التجربة الروسية كيف عمد المسلمون هناك إلى التواؤم والاندماج، وفق أساليب شتى، فى روسيا المسيحية فى ظروف متقلبة غير مستقرة، كذلك فقد يكون المسلمون هناك ما زالوا يكتشفون بعض المشتركات الجيوبوليتيكية إلى اليوم.

وبعد سقوط الشيوعية عقب انهيار الاتحاد السوفييتى السابق، وبنهاية التوجهات الإلحادية الرسمية للدولة، والتمتع بمزيد من الحريات والاستقلالية الثقافية، برز الملف الإسلامى، على نحو جوهرى، ضمن اهتمامات الفيدرالية الروسية. إذ توافد النشطاء الإسلاميون من خارج الاتحاد السوفييتى المنحل إلى الأراضى الروسية لنشر الأفكار الإسلامية والترويج لها، تحدوهم فى ذلك نوايا سياسية واضحة سلمية بالأساس، وإن وجدت أيضا بعض الاتجاهات شديدة العنف. وبالفعل، كان المسلمون الروس بحاجة ماسة إلى تلك الإرساليات التبشيرية، إذ فقد الكثير منهم، فى ظل القمع السوفييتى على امتداد أجيال ثلاثة، جانبا كبيرا من المعلومات عن الشرائع والممارسات الدينية، وكذا الطقوس والمراد منها، إلى الحد الذى أصبحوا معه يجهلون أساسيات الدين ككيفية أداء الصلوات على نحو سليم. وقد أسفر انهيار الاتحاد السوفييتى عن فراغ روحانى عميق على امتداد كامل الأراضى الروسية، إذ كان الروس، بصفة عامة، متعطشين لبعث روحانى جديد يضفى قيمة إيمانية على حياتهم يستشعرون معها معنى هوياتهم وجدواها.

وقد أسهمت الاتصالات مع الإسلاميين من خارج البلاد فى تعميق وعى المسلمين الروس بدينهم، وكذا بالروابط التاريخية التى ربطت روسيا بالعالم

الإسلامى خارج حدودها. كذلك، فقد شرع المسلمون، مرة أخرى، فى تأدية مناسك فريضة الحج إلى مكة، وكذلك، وربما أكثر أهمية، بدأ المسلمون التواصل مع الفكر الإسلامى المعاصر بشتى أطيافه ومشاربه، والالتحام ثانية فى العالم الإسلامى الذى أصبح الآن أكثر تسييسا عما عهده مسلمو روسيا من قبل. وفى حين كانت بعض الاتجاهات الإسلامية ذات طابع راديكالى، كان معظمها سلميا فى طبيعته واتجاهاته. إلا أن الاستثناء الصارخ، فى هذا الصدد، كان شمال القوقاز - حيث واصل الكثير من الجماعات الإثنية الصغيرة، وبخاصة الشيشان، صراعها المسلح طويل الأجل، والذى امتد لقرن ونصف القرن بهدف تحقيق الاستقلال السياسى مستحضرا الإسلام، مرة أخرى، فى تلك القضية. أما هزيمتهم الساحقة على أيدى القوات الروسية فى تسعينيات القرن العشرين فقد أصبحت درسا لجميع الشعوب الأخرى فى روسيا، التى تستهدف الانفصال ... وكانت مظاهر الهزيمة تتمثل فى تدمير عاصمة الشيشان -جروزنى- ومدن أخرى، مما خلف عشرات الآلاف من القتلى. على أن العاصمة قد تم إعادة بنائها، وفطنت موسكو -هذه المرة- إلى حصافة منح الشيشان درجة مقبولة من الحكم الذاتى داخل الأراضى الروسية ... إلا أن الكثير من الدماء الشيشانية قد أريق، كما أزهق العديد من الأرواح، بينما أدى الشعور بالإحباط والغضب الشديدين فى الشيشان إلى تبنى عدد من المحاربين نماذج إسلامية أكثر راديكالية وأشد تطرفا، بما فيها تبنى أنموذج "تنظيم القاعدة".

وبينما يبدو نضال الشيشان الطويل سعيا للاستقلال لا نهائيا، فإن هذا النضال لا يمثل جميع المسلمين فى روسيا تمثيلا كاملا. إلا أنه، وفى تلك الحالة، هناك اختلاف فى طبيعة الصراع المسلح. ففى الماضى، كانت الأخوة الصوفية هى رأس الحربة التى قادت ووحدت الجهود نحو تحقيق الاستقلال - حركات وتنظيمات صوفية يمكنها، حين تعن الحاجة، الالتجاء إلى المقاومة المسلحة عندما تتعرض ثقافتها وحضارتها للتهديد من الخارج. أما هذه المرة، فقد ذهب الكثير من

"الجهاديين" الإسلاميين ذوى الصبغة العالمية، والذين خاضوا الكثير من الصراعات المسلحة الأخرى فى البوسنة وكشمير وأفغانستان - إلى الشيشان لتقديم يد العون والمساعدة، ولنشر المزيد من الأفكار والرؤى "الجهادية" الراديكالية.

وفى بعض الأحيان، تندلع الصراعات والمصادمات ما بين المحاربين الصوفيين الأكثر تقليدية وأولئك الإسلاميين الجدد، والذين عادة ما يطلق عليهم لفظة "الوهابيين". وقد نفذت بعض العمليات الإرهابية فى قلب روسيا ذاتها كمحاولة للثأر من الوحشية والدموية الروسية فى الشيشان. وربما يكون الإرهاب الشيشانى ضد الروس أكبر مصادر "الإسلاموفوبيا" القائمة حاليا فى روسيا.

وفى أعقاب هجمات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وإعلان واشنطن "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، قامت موسكو وبكين بالانضمام إلى ذلك النداء وتلك الصرخة ليعلنا أن الانفصاليين المحليين، وكذا الإسلاميين بهما هم فى عداد "الإرهابيين". وقد أتاحت "الحرب ضد الإرهاب" مشروعية تطبيق سياسات أكثر عنفا وقسوة، والتى كان ينظر إليها فى ظل معطيات وظروف أخرى على أنها انتهاكات لحقوق الإنسان. ففى أيار/مايو ٢٠٠٥، قامت الحكومة الأوزبكية بفتح النيران عشوائيا على الحشود الغاضبة من المتظاهرين الإسلاميين مما أدى إلى مقتل المئات ممن وصفوا جميعا بأنهم "وهابيون". كذلك فقد ربطت الصحافة الرسمية الأوزبكية بينهم وبين "الإرهابيين العالميين"، حتى وإن أفادت الشواهد بأنهم منشقون إسلاميون تم إعدادهم محليا بالأساس - فى تظاهراتهم ضد السلطة الشمولية الغاشمة للحكم الأوزبكى.

واليوم، وفيما يتعلق بمسلمى الاتحاد السوفييتى السابق ومسلمى روسيا الحالية - فقد أصبحوا متوائمين ثقافيا وحضاريا باندماجهم فى تيار الفكر الإسلامى العالمى. إن الهوية الإسلامية تتخذ الآن مسارا تصاعديا، بيد أنها تنبثق، على نحو كامل، فى إطار الاتحاد الفيدرالى الروسى بطابعه متعدد الثقافات.

ففى ظل الأجواء المتسمة بالقهر والقمع، يبرز الإسلام كعنصر هام من عناصر الهوية المشتركة، والتى تساعد فى توحيد الروس المسلمين على تنوعهم وتباينهم، إلا أنه يكون من الخطأ أن نتصور قدرة الإسلام على تجسير جميع الهوات والفجوات الإثنية والألسنية ما بين المسلمين. فحتى الشعوب التركية ذات الإثنيات المتعددة - لديها منافسون من بين أنفسهم إذ لم تُظهر تلك الشعوب إلى الآن شكلا من أشكال التضامن السياسى القوى ذى النزعة "التركية" فيما بينها، ناهيك عن أى تضامن إسلامى ملحوظ. لذا، فإن الإسلام هو عنصر ترابطى جامع ولكن على نحو مؤقت غير مستدام بما تسمح به السياسات الروسية المتبعة. بيد أنه من الجلى أنه حتى لو لم تكن الشعوب "التركية" الموجودة فى روسيا تعتنق الإسلام، لكانت قد احتفظت بهوية مستقلة قوية، ولكان الأغلب أن تظل ترعى الحركات الانفصالية فى عصر يعج بالقوميات والاضطرابات فى روسيا.

كيف إذاً كانت علاقة الإسلام بالحكم فى روسيا؟ بلغ الإسلام أجزاء من روسيا حتى قبل المسيحية ذاتها. ولقد نشأت علاقة روسيا الأولية بالإسلام على أرض المعركة حين قامت الإمبراطورية الروسية بالتوسع جنوبيا وشرقا فى غزوها الوئيد لالتهام البلدان "التركية" المسلمة. وكانت إحدى الحوادث الأكثر مأساوية حين غزا "إيفان الرهيب" مدينة قازان - عاصمة الخانية التترية عام ١٥٥٢ (صور الحصار ببراعة على لسان الراهب المخمور "فارلام" فى إحدى الغنائيات المؤثرة من أوبرا "بوريس جودونوف" لموديست موسورغسكى).

إن الكنيسة الأرثوذكسية، حقيقة، هى أول من استحث تلك الغزوات الروسية على الشرق حيث نادت بنشر المسيحية فى قازان المسلمة، المؤسسة بعناية كعاصمة للخانية التترية. وعقب الغزو، سرعان ما أرست الكنيسة وجودا مؤسساتيا قويا فى الأقاليم التترية، وتم التخطيط لتحويل سكانها المسلمين بالقوة والإجبار لاعتناق المسيحية الأرثوذكسية. إن استيلاء روسيا على قازان كان "حدثا حضاريا خطيرا" - حيث مثل خطوة رئيسية أولى على طريق تدشين الإمبراطورية الروسية، وتحويل

حاكم "موسكو" ليصبح "قيصرا" يسيطر على أقاليم وسكان جدد. وكانت شرعية "القيصر" ونفوذه المهيمن ينبثقان من دوره القائم على نشر المعتقد الأرثوذكسي، والذي قاد حملتها القس "مكارى" - مطران الكنيسة :

بمباركة القس "مكارى" وتحت إشرافه، تم خوض الحرب ضد الخانية التترية كحرب مقدسة شنتها الكنيسة الأرثوذكسية. فما أن بدأت المناورات العسكرية حتى أوصى "مكارى" بمزيد من السلوك الخير والمنضبط من قبل جيش "إيفان الرهيب" المعسكر فى "سفياجسك" - القلعة الموسكوفية المتاخمة لقازان. وقد وعد "مكارى" الجيش المحارب بمباركة الرب ورحماته نظير ما يضطلع به من واجب مقدس، إذ أساء التتار فى قازان إلى كلمة الرب، وانتهكوا حرمات الدين وقدسية الإيمان. كذلك، فقد تنبأ بحلول نقمة الرب وعقابه على أولئك التتار الكافرين ... تلك النقمة وذلك العقاب سيجلبان النصر للجيش الروسى، بما يتفق ودور روسيا الجديد كراعية وحامية لقدسية المعتقد الأرثوذكسى.

قارن كيف لم يعتبر الروس الأوائل، مثلهم فى ذلك مثل الصليبيين، المسلمين كأتباع دين آخر، وإنما كونهم هراطقة مارقين من المسيحية وتعاليمها.

وبالرغم من قيام الكنيسة الأرثوذكسية ببناء الكنائس والأديرة والمؤسسات الدينية فى الأقاليم التى تم غزوها للتو، إلا أنه قد أسقط فى يدها بشأن هدفها لنشر المسيحية فى تلك الربوع، وتحويل المسلمين لاعتناق عقيدتها ... إذ بينما رأت الكنيسة الغزو الروسى للتتار المسلمين وتحويلهم لاعتناق المسيحية مهمة مقدسة، إلا أن موسكو لم تشاطرها الرأى. فالحملات العسكرية الروسية كانت، بالأساس، جانبا من بسط نفوذ الدولة وإحكام هيمنتها. فلو لم تكن تلك الأراضى التترية بأيدى المسلمين، لكانت موسكو قد داهمتها على الفور. إذاً، فلم يكن التحول لاعتناق الأرثوذكسية، من وجهة نظر موسكو، إلا ذريعة تصبغها التقوى للتوسع الإمبريالى المنشود.

ولكن سرعان ما أدرك القياصرة فى موسكو مدى صعوبة عملية تحويل ذلك العدد الضخم لاعتناق الأرثوذكسية وتشابكها، خاصة عند الأخذ بعين الاعتبار قدرة الإسلام على مقاومة ذلك التحول. كذلك، فقد دخلت الاعتبارات الجيوبوليتيكية المشهد، فقد أبدى السلطان العثمانى اهتمامه وقلقه بشأن رفاهية المسلمين فى الخانية التترية كونه المسئول عنهم من الوجهة الدينية. وفى هذا الصدد، فقد طمأنه القيصر بتأكيده على اعتزامه السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية. وهنا فقد طغت الحقائق والاعتبارات البراجماتية على الحماسة الأرثوذكسية.

وبالرغم من أن العلاقة الناشئة كانت بين المسيحيين المنتصرين والمسلمين المنهزمين، إلا أن نوعا من التعايش قد نشأ بينهما. ففى نهايات القرن الثامن عشر، أبدت الإمبراطورة "كاترين العظيمة" رفضها لرغبة الكنيسة إزاحة الإسلام وتحويل جميع المسلمين لاعتناق الأرثوذكسية – وهو هدف لو كان قدر له النجاح لكان من المؤكد أن يفضى إلى موجات لانهائية من العداءات والثورات داخل الإمبراطورية. وبالمقابل، وفى سابقة هامة للتعددية الثقافية فى روسيا الإمبريالية، قامت موسكو بإدراج "الدين" كعنصر من عناصر هيكلها الإمبراطورى عن طريق ربط الإسلام مباشرة ليكون ضالعا فى تأسيس حلف للانصهار القومى والتماسك الاجتماعى. وفى هذا الإطار، فقد اعتمدت الإمبراطورة "كاترين" سياسة قوامها رحابة الأفق والتسامح ... سياسة هدفت إلى دمج الهياكل الإسلامية الدينية والدنيوية داخل البنيان الإمبريالى الأشمل. إذ سيصبح الدين قاعدة للتنظيم السياسى والاجتماعى للإمبراطورية بارتكانه إلى المفهوم المشترك من قبول رب واحد ومفاهيم التنوير الخاصة بالتسامح الدينى. وبذا، فقد سعت موسكو إلى "تحويل السلطات الدينية ومرجعياتها فى كل مجتمع على امتداد الإمبراطورية إلى أداة من أدوات الحكم الإمبريالى".

إذاً، فقد روجت الخطة الإمبريالية الروسية لتأسيس جماعات دينية، كبديل عن تلك الإثنية بحيث تمثل كل جماعة منها الوحدة السوسيوسياسية الأساسية داخل

الإمبراطورية. (وقد كانت الإمبراطورية العثمانية، فيما سبق، الرائدة فى ذلك المضمار حيث عملت على تنظيم قواعد الإمبراطورية وفقا للجماعات الدينية المنشأة). وفى الإمبراطورية الروسية، تم تأمين النظام الاجتماعى والسياسى، بعناية فائقة، عن طريق ضمان استمرارية "التماسك والالتزام الدينى" داخل كل جماعة على حدة، وبإشراف القادة المباركين من قبل الدولة. لذا، وترتيبا على ما سبق، فإن أى شكل من أشكال المعارضة الدينية أو المعتقدية لأى من الأديان القائمة بالإمبراطورية كان ينظر إليه باعتباره رديفا للمعارضة السياسية – وهو مفهوم شائع تواتر إلينا عبر التاريخ البيزنطى. أما تماسك كل جماعة على حدة فقد اعتمد على ضمان الحفاظ على هيكل موحد يعمل على تأمين المعتقدات الدينية دون أى مساس بها، وبما يتلاءم وهوية الجماعة. ووفقا لهذا، فقد كان يحق لقادة الجماعات المسلمة بدورهم الالتجاء إلى السلطات الشرطية بالإمبراطورية الروسية لتأمين نفاذ قراراتهم والحفاظ على انضباط الممارسات الدينية، ومن ثم استتباب النظام الاجتماعى وعناصره.

ولكن ما شرعية موسكو، من وجهة النظر الإسلامية، فى تعيين زعامات الجماعات المسلمة وقادتها بالإمبراطورية الروسية؟ إن الشرعية العليا المطلقة التى تمتع بها "العلماء المسلمون" فى البلدان المسيحية قد تآكلت بفعل قيام الدولة ذاتها باختيارهم وتعيينهم في المناصب، وكذا بفعل قيامهم بمناصرتها وموآزرتها بالمقابل. إذاً، فقد خسر أولئك العلماء استقلالهم، وأضحى من السهولة بمكان اتهامهم بكونهم مجرد "دمى" تتلاعب بها الدولة كيفما شاءت ووفقما ارتأت. لذلك، كان حق المسلمين فى تعيين القائم على الإفتاء بالدولة أحد المطالب السياسية للمسلمين إبان اندلاع الثورة الروسية.

وخلال حكم سلالة "رومانوف" والتى دامت لقرون ثلاثة، أصرت الدولة الروسية على التأكيد أن سلطتها الحاكمة تستقى "كينونتها" من العنصر الدينى. وبالنسبة لمشروع الدولة الروسية إبان ذلك الحكم، فقد ارتكن إلى "عالم أخلاقى يتقاسمه

الجميع". وبالفعل فقد حالف التوفيق تلك السياسات على نحو كبير. وكما يتعين على الحكام فى البلدان الإسلامية، وإن كانت صيغة الحكم دنيوية، الحفاظ على القواعد الاجتماعية والقانونية الإسلامية لتكون لهم شرعية يرتكنون إليها، فإن قبول سلالة "رومانوف" غير المسلمة كحكام يخضع لهم المسلمون داخل الإمبراطورية، يكون رهنا بسماحهم للمسلمين بحرية اتباع النهج الإسلامى فى نمط حياتهم، وكذلك يكون رهنا بحفاظهم على المبادئ الإسلامية فى نطاق الجماعات الروسية المسلمة. بل لقد بلغ الأمر حد تشجيع الرعايا المسلمين على التقدم بشكاواهم ونزاعاتهم من القيصر للبت القضائى بشأنها، ومن ثم الإقرار بشرعية القيصر، فضلا عن الحفاظ على الوحدة والرفاه والسعادة بين الرعايا المسلمين بالإمبراطورية. وقد كان الهدف، وبمرور الزمن، أن ينظر الرعايا المسلمون بالإمبراطورية إلى حاكم البلاد بأنه يستند إلى "الشرعية"، وإن لم يكن مسلما، ومن ثم يتوجب عليهم تقديم فروض الطاعة والولاء له. وبذا، فقد اضطلعت الإمبراطورية الروسية بدور "حامى العقيدة"، ليس فقط الأرثوذكسية، بل الإسلامية واليهودية والبوذية أيضا، وكذلك البروتستانتية والكاثوليكية لاحقا.

إن لجوء القياصرة إلى تقرير الاختلافات الدينية وتجاوز تلك الإثنية قد أدى، فى النهاية، إلى توطيد أواصر التضامن وفق أسس دينية بين المسلمين بالإمبراطورية على حساب الأواصر الإثنية. بيد أن ولاء المسلمين قد قدر له أن يختبر حين استدعى ليكون على المحك، عندما قامت الإمبراطورية الروسية بغزو بلدان إسلامية خارج حدودها. وقد بلغت تلك الغزوات والحروب ما يزيد عن خمسين معركة دارت رحاها على امتداد ثلاثة قرون كاملة بين روسيا من جهة، والعثمانيين من جهة أخرى، فضلاً عن أربع حروب كبيرة تم خوضها ضد فارس المسلمة (والتى دعمت فيها بريطانيا وفرنسا الفرس تماشيا مع سياستيهما المناهضتين لموسكو). وبما أن غالبية المسلمين الروس ذوو أصول تركية، ويتبعون المذهب السنى، فقد كان تعاطفهم مع الأتراك العثمانيين يفوق نظيره مع الفرس.

بيد أن ولاءهم قد ظل قائما للقيصر حتى اضطرابات الحرب الكونية الأولى واندلاع الثورة البلشفية فى روسيا.

إن التعايش ما بين الإسلام، والمسيحية الأرثوذكسية داخل الإمبراطورية الروسية يعد تجربة هامة فى تاريخ الشعوب الإسلامية. فالمسلمون بداخل الإمبراطورية يمكن أن يمنحوا ولاءهم لها لأنهم لم يجبروا على الذوبان عن طريق استيعابهم وامتصاصهم، كذلك لم يتم إكراههم على التخلى عن هويتهم الذاتية والجمعية لصالح هوية روسية مسيحية. وبطبيعة الحال، لم تكن الجماعات الإسلامية فى الإمبراطورية الروسية مطلقا وحدة متجانسة، إذ نشأت كل منها على حدة وفقا لتجربتها التاريخية والثقافية المميزة لها، كما كانت الحال بالنسبة للجماعات البروتستانتية، والكاثوليكية الرومانية، واليهودية، والبوذية داخل الإمبراطورية، والتى لم تجبر أى منها على الذوبان أو التخلى عن هويتها.

الانتماء الدينى أم الانتماء الإثنى؟

رغما عن وجاهتها وملاءمتها لتلك العصور، فإن مفهوم إدارة الدولة وتسيير أمورها وفقا لتلك الجماعات المصنفة بحسب المعتقد يبدو للمراقب المعاصر أمرا قد تجاوزه الزمن كونه نتاج عصر مختلف ذى نزعة دينية أعمق. إذاً، فما القاعدة التى يمكن أن ترتكن إليها هوية المرء أو الجماعات فى هذه الدولة أو تلك؟ أتكون الإثنية (الانتماء للسان ما) أم يكون الدين (كعقيدة معتنقة)؟ لقد جرى التصنيف وفقا لأحد هذين المعيارين فى الكثير من المجتمعات متعددة الثقافات لآلاف السنين. أما فى الغرب المعاصر، فيعتمد مفهوم هوية المرء فى دولة ما على مبدأ "المواطنة"، والذى يعلن المرء بموجبه ولاءه للدولة فى الوقت ذاته الذى لا يتعين عليه الإفصاح عن أى شأن ذاتى أو شخصى.

إن الإمبراطورية الروسية، رغما عن قيامها بخوض حروب عديدة ضد البلدان الإسلامية المتاخمة لها، إلا أنه كانت تربطها علاقات دبلوماسية بالإمبراطورية

العثمانية وإيران. كذلك فقد كانت الراعى الرسمى والمدافع عن الأرثوذكسية فى الأراضى المقدسة بفلسطين، والتى كانت تحت السيادة العثمانية آنذاك. ولقد أولت موسكو اهتماما بالغا لوجهة نظر المسلمين الأجانب بشأن روسيا، وفى الوقت ذاته، سعت للإفادة من المسلمين الروس فى تحقيق أهداف السياسة الخارجية الروسية فى الشرق الأوسط، بحيث تتمكن موسكو من مخاطبة العالم "كقوة إسلامية" وليس "كقوة مسيحية" فحسب. إذا، فلم يكن الإسلام عائقا أمام النزعة التوسعية للإمبراطورية الروسية، بل كان عاملاً محفزاً لذلك.

إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ذاتها لم تنظر بعين الرضا تجاه ذلك الأمر، إذ لم تكن تستحسن مسكونية الإمبراطورية التى أعاقتها عن تحقيق أهدافها الدينية على امتداد الأراضى الروسية. وقد ذهب القوميون الروس من أمثال الأديب دوستوفسكى إلى اعتبار الكنيسة الأرثوذكسية تجسيدا "للروح الروسية"، فضلا عن معارضة الدولة بسبب علاقاتها الودية وانفتاحها على المسلمين. وقد انتقد دوستوفسكى الدولة لإطرائها المسلمين لكونهم "توحيديين"، ناعتا "التوحيد" بأنه "اللعبة المفضلة لدى الكثير من محبى العنصر التركى"، فضلا عن إيمانه بأن روسيا قد قدر لها السيطرة على الشرق.

إن مدى تقبل المسلمين للحكم الروسى عادة ما اعتمد على السياسات المنتهجة من قبل روسيا وقتها. ولعل اللحظة الفارقة قد جاءت عام ١٩١٧ حين اندلعت الثورة البلشفية، وما تبعها من تجربة سوفييتية طويلة ومؤلمة. بيد أنه خلال جميع القرون الغابرة، لم يتشكل أى كيان حقيقى للمقاومة الإسلامية الداخلية، حتى خلال الهجمات التى شنتها روسيا على جيرانها المسلمين. ففى كثير من الحالات، قام المقاتلون المسلمون أو "الجهاديون" بمقاومة حكامهم المحليين التقليديين - بما يذكر بما يجرى الآن فى الشرق الأوسط. كذلك، فقد قرر بعض المسلمين الروس ممن لم يسيغوا مناصرة الروس فى حروبهم ضد المسلمين المتاخمين لهم، وذلك على نحو دينى، الهجرة من روسيا إلى تركيا، حتى لقد انحازوا إلى الجانب التركى خلال

الحروب مع روسيا.

إن أغلب القوى الإمبريالية على امتداد العالم قد حاولت، فى لحظة زمنية أو أخرى، تجنيد الصفوة المحلية من المسلمين لمؤازرة النظام الكولونيالى ووأد الثورات الداخلية (المحلية). فإمبراطورية الهابسبورج قد سعت قبل الحرب الكونية الأولى إلى التماس العون من الحكام المسلمين الموالين لها فى منطقة البلقان. كذلك، فقد سعى القيصر الألمانى خلال الحرب ذاتها إلى تأليب العالم الإسلامى بأسره ضد الحكم الإمبريالى البريطانى والفرنسى، وإن خاب مسعاه. وبالمثل، فقد أخفقت فرنسا فى سعيها لنيل تأييد المسلمين لها فى غزو الجزائر وضمها إليها، وكما فعلت ألمانيا حين غزت القوقاز خلال الحرب الكونية الثانية. أما اليابانيون، فقد حاولوا التحالف، قبل تلك الحرب وخلالها، مع مسلمى جنوب وجنوب شرق آسيا للقتال ضد الجيوش الغربية هناك. وخلال الحرب ذاتها، استمال الألمان مفتى القدس فى محاولة لكسب تأييد العرب ومؤازرتهم ضد قوات الحلفاء فى الشرق الأوسط. واليوم، تدعم الولايات المتحدة الأمريكية العديد من الحكام العرب غير المنتخبين شرعيا من قبل شعوبهم، وغير المحبوبين كذلك لترويج السياسات الأمريكية غير المقبولة شعبياً ونشرها بالبلدان العربية.

بيد أن ارتباط روسيا بالإسلام وعلاقتها به أقدم وأعمق وأبعد غورا وأكثر تشابكا من ارتباط أوروبا به. ولعل السبب الرئيسى لتلك الظاهرة هو كون الإمبراطورية الروسية قد واجهت المسلمين نتيجة لتوسعها الجغرافى شرقا وجنوبا، على عكس الإمبرياليين الأوروبيين الذين واجهوهم فقط من خلال الغزوات البحرية عبر مسافات جد بعيدة. إن أشكال التعايش الروسى مع الإسلام قائمة بالفعل وسوف تبقى كذلك على الدوام، إذ إن الطرفين يعيشان ضمن حيز مكانى مشترك. فروسيا هى الدولة الغربية الوحيدة التى يوجد ضمن هيكل المواطنة بها جماعة إسلامية أصيلة ذات شأن ملموس.

المجـــــددون

دائماً ما كان المسلمون فى روسيا يناضلون من أجل تحقيق هدفهم المتمثل فى نيل أقصى استقلال ثقافي وحضارى ممكن، بيد أنهم كانوا يحيون أيضا داخل روسيا التى كانت بدورها تشهد غليانا ثقافيا وسياسيا كبيرا. إذ أدرك المسلمون صعوبة أن ينعزلوا بمنأى عن الجدالات المثارة حول قضاياهم وأمورهم الهامة. ومع اقتراب منتصف القرن التاسع عشر، انبثقت أول حركة إصلاح جدية بين صفوف المسلمين فى روسيا - وهى حركة "المجددين"، والتى سعت إلى تجديد هيكل المجتمع المسلم هناك. وفى حقيقة الأمر، فإن حركة "المجددين" كانت واحدة من أهم حركات الإصلاح الإسلامية المبكرة على امتداد العالم الإسلامى، والتى عكست ومثلت طبيعة التشابك الحضارى والثقافى مع المجتمع الروسى.

ولقد أكد "المجددون" على الأهمية البالغة للتعليم، وعلى ضرورة تضمين المناهج الدراسية موضوعات ومواداً عملية كالرياضيات والعلوم. وفى هذا الإطار، انتشرت المدارس، وأصدرت صحف جديدة، وشرع فى ترجمة الكتب إلى اللغات المحلية. بيد أن السلطات الإمبريالية الروسية قابلت تلك الحركة بقلق وعدم ارتياح، خوفا من انتشار أفكار ومبادئ ذات صبغة هدامة أو انفصالية أو داعية لعالمية إسلامية جامعة، حتى ولو ارتبطت بعناصر ومقومات المجتمع الروسى الليبرالية. كذلك، فقد انبثقت المعارضة ضد حركة "المجددين" من عناصر "الصفوة" الإسلامية القديمة فى المجتمع، والتى يغلب عليها الطابع الإقطاعى ... تلك "الصفوة" التى كانت تخشى أية حركة أو أى تجمع يهدف إلى تكوين طبقة أو "صفوة" جديدة بواسطة التعليم والإعداد والتمكين، مما ينجم عنه بالضرورة تغيير الهيكل الاجتماعى المتحجر، وبالتالى الإضرار بمصالح "الصفوة" القديمة القائمة. وقد كان هذا هو هدف "المجددين" بالفعل، ولكن دونما التجاء إلى الثورة أو العنف. بل لم يعمد هؤلاء "المجددون" إلى تبنى "أجندة" انفصالية أو الترويج لها، إذ سعوا إلى تثبيت أركانهم وتقوية شوكتهم فى إطار من الهيكل السياسى الروسى الأشمل.

ولقد صور "إسماعيل غاسبيرالى"، ذلك التترى من القرم، وأحد أبرز "المجددين"، بجلاء مدى فاعلية الحركة الإسلامية داخل إطار النظام السياسى الروسى، كذلك فقد دعا روسيا إلى التعاون مع العالم الإسلامى :

... لو أقامت روسيا علاقات جيدة مع كل من تركيا، وإيران فسيكون ذلك انتسابا للشرق الإسلامى بأسره، وستحتل بذلك مكانة سامقة على رأس الأمم الإسلامية وحضاراتها، وهو ما تسعى بريطانيا إلى تحقيقه بدأب وإصرار.

والخلاصة، أن غاسبيرالى قد رأى روسيا كأمة إسلامية كبرى إلى جانب كونها أمة مسيحية كذلك. وفى الوقت ذاته، كانت تلك إحدى أوائل التجارب التكاملية الكبرى بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية. وفى هذا الإطار، اضطلع الدين بمهمة إعطاء رؤية شاملة لمكانة روسيا العالمية، وليس حجبا لتلك الرؤية. ولكن حتى لو لم تكن ثمة اختلافات عقائدية، لو لم يكن الإسلام طرفا فى المعادلة، لكانت روسيا قد واجهت مشاكل جسيمة وتحديات هائلة تتعلق بدمج الجماعات التركية الكثيفة فى نسيج الإمبراطورية.

وعلى حين كان القرن التاسع عشر يقترب من نهايته، تسارعت وتيرة الحركة الإسلامية للتعليم والإصلاح والمشاركة السياسية فى روسيا. وانخرطت "الصفوة" فى جدالات محمومة حول "الهوية" فى عصر سياسى جديد يشدد على "الإثنية". فحتى الروس أنفسهم كانوا فى شك مما إذا كانوا ينتمون إلى "الغرب" أم إلى عالم أرثوذكسى فريد، أم حتى إلى "آسيا". وبالمثل، فقد أورد المسلمون تساؤلات مشابهة : هل هم "مسلمون" بالأساس، أم مواطنون روس، أم أتراك، أم تتر، وإن كان كذلك، فوفقا لأى ترتيب؟ هل هم "ينتمون" إلى روسيا؟

لقد أجبر القيصر "نيقولاى الثانى"، عقب ثورة ١٩٠٥ فى روسيا، على إجراء إصلاحات وتقديم تنازلات سياسية كبرى على طريق "الليبرالية"، والتى اشتملت على إنشاء برلمان بالبلاد (الدوما). وفى "الاجتماع الأول لاتحاد المسلمين الروس"

عام ١٩٠٥ والمنعقد لبحث الاستراتيجية، نظم المسلمون الروس حركتهم السياسية وفقا لمعيار الدين، لا على أسس أيديولوجية. وكان الهدفان الرئيسيان لذلك الاجتماع تحقيق استقلالية دينية وثقافية أكبر، وأن تتم معاملتهم بالمثل كما الحال مع المواطنين الروس غير المسلمين. ويجب علينا ألا نغفل أن السبب الرئيسى لاختيار المسلمين الروس - وهم أتراك بالأساس - الإسلام كرابطة موحدة تنتظمهم، هو أن الدين، وليس الانتماء الإثنى، كان هو أساس تنظيم الإمبراطورية الروسية.

ولقد كانت سياسات هذه الحركة معتدلة ووسطية، إذ كان هدفها توحيد جميع المسلمين الروس خلف أهداف عامة مشتركة منها : التوزيع العادل للأراضى، وحرية الصحافة، والحق فى التنظيم والاجتماع، وكذا حرية الاعتقاد، وأن يكون النظام ملكيا دستوريا. كذلك، فقد سعت زعامة الحزب للتمثيل ضمن المشهد السياسى الروسى، ووعدت الداخلية الروسية بأن الحزب ليس انفصاليا ولا يعمل ضد مصلحة روسيا، فضلا عن ولائه للقيصر. وعلى مدار عدة اقتراعات، نجح "اتحاد المسلمين الروس" فى الفوز بما بين ثلاثين إلى أربعين مقعدا من مقاعد الدوما. وعلى الصعيد الدينى، دعا "الاتحاد" إلى الاصلاح الجذرى لتراتبية هرمية لهيكل العلماء المسلمين، ولاختيار مفتى البلاد وفقاً لاستفتاء شعبى - وهى دعوة غير مسبوقة فى أى من البلدان الإسلامية. ولقد ساعدت تلك المعايير فى كسر احتكار فئة بعينها فيما يخص تقلد المناصب التقليدية فى صفوف العلماء. إلا أنه، وفى سنوات قليلة، بدأ الاتحاد فى التصدع، لأسباب بعضها إثنى وإقليمى، وبعضها أيديولوجى تعلق بتبنى بعض مندوبى الاتحاد موقفاً يسارياً تماشياً مع الاشتراكيين الروس. والخلاصة، أن الإسلام لم يعد الرابطة الاجتماعية كما كان من قبل، وأضحى المسلمون الروس ينطلقون وفق قاعدة محددة للتباينات الإثنية، والإقليمية، والطبقية، والأيديولوجية. كذلك، فلم تعد الهوية الإسلامية تحيا فى مناخ يكون للمسلمين بموجبه حرية الحركة فى إطار سياسى تعددى. وخلال الحرب

الكونية الأولى، انضم أكثر من مليون مسلم روسى إلى صفوف الجيش الروسى، حيث قاتل كثير منهم ضد القوات العثمانية فى الجنوب، وذلك رغما عن "الفتاوى" العثمانية التى دعت جميع المسلمين لدعم ومؤازرة الإمبراطورية العثمانية ضد المعتدين المسيحيين حين تلوح الحاجة إليهم.

إذاً، فقد تمثلت السمات الرئيسية لتلك الحقبة الإمبريالية القيصرية فى النجاح النسبى لإدماج المسلمين فى نسيج إمبراطورية مسيحية، وتأرجح المسلمين بين البعد الإثنى والبعد الدينى كأساس للتنظيم السياسى، فضلا عن درجة من الولاء الذى أبداه المسلمون الروس تجاه النظام السياسى الروسى. أما "السياسة" فى تلك الحقبة فكانت وفقا للاتجاه السائد ... تلك السياسة التى وصفت لاحقا "بالقومية البورجوازية" بالتوازى مع بعض الأحزاب اليسارية والدينية المتشددة ... وفى المجمل، لم تكن هناك أية "حدود دموية" فى واقع الأمر. وهنا حالة رائدة، فالمسلمون إذا ما منحوا الفرصة للمشاركة باعتبارهم أقلية فى نظام سياسى مقبول، سيقومون بالمشاركة الفعلية. بل إنهم سيقومون بدعم الأحزاب السياسية المشكلة على أساس سياسى/ أيديولوجى، وليس التكتلات الإسلامية فحسب. بيد أنهم لن يتخلوا أبدا عن هويتهم الدينية كونها ملمحا رئيسيا من ملامح هويتهم الجمعية. كل هذا ستأتى الحقبة السوفييتية وتضع نهاية حاسمة له.

الثورة الروسية و«البلشفية»

تكشف الحقبة السوفييتية فصلا جديدا وعنيفا فى التطور المركب للجماعة الإسلامية الروسية. فالحكام الشيوعيون (البلاشفة) الجدد لم يكن بمقدورهم ، بداءة، تقرير ما إذا كانوا سيوظفون الإسلام لمصلحتهم أم سيقومون بسحقه، أم سيدمرونه من خلال إنشاء هياكل سياسية ذات طابع إثنى، لا طابع دينى. وفى النهاية، فقد اختاروا إنشاءها وفقا للطابع الإثنى وأحرزوا فى ذلك بعض نجاح. وفى الوقت ذاته تقريبا، اندلعت ثورة للمسلمين الأتراك بآسيا الوسطى ... تلك

الثورة التى كانت عميقة الأثر وبعيدة المدى إذ شبت عام ١٩١٦، وذلك قبل عام واحد من اندلاع الثورة البلشفية، وكانت ردة فعل صارخة ضد السياسات الجديدة للقيصر التى حاولت إجبار المسلمين على الالتحاق بصفوف الخدمة العسكرية، كما كانت صرخة ضد مظالم وشكاوى أخرى ارتبطت باقتصاد الحرب الكونية الأولى. وقد استمرت تلك الثورة، والمعروفة "بثورة باسمشى"، مندلعة وواصلت انفجارها طيلة عشرة أو خمسة عشر عاماً تالية داخل المناطق الأوزبكية والطاجكية، بصفة عامة، مدفوعة فى ذلك بتطلعات وآمال قومية ودينية جديدة للاستقلال ضمن صفوف العديد من مسلمى آسيا الوسطى الذين أضحوا شديدى العداء للديكتاتورية السوفييتية الملحدة. وفى الوقت الذى تم فيه سحقها على يد الجيش الأحمر، إلا أن الثورة قد كشفت جليا عن المظالم بعيدة الغور التى تعرض لها المسلمون الروس. وقد كانت تلك الثورة، أيضا، بإيعاز من المسئولين العسكريين الأتراك المتقاعدين، فضلا عن دعم الاستخبارات البريطانية لها - الأمر الذى وصم المسلمين بتهمة الولاء للقوى الأجنبية. ولقد قدمت ثورة باسمشى دليلا واضحا على وجوب تعامل موسكو مع رعاياها المسلمين بحذر بالغ، إن إثنيا أو دينيا.

إن الحزب الشيوعى، خلال الأيام الأولى من الحكم السوفييتى، قد بذل جهودا كبرى لتوظيف "الإسلام" لمصلحته الخاصة ومآربه المنشودة، ولتجنيد المواطنين المسلمين للترويج لأجندة الثورة الشيوعية عالميا، والإطاحة بالحكم الإمبريالى الغربى فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. وكانت الهند، المحتلة من قبل بريطانيا آنذاك، أحد الأهداف الرئيسية للسوفييت، فالهند تقع بالقرب من الأراضى الروسية، وهى مستعمرة شهدت من قبل انتفاضات وثورات إسلامية ضد الحكم البريطانى لها.

لذا، ففى اجتماع أسطورى مهيب عام ١٩٢١، وهو اجتماع باكو لشعوب المشرق، اجتذب السوفييت ما يقرب من ألفى مندوب عن البلدان الكولونيالية وشبه الكولونيالية على امتداد العالم للتخطيط لفعل ثورى ضد القوى الكولونيالية الغربية.

ولقد اعتبرت موسكو البلدان الإسلامية فى طليعة الثورات، وسعت للإفادة من دورها لتحقيق أهداف السياسة الخارجية السوفييتية ضد الغرب.

إن "الإسلام" لم يمثل مباشرة فى فاعليات اجتماع باكو، إذ انصب اهتمام موسكو على توحيد قوميات الشعوب الإسلامية مع "الشيوعية" كأداة من أدوات مناهضة الكولونيالية. ولكن، وكما ذكرنا سالفا، فإن الإسلام ينحاز لردات الفعل القومية حين الصراع ضد القوى غير الإسلامية. لذا فإن الاستراتيجيين السوفييت، وبصفة خاصة لينين وزينوفييف، قد بحثوا عن سبل من شأنها تطويق العناصر المحافظة للمجتمع الإسلامى، واستنهاض الدوافع والقوى الثورية لديها. بل إن مصطلح "الجهاد" قد تمت استعارته ليستخدم ، هذه المرة، وفقا لاقتراب أكثر علمانية ودنيوية، حين ترددت شعارات "الحرب المقدسة ضد الإمبريالية"، والتى جاءت للدلالة (تجديفيا، فى واقع الأمر) على ضرب مستحدث من "الحج" ... هو حج صوب القبلة الجديدة للثورة العالمية (موسكو) ... والتى ستمنح التحرر والانعتاق لجميع شعوب الشرق المضطهدة. إلا أن موسكو كانت على دراية ووعى كاملين بأن الإسلام والقومية يمثلان سلاحا ذا حدين ... سلاحاً قد يتم توجيهه بالمثل ضد الحكم السوفييتى فى المناطق الإسلامية من الإمبراطورية، كما حدث بالفعل أثناء ثورة باسمشى.

مرزا سلطان غالييف

الشيوعى-القومى-المسلم

ربما كان أفضل تجسيد للقاء ما بين الأيديولوجية الماركسية/ اللينينية والمجتمعات الإسلامية يتمثل فى شخص "مرزا سلطان غالييف"، وهو مسلم تترى من إقليم حوض نهر الفولغا انضم لصفوف الحزب الشيوعى إبان الثورة البلشفية عام ١٩١٧ . وتطورت مسيرة غالييف ليصبح شخصية بارزة فى الحركة البلشفية المناهضة للإمبريالية. وقد دعا غالييف لإنشاء "حزب شيوعى إسلامى" -وما ينطوى

عليه الاسم ذاته من جمعه لنقيضين آنيا- إذ رأى أنه يمكن التغلب على التباينات الإثنية بين الجماعات والشعوب الإسلامية العديدة داخل الإمبراطورية الروسية عن طريق ثقافتهم الإسلامية المشتركة. كذلك، فقد آمن غالييف بإمكانية استيعاب الجماهير المسلمة للماركسية وإدراكهم لها، إذا ما تزيت بإهاب إسلامى. لذلك، فقد تخيل غالييف حزبا شيوعيا إسلاميا قويا بمقدوره الترويج للثورة الشيوعية ضد الإمبريالية الأوروبية على امتداد العالم الإسلامى. إذاً، فقد أصبح الدين والإثنية نسيجا متداخلا.

لقد كان سلطان غالييف نفسه ملحدا، بيد أنه كان قد درس "القرآن" والشريعة الإسلامية، وقام بتحذير السلطات السوفييتية من قوة الحضارة والثقافة الإسلامية وعمقهما وتغلغلهما بداخل حياة المسلم. وقد تدرج غالييف فى المناصب السوفييتية، على نحو سريع، إلى أن أصبح رئيسا "للجنة الشعبية للقوميات" فضلا عن دوره البارز وآرائه الكبرى بشأن تسيير سياسات "القوميات" تحت قيادة يوسف ستالين.

إن إيمان سلطان غالييف المبكر بالحزب الشيوعى قد ارتكن بالأساس إلى طموحاته المشبوبة فى مناهضة الإمبريالية، حيث رأى فى البلاشفة، بصفة أولية، المنقذ الأوحد :

" ... انتقل الآن إلى تعاونى مع البلاشفة ... لقد انحزت للبلاشفة لإيمانى المتجذر والعميق النابع من أعماق روحى بعدالة الرؤية البلشفية ومصداقيتها. وأنا أدرك ذلك، فتلك هى عقيدتى الراسخة. لذا، فلن يتزحزح إيمانى بها قيد أنملة. كذلك، فإننى أومن بأن ثلة بعينها من البلاشفة بمقدورها تطبيق ما تم الوعد به فى مطلع الثورة. فالبلاشفة هم من أخمد نيران الحرب الكونية الأولى. والبلاشفة هم الوحيدون المناضلون لإعادة مقدرات القوميات المختلفة ومصائرها لأيدى أصحابها ليمتلكوا زمام أمرها. كذلك، فهم الوحيدون الذين أجلوا أسباب الحرب الكونية الثانية. البلاشفة هم من أعلن الحرب على الإمبريالية البريطانية المضطهدة للهند،

ومصر، وأفغانستان، وإيران، وشبه الجزيرة العربية. كذلك، فهم من رفعوا لواء المقاومة ضد الإمبريالية الفرنسية التى استعبدت المغرب والجزائر وغيرهما من البلدان العربية بإفريقيا. فكيف يستقيم ألا أنحاز إليهم؟ وانظر، فهم قد صرحوا بكلمات لم يتم التفوه بها من قبل، بل منذ نشأة الكون ذاته، على امتداد تاريخ الدولة الروسية. فتضامنا مع جميع مسلمى روسيا والشرق، أعلن البلاشفة وجوب أن تكون "اسطنبول" بأيدى المسلمين. وبينما كان ذلك موقفهم، كانت القوات البريطانية، والتى حاصرت أورشليم، تستميل اليهود بتلك الكلمات : "اجمعوا شتاتكم سريعا صوب فلسطين، فسوف ننشئ لكم فيها دولة أوروبية".

بيد أن ستالين والزعامات السوفييتية قد اعترضوا، فى النهاية، على فكرة "الحزب الشيوعى الإسلامى" على اعتبار كونه تواؤماً خطيراً وغير مقبول مع القوى القومية البورجوازية فى المجتمع الإسلامى. وفى هذا الإطار، أصرت موسكو على أن قيادة حركة كتلك يمكن فقط أن تكون من خلال حزب ينبنى على "وحدة البروليتاريا" - حتى وإن ندر وجود طبقة بروليتارية ضمن صفوف التتر الزراعيين والتجاريين. وهنا، أدرك سلطان غالييف حقيقة الأمر، وأيقن باستحالة مشاركة "الحزب الشيوعى السوفييتى" له فى رؤيته المقترحة. كذلك، فقد أضحى غالييف مؤمنا بأن المسلمين قد استبدلوا نوعا جديدا من الاضطهاد بموجب ما أطلق عليه "البروليتاريا الروسية" بالاضطهاد القيصرى السابق. وأمن غالييف أيضا بأن مصالح التتر لم تكن تتوافق مع مصالح الإمبريالية الروسية، وأن الشيوعية لم تحرر البلاد من الإمبريالية، بل قد أتت بشكل مغاير لها وإن بقى جوهرها قائما. وقد قام رجال ستالين بإلقاء القبض على غالييف، وتم إعدامه عام ١٩٤٠، فضلا عن إعدام عدة آلاف من القوميين الأتراك المسلمين.

إن سلطان غالييف يبقى مثالا واضحا وتجسيدا جليا لناشط شيوعى بارز، فضلا عن كونه منظرا ومتحدثا هاما باسم اليسار الإسلامى. فالأحداث التى أفضت إلى اتهامه، وسجنه، ونفيه، وتهميش دوره، وأخيراً إعدامه لتعطى دليلاً

دامغاً وبرهاناً ساطعاً للطابع "القومى" للثقافة الإسلامية حين تواجه بالإمبريالية الأوروبية، أو حتى السوفييتية. فالحقيقة أن ظاهرة خلاف سلطان غالييف مع ستالين، واعتناقه وتبنيه للمصالح "القومية" الإسلامية قد أطلق عليها اسم بذاته داخل الحزب الشيوعى، ألا وهو "السلطانغالييفية"، والتى دائما ما استحضرت الخوف الشيوعى من العناصر الكامنة التى تنطوى عليها "القومية" السائدة بين المجتمعات الإسلامية فى روسيا. "ذلك، كما نرى، هو ما يحدث حين يسمح للقومية أن تحل محل الأيديولوجية الماركسية اللينينية" - كانت هى النغمة السائدة أو القول المكرر. فالسوفييت أنفسهم قد أمعنوا فى الإلحاح، على نحو غير متعمد، على تحويل "الإسلام" إلى عنصر إثنى. وقد قامت السياسات الأمريكية بما يشبه ذلك على نحو كبير خلال "الحرب العالمية ضد الإرهاب".

لذا، فوفقا للزخم الثورى للجماعة الإسلامية الروسية وقوتها فى حمل رسالة شيوعية مناهضة للإمبريالية وتوجيهها للشعوب المضطهدة فى الشرق، فقد باءت التجربة بفشل محقق ومنيت بخسائر فادحة : إذ بقى المسلمون على عداء محموم مع السياسات السوفييتية والاضطهاد السوفييتى للثقافة التركية المسلمة. وبحلول عام ١٩٢٦، ذهبت روسيا إلى كون الإسلام قوة مناهضة للبلشفية بالأساس، وقامت بتنظيم "اتحاد الملحدين" لتعزيز دعاية إلحادية ونشرها فى صفوف الرعايا المسلمين لاجتثاث جميع المؤمنين من مناصب النفوذ والسطوة. وقد مثل نشر السوفييت للإيديولوجيا الإلحادية رسميا، واضطهادهم لجميع الديانات والعقائد - أكبر الخطايا وأفدحها، والتى يمكن أن يقترفها النظام السوفييتى وفقا لرؤية المسلمين. وقد سعى المسلمون لممارسة شعائرهم الدينية، وحماية تقاليدهم وأعرافهم، وذلك وفقا لأنماط سرية، فقد كانت الشبكات التى انتظمت الحركات والتجمعات الصوفية عظيمة النفع والفائدة فى الإبقاء على بعض المعلومات بشأن الإسلام على قيد الحياة، خلال السنوات المظلمة للحكم السوفييتى.

وبينما قامت روسيا القيصرية بالترويج للدين كأساس للتنظيم السياسى

والاجتماعي للإمبراطورية، فقد سار الشيوعيون البلاشفة في الاتجاه المضاد تماما بسعيهم لاعتبار الجماعات الإثنية قاعدة لتنظيم الإمبراطورية السوفييتية وفقا لمبدأ "فرق تسد". فبدلا من التعامل مع إثنية تركية واسعة الانتشار، على سبيل المثال، أنشأ السوفييت جمهوريات سياسية مستقلة، بحيث يكون لكل لغة تركية قائمة جمهورية مستقلة ومنفصلة عن الأخرى، كاللغة الأوزبكية، والتترية، والكازاكية، والقيرغزية، والتركمانية، والآذربيجانية، ... وهلم جرا. وبذا، فقد صارت "الإثنية" الأداة المستخدمة لطمس الهوية الإسلامية، والقضاء على أية أفكار قومية ممكنة "للعالمية التركية الجامعة".

إن الصراع السوفييتي مع الإسلام قد اتخذ أبعادا جديدة فاعلة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وذلك مع غزو موسكو لأفغانستان عام ١٩٧٩ لدعم نظام شيوعي جديد هناك. وسرعان ما امتدت ثورة مسلحة على امتداد أفغانستان، لخوض "حرب مقدسة" باسم الإسلام ضد الغزو والاحتلال السوفييتي. ولقد رفد الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، حركات وجماعات "الجهاد الإسلامي" المناهضة للسوفييت، والتي نجحت في إجلائهم عن أفغانستان بعد ثمانية أعوام. إلا أن العديد من القوات هناك كانت بالفعل قوات سوفييتية مسلمة شعرت ببعض التناقض إزاء السياسات السوفييتية، والتي أعدت العدة وعقدت العزم لسحق حركة المقاومة الإسلامية. وفي أعقاب ذلك، ومع انسحاب السوفييت بعد هزيمتهم في أفغانستان، أعلن المجاهدون الأفغان، وكذلك المجاهدون من بلدان غيرها أن "الإسلام قد هزم قوة عظمى". وقد حققت الرسالة، وما تضمنته، هدفها لدى المسلمين الروس الذين لم يبتهجوا لفحواها.

لقد كان انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ نقطة تحول للمسلمين في الإمبراطورية السوفييتية. فسرعان ما حصلت خمس جمهوريات إسلامية على استقلالها "الكامل" كبلدان جديدة، على أساس إثني – وأغلبها "تركي"، بدرجة أو بأخرى. كذلك، تم منح الرعايا المسلمين الآخرين ممن استمروا في العيش داخل

حدود الدولة الروسية والتى تقلصت على نحو ملحوظ درجة عالية من الاستقلالية والحكم الذاتى وفق قواعد إثنية صارمة. إن الثورة والاضطرابات فى كثير من تلك البقاع، وبخاصة فى جمهورية الشيشان، قد أوضحت أن صراع الشيشان من أجل الاستقلال ... ذلك الصراع الممتد عبر ما يقرب من ١٥٠ عاما، والذى خيض باسم "الإسلام"، ما زال مشتعلا. وبينما يدرك كثير من المسلمين الذين بقوا فى روسيا أن الانفصال عنها غير مجد - وهم خليط من جزر إسلامية ذات إثنيات متعددة وسط بحر روسى متلاطم - فإنهم يعيدون الإسلام لمكانته البارزة وفق هوياتهم القومية، فى الوقت الذى يعلون فيه من شأن اختلافاتهم وتمايزاتهم الإثنية كذلك. إذ لا تنضوى تلك الجماعات الإسلامية الإثنية، فى واقع الأمر، تحت لواء الإسلام حتى ولو تمنى بعض الإسلاميين أن يكون الأمر كذلك.

ويبقى السؤال الأبدى بشأن مراتب الهوية هناك : هل تلك الشعوب إسلامية بالأساس، أم هى جماعات إثنية/قومية من التتر، والأوزبك، والكازاك، والطاجيك، ... وهلم جرا؟ أم هى جزء من جماعة تركية عالمية أشمل؟ أم هم مواطنون "روس"؟ والحقيقة أنها يمكن أن تكون أيا أو كلاً مما سبق، وذلك وفقا للأحوال، إذ لا تعد جماعات مغلقة. إذاً، فالهوية التى ستسود فى أية مرحلة زمنية ستعتمد على معطيات الأحوال المصاحبة.

ويدرك المسلمون، على امتداد العالم بأسره، أن الاتحاد السوفييتى قد اضطهد "الإسلام" على نحو كبير. وفى الوقت ذاته، فإنهم يقدرون الدور الرائد الذى اضطلع به لإحداث توازن جيواستراتيجى إزاء قوى الغرب الكولونيالية الإمبريالية. إن وجود الاتحاد السوفييتى، فى ذاته، كأحد قطبى القوى العالمية قد أتاح هامشا للحركة والمناورة للبلدان الأقل شأنا، الأمر الذى أسهم فى منع الدول الإمبريالية الغربية السابقة من بسط نفوذها على تلك البلدان. وقد استشعر العالم الإسلامى فزعا جراء انهيار الاتحاد السوفييتى، كما استشعرته أمم غير منحازة لقوة أو لأخرى - لكونها تفضل الشيوعية، وإنما لكون الانهيار جاء ليعنى نهاية العالم ثنائى القطب،

وليجعل البلدان الأقل شأنا أكثر عرضة، وانكشافا، وخضوعا لشيئة القوة العظمى الوحيدة المتبقية.

الأورو/آسيوية

نختتم الفصل الحالى بنظرة على الأيديولوجية الأوروآسيوية : فقد انبثق من المناخ الاستراتيجى المتحول فى مرحلة ما بعد بوش، رفقاء جدد –روسيا، والصين، والمسلمون– يتقاسمون نهجا ورؤية مشتركة بشأن مناهضة الغرب وأمريكا. ومن الجلى أن مناهضة أمريكا ترتبط، بالأساس، بالبعد الجيوبوليتيكى، فيما لا ترتبط بالبعد الدينى إلا بنزر يسير. فهناك بوادر لتقارب محتمل بين العناصر الراديكالية ضمن صفوف المسلمين الروس، وبين بعض القوميين الإثنيين الروس تأسس جراء تشكك مشترك فى الغرب كقوة إمبريالية جديدة. على أن هذه الحركة لا تنتمى إلى التيار السائد، بيد أنه قد يكون لها عدة مسارات واتجاهات مهمة فى المستقبل.

وتوضح الظاهرة الأوروآسيوية بعض القضايا الرئيسية التى اشتمل عليها الكتاب : وجود اتجاهات مناهضة للإمبريالية والغرب ... اتجاهات بعيدة الغور لا تقف عند حد المسار الجيوبوليتيكى التاريخى فى الشرق الأوسط، بل تتعداه لتشمل القارة الآسيوية. فالاتجاهات الثقافية الروسية، والصينية، والإسلامية المتعددة تتباين بالفعل بقدر اندماجها وتلاحمها، إلا أن العداء المشترك للهيمنة، وكذا الكراهية المشتركة لأمريكا يعملان على التقريب ما بين تلك الاتجاهات.

وتمتد جذور الأوروآسيوية إلى الأفكار الروسية المبكرة ذات الطابع الآسيوى ... وهى مزيج من الأفكار المنطوية على التشكك فى نوايا الغرب، وكذا عدم الركون إليه. إذ توضح عالما بديلا للطموحات والثقافة الروسية من خلال حس صوفى بأن روسيا تمثل صيغة أكثر عمقا وأوفر روحانية مما يمثله الغرب. كذلك، فإنها تذهب إلى أن روسيا لها نصيب وافر من الأعراف والتقاليد الآسيوية يخولها أن تضطلع بدور بارز ومهمة فريدة فى مجريات أحداث التاريخ العالمى. كذلك، ترى

الأوروآسيوية أن روسيا أصدق وأوفى لهويتها وتقاليدها فى أى تحالف موجه ضد الهيمنة الغربية لإحداث انضباط بميزان القوة عالميا، ولخلق رؤية حياتية بديلة ..... عسى البيزنطيون أن يفخروا بذلك.

وقد ازدادت المخاوف الروسية من التطويق الغربى، حين بادرت الولايات المتحدة بقيادة جورج بوش الابن بإنشاء قواعد عسكرية لها فى أوزبكستان، وقيرغزستان، وجورجيا، وأذربيجان، وطاجيكستان فى إطار ما أطلقت عليه "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، وفى محاولتها لأن تضم لحلف شمال الأطلنطى (الناتو) أكبر عدد ممكن من جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق. ووفقا لوجهة النظر الروسية، فقد انطوى ذلك كله على استفزاز كبير، بل وعلى عدائية بالغة، فقد أدت المحاولات الأمريكية الحثيثة لإحلال قوتها ونفوذها على أعتاب الدولة الروسية إلى وجوب تفكير روسيا فى البحث عن مصادر جديدة للدعم الجيوبوليتيكى لمقاومة انتهاكات أمريكا الاستراتيجية. وقد مثل الشرق والعالم الإسلامى تلك المصادر الجديدة للدعم.

إن الرؤية الأوروآسيوية تمثل مزيجا من الأعراف والتقاليد الخاصة بالولع بالسلافية وعناصر من الأرثوذكسية الروسية ... ففى صيغتها العامة، تمتد تلك الرؤية لتشمل مجموعة كبيرة من الاهتمامات والمصالح لدى البلدان الإسلامية والصين، بل وحتى لدى كل من الهند واليابان. على أنه قد يبدو من المستغرب توقع تقارب أو تعاون بين أربع حضارات كانت، على امتداد أزمنة طويلة، خصما ومنافسا ومعارضا للإمبراطورية الروسية ... إلا أنه مقياس ومؤشر للتشكك فى الغرب -الولايات المتحدة حاليا- ودوافعه للسيطرة والهيمنة الدولية، ومن ثم سعى الأوروآسيوية لخلق مصالح جديدة لتحل محل الكراهية التى سادت فى البلدان الآسيوية الرئيسية.

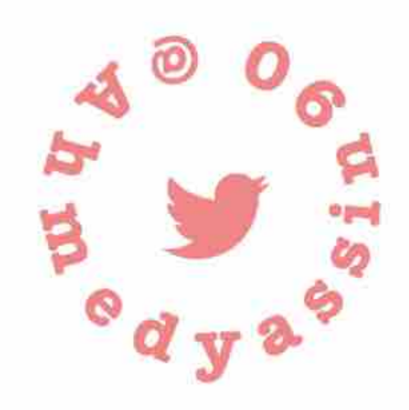
وقد انبثقت الأوروآسيوية فى العقد الثالث من القرن العشرين، وانبنت على

جذور ممتدة من الولع بالسلافية. ويذهب الباحث "ديمترى شلابنتوخ" إلى أن الأوروآسيوية تؤمن بأن "روسيا هى مزيج فريد من الشعوب السلافية الأرثوذكسية والشعوب المسلمة، التركية بالأساس. لذا، فإن المسلمين الروس، لا السلاف بخارج روسيا، هم حلفاء روسيا الحقيقيون". كذلك، فالأوروآسيوية لا ترى أن روسيا جزء من أوروبا، بل باعتبارها قارة أوروآسيوية عنصراها الإثنيان الرئيسيان : الروسية والتركية. كذلك، فإن التعايش القديم والذى ما يزال قائما بين الأرثوذكسية الروسية والإسلام، والذى شهدناه فى الهيكل السياسى للإمبراطورية الروسية يجد تعبيرا عنه فى تلك الرؤية الجديدة. وبلا شك، لا يزال هناك إرث من الشكوك المتبادلة بين الأطراف المذكورة حيث لا يرغب أى طرف فى التخلى عن الهيمنة والسطوة للآخر. وعلى الصعيد الشعبى، ثمة آثار من مشاعر عميقة مناهضة للإسلام -بل وعنصرية- ما زالت تحيا فى المجتمع الروسى، إلا أن التقارب السياسى والجيوبوليتيكى الجديد المذهل بين تركيا وروسيا، على امتداد العقد الماضى، يدعم كثيرا من اتجاهات مدرسة الفكر الأيديولوجى المثيرة تلك. لذا، فقد انتشرت تلك الشكوك الجيوبوليتيكية القديمة تجاه الغرب، على نحو متواتر فى الشرق الأوسط، وذلك ضمن إطار الحضارات الثلاث : الأرثوذكسية البيزنطية، والأرثوذكسية الروسية، والإسلام - مع ما لثلاثتهم من جذور مشتركة... تلك كانت بعض الدلالات الموحية، بل والمقنعة، على كيفية تعامل "عالم بلا إسلام" مع الغرب إلى اليوم.

إن روسيا لا ترغب مطلقا فى أن تفقد شخصيتها التاريخية الفريدة ذات الجذور الأرثوذكسية، فالغرب لم يقبل روسيا يوما كجزء منه ... كما لا يمكن أن تكون وجهة روسيا الاستراتيجية صوب الغرب بمفرده، إذ ستستمر فى السعى لإيجاد شركاء ينتمون إلى الحضارات الشرقية بغية دعمها، وما يمثله ذلك من دليل على التزام روسيا بشخصيتها وطابعها الأرثوذكسى والأوروآسيوى. إن انخراط روسيا الراسخ فى منظمة "شنغهاى التعاونية" بين الصين وروسيا هو دليل آخر على ذلك التوجه الجيوبوليتيكى الذى يمتد ليشمل عدة بلدان بآسيا الوسطى، كما

ينهض كدليل على الاهتمام الكبير من قبل افغانستان، وإيران، وباكستان، وتركيا. إذا، تطغى الاعتبارات الجيوبوليتيكية على الاعتبارات الدينية - "فالإسلام"، وفقا لهذا المنظور، هو أشبه ما يكون بطبقة رقيقة للغاية تزدان بها الكعكة الجيوبوليتيكية الكبيرة ... إذ تتأثر الاعتبارات الأيديولوجية كثيرا بالمخاوف من الغرب ونفوذه، والتشكك فى نواياه، وهو الأمر عميق الغور فى مسارب التاريخ.

وتظل روسيا، وفقا لعقيدة أوروآسيوية واضحة أو بدونها، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشرق الأوسط لتقديم نفسها باعتبارها صديقا للعالم الإسلامى بغية نيل التأييد وحشد الدعم ضد الهيمنة الأمريكية وتوغلها فى آسيا، وكذلك لتجنيد رعاياها من المسلمين واستغلالهم لتحقيق الغرض ذاته، فضلا عن محاولة استرضائهم واستيعابهم فى الفيدرالية الروسية الناشئة. ولعل الروابط القوية فيما بين روسيا وإيران، ودعم روسيا لها تعد مؤشرات قوية على ذلك الانخراط، كما هى الحال تماما بشأن روابط روسيا المتينة مع تركيا على امتداد العقد المنصرم. إن ما ينطوى عليه الموقف من سياسات سيسهل إدراكه من قبل الإيرانيين والشعوب السامية حين إعادة التفكير فيما حدث من دفاع عن إقليم الشرق الأوسط ضد انتهاكات "الإسكندر الأكبر" فى اليونان، أو ضد الهجمات الشرسة للإمبراطورية الرومانية فى الإقليم الأوروآسيوى. وقد لحق الإسلام بالركب وانضم للقافلة. فأيا ما كانت طبيعة العلاقة المركبة ما بين روسيا و"الإسلام"، يكون من الصعوبة بمكان أن ننظر إليها على كونها إحدى "حدود الإسلام الدموية".


@Ahmedyassin90

الفصل التاسع

المسلمون فى الغرب
مواطنون ذوو ولاء أم طابور خامس؟

إن أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وتأثيراتها الدراماتيكية قد أثارت الاهتمام بالجماعات المسلمة فى الغرب كما لم يحدث من قبل. فحقيقة كون القائمين على التخطيط لذلك الاعتداء قد اتخذوا من ألمانيا مكانا لهم، فضلا عن قضائهم لوقت طويل فى الغرب قد استدعى الملف المضطرب بالفعل للمسلمين فى أوروبا على نحو غير مسبوق. فهل المسلمون فى الغرب باعتبارهم الآن أعداء - طابور خامس بانتظار إشارة بدء الهجوم؟ لقد أضحى التعبير الصريح من قبل الأوروبيين والأمريكيين عن المشاعر الدفينة الكامنة والعميقة المناهضة للإسلام أكثر قبولا فى ظل المخاوف الكامنة من المناخ الأمنى الجديد.

لقد حل العنف، بالفعل، فى أوروبا ذاتها. ففى آذار/مارس ٢٠٠٤، انفجرت مجموعة من القنابل فى العديد من عربات القطار بمدريد مما أسفر عن مقتل ١٩١ شخصا وإصابة أكثر من ١٨٠٠ . وقد نسبت المؤامرة إلى أشخاص مسلمين من شمال إفريقيا تأثروا "بإلهام" تنظيم القاعدة و"وحيه"، وإن لم توجد أية أدلة تشير إلى وجود رابطة مشتركة. وفى تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٤، صدمت هولندا جراء حادث الاعتداء الوحشى الذى تم فى رابعة النهار، وأسفر عن مقتل الكاتب ومنتج الأفلام الهولندى "ثيو فان جوخ"، والذى وجد أن قاتله مواطن هولندى مغربى المولد أصبح راديكاليا خلال حرب العراق. وقد كان "فان جوخ" والذى سبق له أن قام بالسخرية من اليهود مصابا بتعصب أحمق، ومناهضا صريحا للإسلام. وقد أنتج فيلما قصيرا حيث عرض آيات من القرآن على جسد يتلوى لامرأة عارية كصرخة احتجاج ضد "التمييز الإسلامى ضد المرأة". أما القاتل، فقد أحدث صدمة حتى

داخل الأوساط الأوروبية الليبرالية مفادها وجود جماعات من الأجانب يهتم بعضهم "بالاعتبارات الدينية" اهتماما يدفع إلى ارتكاب جرائم واعتداءات.

وفى تموز/يوليو ٢٠٠٥، قام العديد من مسلمى بريطانيا بسلسلة تفجيرات انتحارية بمترو الأنفاق بلندن أسفرت عن مقتل ٥٢ شخصا وإصابة ٧٠٠ . وقد زعم أن مرتكبى الانفجار قد تأثروا كثيرا بمشاركة بريطانيا فى الحرب بالعراق. كذلك، ففى حزيران/يونيو ٢٠٠٧، قام مسلمان - أحدهما طبيب بريطانى من أصول عراقية، بقيادة ناقلة شحن تحمل أنابيب معبأة بغاز "البروبان"، والانطلاق بها صوب بوابة مطار غلاسكو. ولم يسفر الاعتداء عن أية قتلى، وإنما خلف العديد من المصابين. وكما سبق، فقد أعزيت دوافع ذلك الحادث إلى أن تكون ذات صلة بالأحداث الدائرة فى العراق آنذاك.

وفى تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٧، اندلعت الاضطرابات لعدة أيام بالقرب من باريس على أيدى مهاجرين أفارقة وعرب استشاطوا غضبا من مشكلتهم فى سعيهم للاندماج بداخل الثقافة والاقتصاد الفرنسيين. وخلال تلك الاضطرابات، تم تدمير العديد من الممتلكات، وإن لم يتم استخدام أية تكتيكات إرهابية على الإطلاق.

وقد أسهمت جميع تلك الحوادث فى استحضار ظاهرة وجود المسلمين فى أوروبا واستدعائها إلى مقدمة الاهتمامات وصدارة المشهد، عن طريق طرح الأسئلة عن ولاء أولئك المسلمين، ورغبتهم، وقدرتهم على الاندماج داخل المجتمع الأوروبى. ومن الأسئلة التى تطفو على السطح، بداهة : هل هناك ثمة "اختلاف" يصبغ الإسلام ... اختلاف من شأنه إدراج المهاجرين المنتمين للإسلام ضمن فئة مستقلة عن فئات يشغلها مهاجرون آخرون؟ أو دعنا نصيغ السؤال على نحو مختلف: إذا لم يكن هؤلاء المهاجرون مسلمين، أكان للمشكلات والقضايا ذات الشأن أن تبدو مختلفة بالكلية؟ والإجابة عن السؤال بصيغتيه هى ... النفى المطلق.

وقد حذر "طارق رمضان"، أحد أبرز الباحثين الأوروبيين المسلمين، من مغبة ما أسماه "الوقوع فى شرك أسلمة المشكلات"، بمعنى أن تعزى مشاكل المجتمع المسلم، بصورة أو بأخرى، إلى "الإسلام". ويستطرد "رمضان" قائلا : "لدينا مشكلات اجتماعية ... ولدينا مشكلات اقتصادية ... ولدينا مشكلات حضارية. وجميع تلك المشكلات لا ترتبط ألبتة بالدين، بل ترتبط بالسياسات الاجتماعية المتبعة ... بيد أنه عندما يكون لدينا سياسيون يفتقرون إلى حلول اجتماعية، فإنهم يعمدون إلى الزعم بأن تلك المصاعب الاجتماعية إنما تنشأ من حقيقة كون هؤلاء الأفراد مسلمين أو عرباً". وبعبارة موجزة، ستواجه أوروبا، بل إنها لتواجه بالفعل، مشكلات كبيرة تتعلق بالمهاجرين إلى أراضيها من العالم النامى خلال تلك الحقبة من عصر العولمة الذى نعيشه، حتى ولو لم يكن ثمة إسلام على الإطلاق.

إن أوروبا تمثل "حدودا" جد مغايرة أمام المسلمين عما تمثله روسيا أو الهند

أو الصين. فالمسلمون فى أوروبا ليسوا من السكان الأصليين، بل هم مهاجرون جدد ممن تركوا أوطانهم، طواعية وعلى نحو فردى، للهجرة إلى بلدان غير إسلامية ابتغاء للعمل وإقامة أسر جديدة. وفيما ذهب البعض للعمل في أوروبا باعتباره نقلة مؤقتة اقتضتها ظروف بذاتها واستهدفت أمورا مادية، إلا أن قرارهم كان ينحو، على نحو مطرد، صوب الاستقرار والإقامة الدائمة فى أوروبا، ومن ثم سعيهم للحصول على جنسية البلدان التى يحيون بها، وقبول وضعهم كأقلية فى مجتمع تسوده أغلبية مغايرة.

وبطبيعة الحال، تختلف الحياة فى أوروبا المعاصرة ذات التعدد الثقافى اختلافا كليا عن الحياة فى معظم البلدان على امتداد العالم مما يستتبع انبثاق قضايا متجددة ومعقدة تتعلق بهوية المهاجرين. وفى معظم الحالات، تمثل أوروبا أول احتكاك للمسلمين بمجتمع تحلل بالكلية من مظاهر الإثنية والدين ... ذلك المجتمع الذى لم تعد فيه تلك المظاهر ذات أهمية فى الحياة، إلى أن بدأت أفواج تترى من المهاجرين تطأ الأراضى الأوروبية. كذلك، فقد كانت الخبرة والتجربة الأوروبية جديدة بالنسبة للمهاجرين المسلمين – وكذلك بالنسبة لأغلب المهاجرين الوافدين إليها من بلدان العالم النامى.

وعلى نقيض أمريكا الشمالية، فإن أوروبا، بطبيعتها، ليست مجتمعا مهاجرا، إذ تشكلت من قوميات وثقافات أوروبية غربية تالدة وعريقة يغلب عليها نمط الحياة المحافظ. ويقينا، كان "الآخر" المسلم مألوفا تماما لأوروبا كونه العدو التاريخى اللدود لها – ولكنه غالبا ما كان عدوا بعيدا ... جغرافيا. ففى عام ٧٣٢، قامت أوروبا بطرد الجيوش العربية من بواتييه بإسبانيا المسلمة آنذاك – واعتبرت، بذلك، أنها قد أنهت، وللأبد، أى احتمال لغزو إسلامى مستقبلى، وأية "أسلمة" محتملة لأوروبا. وقد تقابل كل من الأوروبيين والمسلمين فى ساحة الوغى أثناء الحروب الصليبية. وفى عام ١٤٩٢، وضع الملك فرديناند والملكة إيزابيلا نهاية قاسية لسبعة قرون من الحكم العربى للأندلس ... ذلك الحكم الذى اتسم بالتعددية، حيث تجاورت

الثقافات الإسلامية، والمسيحية، واليهودية على امتداد الأراضى الإسبانية - تلك النهاية التى سطرت لإطلاق أول برنامج أوروبى للتطهير العرقى، إذ شهد العام المذكور طرد المسلمين واليهود من إسبانيا. كذلك، فقد أوقفت الجيوش البولندية زحف القوات العثمانية عام ١٦٨٣ أثناء حصار فيينا ... أقصى بقعة توغلت إليها الجيوش العثمانية فى أوروبا الشرقية. ثم مرت الأيام، لتقوم أوروبا نفسها بغزو جميع الدول الإسلامية واحتلالها، تقريبا، على امتداد المعمورة. وفى وقت لاحق، جاهدت أوروبا لإخماد المقاومة المناهضة للكولونيالية، والتى أشعلتها الجماهير المسلمة. كذلك، فقد سيطرت أوروبا على جميع ما يتعلق باستخراج البترول وإنتاجه فى الأراضى الإسلامية قبل أن يدور الزمان دورته، وتسترد الشعوب الإسلامية حقها فى مواردها. ولقد كانت محاولات فرنسا للإبقاء على سيادتها على الجزائر محاولات شديدة الدموية، وأضحى الجزائريون هدفا للكراهية والعداء فى فرنسا ككل. لذا، فإن تجربة أوروبا التاريخية وذكرياتها بشأن تعاملاتها مع المسلمين عامة لم تكن إيجابية على الإطلاق. ولكن خلال النصف الثانى من القرن العشرين، انبثقت علاقات جديدة لم تكن متوقعة بين أوروبا من جهة، وبين المسلمين من جهة أخرى، وذلك فى أعقاب مجىء أعداد كبيرة من المسلمين إلى الأراضى الأوروبية كمهاجرين.

من مسلمو أوروبا؟

يمثل المسلمون نحو ٥٪ من مجموع سكان الاتحاد الأوروبى. وتحظى فرنسا بنصيب الأسد من إجمالى عدد المسلمين بأوروبا (٤,٥ مليون مسلم)، تليها ألمانيا التى تستأثر بنحو ثلاثة ملايين مسلم، فبريطانيا (١,٦ مليونا)، وأكثر من نصف مليون مسلم فى كل من إيطاليا، وهولندا - كل على حدة. أما النمسا وبلجيكا فيوجد فى كل منهما أقل من نصف مليون مسلم. وبالنسبة لإجمالى عدد المسلمين بأوروبا، فإن نحو ٥٠٪ منهم قد ولد بالمهجر.

ولقد شهدت ستينيات القرن العشرين أول هجرة جادة للمسلمين إلى أوروبا ... تلك الهجرة التى جاءت كاستجابة لحاجة أوروبا، آنذاك، إلى عمالة تقوم بأعمال بعينها يستنكف الأوروبيون ويترفعون عن القيام بأمثالها، وبذلك بدأ عصر "العمالة الوافدة". كذلك، فما كان ينظر إليه على أنه "ترتيبات مؤقتة" من قبل الطرفين، سرعان ما أضحى أمرا شبه دائم. ولقد ازدادت أعداد المهاجرين حين شرعت البلدان الأوروبية فى السماح للعمالة الوافدة باصطحاب أفراد من عائلاتهم وذويهم للانضمام إليهم بالمهجر. وقد مثلت الخلفيات السوسيواقتصادية للمهاجرين مشكلة رئيسية أمام أوروبا : إذ كانت نسبة كبيرة من المهاجرين عمالة غير مؤهلة وغير ماهرة تفتقر إلى درجة مقبولة من المستوى التعليمى ... تلك العمالة كانت أقل استعداداً للتوائم مع المجتمع الأوروبى، والاندماج فى نسيج النظام الاجتماعى هناك، وقد انجرفت تلك الطبقة نحو تكوين "غيتو إثنى" ينتظم أفرادها. وتتعارض أصول الطبقة العاملة السائدة من المهاجرين المسلمين بأوروبا مع الخلفيات العملية المتخصصة والماهرة للمهاجرين المسلمين فى أمريكا الشمالية.

وتنحدر أصول المهاجرين من المسلمين بأوروبا من أصقاع متفرقة على امتداد العالم : ففى فرنسا، تنحدر غالبية المهاجرين المسلمين بها من دول شمال إفريقيا، أما نظيرتها فى المملكة المتحدة فتأتى، بالأساس، من دول جنوب آسيا، وفى ألمانيا، فإن معظم المهاجرين من المسلمين قد قدموا من تركيا، ومن البوسنة وكوسوفو لاحقا. فإذا ما أردنا تقييم المهاجرين وفقا للمعيار الإثنى، نجد أن العرب يشكلون ٤٥٪ من إجمالى المسلمين المهاجرين بأوروبا، يليهم الأتراك، فمواطنو جنوب آسيا. أما الجماعات المسلمة الأخرى، فيتم تمثيلها بأعداد أقل بكثير. ومن الجلى أن هيكل المهاجرين المسلمين فى أوروبا يتسم بالتنوع، سواء وفقا للمعيار الإقليمى أو وفقا للغة أو اللسان الذى ينتمون إليه، لذا فلا يستقيم أن نعتبر ذلك الهيكل متناغما أو متجانسا.

وكما أوضحت "جوسيلين سيزارى"، باحثة العلوم السياسية بجامعة السوربون

بفرنسا، فإن "الوضع السوسيواقتصادى للمسلمين الأوروبيين هو وضع بالغ الهشاشة"، خاصة عندما يتم تصويره باستخدام معدلات البطالة السائدة. فالبطالة المنتشرة فيما بين المسلمين بأوروبا تعد أعلى بكثير من نظيرتها الخاصة بغير المسلمين. ففى هولندا، نجد أن ٣١٪ من المغاربة، و٢٤٪ من الأتراك عاطلون عن العمل. أما الأمر الأكثر إزعاجا فهو أن معدلات البطالة بين الشباب المسلم كانت فى عام ١٩٩٥ ضعف نظيرتها بين غير المهاجرين المنتمين للمستوى ذاته من التحصيل الدراسى. أما فى المملكة المتحدة، فإن معدل البطالة بين المهاجرين من بنجلاديش، وباكستان يبلغ ثلاثة أمثال نظيره بين غير المهاجرين، أما فى المدن الهامشية، فإن ما يقرب من نصف المهاجرين من بنجلاديش عاطل عن العمل. بل الأسوأ من ذلك، "انتقال ذلك التهميش إلى الجيل الذى ولد وتلقى تعليمه فى بريطانيا".

إن المشكلة القائمة تغذى نفسها ذاتياً، إذ يصعب على المسلمين من الطبقة العاملة، وأولئك ممن تلقوا نزرا يسيرا من التحصيل الدراسى أن يندمجوا فى نسيج المجتمع الأوروبى، أو حتى التواصل مع الثقافة هناك، ونتيجة لذلك يشعر هؤلاء بكونهم مهمشين، فضلا عن النظر إليهم كدخلاء بما يشعرهم دائما بالغربة والانعزالية فيفضلون أن يحتموا داخل شرنقتهم الثقافية والحضارية، مما يساعد فى التأكيد على الصورة النمطية لمقاومة المسلمين للاندماج داخل المجتمعات المهاجر إليها. كذلك، تتوالد مشاعر الاستياء، وتغدو رمزية التمايز فى اللباس والمأكل واللغة أكثر تعبيرا عن مشاعر كلا الطرفين وانفعالاتهما. وتبدو هولندا التجسيد الأمثل لإحدى أدق الأمثلة على تلك المشكلة. فقد صدر تقرير عن البرلمان الهولندى عام ٢٠٠٤ جاء به : "إن المجتمع ذا التعددية الثقافية كان إخفاقا مخيبا للآمال، إذ أدى انتشار "الغيتو الإثنى"، على تعدد مستوياته، وكذا الثقافات العديدة غير المنتمية لثقافة المجتمع - إلى تمزيق أواصر الدولة، وغدت خطورة ظاهرة "الاستقطاب" لا سبيل إلى تجنبها سوى تحول المهاجرين المسلمين ليصبحوا

مواطنين هولنديين". بيد أن ما خلص إليه التقرير جاء محبطا وصادما، إذ إن صيغة الحل المقترح بأن يصبح المسلمون ... "مواطنين هولنديين" قد أصابها العوار. فماذا يقصد بأن يصبح المرء "هولنديا"؟ أينصرف ذلك إلى عدم تمييز ذلك "المتحول" عن سائر المواطنين الهولنديين التقليديين سوى من خلال سماته وخصائصه الظاهرية البادية للعيان؟ أم يتحتم على الراغب فى التحول التخلى التام عن سماته اللغوية والثقافية الأصيلة المميزة له ولموطنه الأم؟ أم أن ثمة حداً أدنى من السمات "الهولندية" التى يتعين أن يكتسبها المرء، دون غيرها من السمات؟ وبالاحتكام إلى المشاهد فى العديد من البلدان، نجد أن الاندماج والاستيعاب داخل نسيج المجتمع المهاجر إليه عملية تتطلب انقضاء سنين عدة، وتعاقب أجيال تلو الأخرى ... إذا كان المراد تأسيس نوع من التثاقف الجدى، ناهيك عن الاندماج الفعلى فى المجتمع.

بيد أن المشكلة المذكورة لا تقتصر على الإسلام فحسب، فأية جماعة من العمال غير المتعلمين والذين ينتمون إلى العالم النامى لديها المشكلات ذاتها فيما يتعلق باندماجها فى المجتمع. إلا أنه يجب علينا، كذلك، ألا نغفل العامل الذى يمثله "الإسلام" نتيجة ظاهرة اجتماعية مثيرة أخذت تنتشر الآن بين صفوف المهاجرين : انبثاق هوية جديدة من "المسلمين الأوروبيين". فالمهاجرون الجزائريون، والأتراك، والباكستانيون ممن لهم روابط مباشرة بأوطانهم الأم قد قادوا مسيرة انتشر صداها ما بين مهاجرى الجيل الأول إلى أوروبا، وخلقت "هوية إسلامية" جديدة تماماً -بتميزها عن "هوية إثنية" ترتكن، بالأساس، إلى الأصول القومية للمهاجر. وتأتى هذه "الهوية الإسلامية" كاستجابة مباشرة لتحلل المهاجرين من الروابط التى كانت تشدهم إلى أوطانهم الأم- والتى أضحت الآن ثقافة آبائهم البعيدة وغير الملائمة لأوضاعهم الجديدة ببلدان المهجر. وتتيح "الهوية الإسلامية" رابطة مشتركة عبر خطوط إثنية بالتوازى مع تجارب وخبرات اجتماعية مشتركة بما فيها التمايز كأقلية جديدة فى المجتمع الأوروبى. إن الجيل الجديد أوروبى المولد يتحدث لغات

أوروبية بطلاقة، ويختلف إلى المدارس الأوروبية. ورغما عن هذا كله، يتم إقصاؤه وتهميشه لأسباب سوسيواقتصادية فيلجأ إلى "الإسلام" كهوية إثنية بينية، وذلك فى ظل غياب أية هوية أخرى يمكن الانتماء إليها. إلا أن لجوء ذلك الجيل للدين بتبنيه "هوية إسلامية" يثير الشكوك من حوله فى أوروبا التى هجرت الدين، ونحته جانبا.

إن الأزمة الحالية هى أزمة مزدوجة. فنتيجة للمأزق الذى تواجهه جراء الهجرة إلى أراضيها، فإن أوروبا تواجه الآن أزمة هوية خاصة بها، يتم بموجبها إعادة تقييم عملية مواجهة العولمة برمتها، والتعامل مع التعددية الثقافية القائمة. أما العنف المتفشى فى إقليم الشرق الأوسط، على امتداده، فلا يعبأ به المهاجرون المسلمون فى أوروبا كثيراً، إلا أن حفنة من الحوادث العنيفة بأوروبا، والضالع فيها مسلمون أوروبيون لجديرة بأن تستثير مخاوف أوروبا من "الإسلام" - والتى تؤدى، بدورها، إلى تعزيز "الهوية الإسلامية" للمهاجرين وترسيخها. وبالطبع، فنحن إزاء "حلقة مفرغة". فهل يكون تبنى "هوية إسلامية" جديدة، لا ترتكن إلى البعد الإثنى، خطوة للأمام نحو المزيد من اندماج المهاجرين فى بلدان المهجر؟ أم يكون خطوة باتجاه تعزيز روح تضامنية اجتماعية جديدة يصعب استيعابها فى نهاية المطاف؟

إن القلق الذى يساور أوروبا بشأن عمليات الاستيعاب والاندماج له وجاهته ومبرراته. فربما كان المسلمون الآن، فى حقيقة الأمر، من أصعب الجماعات الثقافية لأن تستوعب بالكامل، وذلك، تحديدا، بسبب القوة الهائلة والعزيمة الماضية التى طالما ميزت تلك الثقافة عبر أزمنة طوال من اعتداد بالنفس، وإدراك للذات فضلا عن همة عالية وتصميم شديد على حماية المجتمع الإسلامى، والحفاظ على مقومات الثقافة الإسلامية. وفضلا عن ذلك كله، فإن "الإسلام" ليضفى قوة اجتماعية جديدة على مهاجرى الجيل الأول تمكنهم من مجابهة مصاعب عملية الاندماج فى بلدان المهجر.

واليوم، فإن الأمر يتعلق بالاحتفاظ "بهوية إسلامية" أكثر من ارتباطه بهوية

إثنية أو أخرى لغوية. فقد يبتهج المرء بتعلم اللغة الهولندية، والعمل ضمن إطار المجتمع الهولندى، إلا أنه لا يرغب فى التنازل عن "هويته الإسلامية". إن الاندماج الكامل لن يكون مفهوما ذا شأن بالنسبة لأغلب الأقليات غير الغربية إذا أريد به أن يكون من الصعب تمييز المهاجر عن المواطن الهولندى الأصيل، أى عن طريق اندثار ثقافته الأصلية بالكلية. فالعبرة هى فى كيفية أن يجمع المرء بين كونه مسلما وكونه هولنديا، وهو أمر يمكن تحقيقه بالفعل. فإذا كان المراد أن يرتضى المرء القيم المدنية الهولندية، وأن يكون مواطنا مستقيما، راغبا فى المشاركة فى المجتمع الهولندى، والمساهمة فى ارتقاء الأوضاع بهولندا، إذاً فمن السهولة بمكان أن يصبح المرء هولنديا. وبذا، تفقد القضية حدتها وإلحاحها بتعاقب الأجيال.

والمأزق المذكور له نظائر وأشباه تتعلق بهواجس اليهود المبكرة ومخاوفهم بشأن مظاهر عملية الاندماج فى المجتمع الأمريكى، إذ يشير الباحث الأمريكى "إيريك غولدشتاين" إلى أن :

العقود الأولى من القرن التاسع عشر قد جلبت للمهاجرين اليهود النازحين من بلدان وسط أوروبا فرصا غير مسبوقة للتكامل الاجتماعى. وبينما أثارت تلك الفرص حماسة اليهود، إلا أنها قد ولدت لديهم مشاعر القلق حول الحدود التى يتعين أن تفصل بينهم وبين باقى المجتمع. وقد نشأ الجانب الأكبر من مشاعر القلق تلك من التوترات بين رغبة اليهود فى التكامل مع المجتمع الجديد من جهة، وبين رغبتهم فى الاحتفاظ بهوية يهودية مميزة. إن تاريخ معاناة اليهود من الاضطهاد والإقصاء المجتمعى قد أضفى عليهم حسا ووعيا اجتماعيا قويا كأقلية ... ذلك الوعى الذى يصعب عليهم التنازل عنه، والذى جعلهم يضفون قيمة عالية على استدامة الجماعة وبقائها. وبما أنه قد تم النظر إلى الروابط الاجتماعية على أنها القوة الحمائية التى ضمنت استمرارية الجماعة اليهودية فى الماضى، فإن معظم اليهود يكرهون المساس بتلك الروابط.

تلك هى الأمور التى تشغل بال الجماعة اليهودية - باعتبارها أقلية ذات ثقل تاريخى وثقافى لا ترغب، عامة، فى الاندماج فى المجتمعات التى تحيا بها، خوفا من خطر الذوبان، بل والتلاشى كلية. إذ لم يندمج اليهود جيدا فى الثقافتين الأمريكية والأوروبية لآماد طوال، وكانوا هدفاً لممارسة التمييز ضدهم حتى أزمنة عاصرتها الذاكرة الحية للشعوب. إضافة إلى أن اليهود، وعلى امتداد عقود طويلة، قد تم الربط بينهم وبين الحركات والتنظيمات الراديكالية، وكذلك الإرهاب الفوضوى ... الأمر الذى سيطر على المخيلة الغربية فى بدايات القرن العشرين بما يشبه الإرهاب الذى يعزى إلى المسلمين اليوم.

وبالطبع، فإن وضع المسلمين اليوم يختلف اختلافا جليا عن وضع اليهود من مناح عديدة. فالمسلمون، اليوم، قد صاروا هدفا وموضعا لشكوك عميقة سافرة ومستترة، بل لقد أصبحوا هدفا يمارس ضده التمييز وفقا لأسس قانونية لمجرد الاشتباه فى أى أمر يمس القضايا الأمنية. فالمسلمون فى الغرب بانتظار الحصول على مزايا انضباط السلوك السياسى العام ومنافعه، وتظل سماتهم وثقافاتهم هدفا دائما للتندر، والسخرية، والتهكم، والكراهية على نحو لم يعد المجتمع الغربى يسيغه فيما يخص الأمريكيين من أصول إفريقية، أو اليهود، أو السكان الأصليين لأمريكا.

إذاً، يدور الجدل الرئيسى، هنا، حول المشكلات المتعلقة بالهجرات الكثيفة للملونين إلى الغرب، فى وقت يشهد توترات جيوبوليتيكية بالغة فى العالم الإسلامى نفسه. كذلك، فإنه من المؤكد أن "الإسلام" يخلق مناخا للترابط الاجتماعى، وينشئ روابط عالمية واسعة المدى بالمقارنة بأكثرية الجماعات المهاجرة الأخرى. فقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية، من قبل، أقليات عصية على التوائم والاندماج بالمجتمع، كالهنغاريين، والإيطاليين، والإيرلنديين، والصينيين، وبالطبع اليهود ... أولئك جميعا ممن كان ينظر إليهم على أنهم ينتمون إلى عشيرتهم فحسب، وهو ما يعكس، إلى حد كبير، غياب أى بديل مجتمعى آخر.

اليسار والإسلام (التحالف الشائن)

فى السنوات الأخيرة، تولدت بعض المخاوف لدى الجماعات المناصرة للصهيونية وجماعات المحافظين الجدد من أن تحالفا خطيرا ومريبا قد أخذ فى شق طريقه بين "اليسار" و"الإسلام" : وهو تحالف نشأ فى أوروبا يقضى بأن "تحصل الأحزاب اليسارية على عدد من العملاء الجدد ... أقصد الناخبين ....، فى مقابل حصول المسلمين على امتيازات ومعونات، بالإضافة إلى الإبقاء على الحدود مفتوحة، بدرجة أو بأخرى، أمام هجرات المسلمين".

أما التقارب الثانى بين الطرفين فيتمحور حول "كراهية أمريكا"، والتى يتقاسم اليسار مشاعرها، عن جدارة، مع الإسلاميين. لذا، يشار إلى تعاطف الإسلاميين وتجاوبهم مع الانتقادات اليسارية لأمريكا والغرب ... والعكس بالعكس. وفى هذا الإطار، كتب المراقب الأمريكى "ويليام ليند" : "إن الذى أدى إلى وقوع التفجيرات الأخيرة فى لندن (تموز/ يوليو ٢٠٠٥)، فضلا عن العديد من الحوادث الأخرى التى ستقع تباعا فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية - هو بلا شك "الحلف الماركسى-المحمدى". فمرة أخرى، أبرم العدوان اللدودان، الماركسية، وتحديداً، الماركسية الثقافية، والتى تعرف "بالانضباط السياسى"، والإسلام - صفقة شيطانية يلتزم بموجبها كل طرف بمؤازرة الطرف الآخر ضد العدو المشترك ... مآثر الغرب المسيحى".

ولعل الإشارة التى انطوت عليها الجدالات بهذا الشأن هى أن المحافظين الجدد قد لمسوا، بالفعل، جانبا من الحقيقة : التعاون المحتمل بين مختلف الجماعات السياسية على امتداد العالم، والتى تناهض الأعراف الغربية والأمريكية فى السيطرة والهيمنة، وتسعى جاهدة للتعاون من أجل إبطال مفعولها. إلا أن المحافظين الجدد يروق لهم أن ينعتوا سعى أمريكا الدءوب للإبقاء على الهيمنة الأمريكية أحادية القطب بأنه "سعى للحفاظ على التقاليد اليهودية-المسيحية". وبينما تمثل التقاليد اليهودية-المسيحية، بالفعل، جانبا من الثقافة الغربية، فإن الهيمنة الدولية لأمريكا تنصرف إلى

ما هو أبعد من ذلك، وتشير مخاوف قوى أخرى تتعلق بما يتجاوز مجرد "مشاعر الكراهية لإسرائيل وللتقاليد اليهودية-المسيحية".

فوفقا لأحد المواقع اليمينية المناهضة للإسلام : www.jihadwatch.org لقد لاحظ "أمير طاهرى" -الإيرانى بالمنفى- ذلك التعاون الماركسى-الإسلامى. فوفقا له، فإن اليسار الأوروبى المتعصب يرى المسلمين باعتبارهم "الطبقة الدنيا" الجديدة فى أوروبا : "ولا يقدم التحالف الماركسى-الإسلامى فى أوروبا برنامجا سياسيا متماسكا، إذ تنبنى أيديولوجيته حول محاور ثلاثة : كراهية الولايات المتحدة الأمريكية، والحلم بإزالة إسرائيل واجتثاث جذورها من فوق خريطة العالم، والأمل فى انهيار المنظومة الاقتصادية العالمية".

إذاً، فقد تم ترسيم حدود المعركة، الأمر الذى أدى إلى صعوبة اندماج المسلمين داخل المجتمع الأوروبى، وإغراق مخيلة المسلمين الأوروبيين بالصراع الأيديولوجى العالمى.

انخراط المسلمين فى المجتمعات غير المسلمة

يذهب العديد من المراقبين البريطانيين إلى تصوير المسلمين بالمملكة المتحدة بأنهم يقفون خارج النظام السياسى البريطانى. فبالنسبة للجيل الأول من المهاجرين، كانت تلك هى الحال غالباً، فقد كان الانخراط السياسى، وفقا لتجربتهم وخبرتهم الخاصة، عملية محفوفة بالأخطار حتى فى أوطانهم الأم، والتى قد تكون أجبرتهم، بالفعل، على هجر تلك الأوطان تلمسا للأمن فى ظل ثقافة مغايرة.

إلا أن "أمين ناصر" قد ذهب إلى أن مهاجرى الجيل الأول من المسلمين فى المملكة المتحدة يتمتعون بوعى سياسى، ويقومون بحشد تأييد المجتمع للتشريعات والحريات المدنية التى يتأثرون بها. ويصدق هذا، بصفة خاصة، على نطاق التشريعات المناهضة للإرهاب، والتى جلبت بعض المصاعب والمتاعب على الجماعة الإسلامية عن طريق تقييد حرية التعبير إبان حكومة تونى بلير.

وفى مثال مدهش على التواؤم، فإن نحو ١٠٪ من إجمالى تعداد الطلبة المسلمين فى فرنسا يختلفون الآن إلى مدارس كاثوليكية خاصة. وتعد ندرة المدارس الإسلامية هناك أحد أسباب تلك الظاهرة، أما السبب الأهم فيكمن فى إيمان الآباء والأمهات المسلمين بأن المدارس الكاثوليكية تنحو إلى تقديم صورة أكثر تسامحا عن دور الدين فى الحياة، فضلا عن إبدائها تفهُّماً أرحب للإسلام عما تبديه مدارس الدولة العلمانية. كذلك يميل هؤلاء الآباء والأمهات إلى الإعجاب بتشديد المدارس الكاثوليكية على عنصر السلوك الأخلاقى. أما المظاهر الكاثوليكية للتعليم، بحد ذاتها، فيبدو أنهم لا يعيرونها كبير اهتمام. وفى المدارس الكاثوليكية، لا يوجد حظر على ارتداء الفتيات لأغطية الرأس فى قاعة الدرس، وذلك على عكس المدارس التابعة للدولة. لذا، فوفقا للمعيار الدينى، يوجد تعايش صحى فى تلك المدارس، والذى قد يتيح قاعدة وأساسا جيدا للجيل التالى للتمتع بمناخ من التفاهم الدينى على أسس تعددية.

وبينما اتبعت إدارة جورج بوش الابن سياسات تخريبية هدامة فى أنحاء العالم الإسلامى كان من شأنها استفحال الأزمة وترسيخها، كان المجتمع الأمريكى ذاته أكثر نجاحا فى دمج المسلمين فى الإطار المجتمعى عما قام به الأوروبيون. فبداية، وكما أشرنا سالفا، فإن الكثير من المهاجرين إلى أمريكا الشمالية هم فئة متخصصة حظيت بمستويات تعليمية أرقى، فضلا عن كونها أقدر على تحقيق الاندماج الثقافى من الطبقة العاملة المهاجرة إلى أوروبا. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإن مجتمعات أمريكا الشمالية هى بدورها مجتمعات مهاجرة. إذاً، فهى، بمحض التعريف، أكثر تعددية ثقافية من المجتمعات الأوروبية. فباستثناء ثلة قليلة من الشوفينيين الأمريكيين المؤمنين بوجوب بقاء الولايات المتحدة، بالأساس، مجتمعا للعنصر الأبيض ذى الأصول الأوروبية الشمالية والمعتنق البروتستانتية، فإن معظم الأمريكيين لا يشعرون، بالفعل، بأن قدوم مهاجرين جدد إلى الولايات المتحدة سيعمل على تغيير هيكل الثقافة الأمريكية على نحو كبير. أما المجتمعات الأوروبية،

كالدول الاسكندنافية وهولندا وبلجيكا، فإنها قليلة السكان ... إذا، فإن قدوم أعداد كبيرة من المهاجرين إلى أراضيها يمكن أن يفضى، بالفعل، إلى تغيير طبيعة الثقافة التقليدية المحلية بها، والتى طالما حوفظ عليها عبر الأجيال المتعاقبة. إن هذه البلدان لم تكن لتتوقع أن تكون مجتمعات متعددة الثقافة على أى نحو ملحوظ، لذا كانت التجربة فى تلك البلدان أقرب ما تكون إلى الصدمة القاسية.

أما "طارق رمضان"، والمشار إليه آنفا، فقد شدد على أن عملية اندماج المهاجرين فى بلدان المهجر ذات طبيعة مزدوجة. إذ يؤمن بأنه يتعين على المسلمين، أولا، تحديد مسئولياتهم والاضطلاع بها، ويلى ذلك المطالبة بحقوقهم فى تلك المجتمعات الجديدة. فوفقا له، يتوجب على المسلمين الذين يهاجرون إلى أوروبا بلا قيود ليس فقط تقبل، بل وتفهم ثقافة أوروبا ولغاتها المتعددة، وطبيعة تكوينها السيكولوجى المشتق من الخبرة التاريخية لها. فالمسلمون لا يمكنهم العيش خارج تلك الخبرة، أو أن يحيوا بمنأى عن الثقافة السائدة - إلا أن هذا ينبغى ألا يعنى، بالضرورة، تقبل المسلمين التام لجميع عناصر أنماط الحياة ومناحيها فى أوروبا. وقد لاحظ رمضان "وجود بعض غلاة التقليديين والمتشددين فى صفوف المسلمين الأوروبيين ... أولئك الذين لا يريدون الانخراط نهائيا فى المجتمعات الجديدة. وبالطبع، فما زال ثمة من يقول بأن : "كل ما هو أوروبى يخالف بالضرورة التقاليد الإسلامية". إلا أن التيار السائد للمسلمين فى أوروبا، والمكون من أولئك غير المستشعرين الغربة بها - هو جانب كبير من الحقيقة الأوروبية" ... تلك الحقيقة التى تخضع دائما للتطور والتكامل مع مولد أجيال متعاقبة من المسلمين فى المجتمعات الأوروبية وتنشئتهم بها.

كذلك، فقد أشار رمضان إلى أن أوروبا تمثل حضارة تتيح هامشا واسعا من الحرية الشخصية للأفراد كى يقوموا بما عساهم يريدون، فلا يوجد من يجبر المسلمين على اتباع أنماط حياة الآخرين. فإذا ما أمن الأوروبيون بضرورة حدوث تغييرات فى أنماط الحياة الأوروبية، يتوجب عليهم، إذا، أن يتوجهوا إلى صناديق

الاقتراع إذا كانوا يرغبون فى إحداث التغيير المنشود، إلا أنه يتعين عليهم، أيضا، أن يدركوا أن اندماج المسلمين فى المجتمعات الأوروبية لا يلزم المسلمين بأن يعيشوا كالدانمركيين أو الهولنديين التقليديين. وفضلا عن ذلك، يجب أن يدرك الأوروبيون كيف أن طبيعة الاندماج والتكامل ذاتها تتغير هى الأخرى. فأوروبا ليست ثقافة وحضارة ستاتيكية جامدة هاجر إليها المسلمون كى يمثلوا عنصرا تصادميا. لقد تكونت الحضارة الأوروبية على امتداد ألفى عام عن طريق تضافر العديد من الثقافات، والغزاة، والهمج، والحروب، والعوامل والمؤثرات الخارجية. لقد أسهم الإسلام بقسط وافر وفيض زاخر فى تطور الثقافة الأوروبية فى العصور الوسيطة، فضلا عن دوره فى نقل الفلسفة اليونانية. لذا، يجب أن يعمد الأوروبيون إلى التغيير، والارتقاء بثقافاتهم التقليدية فى تفاعلاتها مع قوى العولمة.

وفضلا عن ذلك، فقد تناول رمضان قضية الهوية والأسئلة المثارة بشأنها، مشيرا إلى الحقيقة الشهيرة من أننا جميعا نحمل هويات متعددة. لذا، فمن غير المنطقى سؤال المسلم : "أى من هاتين الهويتين تسبق الأخرى - الانتماء الإسلامى أم الانتماء لألمانيا؟" ويصف رمضان نفسه بأنه "سويسرى، أكاديمى، ذكر، مسلم، من أصول فلسطينية، ذو ثقافة أوروبية" ... وهلم جرا. وتتوالى الهويات المختلفة بما يتماشى والموقف القائم.

وتبدو تلك المشاكل مألوفة كذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث غالبا ما تنقلب التحديات الاجتماعية إلى ضرب من العنصرية "حين تكون مرتبطة بالمكسيكيين أو السود، أو حين ارتبطت، فى عصور سابقة، بالإيطاليين، والهنغاريين، والإيرلنديين، والروم الكاثوليك، واليهود، والصينيين، والذين كانوا فيما مضى يعتبرون غير مندمجين بالمجتمع". وهناك، بالفعل، قضايا وشئون اجتماعية ترتبط باندماج المسلمين فى المجتمعات الأمريكية والأوروبية، وغالبا ما تختلف المشاكل باختلاف الجماعات، وكذا باختلاف الأمكنة. على أن هذه المشاكل تنحو إلى الحل الذاتى عبر الزمن من خلال عملية الاندماج فى المجتمعات الجديدة،

وقبول تلك الأخيرة لها. ويمثل انتخاب "باراك أوباما" رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية خطا فاصلا فيما يتعلق بقضية الاندماج، كما كانت الحال من قبل عند انتخاب "جون كينيدى"، كأول رئيس للولايات المتحدة ينتمى إلى الروم الكاثوليك.

مناهضة الغرب للإسلام

إن الأوضاع لا يمكن تحسينها بوجود آخرين فى الغرب ممن يرون أن الإسلام والمسيحية متداخلان فى صراع لا سبيل إلى تهدئة حدته - تلك الرؤية التى تبدو كانعكاس فى المرآة للرؤية العالمية لمتحمسى ومتعصبى تنظيم "القاعدة". فوفقا للقس "رود بارسلى"، من كنيسة "حصاد العالم"، فى كولومبوس بولاية أوهايو الأمريكية، والمستشار "الروحانى" للمرشح الجمهورى "جون ماكين" فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٨، والذى كتب :

"إنه لمن الأهمية بمكان أن ندرك الوجه الحقيقى للإسلام، أى أن نراه وفقا لما هو عليه بالفعل ... إننى لا أومن بأن أمتنا يمكنها بحق أن تنهض برسالتها المقدسة، وتفى بأهدافها السماوية، إلا إذا أدركنا طبيعة صراعنا التاريخى مع الإسلام. إننى أدرك تماما أن هذه العبارة تبدو متطرفة، ولكننى لا أنزع للتملص من مضامينها. فالحقيقة هى أن أمريكا قد تأسست، ضمن أسباب أخرى، بنية القضاء على ذلك الدين الزائف وتدميره، فأنا أومن بأن أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ كانت دعوة للقتال ينبغى ألا نغفلها مطلقا.

لقد كان القضاء على الإسلام، ضمن أحلام أخرى، المحرك الذى دفع "كريستوفر كولمبوس" للإبحار صوب العالم الجديد عام ١٤٩٢، لقد كان كولمبوس آملا فى سحق الجيوش الإسلامية بواسطة الجيوش الأوروبية التى ستقوى شوكتها جراء الثروات المغدقة عليها من العالم الجديد. لقد كان هذا الحلم، ضمن أمور أخرى، هو الذى أنشأ أمريكا".

أما المبشر البروتستانتى الشهير "فرانكلين جراهام"، فقد أخبر وكالة أنباء

NBC عقب اعتداءات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ : "نحن لا نهاجم الإسلام، بل العكس هو الصواب. فالرب الذى يؤمن به المسلمون ليس هو الرب الذى نؤمن به. إنه ليس ولد الرب وفقا للإيمان المسيحى، والإيمان اليهودى- المسيحى. إنه رب مختلف، وأنا أومن أن الإسلام دين ينطوى على الشرور والآثام".

وقد أثار "برنارد لويس"، من المحافظين الجدد، والباحث المعروف فى الشئون الإسلامية - المخاوف من أن الاتجاهات الحالية لتعداد السكان فى أوروبا قد تفضى، بسهولة، إلى إنتاج "أوروبا مسلمة". إلا أن الأرقام الفعلية لا ترجح مقولة "لويس" ونبوءته. وقد لوح بعض المراقبين اليمينيين بخطر أن تصبح أوروبا، فى المستقبل، "جزيرة عربية" جديدة !! ويدعم مثيرو المخاوف بشأن الإسلام آراءهم ويدافعون عن موقفهم بالإشارة إلى ما لا يعدو إلا أن يكون، بحق، ملاحظات مثيرة للفتنة من قبل ثلة قليلة من رجال الدين الراديكاليين، من أمثال الشيخ السورى "عمر بكرى محمد"، والذى كان أثيرا لدى تليفزيون لندن :

"لماذا أدين أسامة بن لادن؟ أنا أدين تونى بلير، وأدين جورج بوش. لا ... لن أدين بن لادن مطلقا، أو غيره من المسلمين ... نحن لا نفرق بين المدنيين وغير المدنيين، أو الأبرياء وغير الأبرياء. نحن نفرق، فقط، بين المسلمين والكافرين. فحياة الكافر لا قيمة لها، إذ لا حرمة لها ولا قداسة".

وكذلك ملاحظة دياب أبى جهجه، اللبنانى المقيم فى انتويرب ببلجيكا، والذى اتهم وأدان مفهوم "الاندماج" أو "الاستيعاب"، والذى يحلو للغرب اعتباره "مفهوما مثاليا" - بأنه "اغتصاب ثقافى" يهدف إلى حصر جميع مسلمى أوروبا فى جماعة تابعة تفتقر إلى استقلالية القرار.

كذلك، فإن العديد من الملاحظات ووجهات النظر التى يبديها الوعاظ الراديكاليون، والذين اعتلوا منابر بعض المساجد فى الغرب، وبخاصة المملكة المتحدة، - تعد شائنة، ومحرضة، واستفزازية. إن هذه الملاحظات تحدث صدى فى

الصحافة، كما هي الحال بالنسبة للمتطرفين في المجتمعات الديمقراطية بأسرها.
بيد أنه من المؤسف أنه في خضم "الحرب العالمية ضد الإرهاب" أن تضاعف أثرها المثير للفتن والقلاقل، بما يمكن أن يكون لها من تأثير فعلي في حفنة من شباب مهيأ لأن يكون شبابا متطرفا عدوانيا. إلا أن الموانع التي من شأنها الحد من حرية التعبير أو الخطابة ينبغي لها أن ترسم، بعناية وإنعام نظر، حدودا وتخوما قانونية. بيد أنه لا يستقيم اعتبار أحاديث جماعة صغيرة من المتطرفين الهامشيين ممثلة لطبيعة الإسلام في حقيقته، سواء في أوروبا أو غيرها. فالمشكلة الصغيرة ينبغي ألا يتم تضخيمها لتبدو ذات شأن أكبر.

وللأسف، فإن بعض المسلمين الذين يعانون اليأس، ويحيون حياة "العزلة" – يكونون أكثر ملاءمة وقابلية لتلقي وتقبل نظرية "المؤامرة" التي يتم تضخيمها، كما يكونون عرضة للتأويلات المبالغ فيها بشأن جرائم الغرب الكولونيالي الغابرة – وهي أحداث تنطوي ، بالفعل، على قدر كبير من الحقيقة، ولكنها تفتقر إلى المنظور التاريخي السليم والاتساق التكاملي. وعلى الطرف المقابل من ذلك الطيف أو المدى، فقد تمت تنشئتنا في الغرب، عامة، على الإيمان بأن التجربة الكولونيالية الغربية كانت إيجابية بالضرورة، إذ لم تفتقر إلى حسن نية أو سلامة مقصد. لذلك، فحتى الاتهامات الموثوقة بشأن وحشية الغرب وعدوانيته خلال تلك الحقبة الكولونيالية غالبا ما يتم إنكارها على الفور من قبل الغربيين باعتبارها إما مغالياً فيها، وإما هامشية. لذا، فإن مهمة المسلمين في طرح قضيتهم التاريخية المتعلقة بأحداث الماضي ليست بالأمر الهين، إذ لا يتم الالتفات إليها، حتى أن النقاد الغربيين لسياسات الغرب غالبا ما يتم رفض طروحاتهم، أو عدم إيلائهم أدنى اهتمام في الصحافة الأمريكية السيارة.

على أن الأمر الأكثر إزعاجا أننا نواجه، الآن، بتعليقات وملاحظات غاية في الغرابة والتطرف من فئة بأكملها من الأيديولوجيين اليمينيين الذي يتشككون بالفعل في مدى "إنسانية" المسلمين بالأساس – باعتبارهم نتاجا لثقافة عاجزة، كليا، عن

اللحاق بركب الحضارة العالمية - وكأن لم يكن للإسلام أدنى دور فى خلقها. فهل سبق وأن تم توجيه مثل ذلك النوع من الاتهام بحق أية حضارة أخرى؟ لقد تم اعتماد تلك اللهجة، بالفعل، ضد اليهود فيما شهده القرنان التاسع عشر والعشرون من جرائم منظمة بحقهم فى أوروبا الشرقية، وما نجم عنها من مذابح جماعية. وفى تلك الحالات، بالطبع، لم يكن الأمر مجرد تمييز على أسس إثنية، وإنما نظريات عنصرية وعرقية كاملة قد تم نسجها حول اليهود وثقافاتهم. وما تزال تلك المشاهد ماثلة فى الذاكرة الحية.

كذلك، فإننا نشهد اليوم جدالات ومناقشات عميقة حول مدى قدرة المسلمين على اعتناق منهج "الحداثة"، وما إذا كانوا قد كفروا بكل ما هو عصرى، وما إذا كان ثمة موطئ لقدم لهم، بالأساس، فى الغرب. إن المخاوف من اعتزام المسلمين "ابتلاع" الغرب ديموجرافيا تبدو سافرة، إذ يتم التصريح بها علانية، فضلا عن التصريح بالمخاوف من نية المسلمين لفرض الإسلام بالإكراه، ومن سحق الإسلام "للمسيحية" التى أصابها الوهن والمعتنقة من قبل أوروبيين لا حيلة لهم ... هؤلاء الأوروبيون الذين سيفقدون، فى اندفاعهم الليبرالى، أية قدرة على المقاومة. لقد تم ترسيم خريطة المعارك وحدودها، وتم رفع رايات القتال خفاقة. والأمر الذى يثير القلق والمخاوف هو تكرار التجربة اليهودية، إذ أضحى المسلمون فى المجتمعات الأوروبية، وكأنهم "اليهود الجدد". وتجدر الإشارة إلى أن عددا لا بأس به من اليهود أنفسهم يلمسون فى "الإسلاموفوبيا" الحالية ملامح العقلية ذاتها، والنهج نفسه لألمانيا النازية ولجرائم أوروبا المنظمة ضدهم.

المسلمون الأوربيون والعلمانية

فماذا، إذاً، عن القضية المثارة دائما على بساط الجدل، والخاصة بمشكلات المسلمين بشأن العلمانية؟ إن وجود "هوية إسلامية" فى حد ذاته، وخصوصا فى فرنسا، ليفرض تحديا بوجه المفهوم الفرنسى للعلمانية، أو "اللائيكية". فاللائيكية لا

تستلزم الفصل الحاد ما بين الكنيسة والدولة، كما هى الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية، بل بالأحرى سيطرة الدولة على الشأن الدينى والرقابة عليه. وقد أدت تلك العلمانية الصارمة إلى صدام فرنسا مع المسلمين بها فى عدة مجالات، وبخاصة التعليم، حيث لا تسمح الدولة بالإفصاح الشخصى عما هو دينى فى المدارس التابعة لها، لذا، فإن القانون هناك لا يتيح لفتيات تلك المدارس ارتداء أغطية الرأس، وهى قضية ذات شأن كبير ورمزية ثقافية بالغة للمجتمع المسلم. إن وجود أقلية جديدة ذات حجم كبير نسبيا يمثل الدين لها أهمية كبيرة باعتباره رمزا للهوية - قد أجبر فرنسا، وأوروبا بصفة عامة، على إعادة التفكير فى معنى "اللائيكية"، حين جاءت متطلبات التعددية الثقافية الآن لتصطدم بالعلمانية الفرنسية. كذلك، فقد أجبر الأوروبيون، والذين تنخفض لديهم، عامة، معدلات التدين، على إعادة تناول دور الدين فى المجتمع، وفى حياة المجتمعات. ويبدو الأمر، إلى حد ما، مؤلما وذا شجون، مع إعادة بعث قضية آمن الأوروبيون أنهم قد أودعوها لتدخل فى سبات عميق بعد ما عانوا ويلات "الحروب الدينية" سابقا.

ويا للمفارقة ... !! فقد لاحظت الكنيسة الكاثوليكية تلك الظاهرة، ولم تمتنع عن أن تبدى بعضا من موافقة. فقد صرح الكاردينال "جان-لوى طوران"، رئيس إدارة التقارب ما بين الأديان بالكنيسة الكاثوليكية - أن "الدين" قد أصبح، الآن، محلا للحديث والكتابة عنه بأكثر من أى وقت مضى فى أوروبا. "ويرجع الفضل فى ذلك إلى المسلمين ... المسلمون، - والذين أضحوا أقلية ذات شأن فى أوروبا - هم من طالبوا بإفساح مساحة للأمور الدينية فى المجتمع ... نحن نحيا فى مجتمعات متعددة الثقافات والأديان، وهذا جلى تماما. يمكننا القول بأنه لا توجد حضارة دينية صرف...".

إن غلاة مؤيدى العلمانية ومناصريها - والذين تفتقر حياتهم الخاصة إلى أدنى ملمح دينى - قد سعوا إلى إثارة القضية فى حادثة "الرسوم الكاريكاتورية" الدانمركية الشهيرة، حيث قررت حفنة من العلمانيين الليبراليين بالدانمرك الحط

من قدر "الانضباط السياسى"، وممارسة حريتها فى التعبير وإبداء مواقفها المناهضة للدين، بنشر رسوم كاريكاتورية مسيئة للنبى محمد. وبطبيعة الحال، فقد كانت ردات الفعل فى العالم الإسلامى على ما اعتبر فعلا متعمدا للإساءة والتجديف - غاضبة وثائرة.

فما عسانا أن نفعل إزاء ذلك الحادث الذى استثار حرية التعبير ضد الحساسيات الدينية؟ لقد كان الدانمركيون يمارسون حقهم تماما فى التعبير بحرية عن أية قضية تتراءى لهم. ولكن السؤال الحقيقى ينبغى أن يكون : هل كان من الحصافة وحسن التقدير التهكم والسخرية من النبى محمد، لمجرد إثبات إمكانية القيام بذلك؟! هل كان هذا هو التوقيت المناسب، خاصة والعالم الإسلامى بأسره يشعر بوطأة الحصار الرازح تحته جراء "الحرب العالمية ضد الإرهاب"؟! إن الرسوم الكاريكاتورية تلك لم تثر الدانمركيين المؤمنين ضد الدانمركيين غير المؤمنين، وإنما بالأحرى قد أثارت الأخيرين ضد قمة الرمزية الثقافية، والحضارية لأقلية ضئيلة العدد مهيضة الجناح تفتقر بشدة إلى من يتحدث باسمها، أو يعلى من قدرها فى أوروبا - كذلك، مثلت تلك الرسوم، من وجهة نظر تلك الأقلية، اعتداء سافرا ضد كينونتها ووجودها، وسخرية من حضورها وبقائها. تلك الأحداث قد تكون قريبة الشبه من التهكم والسخرية من اليهود لادعائهم أنهم "شعب الله المختار"، والتندر من خلال الكوميديا الساخرة على "الهولوكوست" (إن إنكار "الهولوكوست" يعد مخالفا للقانون فى ألمانيا. كذلك، فقد مررت الجمعية الوطنية الفرنسية، عام ٢٠٠٦، مشروع قرار يقضى بحظر إنكار المذابح الجماعية التى ارتكبها العثمانيون بحق الأرمن خلال الحرب الكونية الأولى).

ففى حدها الأدنى، أبانت تلك الرسوم الدانمركية غيابا للتقدير وحسن التصرف، وافتقادا للرؤية الاجتماعية، رغما عن كونها قانونية وشرعية بالكلية. ولكن ليس كل ما هو قانونى حصيفا بالضرورة. وفى حقيقة الأمر، فإن الغرب مواجه هنا بضرورة التوفيق بين قيمتين مقدستين لا تقبلان التحدى أو المساس

بهما : ففى الغرب، لا يمكن بحال مجرد التفكير فى مناقشة إمكانية تقليص حرية الرأى أو التعبير – إذ يبقى هذا الحق مقدساً. أما بالنسبة للمسلمين، حتى أولئك من غير ذوى النزعة الدينية، فإن مناقشة مجرد احتمالية التهكم أو التجديف فى حق الإسلام، أو فى ذات النبى محمد وشخصه ، لا يمكن تخيلها بتاتا– فتلك، إذاً، حرمة لا تنتهك. (ملاحظة : يعمد المسلمون، الآن، إلى الدفع بفنانيهم الكوميديين والمونولوجست – فى أوروبا وأمريكا الشمالية – للتهكم والسخرية من مجتمعاتهم الإسلامية ذاتها على نحو لا يستثير، مباشرة، مخاوف المسلمين من مشاعر العداء أو التمييز ضدهم).

ولقد أوجزت جماعة "الأزمات الدولية" المرموقة، بإتقان، تلك الأزمة فى تحليلها للاضطرابات التى سادت باريس عام ٢٠٠٦، وذلك على النحو التالى :

إن المظاهر الراديكالية، وأعمال الشغب التى يقوم بها الشباب المسلم، على الأقل فى فرنسا (ومن المحتمل، أيضا، فى المملكة المتحدة) لا تعكس وجود الإسلام السياسى، وإنما تعكس غيابه، وإخفاقه ... لقد أخفق الإسلام السياسى، بجدارة، فى تقديم حلول للمشاكل التى تفرضها الأحداث الراهنة. ونتيجة لذلك، تحول الشباب إلى "السلفية"، وهى حركة محدودة ترتكن إلى حرفية النص المقدس مشددة على ضرورة التزام الفرد بالتعاليم الدينية وفق قاعدة تأويلية ضيقة الأفق تشجع الانسحاب من المجتمع غير المسلم، وتدعو إلى العودة للذات بقدر من الانطوائية ورفض المجتمع والثقافة الفرنسيتين. إذاً، فالصراع ينجذب نحو "حرب ثقافية حضارية" وليس نحو "حرب سياسية". ويخلق ذلك، بدوره، نوعا من "عدم التسييس" فيما يخص المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وهو فراغ سياسى خطير ... وعدم رغبة فى إشراك النظام السياسى من خلال القنوات السياسية لإبداء الاستياء والمطالبة بالثأر. هذه العوامل، كلها، تخلف كتلة شبابية، لا ينتظمها رابط، مخيبة للآمال لما هى عليه من غضب واستثارة وعدم نضج ... تلك الكتلة التى تعبر عن مظالمها، على نحو متنام، من خلال "السلفية الجهادية"، وأعمال الشغب، والتى

يشعل وقودها ويذكى نيرانها. أحوال معيشية غير مستقرة، وبطالة فاشية، وتمييز اجتماعى، وما استجد من قيام "الآخر" من الحط من قدر الإسلام.

وقد كتب أحد البريطانيين بعد تحوله إلى اعتناق الإسلام:

"نحن المسلمين بحاجة إلى "أجندة" جديدة، على أنه يجب ألا يتم تعريف ذلك بكونه "ليبرالية إسلامية". فالليبرالية فى أمور الدين تنحو إلى إحداث ضعف وهشاشة فى الإيمان. وبالمقابل، فنحن نريد أن نرجع ثانية إلى تقاليدنا، والتنقيب عن موارد تمكننا من استعادة روح صحابة النبى محمد الدمثة والمرحة.

كذلك، فمن الجلى استحالة تبنى الدعوة إذا ما هجرنا التقاليد والأعراف من أجل الإصرار على تأويل الشريعة وفق منهج يتسم بضيق الأفق وعدم المرونة. إن جيراننا لن يلتفتوا إلى دعوتنا إياهم إلا إذا أمكننا أن نريهم أن ثمة تشابهاً قائماً فيما بيننا، وأن لدينا أموراً ذات قيمة تغرى بالتناول، ولعل الأهم أن نجعلهم يدركون قيمة الانضمام إلينا. إن "الأجندات" الإسلامية الراديكالية المتزمتة تبدو متبناة من قبل أناس متعصبين لا تعلو وجوههم ابتسامة، بل ينم محياهم عن توترات كامنة، وصلف ويؤس باديين".

وعلى الجانب المقابل، تبدو أمارات مبشرة تجم الفؤاد وتشد الأزر. فإذا ما دلف المرء إلى موقع إسلامى بشهرة "إسلام أون لاين"، ومقره دولة قطر ... وطالع القسم المخصص للإجابة عن الأسئلة المطروحة لوجد ما يدعو للتفاؤل. ويرتبط هذا الموقع الإسلامى بواحد من أبرز رجالات الدين، ممن يتمتعون بموثوقية وسلطة فائقة ... الشيخ "يوسف القرضاوى".

وفيما يلى نجد عرضا لأحد الأسئلة والإجابة عنه :

س : أعزائى ... أريد أن أعرف، كمسلم، يحيا فى الولايات المتحدة الأمريكية، واجباتى تجاه جماعتى هنا، أقصد تجاه وطنى. كيف يمكن أن أدعمه وأؤازره ضد

الأزمات المحدقة به من دون المساس بواجباتى الدينية؟ أريد أن أعرف كيف يتناول "الإسلام" هذا الشأن؟

ج : بواسطة د/مزمل صديقى، رئيس المجلس الفقهى لأمريكا الشمالية :

"يجب أن ندرك جيدا أن الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ، لم تعد كما كانت قبل ذلك التاريخ. فقد تغيرت أمور عدة، وأمور أخرى فى طور التغيير، بل وأمور سوف يطالها التغيير. إذاً، فيجب كمسلمين أن نقيم أنفسنا، ونعمل على تغيير بعض طرائق التفكير والسلوكيات الخاصة بنا. كذلك، علينا أن نخرج من عزلتنا، ويتعين علينا نبذ خلافاتنا الثانوية والعمل يدا بيد. ويجب علينا تقديم أنفسنا للمجتمع، وطرح قيمنا ومبادئنا الإسلامية أمامه، كما يتعين أن نسهم بنصيب وافر فى هذا المجتمع من أجل السلام، والتناغم، وإرادة الخير، وإرساء قواعد المجتمع الخير، ليس لأنفسنا فحسب، وإنما للأمريكيين بأسرهم.

... إنه من الأهمية بمكان أن ننشئ أسرا خيرة، وأن نبقى على الروابط بين الأسر وبعضها البعض، ولكن علينا ألا نقتصر على أسرتنا فحسب، وإنما النظر إلى الناس كافة، والتعامل معهم باعتبارهم أسرة واحدة ...

فالدين ليس طقوسا وشعائر فحسب، وإنما هو إرساء السلوكيات المثالية وانتهاج الأخلاق القويمة. والدين دعوة للحدب على الفقراء ورعاية المعوزين. إن الدين يدعو إلى محبة جيراننا والإحسان إليهم ...

يتعين علينا أن نعمل جاهدين من أجل إرساء قيم العدالة والتوافق فيما بين الناس أجمعين، وكذا فيجب أن تكون نظرتنا شاملة، وليست ضيقة قاصرة ...

إن العدالة تتطلب أن يتم تقويم الباطل باستخدام الأساليب الخيرة. فالجور لا يمكن أن يُزال بجور آخر. فلا يمكن لخطأين أن يصنعا صواباً، والغايات النبيلة لا تسوغ الوسائل الوضيعة".

وقد ورد تعليق للدكتور/طه جابر العلوانى (الذى كان يشغل منصب رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، والتى تعرف حاليا بجامعة قرطبة، كما كان يشغل منصب رئيس المجلس الفقهى لأمريكا الشمالية :

"لقد أوضح الباحثون المسلمون المرموقون، بجلاء، أن كل مسلم يحيا فى الغرب، بصفة عامة، وفى الولايات المتحدة الأمريكية، بصفة خاصة - تقع على عاتقه مهمة المشاركة فى إرساء حياة طيبة خيرة لكل من يحيا معه كأعضاء فى المجتمع، بغض الطرف عما إذا كانوا مسلمين أو غير ذلك. فالإسلام يحث المسلمين أن يصبحوا فاعلين، وكذلك مترقبين لما عساه أن يحدث فى أى مجتمع يحيون فيه ... بيد أن ذلك لا يقصد به أن يخاطر المسلم بتعاليمه الدينية حين تكون بعض السياسات المتبعة من قبل حكومته فى غير مصلحته، إذ يجب أن يجاهد مبتغيا الحق والعدالة أينما يكون، وفى أى منصب يشغله".

وأخيراً، وكما هى الحال فى جميع الأديان، يود المسلمون معرفة وجهات نظر مرجعياتهم وعلمائهم الدينيين وأحكامهم، بيد أنه، وفى النهاية، نجدهم يصدرون أحكامهم الذاتية بشأن كيفية الحفاظ على المبادئ والقواعد الإسلامية داخل المجتمعات الغربية، حين يكون التوصل إلى صيغة توافقية أمرا ضروريا من دون الإضرار بهم. (يحرم البابا موانع الإنجاب، إلا أن المؤمنين من الكاثوليك فى إيطاليا لديهم أدنى معدلات الإنجاب فى أوروبا). وفى النهاية، سيقوم المسلمون بموازنة إحساسهم الفطرى مع التأويلات التقليدية لرجال الدين. بل لعل الأرجح أن يحيا هؤلاء من دون القلق بشأن المتناقضات المحتملة. فكثير من المسلمين لا يرتضى جميع الأحكام والفتاوى الصادرة عن رجال الدين على أنها "دوغما" لا يمكن رفضها، فضلا عن أن هذه الأحكام وتلك الفتاوى تتباين كثيرا وفقا لمصادرها. ويؤمن الكثير من المسلمين، والذين يصوتون لصالح الغرب عن طريق قدومهم إلى أراضيه، أنه لا ضير من أن يحيا المرء فى مجتمع غير مسلم، على أن يمارس حياته وفقا لمعايير إسلامية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، عن طريق التعلم

على مر الأيام، والتكامل بصيغ أكثر اندماجا مع الأجيال المختلفة.

إن ما سبق كله لا يرتبط بالإسلام فى حد ذاته، وإنما يرتبط بالديناميكيات المعقدة والمتناوبة للاندماج والتعددية الثقافية. إن الأوروبيين ليتعين عليهم قبول الثقافة الإسلامية كإحدى مكونات أوروبا الجديدة - مثلما تم قبول الثقافات اليهودية، والهندوسية، والصينية باعتبارها إسهاما فى ثراء التعددية الثقافية بالغرب. كذلك، يجب علينا أن نحذر من "أسلمة" المشاكل الخاصة بالتعددية الثقافية، واندماج المهاجرين فى مجتمعاتهم الجديدة.

وتبقى ملاحظة أخيرة بشأن نمو التعددية الثقافية وتطورها : إذ كتب ويليام دالريمبل، الصحافى والكاتب البريطانى : "إن الأمر ليبدو عصيا على التصديق، إنه فى عالم محوره أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، وأسامة بن لادن، و"صدام الحضارات"، يكون أكثر الشعراء مبيعا فى الولايات المتحدة خلال تسعينيات القرن العشرين هو رجل دين مسلم حصل تعليمه بطرق تقليدية، وقام بتدريس الشريعة الإسلامية فى المدارس المخصصة لذلك". لقد كان دالريمبل يشير، بالطبع، إلى شاعر القرون الوسطى فارسى الأصل تركى الإقامة، جلال الدين الرومى، أحد أبرز شعراء الصوفية المحبوبين على امتداد العالم بأسره، إذ إن أشعاره تعد شفاء روحانيا للعالم برمته. وبالفعل، فإن روحانية الإسلام تظل إحدى إسهاماته الخالدة فى مسار الحضارة الإنسانية. وكم سيبدو الأمر عظيماً إذا تم إفساح المجال، بعض الشىء، أمام تلك الملامح الروحانية فى خضم التنازع والاضطراب السياسى والثقافى الذى يسم حياة كل من المسلمين والغربيين، فيما تدور الجدالات دورتها الخالدة حول الدين، والهوية، والمواطنة، والتسامح، والانتماء.

الفصل العاشر

الإسلام والهند

لقد شهد العالم حروباً ثلاثاً دارت رحاها بين الهند الهندوسية وباكستان المسلمة على مدار نصف القرن المنصرم، وقد تكون الحرب القادمة بينهما -حال قيامها- حربا نووية. إن الصراع على إقليم "كشمير" كان البذرة الرئيسية لنزاع طويل بين الطرفين، تمثل فى حرب بالوكالة ما تزال مستمرة بينهما حيث تخوض جماعات "تحرير كشمير المسلمة" حرب عصابات ضد الحكم الهندى القمعي. كذلك، فقد نفذت الجماعات الإسلامية المتسمة بالعنف، والمرتبطة غالبا بالجانب الباكستانى، عمليات إرهابية دموية عديدة داخل الهند.

إن الهنود والباكستانيين لم ينسوا أبدا التقسيم الأليم للهند، والذى خطط له ونفذه الاستعمار البريطانى عام ١٩٤٧، والذى أسفر عن مقتل الملايين من الهندوس، والسيخ، والمسلمين أثناء الهجمات الوحشية ما بين الأطراف الثلاثة، والتى شهدت عمليات ترحيل واسعة للسكان المسلمين من الهند باتجاه دولة باكستان "الجديدة"، والهندوس والسيخ من باكستان إلى الهند. فإذا لم يكن ذلك "محورا" للصراع بين الحضارات، فما الذى عساه يكون كذلك؟!

من بين جميع "الحدود" القائمة بين الإسلام والثقافات والحضارات الأخرى، تبرز الهند كحالة شائكة وحرجة للغاية. فالإسلام لا يقتصر على متاخمة الهند (إذ يوجد فى باكستان وبنجلاديش)، إذ عاشت أعداد كبيرة من المسلمين داخل الهند على مدار أكثر من ألف عام، فى ظل روابط وعلاقات بالغة التعقيد والثراء مع الهندوس هناك. وعلى امتداد التاريخ، اضطلع المسلمون بأدوار شديدة التنوع على

مسرح الأحداث بالهند : فهم تارة تجار مسلمون قاموا بنشر الإسلام فى الجنوب، وتارة غزاة فاتحون نزحوا من آسيا الوسطى نحو الشمال - إذ أنشأ المسلمون واحدة من كبريات "الحضارات الاندماجية" على مر التاريخ بين الإسلام والهندوسية، والتى تمخضت عن الإمبراطورية "الموغالية" العظيمة. ثم أضحى المسلمون، أخيرا، قلة منهزمة فى أعقاب تقسيم الهند عام ١٩٤٧ ... قلة توزعت بين باكستان (الحديثة آنذاك)، وبين الهند التى يحيون بها كأقلية يجرى التعامل معها على نحو تمييزى، ويعانى أفرادها اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية. وتمثل الهند، كذلك، أول تناول لنا لحد من "الحدود" غير المسيحية فى تعامله مع الإسلام.

وفقا لسيناريوهاتنا البديلة "لعالم بلا إسلام"، تبدو الملامح فى الحالة الهندية أقل وضوحا. فعلى جانب، كانت الأمور لتختلف اختلافا واضحا ما لم يكن ثمة إسلام : إذ كان العالم سيحرم من المزيج الحضارى المبهر فيما بين الهندوس

والمسلمين، والذى انتظمته الإمبراطورية الموغالية. وفى الوقت ذاته، لم تكن الصراعات الدينية المؤسفة بين الهندوس، والمسلمين، والسيخ لتحدث إذا لم يكن ثمة إسلام. لذا، وفى هذا السياق، فقد يكون السؤال الأكثر إثارة : هل كان الصراع بين الهندوس والمسلمين أمرا محتوما لا سبيل إلى تجنبه؟ وهل كان لذلك "الحد" من حدود الإسلام" وتخومه أن يكون دمويا بالضرورة؟ ما السبب وراء ما نحن عليه الآن، وكيف بلغنا تلك الحال؟ وهل يتعلق الأمر، حقيقة، بالعنصر الدينى؟ أم يمكننا أن نعزو جذور المشكلة إلى سياسات بريطانيا التى تخدم مصالحها الذاتية، والتى اتبعتها إبان حكمها الكولونيالى للهند؟

إن اللقاء الأول للإسلام والهند قد مثل حدا ثقافيا جديدا للمسلمين : إذ لم تكن الهندوسية مجرد ديانة قديمة مركبة تتسم بسعة الانتشار وتعدد الأوجه، بل كانت كذلك أول ديانة يلقاها الإسلام من حيث عدم ارتباطها بديانات الشرق الأوسط، و"أهل الكتاب". إذاً، فقد مثلت الهندوسية خبرة بالغة الاختلاف للمسلمين، لما اتسمت به من تعدد للآلهة، وغزارة فى التصاوير الدينية غير المألوفة، ومزيج مذهل من الرموز البشرية والحيوانية والعناصر الميثولوجية، وكذا الرسوم العارية وشبه العارية فى الفنون الدينية للكثير من الملل الهندية – فجماع ما سبق قد أدى إلى جعل الهندوسية "صادمة" على نحو يفوق أية ديانة أخرى يمكن أن يشهدها علماء المسلمين. إلا أن متطلبات الواقع سرعان ما أدت إلى إحداث توافقات، فنشأ تعايش مضطرب فيما بين الهندوس والمسلمين.

لذا، فليس من المستغرب أن نجد مدارس "تأويلية" مختلفة تناولت كامل الخبرة الإسلامية فى الهند. فالقوميات، جميعها، تذهب إلى قراءة التاريخ على نحو ارتجاعى، أى أن مؤرخيها يسبرون أغوار التاريخ للتنقيب عن أسانيد وبراهين يكون من شأنها دعم مزاعمهم القومية والإقليمية وتأييدها لليوم والغد. فوفقا للقوميين الهندوس، فإن الديانة الهندوسية لها جذور ممتدة ضاربة فى أعماق التربة الهندية على نحو لا يضاهى. لذا، فإن أية ديانة أخرى تسعى لاختراق تلك التربة،

إما أن يتم استيعابها أو ينظر إليها باعتبارها متطفلاً دخيلاً. لذا، ينظر إلى كل من المسيحية والإسلام وفقا للمنظور الأخير - وذلك على أساس سياسى وثقافى بأكثر من كونه على أساس دينى. ويسعى كل من الإسلام والمسيحية إلى استقطاب الهندوسية لما فيه صالح كل طرف منهما. إن حقيقة وجوب كونه الرمز العالمى للهند، والأكثر انتشارا اليوم، هو المعمار الإسلامى المثالى لتاج محل - لتثير استياء بالغا لدى القوميين الهندوس. إلا أن الهند بدون المزيج الحضارى الذى مثلته الإمبراطورية الموغالية كان لها أن تكون موضعا قفرا بلقعا يعانى تصحرا ثقافيا.

إن الوثائق الأكثر انفتاحا وليبرالية لهذا التاريخ ذاته لتزهو بالثمار الجنية للحضارة الهندوسية الإسلامية. إذ أثرت كل ثقافة فى الأخرى تأثيرا كبيرا فى مناح عدة بما يثبت القدرة الاستيعابية الإبداعية، وكذا المرونة التى يتمتعان بهما. بيد أن المسلمين الهنود، اليوم، قد أصبحوا أقلية محرومة داخل المجتمع الهندى الكبير الذى حكموه يوما، وأسهموا فى تشكيل بنيانه وقواعده. فقد جاء المسلمون إلى الهند من خارجها، ثم احتلوا صدارة المشهد، ثم أهبطوا إلى الدرك الأسفل، وأمسوا اليوم يتفكرون مليا بشأن وضعهم كأقلية فى ظل الأحوال الجديدة لدولة الهند الحديثة. ولعل ذلك المسار التاريخى المتنوع هو الذى أمد المسلمين الهنود برؤية ثاقبة بعيدة للإسلام فى مجتمع متعدد الثقافات، لا تدانيها رؤية أخرى على امتداد العالم بأسره.

إن المسلمين قد فتنوا بالهند لأسباب عدة: أولا، كونها واحدة من الأقاليم العديدة بجنوب وجنوبى شرق أسيا التى لم ينتشر بها الإسلام بحد السيف. إذ تم تعزيز العلاقات التجارية بين الملاحين العرب ممن مارسوا التجارة، وبين الساحل الجنوبى الغربى للهند قبل مجىء الإسلام بزمن كبير. ووفقا للوثائق الهندوسية، فإن أول نزوح فعلى للمسلمين باتجاه شبه القارة الهندية قد جرى فى أوائل القرن السابع الميلادى، واتخذ شكل الرحلات التجارية. ويذكر أنه قد جرى تأسيس أول مسجد بالهند فى كودونغالور، الواقعة حاليا بمقاطعة كيرلا، وذلك فى عام ٦١٢، فى

حياة النبى محمد.

ويرصد المؤرخون تمايزات بالغة ما بين طبيعة الإسلام فى شمال الهند، وطبيعته فى جنوبها. إذ جاء الإسلام ليدخل الهند مبكرا عبر الحدود الجنوبية، وذلك عن طريق التجارة والتبشير بالدين الجديد. أما الشمال، فقد دخل الإسلام هناك بعد عدة مئات من السنين كواحد من العديد من الغزاة –من آسيا الوسطى– الذين دخلوا الهند عبر الحدود الشمالية. ونتيجة لذلك، نجد صدى أوسع للتوترات ما بين المسلمين والهندوس فى شمال الهند مقارنة بجنوبه ... فالجنوب قد شهد اندماج المسلمين التدريجى ضمن نسيج الثقافة المحلية، مقارنة بالشمال الذى غزاه المسلمون بواسطة جيوشهم المكونة من مزيج من الفرس، والعرب، والأتراك، والمغول.

ولقد دخلت الجيوش العربية المسلمة شمال الهند فى ظل الخلافة الأموية بدمشق، وقامت بغزو السند، فى أقصى غرب شبه القارة الهندية. وفضلا عن ذلك، فقد جاءت الغزوات الحربية الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى. وأخيرا، قام القائد العظيم، بابور، ذو الأصول التركية المغولية والقادم من آسيا الوسطى، بتأسيس الإمبراطورية الموغالية، مع سقوط دلهى عام ١٥٢٦ . ولقد سيطر الموغال إبان أوج دولتهم على معظم الأراضى الهندية. إن الموغال أنفسهم قد مثلوا مزيجا من الثقافة التركية المغولية والثقافة الفارسية، وقد أدخلت اللغتان التركية والفارسية إلى الهند حيث كان لهما أثر كبير على الثقافة واللغة الهندية.

ووفقاً لما كتبه "ستيفن كوهين"، الباحث بمعهد بروكينغز :

بالرغم من اعتبار كل من الفاتحين اليونانيين، والهنغاريين، والشيثيين، والمسلمين شبه القارة الهندية على أنها امتداد لقواعد نفوذهم الخارجى، فقد انتهوا إلى النظر إلى العالم من خلال رؤية محورها الهند. لقد كانت القدرة الاستيعابية للمجتمع الهندى مذهلة على الدوام ... أما الإسلام فقد جلب تقنيات عسكرية جديدة

وأفكارا سياسية ودينية، بيد أنه لم يقم بتدمير الحضارة الهندية مثلما دمر ثقافة فارس ما قبل الإسلام. وأخيرا، فقد تم توحيد الهند على أيدى المغال وفقا لنظام إمبريالى. ووفقا للترتيبات الجديدة، فقد تأثر الإسلام كثيرا بالهندوسية بالقدر الذى فاجأ الإسلام الهندوسية وقام بتطويرها.

أما الإسلام الصوفى، بما له من طابع توفيقى، فقد نال استحسان العديد من الهندوس، وأسهم فى تخفيف وطأة التأثير الإسلامى. بيد أن رجال الدين المسلمين لم يخلصوا أبدا إلى اتفاق فيما بينهم بشأن كيفية التعامل مع الهندوسية، ومن ثم الهندوس. لقد أمضى العالم الموسوعى الفذ، البيرونى، بعض الوقت فى الهند فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ملاحظا ومراقبا المجتمع. وخلص البيرونى، فى النهاية، إلى أن الهندوسية، رغما عن اشتمالها على آلهة متعددة، كانت ديانة توحيدية بالأساس :

"يؤمن الهندوس بأن الرب واحد، أزلى، بلا ابتداء ولا انتهاء، يفعل كيفما شاء، شديد الطول، حكيم، محيي، مقتدر، حفيظ. كذلك، فالرب متفرد فى وحدانيته، قدوس، منزه عن التشبيه، ليس كمثله شيء".

ولكن ماذا عن "الآلهة" المتعددة التى يتعبد لها الهندوس؟ يؤمن البيرونى بأن عبادة تلك "الآلهة" تعكس، بالضرورة، الجهل الدينى للفئات الدنيا من المجتمع التى تتعلق بها، أما الهندوسية كمفهوم فلسفى رفيع راق فتشارك الإسلام منهجه التوحيدى. وبغض الطرف عما إذا اتفق المرء مع هذا التأويل أم لا- والذى يرفضه، بالتأكيد، أغلبية "العلماء" المسلمين - فإن ما خلص إليه البيرونى هو أمر صارخ وصادم خاصة حينما يصدر عن عالم مسلم مثله.

وبالنسبة لأغلبية "العلماء" المسلمين فى الهند، فإن إدراج الهندوس ضمن "أهل الكتاب" يبدو غاية ثيولوجية مستحيلة، ولكن إذا لم يكن الهندوس كذلك، فإنه يمكن أن يتم إجبارهم على اعتناق الإسلام. ولقد ذهبت الحماسة ببعض العلماء ممن

فرضوا اعتناق الإسلام بالقسر إلى القول بقتل الرافضين لاعتناقه. وتشير المصادر إلى أن معابد هندوسية قد تم تدميرها فى كثير من أرجاء الهند، فيما تم تحويل معابد أخرى لتصبح مساجد للمسلمين. ولعل الممارسة الأكثر شيوعا من استخدام العنف هى ما ورد عن أن الموغال قد قاموا برفع سعر الجزية المفروضة بغية الضغط على فقراء الهندوس للتحول إلى اعتناق الإسلام، والذى إن تم فسيؤدى إلى إعفائهم من دفع تلك الجزية. بل لقد تحول كثير من الهندوس ممن ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الدنيا إلى اعتناق الإسلام للانعتاق من ذلك النظام الطبقى الصارم، أو بغية الانضمام إلى النسق الثقافى الحاكم. ولكن لم يستطع الموغال، فى النهاية، إجبار الغالبية على التحول إلى اعتناق الإسلام، وقد كانوا أدركوا ذلك بالفعل، لذا فقد استقرت الأحوال وفقا لنوع من "التعايش البارد"، على الأقل من وجهة نظر "العلماء" المسلمين. ومن منطلق وظيفى، فقد أضحى الهندوس وكأنما هم من "أهل الكتاب"-- بصورة اسمية فقط – حتى ولو كان ذلك غير مسموح به، وغير متوافق مع مقتضيات الشريعة الإسلامية.

وعلى الجانب الآخر، فعلى حين كانت أعداد قليلة من المسلمين تذهب لزيارة المعابد الهندوسية، كانت أغلبية الهندوس تبتهج لزيارة المساجد والأبنية الدينية الإسلامية كتعبير عن التوفيقية الهندوسية، وإيمانها بعالمية الدين ووحدة الوجود. إن الهندوسية لا تسعى إلى اجتذاب متحولين لاعتناق عقيدتها – فهى نسق مغلق لا يسمح، بالأساس، بانضمام معتنقين جدد، فالمرء يجب أن يكون منتميا للنسق منذ مولده. فإذا ما رغب المرء فى اعتناق الهندوسية، يتعين عليه، على نحو وظيفى، الانضمام إلى طبقة اجتماعية بذاتها وجماعة بعينها. ولكن، إلى أية طبقة سيتم قبول المتحول للانتماء لها قانونيا إذا افتقر إلى جماعة أو روابط قرابة؟ فدون طبقة بعينها تلازم المرء منذ مولده، يترك المرء ليحيا فى غلالة اجتماعية هندوسية من النسيان. وقد حدثت اندماجات لم تكن متوقعة. فعلى الصعيد الرسمى، لا يرحب الإسلام مطلقا باندماج تقاليد دينية مخالفة به. إلا أن الهند كانت قد شهدت، على

الأقل، تجربة فريدة لاندماج الإسلام مع الهندوسية، وهى إحدى بنات أفكار العقل المبدع للإمبراطور "أكبر" العظيم (١٥٤٢–١٦٠٥)، وهو حفيد الإمبراطور بابور. ويعد "أكبر" أحد أهم الحكام الموغال على مدار أربعة قرون.

وقد كان "أكبر" مدركا لفوضى العقائد المتصارعة داخل الهند، بما فيها الإسلام (السنة، الشيعة، الإسماعيلية)، والطوائف العديدة بداخل المعتقد الهندوسى، واليانية، والزرادشتية، والمسيحية، واليهودية. كذلك، فقد كان يتسم بالتسامح، والافتتان بالدين والمناقشات الدائرة حوله، بالإضافة إلى حرصه على جمع معتنقى العقائد المختلفة للتباحث بشأن القضايا الثيولوجية والأخلاقية. وكنتيجة لتلاقح الآراء المختلفة، توصل "أكبر" إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد دين واحد له حق ادعاء احتكار الحقيقة بأكملها، لذلك فقد قام بخطوة ثورية لاستحداث دين جديد أطلق عليه "الدين الإلهى"، والذى مثل مزيجا من الإسلام، والهندوسية، والمعتقدات الفيداوية Vedic، إلى جانب بعض المعتقدات المستقاة من المسيحية واليهودية. وقد كان "أكبر" يأمل، من خلال انتشار "الدين الإلهى"، أن يصل إلى وحدة تنتظم الهند لا يعكر صفوها أى تباين أو اختلاف دينى – ضرب من الواحدية الدينية !!

لقد كان المسلمون، بالفعل، على دراية بالعقيدتين اليهودية والمسيحية اللتين سبقتا الإسلام. أما "الدين الإلهى" فقد اشتمل عناصر من الصوفية والفلسفة والأخلاقيات وتقديس الطبيعة، مع التشديد على التسامح وقبول التنوع الدينى. ولم يكن هذا "الدين الإلهى" يعترف بوجود إله أو أنبياء أو كتب مقدسة. إلا أن ذلك المزيج من الأفكار الوثنية قد أثار حفيظة معظم "العلماء المسلمين"، الذين رأوا الفكرة برمتها تجديفا وهرطقة، بالرغم من ضرورة كونهم حذرين بشأن ما اقترحه الإمبراطور. وفى النهاية، فإن "الدين الإلهى" لم يكن ليتجاوز أعتاب القصر الإمبراطورى، فقد كان غاية فى الغرابة مفتقرا إلى أدنى ركيزة اجتماعية أو ثقافية. إلا أنه كان يمثل رؤية مميزة لفكر مسكونى مبكر، كذلك فقد ظل الإمبراطور "أكبر"

حاضرا فى ذاكرة الهندوس، إلا أنه لم يلق استحسانا أو قبولا لدى أغلب علماء المسلمين.

فإذا كان ذلك "الانصهار" الدينى قد بدا مهما، فقد كان المعمار الموغالى فريدا وآسرا ... ذلك المعمار الذى كان مزيجا رائعا من الفن الهندوسى والإسلامى مع نكهة فارسية غالبة جعلته الملمح الأكثر شهرة وخلودا من آثار الإمبراطورية. إن الأبنية العامة الخالدة المنتمية للحقبة الموغالية تظل منارات فنية خالدة إلى يومنا هذا، لعل أشهرها "تاج محل" الذى حقق كمالا منقطع المثال، وإن نافسته فى ذلك مجموعة من القصور والقلاع والمساجد والمدارس، تم تشييدها فى الأغلب بواسطة الحجر الرملى الأحمر. وقد كان للطراز الموغالى تأثير واضح على العمارة الإسلامية على امتداد العالم، بل لقد تم تشييد عدد كبير من الأبنية العامة والخاصة وفقا لذلك الطراز المعمارى فى أنحاء بريطانيا - بما جاء معبراً عن حقبة حكم "الراج" أثناء الاحتلال البريطانى للهند.

كذلك، فقد كان للحقبة الموغالية آثار واضحة فى الشعر بما خلفته من أشعار عظيمة وخالدة، كذلك فقد أسست تلك الحقبة لقواعد الموسيقى الكلاسيكية الهندية. بل إن أشهر أطباق الطعام الهندى فى العالم تتبع نمط الطهو بشمالى الهند، وهو مزيج رائع للمطبخ الهندى التقليدى، ونمط الطهو الفارسى ... مزيج يعرف باسم "الطهو الموغالى". أما اللغتان الشقيقتان الهندية والأوردية فتمثلان تمازج الألسن الفارسية، والعربية، والتركية، ودمجها فى قاعدة نحوية خاصة بلسان الشمال الهندى، وتظل تانك اللغتان أبرز اللغات السائدة اليوم بشمالى الهند، وباكستان. وبعبارة موجزة، فإن الحضارة الهندية المعاصرة لا يمكن تخيلها بدون ذلك العنصر الموغالى. وبالرغم من ذلك، فلا يروق الأمر لعدد من القوميين الهندوس.

أما فيما يتعلق بالتمازج المشترك، فإن أحد التأثيرات الكبرى فى الإسلام يظل أقل ملاءمة ... ذلك هو النظام الطبقى الاجتماعى الهندوسى وأثره فى المسلمين

الهنود. فوفقا لذلك النظام، يولد المرء ليحتل مكانا محددا في السلم الطبقي طيلة حياته ... ولا يتغير ذلك الوضع الطبقي وفقا للاعتبارات الطقوسية والاجتماعية. إذ يجب ألا يمس أي فرد من أبناء الطبقة العليا أيا من المنبوذين (أفراد الطبقات الدنيا)، فإذا ما حدث ذلك توجب على الأول أن يتطهر من ذلك وفقا لمظاهر طقوسية. كذلك، فإن وضعية المرء في تلك التراتبية تحدد المدى الذي يسمح له بالتحرك خلاله فيما يخص الاعتبارات الوظيفية والاجتماعية. ولطول تعرضهم لذلك النظام الطبقي عبر فترات زمنية ممتدة، تشرب المسلمون بالهند بعض عناصره حيث أصبح المجتمع الإسلامي هناك ينقسم رسميا إلى طبقتين : الأشراف (أو النبلاء) والأجلاف (أو الأقل شأنا). وفيما مثل المسلمون في الهند نسبة قليلة للغاية من تعداد السكان حين غزا المسلمون شمال الهند للمرة الأولى، إلا أنه، وبمرور الوقت، أخذت أعداد متزايدة من الهندوس في اعتناق الاسلام، مع ما صاحبهم من بقايا اجتماعية لوضعهم الطبقي الأدنى. وقد بلغ المسلمون في الهند، وقت التقسيم (١٩٤٧) ما نسبته ١٤٪ من إجمالي تعداد السكان.

إلا أنه، ووفقا لمقتضيات الشرع الإسلامي، فإن أي نظام طبقي فيما بين المسلمين يعد مرفوضا بالارتكان إلى أي معيار ديني، إذ يعلن "القرآن" بجلاء أن معايير التمايز والتفاضل فيما بين البشر كافة هو التقوى. على أننا نشهد الأثر الثقافي والحضاري المتبادل نتيجة لتعايش الأديان جنبا إلى جنب في شبه القارة الهندية.

وينجم عن ذلك كله عدة مشاهدات وانطباعات مذهلة. أولا : لم يكن هناك أدنى احتكاك ملحوظ بين المسلمين وغيرهم حين دخل الإسلام جنوب الهند عبر التجار والمبشرين. فقد كان المسلمون في الجنوب متماثلين إثنيا مع جيرانهم من الهندوس. إلا أنه كانت ثمة تباينات إثنية في الشمال الممثل للنفوذ السياسي هناك. وبالأساس، فقد مثل المسلمون ذوو الأصول التركية الفارسية والنازحون من آسيا الوسطى غزاة من خارج الهند، حيث تم النظر إليهم باستياء من قبل أولئك الذين

أبعدوا عن مقاليد السلطة والنفوذ. وتكمن الظاهرة الثانية فى كيفية نجاح العقائد "غير المتوافقة" فى التعايش فيما بينها فى ظل ظروف التعاطى البشرى اليومى، بل وحتى تأثيرها المتبادل، ذلك على الرغم من وجود حالات من العنف بين تلك الطوائف الدينية. والأمر الثالث هو انبثاق ثقافة متمازجة اشتملت على خليط من الحضارات السائدة كانت آية فى البهاء والروعة لا تقل فى رونقها عن امتزاج الإسلام بالحضارة الفارسية فى إيران، كما لا تقل عن تزاوج العنصر الإسلامى التركى مع الحضارة البيزنطية فى الإمبراطورية العثمانية.

إذاً، فوفقاً لتلك الديناميكية الفائقة، والتى اشتملت على تلاقح إثنى خصيب بالإضافة إلى تأثيرات حضارية ودينية متبادلة ... فإن "الحدود الدموية" هنا تضحى غير ذات موضوع. فهل كان لفارس الزرادشتية أن تمتنع عن غزو الهند؟ وعلى أى نحو كان هذا الغزو ليختلف عن غزو المسلمين لها؟ هل كانت العناصر التركية غير المسلمة فى آسيا الوسطى لتحجم عن الانضمام لجماعات وعناصر أخرى لغزو الهند من جهة الشمال؟ ... من الجلى أن الإسلام لم يكن العنصر الحاسم فى ذلك كله.

التقسيم

المسلمون: أين هم اليوم؟

مع الانهيار التدريجى للإمبراطورية الموغالية، نتيجة الاعتداءات الإمبريالية البريطانية، أخذ النظام الموغالى يفقد نفوذه وسلطانه، مما أدى إلى تراجع تدريجى فى مكانة المسلمين بالهند. كذلك، فقد لمس البريطانيون قدرا من المقاومة لحكمهم لدى المسلمين يفوق نظيره لدى الهندوس، ومن ثم شروعهم فى إعطاء أفضلية وحظوة أكبر فى حكمهم ونظامهم للهندوس كونهم أكثر استجابة وألين عريكة.

ولقد كان المسلمون، بالفعل، ينشطون بفاعلية كبيرة فى العديد من مظاهر الاحتجاج والمقاومة ضد حكم "الراج" البريطانى، وخاصة دورهم المحورى فى

التمرد الهندى الكبير فى عام ١٨٥٧، حين تظاهر المجندون المسلمون فى الجيش البريطانى، وقاموا بأعمال شغب نتيجة الشائعة التى سرت ومفادها استخدام دهن الخنزير فى صنع ذخائر الطلقات الرصاصية لبنادقهم. وقد أعرب الهندوس، لاحقا، عن مقاومة مماثلة لتلك. وكان الاستياء السياسى والاجتماعى فى الهند المحتلة من قبل بريطانيا قد بلغ أشده بما يكفى لشرارة حادثة كتلك لإشعال ثورة قومية هناك. وفى وجه نفوذ الحكم البريطانى وسطوته، اتحد المسلمون والهندوس، عامة، للحد من وطأته وإن اختلف المنهج التكتيكى لتداول الأمر فيما بين الطرفين.

وفى حين أخذت القوة الإمبراطورية للموغالية فى الضمور تدريجيا وكذلك حين غزا البريطانيون الهند، وجد المسلمون أنفسهم أقلية بلا نفوذ داخل النظام السياسى الهندى فضلا عن نظرة البريطانيين المتشككة إزاءهم، والذين تساءل بعضهم فيما بينهم ما إذا كان المسلمون ثوريين بالفطرة ضد الحكم الأجنبى عامة. وباقتراب يوم التحرر الهندى من قبضة الحكم البريطانى فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، أصبح المسلمون قلقين للغاية بشأن الدفاع عن حقوقهم كأقلية فى الهند فيما بعد الاستقلال. وكان المسلمون يخشون أنه فى ظل نظام ديمقراطى صريح، يمكن أن يكون مآلهم أن يصيروا، وعلى الدوام، أقلية لا صوت لها. لذلك، فقد كانوا يفضلون شكلا أو صيغة لنظام كونفدرالى لا يكونون بمقتضاه على الدوام أقلية هامشية (وهو مأزق تقليدى يواجه جميع الأنظمة الديمقراطية، والتى نادرا ما تستطيع الأقليات فى ظلها تغيير النظام بالالتجاء إلى صناديق الاقتراع). وفضلا عن ذلك، لم يكن المسلمون بالهند وحدة متجانسة، وإنما كانوا منقسمين وفقا للطبقة الاجتماعية، وكذلك وفقا للاختلافات الإقليمية واللغوية.

وأخيرا، فلم يكن التقسيم الفعلى للهند إلى دولتين (الهند وباكستان) الهدف المفضل للمسلمين هناك. ولكن تحت ضغط الأحوال والظروف السائدة حينذاك، وكذا مخاوف الهندوس بشأن القيود التى قد يفرضها المسلمون على القوة المركزية

للهند المستقلة مستقبلا، بزغ "التقسيم" فجأة كخيار مناسب للأطراف كافة فى الهند.

إن الكثير من "العلماء" المسلمين فى الهند قد عارض تقسيم البلاد وإنشاء دولة إسلامية مستقلة جديدة (باكستان). كذلك، فقد ارتأوا، وقد حالفهم الصواب، أن المسلمين لن يرحلوا جميعا إلى باكستان، وأن هؤلاء المسلمين الذين سيبقون داخل الهند بعد الاستقلال سيصبحون أقلية (أدنى عدديا عما كانت قبل الاستقلال) تتلاعب بها الأغلبية الهندوسية ذات النفوذ. وعلى وجه التقريب، فقد عبر ١٤,٥ مليون مواطن الحدود المنشأة حديثا سواء إلى داخل الهند أو إلى خارجها خلال عملية التطهير العرقى تلك، والمدارة من قبل بريطانيا عام ١٩٤٧، والتى أطلق عليها لفظة "التقسيم". ولقد اتسمت تلك العملية بمظاهر عنف مروعة واسعة النطاق وذلك خلال انتقالات الأهالى عبر الحدود، وما صاحب ذلك من مجازر وحشية بين معتنقى المعتقدات الثلاثة السائدة : السيخية، والإسلام، والهندوسية. وقد كانت المحصلة أن المهاجرين الجدد - المسلمين بانتقالهم نحو باكستان، والسيخ والهندوس صوب الهند - قد عانوا الإيذاء والتنغيص أثناء تلك الرحلات، وأصبحوا فى عداد أكثر الأفراد غير المتسامحين دينيا فى كلا المجتمعين الجديدين. إذاً، فقد مثلت السياسة قنابل موقوتة جاهزة للانفجار فى كلتا الدولتين. وبطبيعة الحال، فإن الوضع بالنسبة للمسلمين الذين لم ينتقلوا إلى باكستان قد أصبح أكثر سوءا، فلم يقتصر الأمر على تقلصهم عدديا وفقدانهم لأى نفوذ سياسى، بل تعداه بأن أصبح ولاؤهم للدولة الهندوسية الجديدة موضع شك وريبة. وفى الحروب الثلاث، والتى ستنشب فيما بين باكستان والهند فى السنوات التى تلت ذلك، أصبح الهندوس ينظرون إلى المسلمين بالهند بأنهم لا يعتمد عليهم ولا يوثق بهم ... بل وصل الأمر إلى حد اعتبارهم "طابورا خامسا" محتملا.

أما فى كشمير، فقد كان الوضع مضطربا كذلك. لقد كانت كشمير مقاطعة ذات أغلبية مسلمة (٧٧٪ عام ١٩٤٧) وطابع تاريخى وإثنى مميز. ولقد وعدت

كشمير من قبل البريطانيين عام ١٩٤٧ الحق فى استفتاء شعبى يقضى بموجبه ما إذا كانت المقاطعة ستظل تابعة للهند أم ستئول تبعيتها لباكستان. ولكن تم النكث بالوعد، إذ كان من المؤكد أن الهند ستخسر المقاطعة ما إذا كان الاستفتاء الشعبى ليتم بحيدة ونزاهة. وإلى اليوم، فما زالت الأغلبية المسلمة بكشمير تتملكها مشاعر الغضب والاستياء، وما زالت تتظاهر من أجل حقها فى الاختيار. إن السلطات الهندية قد حكمت البلاد بقبضة فولاذية وأدارت كشمير برعونة وانعدام كياسة. فإلى جانب حروب ثلاث دارت رحاها بين باكستان والهند، في جانب منها حول كشمير المتنازع عليها ... تلك الحروب التى خسرتها باكستان جميعا - فإن ذلك "الملف" يتيح بيئة خصبة لكى تمارس باكستان ضغوطا على الهند من خلال الدعم المستتر الخفى للحركات الانفصالية الكشميرية المسلحة. ولا ريب فى أن تلك المعارك الممتدة فيما بين الطرفين تعمل على إفساد العلاقات بينهما حتى اليوم، فضلاً عن كونها مصدراً رئيسياً للإرهاب الإقليمى.

يشكل المسلمون ، اليوم، ١٣٪ من إجمالى تعداد السكان بالهند، على وجه التقريب. وللأسف، فإن الجماعة الإسلامية هناك قد أصابها التشرذم والانقسام. فمن جهة، تضغط العناصر الأكثر تشددا دينيا لإقامة مجتمع إسلامى منفصل ومستقل ذاتيا يمكنه العيش بمعزل عن الهندوس - وهو أمر محال لانتشار المسلمين إذ يتوزعون على جميع أرجاء البلاد ككل. ولقد أسهمت تلك السياسة التى تروج لهوية جماعية، مهما كانت العواقب، في زيادة عزلة المسلمين بالهند. ومن جهة أخرى، تسعى جماعات صغيرة من المسلمين لتجاوز مفهوم "الجمعية"، وتنادى بالاندماج فى الدولة الهندية "العلمانية". فوفقا لتلك الجماعات، فإن التماس "البعد الجمعى" واعتباره الملاذ الآمن هو ممارسة تنطوى على الشعور بالخوف وافتقاد الأمان، أما السعى للتكامل فى إطار صيغة "علمانية" فيعكس الشعور بالتفاؤل والثقة. وبالطبع، فلدى كل فريق ما يكفى من الحجج لإثبات صحة مذهبه ولدعم موقفه المتبنى.

على أن الخيار لا ينحصر فى أيدى المسلمين فحسب. إذ نشأت فيما مضى حركة قومية هندوسية قوية ذات طابع إثنى/دينى، واستهدفت العناصر غير الهندوسية، وبخاصة المسلمون، والذين تراهم الحركة حجر عثرة فى طريق إنشاء دولة دينية هندوسية. ولقد أثرت الحركة، وتدعى "حزب بهاراتيا جاناتا"، فى سياسات الهند القومية فيما مضى، وقد تكرر ذلك مستقبلا عن طريق النفاذ إلى العديد من حكومات الولايات الهندية والسيطرة عليها. ويعد العنف الممارس من قبل "القوميين الهندوس" تهديداً بالغاً لجماعة المسلمين فى الهند... والتى تحصرهم جميعا فى كيان مجتمعى شديد الانعزالية.

أما القومية الهندوسية فلا يمكن أن تنبنى إلا على أسس دينية، إذ لا توجد "إثنية هندوسية" فى حد ذاتها. فالهندوس ينحدرون من خلفيات إثنية ولغوية بالغة التنوع، كما الحال بالنسبة للمسلمين. وبخلاف الزعامات الهندوسية الأكثر ميلا نحو "العلمانية"، فإن "القوميين الهندوس" كانوا شديدى التأييد لتقسيم الهند عام ١٩٤٧، تحديدا لطرد المسلمين منها بما يكفل إنشاء دولة هندوسية. ولعل بعضا من استياء الهندوس من المسلمين، والسيخ، والمسيحيين وكراهيتهم لهم يجد أساسه فى أن مجرد وجود تلك الطوائف في الأراضى الهندية يستلزم الإبقاء على دولة هندية علمانية ذات تعددية ثقافية، وهو بعينه ما يسعى "القوميون الهندوس" إلى اجتثاث جذوره. وللمفارقة، فإن المسلمين، اليوم، هم الذين يؤيدون بشدة إنشاء دولة علمانية، وهو أمر لا يجد نظيرا فى أى من البلدان الإسلامية، فلكونهم أقلية، يدرك المسلمون تماما المنافع التى ستتحقق لهم جراء إنشاء "الدولة العلمانية" من الإبقاء على سمات ثقافتهم، ومجتمعهم، ومعتقدهم، والحفاظ عليها ضد أى تدخل رسمى من الدولة هندوسية المعتقد. وبصفة عامة، يشعر المسلمون فى الهند بأن ثقافتهم، وحضارتهم بالهند أكثر غنى وخصبا من تلك الخاصة بباكستان ... باكستان التى طالما اعتبرت هملا إقطاعيا لا يتسم إلا بموروث ثقافي هزيل. فالمآثر الثقافية والحضارية الكبرى للهند إبان الإمبراطورية الموغالية قد بقيت ضمن الأراضى

الهندية بعد التقسيم، ما عدا ما تعلق بمدينة "لاهور".

وفي تلك الأجواء، فإن الانتفاضات الجمعية لم تخب مطلقا. إذ أصبحت مدينة "أيوديا"، في الشمال الشرقي من الهند، بؤرة مثقلة ومشحونة بانفعالات كلا الطرفين. وتعد المدينة أحد المزارات المقدسة الستة لدى الهندوس، كما أنها تشتهر بسحر طبيعتها، وجمال معابدها الشامخة. ومنذ نحو تسعمائة عام، تم مهاجمة تلك المدينة ونهبها بواسطة قوات مسلمة قدمت من أفغانستان. أما بابور، مؤسس الإمبراطورية الموغالية، فيقال إنه أقام مسجدا هناك. وقد ادعى الهندوس، بعد ذلك بكثير، أن ذلك المسجد قد أقيم في موقع أحد المعابد الهندوسية (معبد راما)، ولو أن الدليل على ذلك لا يرقى لمرتبة اليقين. ولقد كان هذا الموقع هو الذي تم اختياره من قبل حزب "بهاراتيا جاناتا" عام ١٩٩٢، حين قررت أن تخلق تحديا هندوسيا صارخا ضد مفهوم الموغالية، والهند المسلمة. ففي أعقاب استعدادات وتنظيمات ممتدة، نظم الحزب مسيرات ضمت نحو ١٥٠ ألف هندوسي، تم تسليحهم بمعاول لمهاجمة مسجد "بابري" الذي تم تحطيمه إلى أشلاء صغيرة. وقد كانت رمزية الحدث هائلة لكلا الطرفين ... ذلك الحدث الذي أطلق موجات من الثأر المتبادل على امتداد الأراضي الهندية. وقد كان لهذا الحدث أصداء في "أيوديا" عام ٢٠٠٥، حيث أقدم خمسة مسلحين مسلمين على تفجير المقر المؤقت لمعبد راما الجديد في المكان الذي كان يشغله قديما، إلا أن الحادث قد أسفر فقط عن مقتل جميع أولئك المسلحين.

لقد أدت نشأة "شيف سينا"، الحزب القومي الهندوسي، ومقره بومباي - إلى زيادة استقطاب المشاعر الإثنية والدينية فيما بين الطرفين في ولاية ماهارشترا. ولقد استهدف الحزب، لكراهيته الشديد لهجرة هنود الجنوب لبومباي، المسلمين بصفة خاصة، والذين يبلغ تعدادهم نحو ١٥٪ من إجمالي سكان بومباي. كذلك، فقد تبنى الحزب قيما فوق قومية، ولغة خطابية بليغة، كما تخصص في تجنيد قاطعي الطرق بغرض ترهيب مسلمي الجوار وترويعهم، فيما استطاع، في الوقت

ذاته، إحكام قبضته على إدارة الحكم بالمدينة وتسييرها باقتدار ملحوظ. وفى عام ١٩٩٢، نشبت أعمال شغب عنيفة ضد المسلمين في بومباى، حيث قتل نحو ٩٠٠ شخص، أكثرهم من المسلمين الذين أُحرق أغلبهم أحياء. ولقد أسفرت تقارير لجنة التحقيقات الرسمية عن ضلوع "شيف سينا" فى التحريض على أعمال الشغب تلك. وفى آذار/مارس ١٩٩٣، وفى ردة فعل إزاء تلك الأحداث، تم تفجير ثلاث عشرة قنبلة فى بومباى أسفرت عن مقتل ٢٥٠ فرد. وقد أعزيت تلك التفجيرات إلى تنظيم يتبع المافيا الإسلامية. وبذا، فقد نشأت سلاسل متفرقة من العنف السجالى فى غير موضع من الأراضى الهندية.

وفى كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، وقع اعتداء وقح حين أقدم خمسة مسلحين مسلمين على مهاجمة مبنى البرلمان الهندى فى نيودلهى فى رابعة النهار. وللطف الأقدار، اقتصرت الوفيات على أفراد الحراسة وجميع المسلحين. بيد أن الصدمة القومية التى أحدثها هذا الاعتداء على رمز كبير له دلالته كالبرلمان، كانت هائلة. ولقد ذكرت السلطات الهندية، بعيد التعرف على مرتكبى الحادث، أنهم ينتمون إلى "جيش الراشدين" و"جيش محمد"، وهى جماعات تتخذ من باكستان مقرا لها ... جماعات تلقت دعما باكستانيا طيلة السنوات السابقة لتنفيذ عمليات بعينها فى كشمير.

أما عام ٢٠٠٢، فقد شهد أعمال شغب عنيفة ضد المسلمين فى ولاية "غوجارات"، كانت مروعة على نحو خاص حيث لقى نحو من ألفى مسلم حتفهم أثناء تلك الأعمال. فوفقاً "للجارديان" البريطانية :

فى ولاية "غوجارات" الهندية، ووفقا لمسح محلى، تم تدمير ٢٣٠ أثراً إسلامياً فريداً وتخريبها، احتوت مسجداً بالغ الروعة بنى منذ أربعمائة عام وذلك خلال أعمال الشغب الأخيرة ضد المسلمين هناك. وقد ذكر المختصون أن التدمير كان واسع النطاق بحيث يضاهى الحدث الأكثر شهرة لتدمير "الباميان" البوذية فى

أفغانستان، أو تحطيم معابد البوذيين فى جبال التيبت على أيدى الحرس الأحمر. وفى انتهاكات على الجانب المقابل، عمد الغوغائيون الهندوس إلى تدمير واجهات المساجد، وإلقاء الأحجار لتحطيم الزخارف والنقوش الفارسية، وإضرام النيران وإحراق نسخ أثرية من "المصاحف القرآنية" ... "لقد كان هذا سعيا حثيثا منظما لمحو حضارة برمتها وإزالتها"، كما ذكرت السيدة/تيستا سيتالفاد - مؤسسة الكيان المعارض للكفاح والصراع الجمعى، والذى حمل اسمها، والقائم على جمع ما تعلق بتلك الانتهاكات.

لذا، يجب النظر إلى الاعتداء الإرهابى المروع للجهاديين الإسلاميين فى بومباى فى كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨ باعتباره إحدى حلقات سلسلة ممتدة : فقد حصد ذلك الاعتداء، بلا تمييز، نحو ألفين من الأرواح على نحو عشوائى، فى هجمات متعددة على بعض الأماكن العامة والفنادق الكبرى - وهو من نوعية الأحداث التى أدت إلى هجمات مضادة بحق المسلمين فى الهند، بالرغم من كونها قد بدت وكأن لم تكن يد ضالعة بها. وترسخ تلك الحوادث جميعها عدم شعور المسلمين، جمعيا، بالأمان، وتقود إلى جعل الهوية الإسلامية فى حالة من الترقب والدفاعية، والتى أضحت سمة للمجتمعات المسلمة على امتداد معظم أرجاء العالم الإسلامى.

وفى دراسة عن "التوترات الجمعية" فى الهند أجرتها مكتبة الكونجرس الأمريكى عام ١٩٩٥، أعزيت معظم أعمال العنف الجمعية هناك، لا إلى "العداءات التاريخية"، ولا إلى الأصولية الدينية، على نحو كبير، وإنما إلى تضافر المشكلات السوسيواقتصادية، واستراتيجيات وتكتيكات الساسة الهنود غير المسئولة من عام ١٩٨٠ . كما أوضحت تلك الدراسة الطابع المقلق للتحضر متنامى الوتيرة، وما يحدثه من عدم استقرار، وكذلك التنافس المتزايد بين الجماعات المختلفة لتوفير متطلبات المعيشة. وفضلا عن ذلك، فقد حددت الدراسة التغيرات التى طرأت على مسيرة العملية السياسية فى الهند، والتى أفضت إلى استغلال السياسيين

للمشاعر الدينية على نحو خطير، والانحياز الشوفيني لطبقة الهندوس ذات الأغلبية العددية ... كل ذلك من أجل مكاسب انتخابية قصيرة الأجل. ولقد أسهمت أعمال العنف التى قادتها الجماعات الإسلامية من حرب العصابات فى كشمير، والعنف الذى قاده السيخ فى إقليم "البنجاب" – فى شعور الأغلبية الهندوسية بأن "الأقليات الدينية تعمد إلى توظيف التكتيكات العدوانية للحصول على امتيازات خاصة من الحكومة". وخلصت الدراسة إلى أن "استغلال الساسة والمجرمين للتوترات الدينية فى الهند قد أبرز بجلاء المدى الذى أضحت بمقتضاه المشاعر الدينية هناك وسيلة للمناورة والضغط".

وقد أشارت مجلة "تايم" الأمريكية، فى تغطية خاصة لها عام ٢٠٠٣ عن أعمال الشغب فى الهند، إلى الصدع الكبير والتباين السافر فيما بين الهندوس والمسلمين هناك. فوفقا لمعيار "العنف" فحسب، نجد :

المسلمين فى الهند أكثر عرضة لأن يكونوا ضحايا الهجمات والاعتداءات العنيفة، وذلك مقارنة بالهندوس. ففى جميع أعمال الشغب "الجمعية" منذ الاستقلال، كشفت السجلات الرسمية للشرطة الهندية عن أن ثلاثة أرباع الأرواح المزهقة والممتلكات المدمرة كانت من نصيب المسلمين ... وهى النسبة التى قفزت إلى ٨٥٪ خلال أعمال الشغب فى ولاية "غوجارات" عام ٢٠٠٢ .

إلا أنه فى أعمال الشغب التى قادتها الأغلبية الهندوسية (اعتبارا من عام ٢٠٠٣)، والتى أسفرت عن ستة آلاف قتيل، على وجه التقريب، لم تتم محاكمة أولئك المسئولين عن حوادث الاغتصاب، وإحراق الممتلكات، والقتل إلا فيما ندر. على أن التأييد الضمنى للحكومة الهندية، على الصعيدين المحلى والقومى، فى ظل حزب "بهاراتيا جاناتا" – لأعمال العنف من قبل الهندوس هو ظاهرة يصعب إخفاؤها.

كذاك أشارت مجلة "تايم" إلى أن ٤٠٪ من المسلمين فى المدن الهندية يقبعون فى الشريحة الدنيا للدخول بالمقارنة بـ ٢٢٪ من الهندوس. وبالرغم من أن المسلمين

يشكلون ١٣٪ من إجمالى تعداد السكان بالهند، إلا أنهم يشغلون فقط ٣٪ من إجمالى الوظائف الحكومية، بل وتقل النسبة لمن يتم تشغيلهم بواسطة الهندوس فى القطاع الخاص. ويبلغ معدل الأمية بين المسلمين فى المدن الهندية نحوا من ٣٠٪ بالمقارنة بـ ١٩٪ فى صفوف الهندوس. وقد أورد رئيس أحد الأحزاب الهندوسية المعتدلة تعليقا جاء فيه : "هناك اتجاه سائد فى الهند للنظر إلى المسلمين وفق صيغة "هم"، لا وفق صيغة "نحن". وبالطبع، فإن لهذا الاتجاه عواقب وخيمة. وإلى اليوم، وعلى وجه العموم، لم يتم السماح لمسلمى الهند بالانخراط فيما نطلق عليه "التيار السائد" فى بلادنا".

إن انبثاق القوميات فى الهند هو، بالفعل، محرك معاصر للعديد من القوى المتفاعلة آنيا : ردات الفعل المناهضة للكولونيالية، الاتجاه "الوطنى" والشعور "القومى"، التمايزات الإثنية والطبقية والإقليمية، إلى جانب التنافس الاقتصادى. وتظهر الأحداث المضطربة التى خيمت على مجريات التاريخ المعاصر فى الهند – مدى قبح القوى المحركة للنعرات القومية ورداءتها حتى فى ظل نظام ديمقراطى.

إلا أن الخبرة التاريخية للمسلمين فى الهند تسفر بجلاء عن التعايش المثمر الذى تقاسم بمقتضاه الطرفان المسلم والهندوسى إثراء أحدهما للآخر. فالحضارتان، الآن، مترابطتان ارتباطاً وثيقاً، كذلك فلا يستقيم الحديث عن وجود "حدود حضارية" فيما بينهما، وينحصر خيارهما فى إيجاد صيغ جديدة للتعايش المشترك فى ظل الدولة الهندية. ففى هذا الإطار، أسهم الإسلام، بفاعلية، فى التأثير الكبير فى مجريات المسار التاريخى فى الهند، وذلك، بالأساس، من خلال التكامل، والاندماج، والانصهار فى المجتمع. فالمسلمون، فى الهند، ليسوا كلا متجانسا، فهم متفاوتون تفاوتا ملحوظا، كذلك فهم موزعون على أرجاء شبه القارة الهندية. ولكن، وللمفارقة، فإن الإسلام يمثل الآن تجسيدا لمشاعر الاستياء لدى الأغلبية الهندوسية بشأن العديد من القضايا التى لا تمس "الدين"، فى جوهره، من قريب أو بعيد، بل تجد جذورها فى الصراعات "الجمعية" المتنوعة من أجل امتلاك

مقاليد السلطة والهيمنة. ووفقا لهذا السياق، فإن المسلمين هم مجرد جماعة واحدة من بين العديد من الجماعات التى ينتظمها الفكر "الجمعى"، والتى تتنافس فيما بينها فى ظل مناخ من العنف والتشاحن. فالدور الذى تضطلع به باكستان، بهويتها القومية غير المستقرة، ومخاوفها الجيوبوليتيكية القلقة، وضلوعها فى أحداث كشمير وأفغانستان - يعمل على زيادة حدة المشكلة. وبالطبع، فسيكون أحد المشاهد المأساوية، فى عصرنا الراهن، أن نرى قيام القوى ضيقة الأفق المنتمية لجميع الفصائل المتناحرة بتمزيق أواصر تلك الفسيفساء الحضارية والثقافية شديدة التداخل، وتقطيعها إرباً.

ويبقى السؤال المنطقى : هل إذا لم يكن ثمة حكم بريطانى للهند باعتبارها إحدى المستعمرات التابعة للتاج، أكان من المحتم أن نشهد تقسيما للهند على النحو الذى جرى؟ وهل ما إذا استشرت عوامل الضعف فى جسد الإمبراطورية الموغالية، على نحو تدريجى من ولاية هندية إلى أخرى، أكان للهندوس والمسلمين أن يقوموا بتجربة بعض الاقترابات غير الناجعة لصالحهم، والإبقاء على مفهوم "الهند الموحدة" كهدف مشترك، ولو على أساس فيدرالى؟ ... يبدو ذلك أمرا محتمل الحدوث. كذلك، يبدو من غير المحتمل أن يكون ثمة تفكير فى ميكانيزمات للتقسيم، أو تنفيذ ذلك الأمر بواسطة الهندوس والمسلمين بمفردهم، فقد استدعى ذلك تدخل قوة إمبريالية كبرى ذات سلطات كاسحة لإنجاز ذلك التقسيم على أرض الواقع. ويبدو أن السيطرة الإمبريالية البريطانية على الهند على امتداد عدة مئات من السنين - وليس "الإسلام" بحد ذاته - هى المفتاح للإجابة عن أسباب إجراء ذلك التقسيم "النكد"، وغير الضرورى ودوافعه... والذى ظل "عقيما"، وعاجزا عن الإتيان بأية حلول على وجه الإطلاق.

الفصل الحادى عشر

الإسلام والصين

قلة فى الغرب هى التى تدرك الروابط الوثيقة ما بين الإسلام والصين. إن الصين تأتى فى صدارة الدول التى تضم أعدادا كبيرة من المسلمين : فعلى امتداد أرجاء البلاد يتوزع نحو عشرين مليون مسلم – وهو عدد يفوق نظيره فى العديد من الدول العربية. على أنه توجد اختلافات واضحة فيما بين هؤلاء المسلمين. فنصف عدد المسلمين الصينيين، على وجه التقريب، ينتمون إثنيا إلى "الهان"، تتخللها بعض الدماء العربية والفارسية تجد جذورها فى هجرات المسلمين الأوائل إلى الصين. ويشار إليهم بأنهم "هوى" أو "هوى–هوى".

ويتحدث هؤلاء اللغة الصينية فحسب، ويتطابق نمط حياتهم اليومى مع الصينيين من "الهان"، عدا القليل من التمايزات الثقافية التى تنشأ من كونهم مسلمين. وبمرور الزمن، تمازجت عناصر "الهان" مع العناصر الإسلامية وفق طرائق مذهلة ونشأ بينهما نوع من التعايش السلمى فى إطار الثقافة الصينية الأرحب. أما النصف الآخر من مسلمى الصين فينتمون إثنيا ولغويا إلى عنصر مغاير - فمعظم هؤلاء من أصول تركية. ويعيش "الأوغور"، كما يطلق عليهم، فى أقصى غربى البلاد ويمثلون الجماعة "التركية" الأكبر على الإطلاق. وبينما نجد "الهان" المسلمين تتقاطع حياتهم، فى مجملها، مع نمط الحياة السائد فى الصين، فإن "الأوغور" بخلاف ذلك. وتنظر السلطات الصينية بارتياب إلى أولئك "الأوغور" وتعاملهم بقسوة، مشددة على الطابع الإثنى الذى يسم المشكلة بالأساس، والتى يتم تضخيمها بفعل اعتناقهم للإسلام وتمسكهم به كعقيدة لهم.

وفى الحالة الصينية، فإن الصورة الشائعة عن انتشار الإسلام بالسيف لا تجد أساسا لها. فوفقا للوثائق الصينية، بلغ الإسلام مشارف الصين فى وقت مبكر للغاية، عام ٦٥١، بعد ثمانية عشر عاما فقط من وفاة النبى محمد، وذلك عن طريق البحر إلى "كانتون" بواسطة مبعوث من قبل الخليفة "عمر بن الخطاب". وهناك حديث يعزى إلى النبى محمد يقول : "اطلبوا العلم ولو فى الصين". ووفقا للتقاليد الإسلامية، أمر الإمبراطور الصينى إبان حكم سلالة "تانغ" بإنشاء مسجد فى "كانتون" هو الأول فى الصين ... ذلك المسجد الذى ما يزال قائما إلى اليوم. وقد أمن الإمبراطور بأن الإسلام يتوافق كثيرا مع التعاليم الكونفوشيوسية، كما عمل على منح التجار العرب والفرس حقوقا لإرساء قواعد الاستقرار الأولى داخل المجتمع الصينى. لذا، فقد كانت أولى اللقاءات الصينية بالإسلام فى "كانتون" سلمية ومثمرة. ولقد تم منح المسلمين موضعا فى المجتمع الصينى، حيث عرفت

مهاراتهم وعلاقاتهم التجارية منذ تجار مرحلة ما قبل ظهور الإسلام. وسرعان ما أدركت الصين المهارات البحرية الفائقة التى كان المسلمون يتمتعون بها، والمكاسب المحتمل أن تتحصل عليها الصين ببسط نفوذها وفرض سيطرتها. ونتيجة لذلك، سرعان ما أصبح المسلمون مسيطرين على عمليات الصادرات والواردات الخاصة بالصين خلال فترة حكم سلالة "سونغ" (٩٦٠-١٢٧٩)، ولقد كان منصب المدير والقائد المسئول عن الملاحة يتم شغله، على الدوام، بواسطة أحد المسلمين.

إلا أنه بعيدا، وعلى الحدود الشمالية الغربية للصين، كانت هناك مواجهة مختلفة تماما بين الصين والإسلام كانت لها عواقب جيوبوليتيكية عميقة الغور وبعيدة المدى. ذلك أنه فى أثناء حكم سلالة "تانغ"، انحدرت القوات الصينية غربا صوب آسيا الوسطى، حيث واجهت الجيوش العربية للخلافة العباسية فى عام ٧٥١ عند نهر طلاس (ويقع الآن ضمن حدود دولة قيرغزستان". ولقد أسفرت المواجهة عن هزيمة القوات الصينية على أيدى العرب، وهو الحدث الذى وضع حدا للتوسع الصينى باتجاه آسيا الوسطى. ويرى الكثيرون أن معركة نهر طلاس تعد نقطة تحول حاسمة على الصعيدين الاستراتيجى والحضارى : إذ حالت دون سقوط آسيا الوسطى فى قبضة الحكم الصينى، والأمر الأهم هو أن أعدادا متزايدة من القبائل التركية أخذت فى اعتناق الإسلام، وهو حدث كان له تأثير لا يمكن محوه فى هجراتهم عبر قرون طوال حاملين معهم دينهم الجديد إلى كل من حوض البحر المتوسط والأناضول من أعمال الإمبراطورية البيزنطية.

وبمرور الوقت، أضحى المسلمون أكثر اندماجا فى إدارة شئون الإمبراطورية الصينية : فخلال حكم سلالة (يوان) المغولية (١٢٧١-١٣٦٨)، استعان المغول بالمسلمين لتوطيد أركان العلاقات التجارية مع الغرب. أما القوات المغولية، والتى توغلت عميقا نحو الغرب حتى حدود دمشق، فقد قامت بجمع الآلاف من العرب والفرس وأتراك آسيا الوسطى، وإرسالهم إلى الصين للمساعدة فى إدارة شئون الإمبراطورية - فيما يتعلق بالأمور المالية والضريبية، والأعمال الفلكية ووضع

التقاويم، وفي بناء عاصمة جديدة في بكين. وقد كان ذلك بداية لأول تدفق جدي من دماء أتراك آسيا الوسطى نحو الصين لإحداث التوازن مع الإثنيات العربية والفارسية للمسلمين الأوائل. وقد عهد إلى المسلمين بالأعمال المرتبطة بالإدارة والحكم، وأضحى الكثير منهم مندمجا تماما في الثقافة الصينية، الأمر الذي أسهم في تكوين الأعراق المختلفة "للهوى".

أما فترة حكم سلالة "مينغ" بالصين (١٣٦٨-١٦٤٤)، فقد كانت فترة مثمرة وخصبة للمسلمين. إذ بعد أن كان ينظر إليهم باعتبارهم تجاراً من العرب والفرس الدخلاء، شهدت تلك الفترة اندماج المسلمين "الهوى"، بحق، في الثقافة الصينية، وحملهم أسماء صينية. وقد أقام "الهوى" مراكز كبرى لتعليم المسلمين في "نانجينغ"، وكانت اللغتان العربية والفارسية هما اللغتين الثقافيتين لتعلم الإسلام. كذلك، فقد زادت معدلات زواج المسلمين بالصين من أتباع المعتقدات الأخرى، وبذا، فقد ذاب طابعهم "الدخيل"، وأصبح مظهرهم الخارجي مشابها لسواهم. وليس لدى "الهوى" "ما يجمعهم من لغة مستقلة أو أراض إقليمية بعينها، أو نمط معين للحياة الاقتصادية، بالرغم من اشتهارهم بميلهم الفطري نحو التعامل التجاري في الأسواق بمهارة واقتدار". فالشيء الوحيد المشترك بين أبناء "الهوى" هو الإسلام وممارساته. وبسبب وجود الإسلام المبكر في الأراضي الصينية، فقد تم اعتباره أحد الأديان الرسمية للإمبراطورية إلى اليوم. وبمرور الزمن، أصبح "الهوى" أكثر تآلفا، كما أصبحوا موضع ثقة السلالات المتعاقبة للحكام الصينيين نظرا لانتمائهم، بالأساس، إلى ثقافة "الهان"، واندماجهم المتزايد في المجتمع الصيني، وذلك على خلاف الأقليات المسلمة الأخرى ذات الإثنيات المغايرة بما تتسم به من نزعة مقاومة ضد الذوبان في ثقافة "الهان" ... تلك النزعة التي ما زالت مستمرة إلى اليوم.

وخلال أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، تمت أبرز المغامرات البحرية في تاريخ الصين على يد الأدميرال "زينغ هي"، وهو صيني مسلم تم إرساله من قبل الإمبراطور عبر سلسلة اشتملت على سبع رحلات بطول المحيط الهندي، حيث عاد

إلى الصين بوعى وإدراك بالممالك الإسلامية وحضاراتها ... تلك القابعة إلى الغرب من الإمبراطورية الصينية.

التأثيرات الثقافية المتبادلة

كما فى روسيا والهند، فقد أحرز الإسلام درجة عالية من التواؤم مع الحضارة والثقافة بالصين. وفى الصين، كما فى غيرها من بلدان العالم، انبثقت بعض حركات التجديد الإسلامى المؤقتة، والتى هدفت إلى العودة بالإيمان إلى منابعه الأصيلة، وإزالة أية أفكار غير إسلامية دخيلة وفدت على صعيد الفكر والممارسة، فضلا عن إيلاء الاهتمام بمبادئ وأساسيات الدين الإسلامى. وقد أثر هذان الاتجاهان المتضادان - استيعاب الجديد من الأفكار، ورفض أى إبداع أو تطوير - على الإسلام فى الصين.

إن المفكرين الإسلاميين فى الصين قد راعهم، فى وقت مبكر، ذلك الكم الضخم من الأفكار الفلسفية الصينية، والتى كانت قائمة بالفعل لدى دخول الإسلام للصين. وكما أوضح المؤرخ "جوناثان ليبمان" :

"يبدو أن تأثير الأفكار الكونفوشيوسية ونفاذها إلى الإسلام فى الصين قد أمد الإسلام فى أخريات حكم سلالة "مينغ"، وبدايات حكم سلالة "كينغ" - والذى كان مهددا بالأفول - بدفقة من دماء جديدة وقدر من الحيوية ... وقد انبثقت جماعة من الإسلاميين الصينيين، عمدت إلى استخدام اللغة والأفكار الكونفوشيوسية بمنهاجية لدراسة، وترتيب، وإيجاز ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية. وقد قام أفراد تلك الجماعة بتأسيس نسق ثقافى إسلامى صينى متكامل، وكتابة مجموعة من الأعمال الإسلامية باللغة الصينية، ووفقا للأسلوب الصينى الفريد. وقد أطلق المسلمون بالصين على تلك الأعمال لفظة "هان كتاب" أو "ديوان الهان". وكان لتلك الأعمال تأثير جلى على المجتمع الصينى المسلم".

وفى الصين، تم بناء المساجد، جميعها، وفقا للطراز الصينى التقليدى الذى

بنيت المعابد والهياكل وفقا له. كذلك، فقد أبدع "الهوى" حروفا عربية/صينية فريدة للتمكن من قراءة اللغة الصينية وكتابتها بأحرف عربية. أما الباحثون المسلمون الراغبون فى بعض التوائم فيما بين الثقافتين الإسلامية والصينية، فقد وجدوا، بالفعل، تلك المواءمة الفلسفية فى الكونفوشيوسية. وقد عمد "يوسف ما دكسن"، أحد أهم الباحثين المسلمين بالصين، إلى إيجاد تآلف وتناغم فيما بين الإسلام والكونفوشيوسية. وقد ولد "دكسن" فى مقاطعة يون نان" فى الجنوب الغربى من الصين، وقام برحلة الحج فى عام ١٨٤١، حيث مكث لمدة ثمانية أعوام فى إقليم الشرق الأوسط، ودرس بالأزهر فى مصر، وقام برحلات واسعة فى أرجاء الإمبراطورية العثمانية، بما فى ذلك أورشليم. كذلك، كان "دكسن" على دراية واسعة ومعرفة عميقة بكل من اللغتين العربية والفارسية، وكان أول من ترجم معانى "القرآن" إلى اللغة الصينية. كما حمل "دكسن" أيضا إلى الصين أحدث تيارات الفكر الإسلامى والسياسى السائدة، آنذاك، فى الشرق الأوسط.

إن تحلق المسلمين حول الكونفوشيوسية قد يبدو، للوهلة الأولى، غريبا لما لها من طابع علمانى صريح، وتشديدها على العنصر الفلسفى لا على الآفاق الدينية السامية. بيد أنه، ولما كانت الكونفوشيوسية تطرح إطارا من الأخلاق والقيم، فقد بدت أقل تحديا للإسلام على الصعيد الثيولوجى. كذلك، فالكونفوشيوسية هى أكثر العقائد والديانات ذات النزعة "الصينية"، وهو الأمر الذى يصب فى صالح المسلمين لإقناع القائمين على تسيير أمور الإمبراطورية إبان حكم سلالة "كينغ"، والتى اشتهرت بالتشكك فى المسلمين وقمعهم ومراقبتهم، - بالعناصر التوافقية المشتركة بين الإسلام والكونفوشيوسية... بإظهار حرصها على استتباب النظام، وتحقيق العدالة، ومتطلبات الحكم الجيد، وتأييد الإمبراطور ومؤازرته.

وقد آمن بعض المسلمين بأنه من الممكن اعتبار الكونفوشيوسية مدخلا لنشر الدين الإسلامى بين صفوف الصينيين. إلا أن التوائم التام فيما بين العقيدتين كان على الدوام تحديا كبيرا، خاصة وأن العقيدة الإسلامية، فى مجملها، تتجاوز

المنظور الدنيوى غير التوحيدى الذى ينطوى عليه الفكر الكونفوشيوسى. كذلك، فإن الثقافة الصينية بنزعتها الإثنية المركزية الغالبة تجعل من الصعوبة بمكان تقبل أن تكون "مكة"، تلك النائية ذات البعد الغرائبى، قبلة ومركزا للإيمان لدى المسلمين، فى حين ترفض الملل الإبراهيمية الثلاث برسالاتها، وما تنطوى عليه من عناصر إيمانية قبول ذلك المعتقد الصينى شديد التبسيط. لذا، فلم ينجح المسلمون فى اجتذاب معتنقين جدد للإسلام من بين صفوف "الهان" الصينيين. أما البوذية، فكانت تحديا أكبر واجهه المسلمون حين سعوا إلى التعرف إليها ومحاولة تفهم أهدافها، ذلك لأصولها الهندية، وعدم انبثاقها من التربة الصينية، واتسامها بالتجريد الشديد والغيبيات المفرطة، وطابعها غير التوحيدى الذى اصطدم بمشاعر المسلمين.

حكم سلالة «كينغ» (١٦٤٤-١٩١١)

إن حكم سلالة "كينغ" للصين قد جاء ليكون نقطة تحول فارقة بالنسبة للمسلمين هناك، لعلها أسوأ فترات التاريخ الصينى على الإطلاق من وجهة نظر المسلمين حتى بدايات ثورة "ماو تسى دونج". فقد عمدت تلك السلالة المنتمية إثنيا "للمانشو" (الألطائية) لا "للهان" - أن تكون عدائية النزعة تكيل بمكيالين وتنحاز ضد مصلحة المسلمين، كذلك لم تكن تلك السلالة تركن إلى الأجانب لتشككها فيهم، مع عدم إيلاء "الهوى" أية مصداقية أو ثقة. وقد قامت سلالة "كينغ" بحظر بناء أى مسجد جديد فى الصين، كما منعت أية رحلة للحج "لمكة"، مما أدى، على الفور، إلى شعور المسلمين بالغربة جراء تلك الإجراءات. وقد أدت النزعة التمييزية ضد المسلمين، والتى اتسمت بها تلك السلالة -إلى جانب أفول نجمها تدريجيا- إلى انتفاضتين كبيرتين من قبل مسلمى الصين : الأولى هى ثورة "بانثاى" (١٨٥٥-١٨٧٣) فى مقاطعة "يون نان" فى الجنوب الغربى من البلاد، والثانية هى ثورة "دنغان" (الهوى) (١٨٦٢-١٨٧٧) فى الشمال الغربى منها. وفى أثناء هاتين الثورتين، لقى عدة ملايين حتفهم نتيجة لجوء السياسات الحكومية إلى القيام بمذابح وإبادات جماعية. وفى أثناء تلك الفترات التى اتسمت بالدموية، نزح الكثير

من "الهوى" إلى أسيا الوسطى، وتحديدا إلى الجزء الروسى بها، وكان يطلق على هؤلاء "الدنغان" ... وما زالوا يمثلون أقلية بارزة تحتفظ بعلاقات مع الصين. ولم تكن الثورات ضد حكم سلالة "كينغ" حكرا على المسلمين، بل كان هناك فوضى وثورات وقلاقل على امتداد كامل الأراضى الصينية حين أخذت شمس تلك "السلالة" تأذن بالمغيب. وهنا تبقى خلاصة مهمة مفادها أن المسلمين فى الصين، كما فى روسيا، لم يقوموا بالثورة إلا حين ووجهوا بأمور وأحوال مهولة كتلك التى مثلها القمع الصينى إبان حكم سلالة "كينغ"، وكذلك ما جاءت لتمثله الأحزاب الشيوعية فى كل من روسيا والصين لاحقا.

إن الصوفية – تلك القوة الإسلامية الفائقة التى تعمل على مد جسور التواصل والحوار فيما بين الأديان بتشديدها على الجوانب الروحانية السامية – قد دخلت الصين عن طريق أسيا الوسطى، والتى نشأت بدورها فى التخوم الغربية (العالم الإسلامى الواقع فى إقليم الشرق الأوسط). وقد استطاعت أعداد قليلة، وإن كانت هامة، من المسلمين الصينيين الارتحال إلى مصر، وشبه الجزيرة العربية، والإمبراطورية العثمانية، ونواح أخرى لدراسة الإسلام فى وقت كان إقليم الشرق الأوسط ذاته يشهد ميلاد عدد من الحركات التجديدية. ولقد نقلت تلك الأفكار الجديدة، والمعروفة "بالتعاليم الجديدة" – إلى الصين لمواجهة الأنماط الإسلامية التقليدية شبه المتحجرة هناك. ولقد مثل الضغط الذى أحدثته "التعاليم الجديدة" تجديدا ثقافيا عمل على إحداث التواصل بين العناصر المتنائية فى العالم الإسلامى، إذ سعى باحثون جدد إلى تقريب الممارسات الإسلامية فى الصين لتتطابق قدر الإمكان مع الفكر السائد فى قلب العالم الإسلامى.

وفيما كانت الصين تدلف إلى ثلاثينيات القرن العشرين، كان الباحثون المسلمون البارزون هناك ما زالوا عاكفين على السعى لإحداث التوافق الفكرى المنشود مع ثقافة "الهان" الصينية، والتشديد على أهمية التعليم والعلوم الحديثة لتعضيد المجتمع الإسلامى بالصين. وقد آمن الكثيرون بأن ما يبتغيه المسلمون فى

الصين من "أمن ثقافى" لن يتأتى إلا فى ظل "صين" قوية تلتزم بالإدارة الجيدة، والمنهاجية القويمة. وتسعى تلك الجهود "إلى جعل الإسلام يفهم جيدا كدين أخلاقى يعنى بالمبادئ السامية، ويكون ذا فاعلية مؤثرة فى المناخ السياسى والثقافى الصينى من دون المساس بقواعده الرئيسية".

بيد أن الحكم الشيوعى للصين قد جاء ليضع نهاية لذلك كله، فقد قام بتوجيه ضربة شديدة لجميع الأديان، والتقاليد، والقيم -وليس للإسلام فحسب- وخاصة خلال "الثورة الثقافية". فالمساجد على امتداد كامل الأراضى الصينية قد جرى تشويهها، أو تدميرها، أو غلقها، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع المؤسسات الدينية للعقائد الأخرى. بيد أن "الهوى" قد عادوا ليصبحوا فاعلين فى الصين ما بعد الحقبة الشيوعية، بانتشارهم فى الأرجاء كافة. لقد أصبحت ثقافة "الهوى"، ومسلمو آسيا الوسطى مصدراً للرومانتيكية الشعبية فى الملاحم الصينية، وكذلك تأثيرها فى الأزياء، والموسيقى الصينية. وقد انتشرت المطاعم الإسلامية، كذلك، فى المدن الصينية. وتقدم تلك المطاعم المأكولات وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية (بتحرى الحلال عند الذبح)، فضلا عن تقديمها لأطباق من لحوم الضأن الشهية، والتى ليست من أطباق المطبخ الصينى التقليدى – بما يفسر ارتيادها من قبل الصينيين غير المسلمين. ومن المرجح أن يضطلع "الهوى" بأدوار هامة فى العلاقات الخارجية الصينية "كنموذج دال على التعايش المشترك فيما بين الصينيين على اختلاف مشاربهم".

وفى عام ١٩٩٥، تم انعقاد "المنتدى العالمى للإسلام والكونفوشيوسية:- حوار حضارى"، وذلك فى العاصمة الماليزية "كوالا لمبور" حضره باحثون من بلدان شرق آسيا، ودول الجوار. وقد افتتح المفكر الإسلامى، والسياسى الماليزى البارز أنور إبراهيم، اللقاء وأشار إلى أن :

هناك العديد من الأشباه والنظائر المذهلة فيما بين الإسلام والكونفوشيوسية،

فى المبادئ والخبرة التاريخية، وكذلك فى رفضهما لأن يفصلا الدين، والأخلاقيات، والمبادئ السامية عن محيط العمل العام. إذ لا تختلف رؤية الإسلام واعتراضه على العلمانية، بسعيها لفصل السياسة وغيرها من الاهتمامات الاجتماعية عن الدين والأخلاقيات- عن رؤية الكونفوشيوسية لها ... تلك الرؤية التى عرض لها البروفيسور "تو واى مينغ" فى كتابه الشائق، Way Learning and Politics لذا، فلا توجد أية صعوبات تواجه المسلم فى التواؤم مع الطرح الكونفوشيوسى لاستعادة الثقة فى الحكومات، وللعمل على الانتقال بالمجتمع من الوضع الراهن إلى مناخ أكثر اقترابا من المبادئ السامية والأخلاقيات.

الأوغــور

أما الجانب المقابل فيختلف اختلافا تاما. فبالنسبة للنصف الآخر من السكان المسلمين بالصين غير المنتمين "للهان" إثنيا على الإطلاق، فتنحدر عناصر أولئك المسلمين من أصول تركية (إلى جانب جماعة صغيرة من الطاجيك ذات اللغة الفارسية). ويمثل الأوغور أكبر تلك الجماعات التركية، إذ يبلغ عدد أفرادها حوالى عشرة ملايين نسمة يعيشون فى مقاطعة "زنجيانغ" الصينية. وكما هى الحال بالنسبة للمسلمين الروس الذين تم استيعابهم ضمن الإمبراطورية الروسية، فقد تم استيعاب الأوغور كذلك فى الصين بسبب توسع الإمبراطورية بالأساس. وتحيا تلك الأقليات التركية والطاجكية بعيدا عن وسط الصين، إذ تقطن الأقاليم الغربية المتاخمة لباكستان وكازاخستان، ومن المنظور التاريخى، فقد تم ضم تلك الأقليات للدولة الصينية منذ زمن غير بعيد. ويمثل الأوغور جزءا أساسيا من الحضارة الممتدة لأتراك آسيا الوسطى، ويرتبطون ارتباطا وثيقا بالشعوب التركية الأخرى فى آسيا الوسطى، وبصفة خاصة الشعوب الأوزبكية، والتى ينحو الأوغور إلى الترابط معهم على امتداد معظم سنى التاريخ. لذا، تختلف تلك الأقليات كثيرا عن "الهان" على الصعيد الإثنى، والثقافى، والدينى بما ينشئ هويات متمايزة، ويعزز من المقاومة ضد دولة "الهان" الساعية نحو تطويقها.

وقد عمل الحكم الشيوعى فى الصين على تهميش الكثير من الأقليات هناك، خاصة خلال "الثورة الثقافية"، إذ تم تخريب ثقافاتها وتجريفها. وعلى امتداد سنوات عديدة، أبدى الأوغور مقاومة مسلحة وقتية ضد سياسات الدولة الصينية التى عطلت ثقافتهم ومساعيهم نحو حكم ذاتى. إن المقاومة، سواء كانت مسلحة أو سلمية، كانت حدثا ذا شأن، تم قمعها بواسطة الشرطة، على أنها لم تختف أو تزول ... إذ واصل الأوغور احتجاجاتهم كردة فعل قوية ضد جهود بكين لاستيعابهم داخل المجتمع الصينى، وطمس هوياتهم.

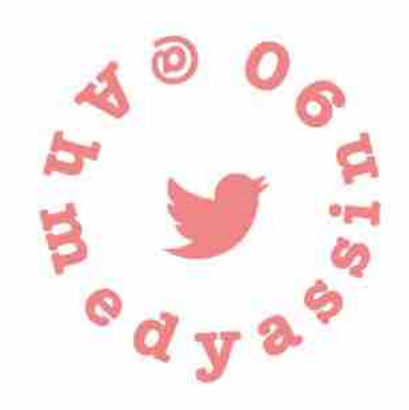
ومن أجل إحكام السيطرة على تلك الأقلية صعبة المراس، فقد عمدت الصين إلى تحفيز أعداد هائلة من "الهان" للهجرة صوب مقاطعة "زنجيانج"، وتعد تلك الهجرات جانبا من رغبة جامحة للسيطرة على الأوغور، والذين سيتم غمرهم، فى النهاية، بموجات متصاعدة من الهجرات من جانب "الهان" باتجاه موطنهم الأم. وبمرور الزمن، لن يستطيع الأوغور، والبالغ عددهم نحو عشرة ملايين، الصمود طويلا لحماية هويتهم، وثقافتهم أمام أكثر من ١,٢ مليار من "الهان" بالصين. وفى لحظة زمنية ما، قد تمسى ثقافة الأوغور مجرد عنصر جذب سياحى طريف، أو قطعة متحفية من ماض قد ولى. أما الصين، فقد بادرت بانتهاز الدعوة "للحرب العالمية ضد الإرهاب" للتصريح بأن الانفصاليين الأوغور فصيل من الشبكة الإرهابية ذاتها التى تقوم واشنطن بمقاومتها.

لذا، فمن الجلى، كما فى أى موضع آخر بالعالم، أن مشكلة بكين لا ترتبط، حقيقة، بالإسلام مطلقا، وإنما تتعلق بالأقليات الإثنية، خاصة حين تكون تلك الهويات الإثنية قائمة بالتوازى مع اعتناق دين بذاته. وعلى سبيل المثال، يصدق هذا على الأوغور المسلمين، وأهالى التيبت من البوذيين والمغول، إذ يزيد ذلك التمايز المضاعف من إصرار تلك الأقليات على حماية وجودها الثقافى فى تطلعها لنوع من الاستقلالية والحكم الذاتى.

وتؤمن الصين جيدا بأن نفوذها المستقبلى فى آسيا يعتمد على الحفاظ على روابط وثيقة مع الشعوب المسلمة بها، بما فى ذلك قطاع الطاقة بالغ الأهمية، والذى يقع بالأساس فى مناطق يقطنها مسلمون من "زنجيانج" وحتى بحر قزوين. لذا، لا تنطبق هنا مقولة "الحدود الدموية للإسلام" من وجهة نظر القادة فى بكين، حتى فى سعيهم لإخماد شرارة الانفصال والمقاومة من قبل الأوغور، وأهالى التيبت البوذيين. ومن المرجح أن تسعى طائفة قليلة من "الجهاديين" إلى مواصلة الصراع فى "زنجيانج"، بيد أن تأثيرها سيكون ضعيفا ومحدودا، إذ تقوم الصين على نحو وئيد، باستئصال عناصر الأوغور.

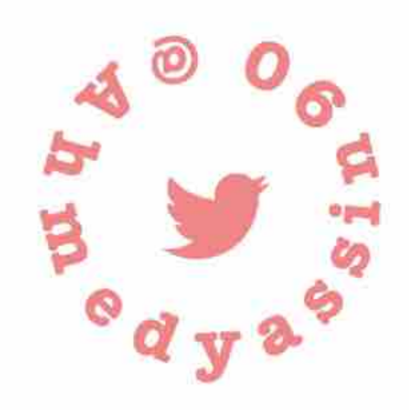
إن معظم العالم الإسلامى يرى فى الصين قوة هامة ضد استئثار أمريكا بالهيمنة، وثقلا مضادا فى ميزان القوى الذى صارت الولايات المتحدة، بموجبه، قوة ترجح كفتها بلا منازع. إلا أن البلدان والأقاليم المجاورة للصين، كما الحال فى آسيا الوسطى، فتمثل الصين، فى نظرها، صورة مبهمة وغامضة للمسلمين هناك، والذين يدركون الطابع التوسعى الذى طالما اتسمت به الصين فى الماضى، وقدرتها على الاستيعاب، بل الابتلاع النهائى لأية ثقافات مغايرة فقط من خلال ثقلها الديمجرافى الهائل. ومع ذلك، تمثل الصين وروسيا قوتين متقابلتين لإحداهما الأخرى بما يتيح حيزا أرحب نسبيا للمسلمين للتعبير عن أنفسهم وثقافاتهم.

إذاً، فمن الجلى هنا أن المشكلة فى الصين تكمن فى تعدد الإثنيات بها، وليس فى الإسلام بحد ذاته. ولم تكن المشكلات بشأن تلك الجماعات الإثنية لتختلف كثيرا حتى ولو لم يكن ثمة إسلام. "فالهان" متكاملون فيما بينهم، ويمثلون حلقة وصل هامة بين الثقافتين الإسلامية والصينية. أما المسلمون المتمايزون إثنيا، على نحو كبير، فيخوضون حربا انفصالية ذات طابع إثنى، حتى ولو زاد من حدتها اختلافهم العقائدى مع الأغلبية الصينية غير المسلمة.


@Ahmedyassin90

الجزء الثالث

الإسلام والعالم المعاصر


@Ahmedyassin90

الفصل الثانى عشر

الكولونيالية - القوميات - الإسلام والصراع من أجل التحرر

ها هو الوصف الموجز للمسار الطويل الذى تتابع بموجبه تاريخ المسلمين : سنوات المجد الإسلامى، فتراجع المسلمين التدريجى، فاستعلاء الغرب، فاستحواذ القوى الإمبريالية الغربية على العالم الإسلامى، فالصراع ضد الكولونيالية، وأخيرا، الاستياء الحالى من السياسات الإمبريالية الجديدة للغرب والتى تهدف إلى مزيد من التدخل والهيمنة. ويعد إدراك طبيعة هذا المسار أمرا ضروريا لفهم الأسباب وراء مشاعر الغضب والاضطراب الصادرة عن العالم الإسلامى تجاه الغرب اليوم. إنه تاريخ طويل من الاستياء وعدم الرضا يجد جذوره فى سلسلة من الأحداث الحقيقية المحددة ذات الطابع السلبى فى إقليم الشرق الأوسط، والعالم الإسلامى. ويجىء العامل الإسلامى ليعطى منظورا وفهما لطبيعة تلك الظاهرة، على أنه ليس العامل الحاسم فى تبريرها.

وحين أذكر هنا "العالم الإسلامى"، فحقيقة الأمر أن المصاعب والمشكلات، السابقة والقائمة، لا تقتصر على عالم يعرف بكونه "إسلاميا". فالأوضاع المذكورة هى جزء من كل أكبر يمثله العالم النامى بصراعاته ومشاعره الغاضبة فى إفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية. فالمشكلات النابعة من الكولونيالية، والإمبريالية يمكن أن تحدث تماما لو لم يكن ثمة إسلام. بيد أن وجود ثقافة إسلامية واعية بالذات، ومنتشرة فى كافة أرجاء العالم - يساعد بلا شك فى إبراز مظالم المسلمين، على نحو أكثر عمقا من أى موضع آخر. وفضلا عن ذلك، فقد تم تأطير "سيكولوجية المقاومة" فى سياق ثقافى، وتاريخى إسلامى. فالصينيون، على سبيل المثال، لديهم حساسيات مشابهة فيما يخص قضايا النفوذ والهيمنة الغربية، بيد أنهم يقومون بتأطيرها وفق خصوصياتهم الثقافية والحضارية، وأنساقهم التاريخية.

ولطالما أيقن المسلمون بدورهم البارز على مدار التاريخ - فإنجازاتهم فى

تأسيس حضارة إسلامية مزدهرة تؤكد أنهم قد حظوا بعناية السماء ومباركة الرب. فأصداء النجاح المدوى للدين الجديد كانت مذهلة، إذ انتشر على امتداد بلدان شمال إفريقيا، ونصف القارة الآسيوية خلال عقود قلائل أعقبت وفاة النبى محمد، مما أسفر عن تأسيس إمبراطوريات وثقافات مزدهرة وخالدة. ولقرون طوال، كانت السيادة والريادة للمسلمين عالميا فى الفنون، والآداب، والعلوم، والفلسفة، والمهارات القتالية، والمخترعات - مما أوضح لأتباع الإسلام أن تلك الحضارة المشرقة قد شقت طريقها على هدى من نهج سليم.

أما أوروبا الغربية، فقد كانت الإقليم الوحيد فى العالم، وفقا لحدوده المعروفة أنذاك، الذى لم يكن للمسلمين تأثير واضح عليه، أو اتصال وثيق به. فحين برزت أوروبا الغربية كقوة مؤثرة عقب نشأة القوميات بعد حركة "الإصلاح البروتستانتى"، وعصر الكشوفات الجغرافية، حينها فقط رجحت كفة الحضارة الغربية بالمقارنة

بالحضارات الشرقية. إذ أخذت الحضارات والبلدان الإسلامية تفقد حيويتها، وحماستها الإبداعية، وتسلك مسارا تراجعيا واضحا.

وإلى الآن، ما زال المسلمون يتحسرون على تراجع حضارتهم، وتضاؤل دورهم لصالح أوروبا الغربية : ما أسباب التراجع؟ وأين الخطأ؟ وكيف يستعيد المسلمون مجدهم التالد؟ أيكون ذلك راجعاً إلى تخليهم عن قيمهم ومبادئهم الإسلامية؟ كانت تلك الحقبة هى التى شهدت تزايد النفوذ الأوروبى فى تحديه للعالم الإسلامى ... ذلك التحدى الذى أفضت مجرياته إلى الهيمنة الأوروبية على العالم الإسلامى بأسره، وبالتالى اشتعال شرارة المقاومة لدى المسلمين لمجابهة تلك الهيمنة. وتمثل تلك الخبرة التاريخية أساساً للسيكولوجية الإسلامية المناهضة للإمبريالية فى عالم اليوم.

إن الحضارات، على اختلافها، تتبع مسارا نمطيا معروفا يراوح ما بين الصعود والهبوط ... وهى ظاهرة ميزت مسار الحضارة الإسلامية عبر تاريخها الممتد. وينحو المسلمون ذوو النزعة الدينية إلى أن يعزوا تراجع دورهم الحضارى إلى فقدان "البوصلة" الأخلاقية، على أنه يوجد، بالتأكيد، أسباب أكثر موضوعية يجب الإشارة إليها ... أسباب أدت إلى التراجع النسبى للشرق، وارتفاع شأن الغرب بالمقابل. والعوامل السابقة جميعها لا ترتبط بالإسلام فى ذاته إلا فى نزر يسير، إذ تجد أسبابها، وجذورها فى التغيرات السياسية والجيوبوليتيكية التى شهدها العالم وما زال يشهدها، فضلاً عن عوامل خارجية أخرى تتسم بالموضوعية والحيادية. وبعبارة موجزة، لو لم يكن ثمة "إسلام"، فإنه من الجلى أن مسار الغالبية العظمى من تلك الأحداث لم يكن ليختلف كثيرا.

العوامل الحضارية والثقافية

كان الإسلام، إبان ازدهاره، الحركة المبكرة والأكثر تمثيلا لإرهاصات ظاهرة "العولمة". فبامتداد دولته على رقعة جغرافية تفوق تلك التى كانت تشغلها

الإمبراطورية الرومانية، قام الإسلام بربط أطراف نائية من العالم، المعروف حينذاك، من خلال ثقافة إسلامية مشتركة، كانت فيها العربية، والفارسية مجتمعتين "اللغة المشتركة" لعناصر الإمبراطورية الإسلامية ورعاياها. إلا أن ضعف تلك "الروح الجامعة" قد أدى إلى تقزيم وضمور ما كان ذات مرة مجتمعا ثقافيا يتسم بمهارات البحث الثاقب، وبالانفتاح على الآخرين. بل لقد نشأ أيضا صراع، حينذاك، فيما بين اتجاه محدود الأفق يتقيد بالتأويل الحرفى لنصوص العقيدة، وبين آخر يتسم بوجه حضارى رحب الآفاق.

إن ضمور كل من القوة الثقافية، وحب المعرفة، والتعطش إلى مصادرها – بفعل انطفاء الحماسة الحضارية دونما أية مدخلات ثقافية – قد أدى إلى تصدع بنيان التفكير الإبداعى فى الثيولوجيا الإسلامية، والفلسفة، والعلوم، والمخترعات. إذ هيمنت الطقوس، والشعائر الدينية، والأحكام الشرعية وفقا لمفهوم ضيق الأفق على ما اتسم به الإسلام من تلاقح فكرى وثقافى مثمر، وطابع بحثى مميز. فالفكر المتحجر قد أخمد تلك الروح الإسلامية التاريخية، والتى كان تناولها النصوص الدينية بالتدقيق وإنعام النظر متاحا خلال قرون سابقة. وقد ظهر ذلك الضمور المعرفى لدى المسلمين جليا فى انهيار الروح العلمية لديهم، وكذلك، وعلى نحو أكثر حدة، فى الشعور السلبى العام، واللامبالاة تجاه التطورات التقنية والعلمية اللاحقة فى الغرب – إلى أن تصل تلك التطورات إلى عتبات أبواب المسلمين، وتسيطر على أفكارهم. كذلك، فإنه حتى إزاء التحديات الغربية، فقد نظر الكثير من المصلحين الإسلاميين للغرب على أنه مستودع أو خزائن التقنيات الحديثة، دونما إدراك من قبلهم للفكر المبذول على الجانب الثقافى والإبداعى لتسيير تلك التقنيات.

كذلك، فقط اضطلعت عوامل جيوبوليتيكية خارجية هامة بدور رئيسى فى تراجع العالم الإسلامى على النحو الذى نشهده. فالغزوات المغولية الوحشية بادية الشراسة، والتى انفجرت من السهوب المغولية فى القرن الثالث عشر الميلادى، قد طمست العديد من المراكز الحضرية الإسلامية الكبرى – أعداد كبيرة من المدن،

بالإضافة إلى سكانها، ومكتباتها وثرواتها - ... تلك الغزوات التى كانت ضربة قوية لم يبرأ المسلمون من أثرها بالكامل إلى اليوم. ثم أدى ظهور دولة شيعية المذهب فى إيران فى القرن السادس عشر الميلادى إلى تقسيم العالم الإسلامى ذى المذهب السنى، مما أدى إلى عرقلة مسيرة التواصل والعلاقات التجارية لأصحاب المذهب السنى على امتداد الأقاليم الأوروآسيوية. وفى تحول نسقى شامل، ومع صعود نجم القومية الأوروبية بما لها من قدرات بحرية وملاحية - تحولت التجارة فيما بين حوض المتوسط وبلدان المشرق من الطرق البرية إلى تلك البحرية. ولطالما احتكرت الممالك الإسلامية طرق التجارة البرية مما جعل من الصعب على الغرب المشاركة مباشرة فى التجارة البينية الآسيوية. كذلك، فقد أسهم ظهور "الطاعون" القادم من آسيا صوب شرقى المتوسط فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى فى فقدان الأوروبيين لحماستهم لطرق التجارة البرية. وعندها، صار البحث عن طريق بحرى صوب الشرق، بحيث يتم تجنب أخطار الطرق البرية ومصاعبها.

إن مساعى الكشف عن طرق ملاحية جديدة صوب المشرق قد انبنت على تقنيات بحرية حديثة. فقد كان استخدام الغرب لتلك التقنيات معتمدا على ما أنجزه الملاحون والبحارة العرب والمسلمون، عبر قرون سابقة وما لهم من خبرات ملاحية، من اكتشاف للمحيط الهندى وامتدادته، وخرائطهم الجغرافية التفصيلية، واستخدامهم للبوصلة، وبنائهم لسفن تناسب أعالى البحار. ولقد قادت تلك المهارات الملاحية والبحرية المتقدمة إلى الحدث ذى الأهمية العظمى : اكتشاف "العالم الجديد". أما اهتمام الأوروبيين المتنامى بتطوير عمليات التجارة الملاحية عبر المحيط الأطلنطى، فقد أسّس لفصل جديد فى التاريخ العالمى أدى إلى زيادة ثروات أوروبا، واستحث المزيد من الاكتشافات الأوروبية بشرق آسيا، كذلك فقد أسهم فى تهميش دور الملاحين المسلمين الذين كانوا يسيطرون، فيما سبق، على حركة التجارة الآسيوية.

كذلك، فقد أثرت التغيرات البيئية الهامة فى صعود الحضارات وأفولها. فقد

أورد المؤرخ الشهير "جاريد دايموند" أن "الهلال الخصيب"، والذى كان لآماد طوال مهدا للحضارات، قد بدأ يفقد "خصوبة تربته" نتيجة للتصحر، واختفاء الأحراج، فضلا عن موجات الجفاف التى تعرض لها، وتدهور ثرواته الطبيعية والحيوانية، على نحو تدريجي. أما أوروبا الغربية، ولآجال امتدت إلى ما بعد سقوط روما، فقد كانت مشاركتها محدودة فى التطور الحضارى العالمى حتى أواخر العصور الوسطى. وفى تلك الأثناء، فإن مناخ أوروبا المعتدل، وأراضيها الخصبة، والتنوع الغنى لبيئاتها النباتية والحيوانية، جنبا إلى جنب مع زخم حضارى ناشئ، كل ذلك أدى، فى النهاية، إلى انبثاق حضارة أوروبية غربية فتية ارتكنت إلى نجاحات المجتمعات الشرقية ومنجزاتها، فيما مضى ... تلك المجتمعات التى أضحت بيئاتها الطبيعية أقل وفرة وأدنى إنتاجية.

أما "جيفرى ساكس"، الباحث بمركز التنمية الدولية بجامعة هارفارد الأمريكية، فقد أشار أيضا إلى أثر المتغيرات المناخية والإيكولوجية : ففيما اتسمت القارة الأوروبية بمناخ معتدل، اصطبغ إقليم الشرق الأوسط بموجات متزايدة من القحولة والجفاف : "فبحلول عام ١٩٠٠، عندما بدأ انهيار الإمبراطورية العثمانية، كانت أوروبا تمتلك الفحم، والطاقة المائية، والأخشاب، وخام الحديد. أما البلدان الإسلامية، فكان لديها القليل من تلك الموارد الأساسية اللازمة لحركة التصنيع خلال القرن التاسع عشر. أما آبار النفط فلم يتم اكتشافها، واستغلالها إلا بعد أن أصبحت البلدان الأوروبية قوى كولونيالية". وتعطى سجلات التقسيم الحضرى صورة لما كانت عليه الحال. ففى عام ٨٠٠ ميلادية، كان لدى كل من الشرق الأوسط وأوروبا الغربية العدد ذاته من السكان، والذى بلغ، آنذاك، ثلاثين مليون نسمة لكل منهما، إلا أن الشرق الأوسط كانت به، حينذاك، ثلاث عشرة مدينة يبلغ تعداد أى منها نحو خمسين ألف نسمة، فى حين كانت هناك مدينة واحدة فى أوروبا، آنذاك – ألا وهى "روما". وبحلول عام ١٦٠٠، تبدلت الأحوال على نحو كبير.

إن الاكتشافات البحرية الأوروبية فى المشرق، وكذا فى العالم الجديد قد أسهمت فى إرساء قواعد حضور أوروبى طويل الأجل على امتداد السواحل المؤدية للقارة الآسيوية، حيث تم أولا إنشاء مراكز تجارية لتوزيع السلع، وتلا ذلك تدشين قواعد عسكرية كولونيالية، وأخيرا تم تثبيت دعائم النفوذ الكولونيالى، وبناء الإمبراطوريات. وفيما يخص القواعد العسكرية، فقد تعاقبت البرتغال، فإسبانيا، فهولندا، ففرنسا، وأخيرا بريطانيا فى تدشين تلك القواعد العسكرية هناك. وفيما ظل جانب كبير من شرقى المتوسط "بحيرة إسلامية"، فإن الإمبريالية الغربية، وتوسعاتها كانت، حينذاك، تفتتح عصرا من عصور الإمبريالية، والذى سوف يستمر لقرون عدة. ولقد تفاوض الأوروبيون، واختلفوا فيما بينهم بشأن المزاعم التى يدافع عنها كل طرف فيما يخص استحقاقه لأراضى دولة دون الطرف الآخر. ولكن، فى النهاية، اتخذت تلك "الممتلكات الإمبريالية" التى اقتنصتها بلدان الغرب لاستغلالها لصالحها، طابعا قانونيا شرعيا - على الأقل فيما بينها، حتى ولو لم يكن ذلك فى مصلحة رعاياها على وجه الإطلاق.

ومع نهاية الحرب الكونية الأولى، صار أغلب العالم الإسلامى رازحا تحت الهيمنة الإمبريالية الأوروبية، باستثناء الصحراوات الداخلية الشاسعة للمملكة العربية السعودية، وكذلك أراض كثيرة من أفغانستان. وقد شاركت قوى أوروبية عديدة فى اللعبة الإمبريالية تلك فيما وراء البحار " البرتغال، إسبانيا، هولندا، فرنسا، بريطانيا، ألمانيا، بلجيكا، وإيطاليا". وبالرغم من اختلاف النمط الإمبريالى لكل قوة منها عن الأخرى، إلا أن جميع تلك القوى قد اشتركت فيما بينها فى تعرضها للمقاومة من قبل رعايا الدول الخاضعة للاستعمار، وكذلك فى مظاهر الاستياء، وعدم الرضا التى أبداها أولئك الرعايا.

على أنه لا يستقيم النظر إلى الكولونيالية والإمبريالية باعتبارهما حكرا على الغرب، أو أنهما ظاهرتان غربيتان بالأساس، أو أنهما انعكاس لخطايا الغرب. إذ كانت الإمبراطوريات جزءا من نمط النظام السياسى الاعتيادى على امتداد كثير

من بقاع العالم المختلفة، عبر مراحل زمنية عديدة. بيد أنه توجد عدة سمات هامة تصطبغ بها الكولونيالية الغربية : أولها، أن الكولونيالية الغربية ذات طابع بحرى ملاحى، حيث قام الأوروبيون، فيما مضى، بركوب البحر عبر العديد من الرحلات الملاحية التى جابت أعالى البحار لتأسيس نقاط إمبريالية للهيمنة خارج حدودها فى بلدان يقطنها أناس يختلفون عنها بالكلية، على الصعيد الإثنى والثقافى. وغالبا ما عمد الأوروبيون إلى استجلاب بعثات تبشيرية مسيحية إلى المناطق التى فرضوا هيمنتهم عليها كجزء من سياسة هدفت إلى تخفيف حدة الطابع الاستعمارى الذى اتسمت به هيمنتهم على المستعمرات. ويختلف هذا النمط الإمبريالى بالكلية عن النمط المتبع من قبل أغلب الإمبراطوريات غير الأوروبية، والتى كانت إمبراطوريات توسعت عن طريق البر، لا البحر ... ومن ثم جاءت تلك الإمبراطوريات لتغزو التخوم ودول الجوار الجغرافى عن طريق الزحف التدريجى الوئيد عبر تلك الأراضى. ولقد كانت القوى الإمبريالية الغازية عن طريق البر تعرف الكثير عن الأقاليم التى قامت بغزوها، فقد كانت تلك الأخيرة مألوفة لديها، كذلك فقد أرست القوى الإمبريالية علاقات مع تلك الأقاليم عبر قرون عديدة من الأخذ والعطاء المتبادلين عبر التخوم وأحياناً – كجزء من منظومة ثقافية ممتدة.

إن الإمبراطوريات التى نشأت عن طريق الغزو البرى للتخوم ودول الجوار غالبا ما توسعت وفقا لواقع سياسى بذاته. أما الإمبريالية الأوروبية فقد سعت إلى تقنين تلك الأنماط الجديدة من الهيمنة من خلال الفرض القانونى للعلاقات بينها وبين البلدان الواقعة تحت سيادتها. وقد عمدت القوى الإمبريالية، فى بعض الحالات، إلى إلحاق بعض المستعمرات بها كما حدث فى حالتى إلحاق فرنسا للجزائر، وإلحاق بلجيكا للكونغو. وقد مثلت تلك الهيمنة المفروضة بقوة القانون انتهاكا صارخا للسيادة القومية للمستعمرات، وفى الوقت ذاته فقد استقبلت بترحيب "قانونى" من قبل النظام العالمى الغربى. وبينما اختلف نمطا الاستعمار عن طريق الغزو، البرى والبحرى، كثيرا فيما بينهما، إلا أن أيا منهما لم يكن أفضل

من الآخر بأى وجه من الوجوه.

وأخيرا، فإن أكثر أنماط الإمبريالية إيلاما وزعزعة، وهى كولونيالية الاستيطان، قد استلزمت الاستيطان من قبل الدخلاء الذين أتوا لاغتصاب الأرض والعيش عليها، وبسط الهيمنة من خلال إرساء أنظمة لحكم أهالى تلك المستعمرات ... الخاسرين على الدوام. تلك هى أصعب الحالات الكولونيالية التى يمكن مناهضتها بدون عنف حقيقى. لذا، فقد شهدنا توترات عديدة وإراقة للدماء فى جنوب إفريقيا، وجنوبى روديسيا (زيمبابوى حاليا)، وأنجولا البرتغالية، والجزائر، وكذا فى الأراضى الفلسطينية التى استوطنها اليهود الأوروبيون لتكوين دولة إسرائيل.

التأثير الإمبريالى فى المجتمعات الإسلامية

سرعان ما شوه الحكم الإمبريالى مسيرة التطور الطبيعى للعالم الإسلامى، عن طريق إطاحته بالهياكل التقليدية للحكم والزعامة، وتدميره للمؤسسات التقليدية وتخريبه للأنماط الثقافية السائدة، فى حين فشل فى تشجيع بدائل وخيارات للتنمية تستقى روحها من التربة المحلية. فالإمبريالية قد مثلت فرض آليات الثقافة الأجنبية الدخيلة وهياكلها فى تطبيقها على بلدان المشرق. على أن هذه الهياكل عادة ما لا ينجح استزراعها فى تربة الثقافة والحضارة القائمة. وما زالت المجتمعات الإسلامية، إلى الآن، يسكنها هاجس الهيمنة الخارجية الأجنبية، حتى ولو لم تتخذ تلك الهيمنة الأشكال الكولونيالية الكلاسيكية.

ولقد تم تصميم الهياكل الإمبريالية الأوروبية الحاكمة لكى تعبر، بشكل أساسى، عن مصالح المستعمر الاقتصادية، والسياسية، والاستراتيجية ... لا عن الاحتياجات الهيكلية للتنمية القومية بمفهومها الشامل للدول الرازحة تحت الاستعمار. أما الحكام الذين تم تنصيبهم فى تلك البلدان، فلم يمتلكوا، فى الواقع، أية سلطات مستقلة، وإنما انحصر دورهم فى الحفاظ على راهنية الوضع، والوفاء

بمصالح المستعمر ومآربه.

كذلك، فقد تم الحط من شأن العلماء ومكانتهم فى ظل الحكم الكولونيالى. وتم إضعاف شوكة المؤسسات الإسلامية ذات الصلة بالحكم فى المستعمرات، وخاصة بالنظام القانونى حيث أضحى دورها محدودا، أو تم القضاء عليها بالكلية. أما "العلماء"، فقد عهد إليهم، من خلال التفويض، ببعض النواحى الهامشية فيما يتعلق بإدارة الحكم مثل قانون الأسرة، وقانون الأحوال الشخصية. بيد أن تنحية "العلماء" عن مسيرة الحكم والتشريع قد عمل على توجيه ضربة قوية للمؤسسات الإسلامية، وقدرتها على النهوض والحداثة فى ظل الأحوال المعاصرة. كذلك، لم يكن بإمكان الأعراف المحلية للحكم أن تنمو على نحو طبيعى ملائم، وأخذت المؤسسات الإسلامية، والتى تم إبعادها عن آليات الحكم الاعتيادى، فى التدهور والضمور، ولم يعد بإمكانها أن تفى بمتطلبات تلك المجتمعات النامية وآمالها. وقد خلف ذلك كله كيانا لإدارة البلاد وحكمها يتسم بالجمود مما جعله مصدر استياء فى المستقبل حين جاهد لإرساء علاقات قوى جديدة فى تلك المجتمعات بعد نيلها لاستقلالها.

ولقد كانت التجربة الجزائرية مثالا صارخا من حيث بعدها الثقافى. فلقد قامت فرنسا بضم الجزائر إليها، وتوطين عشرات الآلاف من الأوروبيين بها. وفى هذا الإطار، انبثقت صفوة إدارية حاكمة جديدة كل الجدة تعتمد اللسان الفرنسى فى جميع تعاملاتها، وتربطها بالسلطات الكولونيالية أواصر متينة للغاية. وقد اشتملت رؤى تلك الصفوة ووجهات نظرها على تبنى عناصر عديدة تنتمى للثقافة الفرنسية، وبذلك فقد أصبحت، يوما تلو الآخر، غريبة عن الجذور العربية للجزائر المحتلة. وفى نهاية المطاف، أضحت تلك الصفوة قنبلة اجتماعية موقوتة فى ذاتها. وبصفة عامة، فإن عملية التثاقف تلك مع المجتمع الفرنسى الأكثر تقدما على الصعيدين التقنى والإدارى، كان يمكن أن تعمل فى صالح الجزائر، ولكن فى أعقاب ثمانية أعوام وحشية من الصراع المسلح لنيل الاستقلال عن فرنسا، وجدت تلك الصفوة "المتفرنسة" نفسها فى موقف متضارب : هل يعتبر أفراد تلك الصفوة

منتمين لفرنسا أم للجزائر، وإن كانوا منتمين لأحدهما، فإلى أى منهما أكثر؟ وهنا يبرز تساؤل هـام : هل يكون فى صـالح المجتمع أن يعمل على تعليم صفوته وتثقيفهم وفقا للغة مختلفة تماما عن اللغة المستخدمة من قبل السواد الأعظم من ذلك المجتمع؟ فإذا ما تم الإبقاء، بل تشجيع ذلك التباين اللغوى بغية خلق فجوة ثقافية دائمة بين الصفوة وبين سائر المجتمع، فسينجم عنها تناقضات سياسية واجتماعية شديدة حين تبرز إلى المشهد المجتمعى صفوة محلية جديدة تلقت تعليمها واستقت ثقافتها وفقا للغتها العربية لتواجه تلك الصفوة الفرانكفونية القديمة فى صراع شديد على الاستئثار بالسلطة والنفوذ. وتصبح اللغة، بل والثقافة ذاتها، حينئذ، عنصر شقاق لا عنصر وفاق. إن هذه القضايا الهامة لم يتم حسمها بعد فى ظل الخلافات والتضاربات المؤسفة للسياسة الجزائرية المعاصرة.

لقد كانت الإمبراطورية العثمانية، بالأساس، هى من استطاع المحافظة على روح هيمنتها وسطوتها ضد الانتهاكات والتجاوزات الأوروبية خلال القرن التاسع عشر. فلا عجب، إذاً، أن كان ذلك محط معظم الجدالات اللاذعة والثاقبة بشأن العلاقة بين الدين والدولة – وفق مسيرة التطور الطبيعى للموروث الثقافى التركى. ولعل ذلك هو السبب فى كون المؤسسات السياسية التركية، وبالرغم من بعض العثرات والهنات، أكثر ثباتا وعفوية من نظيراتها فى أى من أرجاء العالم الإسلامى الفسيح.

أما فيما عدا ذلك، فإن الحكم الإمبريالى الأوروبى قد جمد إمكانية تطور المؤسسات الإسلامية ودورها فى المجتمعات النامية. ويأتى ذلك كأحد التفسيرات الرئيسية التى تساق عند الحديث عن الطبيعة المتصلبة والضامرة التى أضحت عليها الكثير من المؤسسات الإسلامية فى عالم اليوم، والتى أدت بدورها إلى تعطيل تلك المؤسسات وإعاقتها لأى تطور سياسى محتمل للدولة، وخلق تناقضات اجتماعية، تؤججها العواطف والانفعالات، بين الطرق التقليدية وتلك الغربية فيما يخص إدارة الأعمال والمصالح التجارية. ويمكن أن نذهب، وبدرجة عالية من

التيقن، إلى أن تعطيل مسيرة التطور "الطبيعى" للإسلام فى هذه الدولة أو تلك قد أدى إلى إحداث توترات خطيرة على امتداد معظم العالم الإسلامى، كما أسهم فى جعل المناخ مهيئا لمزيد من "الراديكالية" لدى الحركات والجماعات الإسلامية المختلفة.

وينطبق ما سبق، أيضا، على سياسات التعليم الكولونيالية : إذ تم تهميش التعليم الإسلامى على نحو كبير، وبذا تم استئصال أية ضغوط مجتمعية "طبيعية" تهدف إلى إحداث تغييرات لتطوير النظام التعليمى لمواجهة التحديات المعاصرة. ففى الإمبراطورية الروسية، أدى التحدى الغربى لمسلمى القوقاز وآسيا الوسطى، على نحو ملحوظ، إلى استثارة الجهود الوطنية واستنهاضها من أجل إحداث إصلاح تعليمى، وذلك من خلال ما عرف بالنزعة "التجديدية"، وحركة "المجددين". كذلك، فقد تم الارتقاء بمستوى التعليم والمدارس فى مناخ من الإصلاح الإقطاعى داخل الإمبراطورية العثمانية آنذاك.

من المشروع الإمبريالى إلى التحرر الوطنى

بالنسبة لمسلمى اليوم، لا توجد قضية أكثر إلحاحا والتهابا من قضية التحرر من التدخل الإمبريالى للغرب وسياساته. ففى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن مصطلح "الإمبريالية الجديدة" يظل ذا جرس ماركسى يصطبغ به، ما أدى إلى أن اعتبره كثيرون ضربا من "الرطانة الأيديولوجية". كذلك، فإن مصطلح "الإمبريالية الأمريكية" قد يزعج البعض الآخر بالرغم من وجود العديد من الكتب والدراسات فى الولايات المتحدة عن تلك الظاهرة فى العقود القليلة الماضية. وبالطبع، فقد تم استخدام تلك المصطلحات، على نحو موسع، فى البلاغة الخطابية الماركسية والشيوعية، والعالم الثالث إبان الحرب الباردة. على أن اعتماد الشيوعية للمصطلح لا يعنى عدم صحته، إذ مارس الغرب، لأربعة قرون على أقل تقدير، هيمنة إمبريالية طاغية على باقى مناطق العالم محققا بذلك مكاسب طائلة فى ظل حصانة وأمان.

فالولايات المتحدة الأمريكية، ووفقا لتقديراتها الذاتية، هى القوة الوحيدة على امتداد العالم المتسمة بالسيطرة والنفوذ فى جميع المجالات والمناحى تقريبا، مع إصرارها الدءوب على فرض إرادتها بطريقة أو بأخرى ... تلك الظاهرة التى يطلق عليها كثيرون مصطلح "الهيمنة" أو "النفوذ الإمبريالى". بل إن بعض المفكرين من المحافظين الجدد يذهب إلى تبنى مصطلح "الإمبراطورية الأمريكية". ولكن أيا ما كان الاسم، فإن الظاهرة ذاتها تبقى الأكثر أهمية.

إن مصطلح "الإمبريالية" لا يبدو غريبا فى هذا السياق، حتى بعد انقضاء الصورة "الرسمية" لزمن الإمبريالية الغربية، إذ ظهرت أشكال جديدة من الإمبريالية خلال العصر الحديث، وخاصة فى إقليم الشرق الأوسط، بدءا من الحكام ذوى الولاء الكامل للغرب، والذين تم اختيارهم بواسطة بريطانيا للهيمنة على الحكومات "المستقلة" حديثا فى معظم البلدان. وقد وقع الاختيار عليهم كيما يقوموا بالاستجابة لرغبات الغرب وتفضيلاته وتنفيذها، حتى وإن لم يحظوا بأى دعم أو تأييد من شعوبهم الفعلية. فقد اندلعت الثورات فى كل من إيران، والعراق، ومصر، وسوريا، وغيرها، حين بلغت التوترات بين الحكام الموالين للغرب، وشعوب تلك البلدان ذروتها فقامت انقلابات عسكرية للتخلص من أولئك الحكام - كما حدث فى مصر، والجزائر، وليبيا، وتونس، والأردن، وسوريا، والعراق، واليمن. ومنذ ذلك الحين، فإن غالبية القادة فى العالم العربى وغيره يتم دعمهم من قبل الغرب، إذ لم يتم انتخاب أى منهم، ويقوم هؤلاء "القادة" بتنفيذ السياسات الموالية للمصالح الغربية والتى تتعارض، بالأساس، مع رغبات الشعوب التى يحكمونها.

إن "الإمبريالية الجديدة" تظل قوية وذات فاعلية فى العالم الإسلامى نتيجة السببين التاليين : أولا، لأن العديد من بلدان العالم الإسلامى لها أهمية جيواستراتيجية بالغة، وذلك بسبب امتلاكها لمصادر الطاقة وتحكمها بوسائل المواصلات وطرقها. ثانيا، وعلى وجه التحديد، لأنها تعد آخر ما تبقى من بلدان حيث القاعدة فيها هى الحكم الشمولى المستبد بشعوبه، والخانع والذليل للقوى

"الإمبريالية الجديدة". وعلى حين زالت الأشكال المباشره للحكم الأجنبى منذ زمن ليس بالقصير، إلا أن ميكانزمات الهيمنة الحديثة تشتمل على : المعونات الاقتصادية الضخمة من قبل الولايات المتحدة، وبخاصة تلك الموجهة إلى مصر، استخدام آلية القروض تحت إشراف الولايات المتحدة وسيطرتها، والتى يقوم البنك الدولى على تنفيذها، مبيعات الأسلحة، الدعم الدبلوماسى، وجود القواعد العسكرية، التدخل السياسى بصورة منتظمة، التلاعب بالسياسات الإقليمية كورقة ضغط فاعلة، التهديدات العسكرية، والتغافل المقصود والتعامى عن انتهاكات الحريات المدنية وحقوق الإنسان فى تلك البلدان.

وتمثل تلك السياسات جميعا عراقيل ومتاعب للبلدان الخاضعة "للإمبريالية الجديدة"، إذ تعمل على استثارة الغضب لدى شعوب تلك البلدان، وتضعف من مكانة حكامها، وتستنهض عوامل "الراديكالية" والعنف. ولقد اتخذ ذلك النوع من التدخل السياسى والاقتصادى طويل الأجل مظهرا فجا فى إقليم الشرق الأوسط بأكثر مما اتخذه فى أى موضع آخر بالمعمورة. فمنذ بدايات الإعلان عن "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، أخذ هذا التدخل فى تثبيت جذوره من خلال انتشاره وتوغله مما أدى إلى زيادة درجة غليان الشعوب المقهورة، والتى أمست تستشعر صعوبة التحرر والخلاص.

ثورات ضد الإمبريالية

إن الأمر المثير للدهشة أن الثورات والمصادمات التى وقعت فى العالم الإسلامى ضد الهيمنة الأجنبية قد جاءت متأخرة وفقا لتاريخ الحركات المناهضة للإمبريالية. وبنظرة إلى الماضى، نجد الأمريكتين أول من ثار فى وجه القوى الأوروبية الإمبريالية : بريطانيا، وإسبانيا، والبرتغال. بيد أن تلك الثورات لم تمثل صراعا من جانب الشعوب المحلية ضد الحكم الكولونيالى الأوروبى، وإنما كانت ثورات قام بها المستعمرون الأوروبيون أنفسهم فى مقاومتهم للهيمنة شديدة الوطأة

من قبل بلدانهم الكولونيالية ذاتها - وهو الأمر المختلف عن الصراعات المناهضة للإمبريالية والتى نشبت لاحقا فى مواضع أخرى من العالم.

أما المرحلة الرئيسية التالية للحركات المناهضة للإمبريالية وحركات الإصرار الذاتى على التحرر، فقد انبثقت، فى الحقيقة، حين وقعت سلسلة من الثورات "المسيحية" فى البلقان ضد الإمبراطورية العثمانية "المسلمة" خلال القرن التاسع عشر. ولقد كان العامل الحاسم فى نجاح تلك الثورات - دعم روسيا والقوى الأوروبية لها، لاستعدادها لمؤازرة تلك الثورات "المسيحية" بغية تحجيم الإمبراطورية العثمانية وتقليص حجمها ونفوذها، وبالتالى اجتذاب "مؤيدين" جدد لها فى ذلك الإقليم. ويمثل الطابع "المسيحى" لتلك الثورات تناقضا صارخا لولاء الرعايا المسلمين الأساسى تحت الحكم العثمانى، والذين كانوا ما يزالون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم جزءا من الإمبراطورية الإسلامية ذات القوميات المتعددة - بغض الطرف عن أية مظالم لهم بشأن السياسات المحلية التى تنتهجها الإمبراطورية. ونتيجة لذلك، فقد استشعر الحكام المسلمون مخاوف تتعلق بقابلية الأقليات المسيحية لأن تثور، خاصة وهى رهن إشارة البلدان الغربية. وبالفعل، كان يمكن للزعماء المسلمين، منذ مائة وخمسين عاما خلت، التحدث ببعض الثقة عن "الحدود الدموية للمسيحية" فى استنهاض الثورات ضد الإمبراطورية العثمانية ... تلك الإمبراطورية التى واجهت بعض الثورات المحلية الموجزة من قبل المسلمين، والتى كانت تتسم بمحدودية الانتشار.

وبالنسبة لمعظم بلدان العالم العربى، فإن انهيار الإمبراطورية العثمانية، مع نهاية الحرب الكونية الأولى، لم يكن ليعنى حصولها على الاستقلال مطلقا. ففى تحول عنيف للأحداث عقب الحرب مباشرة، أخضعت القوى الأوروبية الكثير من بلدان العالم العربى "للانتداب" تحت سلطاتها، وبذا فقد أخضعت تلك البلدان لهيمنتها الإمبريالية. لذا، فإن الثورات التى حالفها النجاح، والموجهة ضد الإمبريالية الأوروبية من قبل المسلمين قد قامت، بالأساس، فى وقت متأخر نسبيا

(خلال القرن العشرين). ولعل الاستثناء الوحيد لتلك القاعدة تمثل فى المشاركة الواسعة من قبل مسلمى الهند فى التمرد ضد الحكم الكولونيالى البريطانى هناك عام ١٨٥٧، وإجهاض الأفغان للمغامرات الإمبريالية البريطانية هناك. ولقد كانت الدولة الأولى التى حصلت على درجة أو أخرى من الاستقلال - أفغانستان عام ١٩١٩ . أما العراق، فقد تلاها، ولكنه أحرز استقلالا اسميا (صوريا) عن بريطانيا، وذلك فى عام ١٩٣٢، إذ ظلت بريطانيا تتحكم فى إدارة شئون الحكم به، وتوجيه سياسته صوب نوع من الحكم غير المباشر ووجود عسكرى قسرى حتى عام ١٩٥٨ . أما البلدان الإسلامية الأخرى فقد أحرزت أشكالا محدودة أو صورية من التحرر، إذ خضعت تلك البلدان، عادة، إلى حكام خاضعين للغرب يدينون له بالولاء، ولم يتأت ذلك حتى نهاية الحرب الكونية الثانية. إن حصول العديد من البلدان الإسلامية على استقلالها فى وقت متأخر نسبيا يساعد فى تفسير المشاعر العدائية التى ما زالت تصبغ التوجه الإسلامى والمسلمين، إلى اليوم، فيما يتعلق بمناهضة الإمبريالية، فى الوقت الذى ما زال التدخل السياسى للإمبريالية الغربية الجديدة يشق طريقه على نحو مكثف ودءوب.

الصراع من أجل التحرر:

إسلام أم قومية؟

إن مقاومة الهيمنة الأجنبية هى غريزة فطرية لدى جميع الثقافات. ولم تكن القوى الكولونيالية التى هيمنت على العالم الإسلامى مختلفة عمن مورست بحقه الهيمنة إثنيا فقط، وإنما دينيا كذلك : غرب مسيحى مهيمن على شرق مسلم منهزم - أو على "هند" تعتنق الهندوسية، أو "صين" كونفوشيوسية بوذية. لذا، فإن مقاومة القوى الإمبريالية تشدد على كل من الاختلافات الإثنية، والدينية بين المقاومين وبين تلك القوى. إذاً، لماذا لا يتم توظيف "الدين" كأحد خطوط التماس الهامة، وكذلك كأداة لإضفاء الشرعية على الصراع والمقاومة الإثنية؟ إن العقائد التوحيدية، بما

لديها من إيمان راسخ بكونها وحيا من لدن الرب قد تمثل القوة الدينية الأكثر فاعلية فى تحالفها مع "القومية".

وبالفعل، يمكن أن يكون "الدين"، أحيانا، قوة أكثر فاعلية ومضاء من مجرد الإثنية إذ يجد جذوره فى قوة أعظم - ويمكن أن يستمر الدين كذلك عبر امتداد زمنى معين على أقل تقدير إلى أن تحل محله الإثنية التى تشتمل على "رابطة الدم" التى تنتظم كل من ينتمى إليها. لذا، فليس من المستغرب أن نجد أنه قد تم توظيف الإسلام، على نحو منتظم، فى الصراع ضد الهيمنة الإمبريالية. بيد أن الأمر لم يكن حربا دينية، وإنما مقاومة للإمبريالية، إذ انبنى على قاعدة إثنية لكل دولة على حدة، ولم يكن حركة دينية فوق قومية مترابطة الأركان. كذلك، يجب أن ندرك أن مقاومة المسلمين للكولونيالية كان جانبا من حركة عالمية واسعة النطاق لمناهضة الكولونيالية اشتملت على مقاومة المسيحيين، والبوذيين، والهندوس، والكونفوشيوسيين، وغيرهم للهيمنة الأوروبية.

إن إحدى القوى الهامة والمؤثرة لمقاومة الهيمنة الإمبريالية فى العالم الإسلامى كانت الجماعات الصوفية. ففيما عرف عن "الأخوة الصوفية"، بوجه عام، من أنها اقتراب أكثر روحانية وصفاء للإسلام، إلا أنها تعد أحد أفضل التنظيمات المجتمعية من حيث التنظيم والتماسك. وتتدرج تلك "الأخوة الصوفية" وتنتظم وفق مؤسسات أشبه ما تكون بجمعيات أهلية اجتماعية بهدف الحفاظ على حضارة الإسلام وثقافته فى ظل فترات تتسم بالقمع الشديد، وبهدف استنهاض المقاومة وحروب العصابات ضد أى احتلال أجنبى. إن تاريخ المشاركة الصوفية فى العديد من حركات الصراع من أجل التحرر هو تاريخ طويل يمتد ليشمل أجزاء شاسعة من آسيا، وإفريقيا، والشرق الأوسط. ولقد كان الدور الذى اضطلعت به الجماعات الصوفية بارزا فى مقاومة الغزو السوفييتى لأفغانستان، وضد الاحتلال الأمريكى لأراضيها لاحقا، فضلا عن مقاومتها لقوات الاحتلال الأمريكى فى العراق. على أنه لا يستقيم اعتبار الإسلام كمصدر لتلك المقاومة، وإلا فإنه يتعين علينا الإيمان، إذاً،

بأن أولئك المسلمين القائمين بالمقاومة لو لم يكونوا مسلمين لما قاموا بالثورة ضد الهيمنة الأجنبية.

أما فى الغرب، وتحديدا فى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن حركة "المسلمين السود" برمتها، والتى استهلت نشاطها بدءا من ثلاثينيات القرن العشرين، تمثل بجلاء التوظيف العمدى للدين للتشديد على التمايزات الاجتماعية القائمة، آنذاك، ضد عنصرية "الرجل الأبيض" ونهجه الاضطهادى. ففى بدايات القرن العشرين، قام الزعماء القوميون السود فى أمريكا، تحت قيادة "إليجا محمد"، ثم "مالكولم اكس" لاحقا - بحث الأمريكيين ذوى الأصول الإفريقية على نبذ "عقلية العبيد وثقافتهم" التى ظلت مسيطرة عليهم، ومطالبتهم باعتناق "الإسلام"، كونه دينا يقترب كثيرا من جذورهم الإفريقية. وعلى حين كان يتم تمييز الأمريكيين من أصل إفريقى عن الأمريكيين البيض على أساس عرقى فحسب، فقد جاء "إليجا محمد" ليعمق الصراع بالترويج لهوية دينية مميزة تجمع السود معا.

وفى الوقت ذاته، دأب الغرب كديدنه على توظيف الحركات والجماعات الإسلامية المناهضة للإمبريالية لتحقيق مصالحه ومآربه. فخلال الحرب الباردة، نظرت واشنطن إلى الشعوب المسلمة بالاتحاد السوفييتى، آنذاك، باعتبارها "قوة سياسية ناعمة مستضعفة" يمكن استغلالها وتوظيفها ضد موسكو. كذلك، فعادة ما شجعت واشنطن، بالتواطؤ مع ديكتاتوريى العالم الموالين لها، الإسلاميين فى العديد من البلدان على الصراع ومناهضة الأحزاب الشيوعية المحلية. ولعل الحالة الأكثر شهرة على الإطلاق، هى دعم الولايات المتحدة "للمجاهدين" فى أفغانستان فى صراعهم ضد الغزو السوفييتى لها فى ثمانينيات القرن العشرين ... تلك الجماعة التى نعتها الرئيس الأسبق، "رونالد ريجان"، بأنها "المكافئ الأخلاقى لما كان عليه الرعيل الأول من مؤسسى الولايات المتحدة الأمريكية". على أن المسلمين، فى معظم الحالات، لم يكونوا فى حاجة إلى الكثير من الدعم الخارجى لمقاومة أى من تلك المغامرات الإمبريالية التى استهدفت أراضيهم وثقافتهم.

أسباب الدور المتعاظم للهوية الإسلامية

يحمل كل فرد من أفراد العائلة الإنسانية هويات متعددة : العائلة، العشيرة، الإثنية، الجنسية، الدين، الجندر (الجنوسة)، اللغة، الطبقة الاجتماعية، شريحة الدخل، المهنة، الهويات، ... إلخ. وتتسم هذه "الهويات" جميعا بتضافرها وتشابكها، وتعرضها لموجات من المد والجزر، وبروزها وفقا لأهمية وأولويات تتفاوت بتفاوت المرحلة التى نحيا خلالها. فاعتبارات الانتماء العائلى والعشائرى تسود خلال الطقوس الشعائرية المختلفة، وكذلك أثناء الاحتفال بشتى المناسبات وضمن إطار شبكة الدعم، أما الهوية السياسية فتبدو جلية أثناء عمليات الاقتراع أيا ما كان نوعها. ويتجلى الطابع القومى للفرد حين انخراطه فى الخدمة العسكرية المكلف بها، وفى المناسبات الاجتماعية كحالات الوفاة تتبدى الهوية الدينية للمرء. أما الهوية المهنية فتطل برأسها فى الأوقات الخاصة بالعمل الوظيفى والمهنى، وكذا فيما يرتبط به من علاقات وتنظيمات. وتبدو الهوية المتعلقة بالجندر بادية حين مواجهة الجنس المقابل، وأوضح ما تكون لدى الإناث حين تعرضهن لتمييز يرتكن إلى ذلك العنصر من عناصر الهوية. كذلك، فإن التكاتف والتضامن فيما بين الطبقات الاجتماعية يمكن أن يفوق تأثيره ذلك الخاص بعنصر الهوية الإثنية خلال فترات الشدة الاقتصادية التى تلجئ الكثير من غير القادرين إلى عمليات شراء ومضاربات جمعية. إذاً، يمكن القول بأن اختلاف الظروف المحيطة بالفرد تبرز استجابات تتباين خلالها أولويات الهوية التى يقدم بها المرء نفسه إلى المجتمع.

فعلى سبيل المثال، إذا ما قد كان سئل يهودى فى "برلين الحرة" خلال العقد الثالث من القرن العشرين عن هويته، لكان من المحتمل أن تكون إجابته قد جاءت على النحو التالى : "ألمانى، أستاذ لمادة الأحياء، اشتراكى، يهودى ... وفقا لهذا الترتيب. فإذا ما سئل عن هويته، ولكن بعد ذلك بخمسة عشر عاما، وفى ظل هيمنة النازية على مقاليد الأمور فى ألمانيا، لكانت هويته "اليهودية" تتأثر تأثرا بالغا كونها أصبحت أمرا فاصلا بين الاستمرار على قيد الحياة، أو الموت !! فإذا ما سئل

عراقى سنى الانتماء يحيا فى بعض التخوم الشيعية لبغداد خلال الاحتلال الأمريكى لبلاده - عن هويته، لكانت الهوية "السنية" كذلك فارقة وفق اعتبارات الحياة والموت، فيما تفقد هويته "العراقية" الكثير من أهميتها وتأثيرها فى تلك الحالة. أما فى "البوسنة" بيوغوسلافيا السابقة، وتحديدا فى عام ٢٠٠١، فقد كانت الهوية "الدينية" هي الهوية الوحيدة التى يتم اعتبارها والاهتمام بشأنها، حتى حين كانت الهوية "السياسية"، وكذا "اللغوية" متطابقتين بالفعل، ولكن هذه الهوية "الدينية" لم يكن لها شأن يذكر قبل ذلك بعشرة أعوام فى ظل حكم الرئيس "جوزيب بروز تيتو" ليوغوسلافيا.

وفى الوقت الذى استشعر العالم الإسلامى بأسره أنه واقع تحت حصار محكم، أضحت "الهوية السياسية" من الأمور بالغة الأهمية بالنسبة لكثير من المسلمين. فالمسلمون فى ماليزيا يشاهدون الفلسطينيين وهم يقتلون، وذلك عبر شاشات التلفاز، كذلك يشاهد الكشميريون، الشيشان ... ويشاهد النيجيريون، العراقيين ... ويشاهد الأفغان الصوماليين. وحين يكون الهاجس الرئيسى لدى المجتمعات متعلقا بالعنف السائد و"بالحرب العالمية ضد الإرهاب"، تفقد الكثير من الهويات أهميتها النسبية. بيد أن ما سبق لا يرقى إلى أن يمثل قاعدة عامة تصدق دائما. فالهوية "الإسلامية" السائدة، والتى لها قصب السبق فيما يتعلق بالأولوية والانتشار بالمقارنة بغيرها من عناصر الهويات الأخرى - تنبثق، بالأساس، فى أوقات العسر والشدة الاقتصادية، وحينها يضحى "الإسلام" العامل الحاسم ذا التأثير الممتد عالميا. على أن حقيقة الأمر تظهر أن معظم الخلافات لا تعدو إلا أن تكون ذات طابع "محلى" أو "إثنى". كذا، يتعين على السياسة الغربية السماح لتلك الأقاليم المحتقنة أن تهدأ بحيث تسمح للحياة بأن تعود وفق حالتها الاعتيادية، وبحيث تتخلص من القوات الأجنبية التى تحرض وتثير مشاعر "المحليين" سلبيا، وأخيرا، لتتيح للطابع "الإسلامى" الذى تصطبغ به الهوية أن يعود أدراجه كواحد من السمات المتصارعة فيما بينها أثناء حياة الفرد المعنى. فخلال فترات ممتدة من

حياتهم، ينحو المسلمون إلى التفكير فى أشياء مغايرة تماما عن مجرد كونهم "مسلمين".

إن المجتمعات، على اختلافها، حين يتوجب عليها الدفاع عن نفسها ضد الآخرين، تسعى لإنشاء حائط صد مشترك يحميها من الانتهاكات الخارجية لها. وهذا هو السياق الذى ينبغى لنا أن ننظر إلى "الهوية الإسلامية المعاصرة" بموجبه. ففى إقليم الشرق الأوسط، كان العامل الحاسم - منذ نصف قرن أو يزيد - بشأن الهوية يتمثل فى القومية العربية، والتى كانت لها الصدارة فى سلم الأولويات بما يتجاوز العامل "الإسلامى" بكثير. إلا أن الدلالات التى ينطوى عليها كون الفرد "مسلما" اليوم، ووفقا للصعيد العالمى، لم يشهد لها مثيل على الإطلاق فى أى زمن مضى. فالمسلمون الراغبون فى اجتذاب الدعم والتأييد العام ضد التدخل الأجنبى سيرفعون أية راية من شأنها توحيد الآخرين حول ذلك الهدف بفاعلية فائقة.

وحين فك العرب ارتباطاتهم بالإمبراطورية العثمانية ذات التعددية الإثنية فى نهايات الحرب الكونية الأولى، لم يضطلع الإسلام بأى دور على الإطلاق فى هذا الصدد، فقد كان الأمر، فى النهاية، لا يعدو إلا أن يكون صراعا إسلاميا - إسلاميا. أما عندما كان صراعا عربيا - تركيا، فكانت الإثنية، لا الإسلام، العامل الحاسم حينذاك. وقد راجت عملة القومية الإثنية فى العالم العربى، فى مصر على سبيل المثال تحت حكم جمال عبد الناصر فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين، كقاعدة للمقاومة ضد الانتهاكات والتدخلات الأوروبية، وكذا ضد "الإمبريالية الجديدة". بيد أنه، ونظرا للضعف الذى أصاب الحركة القومية العربية فى نهاية المطاف، فقدت "القومية" كهوية بريقها وألقها كقوة مأمولة، وحلت محلها الهوية "الإسلامية" - وهو طور ما زلنا نشهد تداعياته إلى يومنا هذا.

إن إدراكنا للأهوال والعواصف التى أسفرت عنها القومية ذات الأساس الإثنى، وكذلك ما جرته من حروب مقيتة على امتداد العالم بأسره خلال القرنين

التاسع عشر والعشرين – ليطرح سؤالا ذا وجاهة : هل الإثنية، بالفعل، الأساس الأكثر تنويرية فيما يخص إقامة الحدود الفاصلة، أيا ما كانت؟ أم أن ضربا بذاته من التعددية الإثنية هو النمط الأكثر "رقيا" لتراتبية السلم الاجتماعى وتنظيمه؟ بلا شك، فإن المجتمعات "الجاذبة للهجرة" كالولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وأستراليا، ونيوزيلندا لتؤمن بأن القواعد الإثنية المتعددة تعزز "النهج التسامحى" عن تلك المنبنية على التمايز الإثنى لكل فصيل مجتمعى. بيد أنه، ووفقا لذلك التصور، تبقى تلك المجتمعات "الجاذبة للهجرة" أمام بدائل وخيارات محدودة أخرى.

أما فى العالم الإسلامى، فلا يوجد أدنى إيمان بأن الإثنية تتيح، دائما، الأساس المثالى للتنظيم الاجتماعى والسياسى فى هذا المجتمع أو ذاك. فالإسلام ذاته، وعلى نحو فطرى، يمقت القوى والمبادئ "القومية" باعتبارها ضيقة الأفق ومسببة للخلاف والشقاق، حتى ولو أقر بأن الاختلافات هى إحدى عوامل القوة و"الثراء" المجتمعى. "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" (القرآن، سورة الحجرات – من الآية : ١٣). فوفقا للإسلام، يكون من الأفضل التطلع نحو الوحدة على هدى من تعاليم الدين، وبالانضواء تحت رايته ولوائه، إذ إن ذلك سيمتد ليشمل امتدادات أرحب من العناصر البشرية، فالإسلام ليس حكرا على أحد، وبوسع الكافة أن يعتنقوا مبادئه وقتما شاءوا. لذا، فإن السعى نحو إحداث التضامن وتثبيت أركانه – فى إطار الإسلام – يعد مفهوما أشمل وأرقى من السعى ذاته فى إطار هوية "إثنية" معطاة. أما إذا تعلق الأمر بصراع ضد غير المسلمين، فإن العامل الحاسم لتوحيد الصفوف، حينها، سيكون وفقا "للهوية الإسلامية" وفاعليتها المطلقة فى هذا الإطار.

لذا، فقد كان العديد من "الإسلاميين" ينتهجون موقفا عدائيا من الأفكار التى تطرحها "القومية العربية"، إذ رأوا أن مفهوم "القومية" فى حد ذاته هو صنيعة غربية مشئومة تدعو إلى الفرقة والخلاف. وبالفعل، فقد تحققت أسوأ مخاوفهم فى

الحالة التركية. إن "مصطفى كمال أتاتورك"، مؤسس الدولة التركية الحديثة، الذى جاء ليخلف الإمبراطورية العثمانية المتداعية الأركان، أو "رجل أوروبا المريض" كما يحلو للبعض نعت تلك الإمبراطورية - قد أبطل تماما جميع الآليات التى اعتمدتها القوة التركية إبان الخلافة العثمانية بتأسيسه الدولة القومية الجديدة فى تركيا. كذلك، فقد قام أتاتورك باعتماد نهج عدائى ضد جيران تركيا من البلدان الإسلامية، بل ومن "الإسلام" كدين، بصفة عامة. أما ثالثة الأثافى بالنسبة للمخلصين من المسلمين قاطبة، فقيامه بإلغاء الخلافة الإسلامية، وبالتالى تعطيل مهام "خليفة" المسلمين - باعتبار "الخليفة" الزعيم الروحى، إن جاز التعبير، لجميع المسلمين ذوى المذهب "السنى" على امتداد العالم بأسره - بما يشبه تماماً قيام أحد رؤساء الوزارة الإيطاليين بإلغاء "الكرسى البابوى" نهائيا. فالعالم الإسلامى، المقسم بفعل تضارب المصالح "القومية" وتباينها يعد عقيما فى تصديه لغرب توسعى غاشم.

ووفقا لهذا الاعتقاد، فإن حروب "الغرب"، والتى يتم اعتبارها موجهة ضد "الإسلام"، كما هى الحال فى "الحرب العالمية ضد الإرهاب" ... ستعمل بالتأكيد على تضخيم الدور الذى يتوجب على الإسلام الاضطلاع به، وستعمل كذلك على قيام المسلمين بالتضامن فيما بينهم إزاء ذلك الخطر الخارجى على نحو غير مسبوق.

المسلمون والإرث الإمبريالى المأساوى

إن إعادة ترسيم الحدود، والتى جرت على نحو تحكمى من قبل القوى الكولونيالية، وذلك وفق خطوط صممت خصيصا لتخدم مطالب قومية خاصة بها، أو لتتنافس مع قوى كولونيالية أخرى - كانت إحدى أكثر مظاهر الحكم الكولونيالى تدميرا للمستعمرات التى وطئتها أقدامها. فقد تم تمزيق روابط الجماعات الإثنية، وتم إهمال الحدود السياسية والاجتماعية وتجاوزها والتى جرى التعايش وفقا

لمقتضياتها قبل قدوم الحكم الكولونيالى، فضلا عن إنشاء حدود افتراضية تحكمية لمقتضيات الحكم الإدارى الجديد. فإذا ما كان العرب قد تركوا أحرارا فى اختيار أساليب الحكم، لكان عدد الدول العربية أقل مما هى عليه حاليا : إذ كان من الممكن أن نظل نشهد إقليما تاريخيا كان قائما فيما قبل "كسوريا الكبرى"، والذى كان ينتظم الدول التالية والقائمة حاليا نتيجة لتفككه (سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين). أما القيام بحكم تلك البلدان وإدارتها التى تم خلقها واستحداثها، على نحو مصطنع، خاصة فيما بعد ما عرف باسم "الاستقلال" - فقد كان يمثل نهجا ينطوى على كثير من المصاعب والإشكاليات بالنسبة لمن عساه قد حكمها وأدار شئونها من حكام عرب. كذلك، فقد كـــان "الولاء !!" لتلك البلدان المؤسسة حديثا، حينذاك، "ولاء اصطناعيا"، فكانت النتيجة الحتمية والمنطقية لذلك نشأة الخلافات حول الحدود "الاصطناعية" الجديدة التى فصلت تلك البلدان، فضلا عن الصراعات الإثنية والاقتراب المنبنى على محاولة التدخل لإعادة الوضع إلى ما كان عليه سابقا بإحراز صيغ جديدة للوحدة بين تلك البلدان. إذاً، فقد تعين على فاعليات التنمية السياسية أن تمضى، بالأساس، وفق طريق مرسوم سلفا يضع باعتباره مصالح البلدان الإمبريالية، ولو كانت تلك البلدان لتبعد آلاف الأميال عن البلدان الخاضعة للاستعمار بصوره المختلفة.

أما مقتضيات التنمية الاقتصادية فقد تم إخضاعها كى تنحرف عن المسار الذى كان من المنطقى أن تنتهجه بما يحقق الاحتياجات الشاملة لتحقيق التنمية الاقتصادية بالبلدان الخاضعة - نحو مسار "اصطناعى". كذلك، كان الهدف الرئيسى منه تحقيق مصالح البلدان الكولونيالية. ولا شك أن تلك البلدان قد دفعت باستثمارات صوب البنية الأساسية فى الكثير من مستعمراتها، بيد أن ذلك كان موجها، بالأساس، إلى خدمة مصالحها وتحقيق مآربها دونما أدنى اعتبار لإحداث تنمية إقليمية فاعلة. فعلى سبيل المثال، فقد تم مد خطوط السكك الحديدية وتسييرها فى إفريقيا، وذلك من مصادر المواد الخام إلى النقاط التجارية للتوزيع،

والقائمة عند السواحل هناك، ونادرا ما كان يتم ربط أية مستعمرة بأخرى. ووفقا للمقتضيات الثقافية، فقد قامت البلدان الكولونيالية بصبغ مستعمراتها بصبغة ثقافية تحكمية جديدة، وتفضيل جماعات إثنية ولغات بعينها دون أخرى، بما يتناسب، بالضرورة، ودرجة انصياعهم لتنفيذ أوامر البلدان الكولونيالية. وقد نجم عن ذلك كله، أن خلفت تلك الأوضاع قنابل سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وسيكولوجية موقوتة، والتى ما زالت تواصل انفجاراتها، وإحداثها لتوترات داخلية يمكن أن يمضى وقت ليس بالقصير حتى يتم التعامل معها بنجاح واقتدار.

ولقد قام "جوزيف ستيجليتز"، الاقتصادى المرموق بالبنك الدولى، والحائز جائزة "نوبل" فى الاقتصاد لعام ٢٠٠١، بتشخيص المشكلة:

"لقد خلفت القوى الكولونيالية إرثا تضاربت بشأنه الاتجاهات والآراء فى العالم النامى الذى كانت تحتله فيما مضى. بيد أن النتيجة الواضحة التى لاقت رواجا بين شعوب العالم النامى المحتلة كانت اتفاقهم على أنه قد تم استغلالهم من قبل القوى الكولونيالية. فالاستقلال السياسى الذى أحرزه العديد من بلدان العالم النامى فى أعقاب الحرب الكونية الثانية لم يضع حدا للكولونيالية الاقتصادية. ففى بعض الأقاليم، مثل إفريقيا، كان نهب الموارد الاقتصادية من قبل القوى الكولونيالية، حينذاك، وكذا اغتصاب البيئة الطبيعية وانتهاكها فى تلك المستعمرات يتم مقابل فتات ضئيل وثمن قليل، بادٍ للعيان. وكان الوضع أكثر حساسية فى أقاليم أخرى. ففى الكثير من بلدان العالم، يتم النظر إلى المؤسسات العالمية كالبنك وصندوق النقد الدوليين باعتبارهما آليات للهيمنة ما بعد الكولونيالية. إذ قامت هاتان المؤسستان بالترويج للأصولية السوقية (أو ما أطلق عليه، الليبرالية الجديدة)، ذلك المفهوم الذى أعلى الأمريكيون من شأنه إذ يشتمل "أسواقا حرة لا يتم التدخل فيها بتاتا" ..ولقد شهدنا أن أيديولوجية "السوق الحرة" كانت بالفعل ذريعة لمزيد من أشكال التدخل والاستغلال".

وفوق ذلك كله، فقد كانت مصادر النفط والطاقة بالعالم الإسلامى محركاً أساسياً للتدخل الغربى المستمر لامتلاك مصادر النفط، والتحكم فى شركاته، وسياسات التسعير، والأنصبة السعرية، فضلا عن استمالة الحكام الموالين للكولونيالية للحصول على أفضل العروض بالنسبة للنفط، والتدخل السياسى والمسلح. لقد أطاحت الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة عام ١٩٥٨ بالدكتور/ محمد مصدق - أول رئيس وزراء إيرانى منتخب ديمقراطيا، وذلك لتعطيل عملية تأميم النفط الإيرانى وإيقافها. وتبقى "السياسات النفطية" لعبة بالغة الخطورة ... تلك اللعبة التى تم التحكم بها من قبل القوى الكولونيالية العظمى على أراض مسلمة، بل وأبعد من ذلك.

الإسلام والراديكالية المناهضة للكولونيالية

تولد الإمبريالية، على الدوام، ردات فعل مناهضة لها. ولقد احتضنت الحركات المناهضة للإمبريالية أيديولوجيات عديدة تنوعت باختلاف المناسبة، وذلك لتحقيق أهدافها. فبعد الحرب الكونية الثانية، سيطرت القومية اليسارية على المشهد الأيديولوجى فى الشرق الأوسط. فما زال للرسالة القومية التى بعث بها جمال عبد الناصر من مصر جرسها المألوف : التنديد بالتدخل الغربى فى الشرق الأوسط، دعوة العرب لممارسة حقوقهم السيادية فى التحكم بمصادر الطاقة لديهم، إزالة القواعد العسكرية الغربية فى الإقليم، والدعوة إلى إيجاد حل عادل للقضية الفلسطينية.

أفكان لنا أن ننسى أن القومية العربية خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته كان ينظر لها بأنها التهديد الدائم للمصالح الغربية فى الشرق الأوسط بما استحث الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا القيام بعمليات مستترة للإطاحة بقادة إيران وسوريا، والتأثير بالتحايل على المشهد السياسى المصرى (وللأسف، فما زالت الولايات المتحدة الأمريكية تؤمن، ونحن فى القرن الحادى والعشرين، أنه

يمكن لها أن تتجاهل أو تتجاوز القوميات العربية أو غيرها من القوميات - وهو ما أدى إلى تلك الكوارث المشهودة فى العراق وسوريا). كذلك، وفى زمن سابق، وبما يزال يثير الدهشة إلى اليوم، اعتبرت الولايات المتحدة وبريطانيا "الإسلاميين" سلاحا يمكن به إضعاف شوكة القادة القوميين العرب، وتحجيم المصالح السوفييتية بالمنطقة.

فالولايات المتحدة، على وجه الخصوص، لم تتوقف عن الإطاحة المستمرة بنظم الحكم "غير الصديقة !!" سواء عن طريق العمليات المستترة، أو بالتدخل العسكرى السافر فى الدولة تلو الأخرى بهدف الإتيان بأنظمة موالية لها. والقائمة مذهلة : كوريا (١٩٥٠-١٩٥٣)، إيران (١٩٥٣)، جواتيمالا (١٩٥٤)، كوستاريكا (١٩٥٥)، سوريا (١٩٥٧)، إندونيسيا (١٩٥٨)، جمهورية الدومينيكان (١٩٦٠)، بيرو (١٩٦٠)، الإكوادور (١٩٦٠)، الكونغو (١٩٦٠)، فيتنام (١٩٦١-١٩٧٣)، كوبا (١٩٦١)، البرازيل (١٩٦٤)، شيلى (١٩٧٢)، أنجولا (١٩٧٥)، نيكاراجوا (١٩٨١)، لبنان (١٩٨٢-١٩٨٤)، غرينادا (١٩٨٣)، بنما (١٩٨٩)، العراق/الخليج العربى (١٩٩١)، الصومال (١٩٩٣)، البوسنة (١٩٩٤-١٩٩٥)، كوسوفو (١٩٩٩)، أفغانستان (٢٠٠١)، العراق (٢٠٠٣).

كذلك، فقد قامت واشنطن بتمويل جماعة "الإخوان المسلمين" فى معارضتها لنظام جمال عبد الناصر فى مصر أواخر خمسينيات القرن العشرين، واستعانت بالسعوديين للغرض ذاته. كما استعانت "بالإخوان المسلمين" للإطاحة بنظام حكم موال لعبد الناصر فى اليمن عام ١٩٦٢ . وامتد الدعم الأمريكى للحركات الإسلامية فى إندونيسيا أيضا. ولقد مارست إسرائيل الدور ذاته : فخلال ستينيات القرن العشرين قامت بإطلاق سراح الشيخ/ أحمد ياسين - زعيم حركة "حماس" الإسلامية، والذى كانت قد اعتقلته حينذاك، كما قامت بتمويل الحركة كأداة ضد "منظمة التحرير الفلسطينية" ذات الطابع العروبى القومى بقيادة "ياسر عرفات" - فى اعتقادها الأحمق بأن الإسلاميين أكثر مرونة من القوميين. وفى عام ٢٠٠٤،

قامت إسرائيل باغتيال الشيخ/أحمد ياسين!!

إن الولايات المتحدة تتحمل جانبا من مسئولية الانحراف المتعمد لدور العديد من الحركات الأيديولوجية فى العالم الإسلامى مخلفة إرثاً أسهم فيما بعد فى إزعاجها وتكدير صفوها. فإن لم يكن ثمة "إسلام" ليحثث واشنطن عن قوى أيديولوجية أخرى لإضعاف أو تدمير الحركات القومية الراديكالية فى حينها.

ولم يكن "القوميون العرب" الوحيدين فيما خص المقاومة. فلقد قامت عصبة من الزعماء القوميين بتأسيس "حركة عدم الانحياز" عام ١٩٥٥، والتى اعتبرت نفسها "قوة ثالثة" ما بين المعسكرين السوفييتى والغربى خلال الحرب الباردة. ولقد دعا قادة الحركة العالم النامى للدفاع عن حقوقه السيادية ضد القوى الغربية الإمبريالية الجديدة، والتى ما زالت تسعى للهيمنة الاستراتيجية. أما واشنطن فقد اعتبرت "الحركة" برمتها تهديدا لمصالحها، إذ أظهر الواقع الفعلى انحيازا من قبل "الحركة" باتجاه الاتحاد السوفييتى ضد الإمبريالية الغربية.

إن برنامج "حركة عدم الانحياز"، والوارد بإعلان هافانا عام ١٩٧٩، قد دعا إلى الحفاظ على "الاستقلال القومى، والسيادة، والتكامل الإقليمى، وأمن الدول الأعضاء" فى "نضالها ضد الإمبريالية، والكولونيالية، والعنصرية، والصهيونية، وجميع أشكال العدوان الخارجى، والاحتلال، والهيمنة، والتدخل، وفرض السيطرة، بالإضافة إلى مقاومة سياسات القوى والتكتلات الكبرى". ولقد أصبح ثلثا الدول الأعضاء فى هيئة الأمم المتحدة أعضاء فى "حركة عدم الانحياز". ومن المنظور الحالى، ما زال للغة الخطاب الخاص بالحركة وقعه الصادق.

(أما إسرائيل، فقد كان لها أسبابها الوجيهة لاعتبار الحركة مناهضة لها ولسياساتها، وبالفعل كانت تلك هى الحقيقة. ولم تكن معارضة الحركة لإسرائيل نابعة من عداء "السامية"، بل كانت معارضة لأيديولوجية قومية يهودية فى دعمها لإنشاء دولة صهيونية لليهود دون سواهم على حساب ثلاثة أرباع مليون لاجئ

فلسطيني خسروا ديارهم وأوطانهم. وبالنسبة للعالم الإسلامى، والعديد من بلدان العالم الثالث، فإن تأييد الغرب ودعمه لإنشاء دولة إسرائيل قد أثار المخاوف من أن تلك الدولة قد أريد بها أن تكون كيانا غريبا يتم استزراعه عمدا فى قلب الشرق الأوسط للسيطرة عليه. فالأحداث المتلاحقة لم تستطع أن تبدد أمثال تلك المخاوف).

وتنهض المشكلة الفلسطينية كدليل حى على أن القيام بربط جذور القضية بالإسلام كعقيدة أمر غير ذى موضوع. فلا يوجد ارتباط من أى نوع بين "الإسلام" كعقيدة وبين المشكلة الفلسطينية وجذور الأزمة العربية الإسرائيلية. فلقد ظهرت المشكلة إلى الوجود عندما نزح عدد من يهود أوروبا الشرقية إلى فلسطين على نحو وئيد، فى البداية، لتتسارع وتيرة تلك الهجرات فيما بعد مدعومة فى ذلك بتمويلات ضخمة من قبل "اليهودية الغربية" فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. أما الحركة الصهيونية الجديدة، فقد نشأت بالتزامن مع حركات قومية إثنية أخرى فى أوروبا، مثل تلك الناشئة فيما بين الإيطاليين، والألمان، والهنغاريين، والسلاف، والأتراك، وغيرهم. وفضلا عن ذلك، فقد كان لليهود ما يسوغون به السعى نحو إنشاء حركة دينية قومية نظرا للتمييز العنصرى الذى طالما عانوا ويلاته، وخاصة فى أوروبا الشرقية. هذا فى الوقت الذى تزايدت فيه مخاوف الفلسطينيين جراء تلك الهجرات الكثيفة النازحة من أوروبا صوب أراضيهم، إذ بدا جليا أن الأيديولوجية الصهيونية قد اعتبرت كامل التراب الفلسطينى وطنا جديدا لليهود.

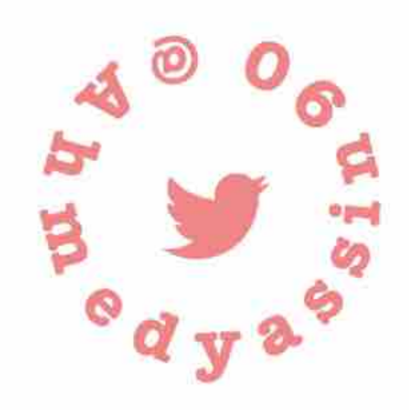
ولقد كانت جرائم "الهولوكوست" بحق اليهود، والتى يتحمل الأوروبيون وزرها بالكلية، دافعا قويا لنزوح اليهود صوب الأراضى الفلسطينية مدعومين فى ذلك من قبل الأوروبيين الذين أذنبوا بحقهم. ففى حركة شاملة للترهيب والتطهير العرقى، قامت إسرائيل بتهجير ثلاثة أرباع مليون فلسطينى عن ديارهم وأراضيهم إبان تأسيس دولة إسرائيل الجديدة. ولقد استاء الفلسطينيون كثيرا من إرغامهم على دفع ثمن أوزار الأوروبيين بحق اليهود. فإذا لم يكن ثمة "إسلام"، لاستاء الفلسطينيون المسيحيون من فقدانهم لأراضيهم لصالح اليهود، ولم يكن ذلك ليثنيهم

عن القيام بالهجوم وشن حرب عصابات لاستعادة تلك الأراضى. وكان ذلك ما حدث بالفعل من قبل الفلسطينيين المسيحيين الذين شاركوا فى الحركات الهجومية ضد الإسرائيليين. وبالرغم من اتخاذ ذلك الصراع الإثنى الفلسطينى/ اليهودى صبغة دينية على كلا الجانبين خلال الأعوام الأخيرة، فلم يكن "للإسلام"، -كعقيدة- أدنى ارتباط بجذور ذلك الصراع.

إن حركات المقاومة الفلسطينية قد مرت، فى الواقع، بثلاث مراحل مميزة خلال تحولاتها الأيديولوجية : مرحلة القومية العربية، والمرحلة الماركسية-اللينينية، وأخيرا، المرحلة الإسلامية. إلا أن ثلاثتها تشترك فى الهدف ذاته، وهو السعى لإنشاء دولة "فلسطين" المستقلة. فالقضية الفلسطينية ما زالت واحدة، أما المحرك الأيديولوجى فظل متغيرا - أيديولوجيات متغيرة لمظالم ثابتة.

وتشير تلك الأحداث بجلاء إلى المشاعر الكامنة وراء سياسات بلدان العالم النامى فى سعيها الدوب نحو استقلاليتها وسيادتها غير المنتقصة. ويمثل العالم الإسلامى جانبا من تلك الحركة. إذ يعد "الإسلام" المحرك أو الراية التى يتم بموجبها مناهضة التدخلات الغربية. فإذا لم يكن ثمة "إسلام"، لظلت المظالم من قبل الإمبريالية كما هى، ولما خفتت حدة المقاومة، إلا أن حركات المقاومة كان يمكن أن تحرم من الزخم الأيديولوجى والمشاعر المشبوبة للإسلام فى تزاوجها مع الأبعاد القومية.

إذاً، فطالما كان الغزاة، والمحتلون، والمضطهدون من غير المسلمين، يظل "الإسلام" يتوسل به، جنبا إلى جنب، مع القومية ... فى مناهضة تلك الفئات.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث عشر

الحرب-المقاومة-الجهاد-الإرهاب

لم يعان إقليم فى العالم، قط، من التدخل المكثف والمستمر من قبل الغرب مثلما عانى إقليم الشرق الأوسط. ويرجع ذلك لأسباب عديدة منها : قربه الجغرافى من الغرب — ذلك الغرب الذى اتسم لاحقا بنزعات توسعية فائقة، تمتع الشرق الأوسط بموارد هائلة للطاقة قد أغرت الغرب بما لها من أبعاد وتأثيرات مالية كبيرة، موقعه الاستراتيجى الجيوبوليتيكى العالمى، عبر الزمان، كملتقى طرق بين الشرق والغرب. ولقد رأينا فى الفصل السابق ما كان للكولونيالية، والإمبريالية، والإمبريالية الجديدة من آثار على امتداد قرون عديدة، وما اتسم به الحاضر من وطأة التدخل الأمريكى فى شئون الشرق الأوسط.

إن الغضب المتزايد، وكذا الإحباط المتراكم، وتزايد معدلات العنف الراديكالى الذى ولده هذا التدخل عبر التاريخ يعد أمرا ماثلا للعيان. ولعل السؤال لا يكون : كيف وقعت أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، بل الأحرى : لماذا لم تقع تلك الأحداث قبل ذلك اليوم؟ وبما أن الجماعات الراديكالية بالشرق الأوسط قد باتت تعبر عن مظالمها فى زمننا المعولم، ففيم العجب من قيامها بتوجيه ضرباتها إلى قلب الغرب المعتدى؟ إذاً، لا يستدعى الأمر كبير عناء لكى يستشرف المرء ضرباً من المقاومة الارتدادية المكبوتة، ونوعا من ردة الفعل الحادة، بل العنيفة إزاء الممارسات الغربية طويلة المدى. وعند هذا الحد، يكون من المخادعة أن يلتفت الغرب حوله ليسأل فى دهشة : ما الخطب الذى حل بالعالم الإسلامى، أو بالإسلام لأن يشهد الغرب كل تلك الاستجابات وكذا فى ردات الفعل العنيفة من المسلمين؟ فما هى إلا بلادة وتجاهل متعمد من الغرب ألا يقر بآثار سياساته عبر القرنين

الماضيين أو يزيد فى تحفيز ردات الفعل تلك من قبل العالم الإسلامى.

كذلك، يجب ألا يثير الالتجاء إلى استخدام العنف أدنى دهشة. فحين تسوء الأمور وتتدهور الحال، من الذى يعمد إلى الاستجابة أولا، المعتدلون أم الراديكاليون؟ وفى هذا الإطار، يبدو "أسامة بن لادن"، وكأنه نذير الشؤم - إذ تشير ممارساته العنيفة المبكرة إلى أن الأحوال قد ساءت كثيرا فى إقليم الشرق الأوسط. فإذا كان الراديكاليون قد هبوا للدفاع عن قضاياهم للمرة الأولى، فإلى أى مدى تقف القوى الأكثر اعتدالا والتى تشاركهم الهواجس والشكوك ذاتها؟ إننا لندرك أنه يوجد تعاطف ضمنى عام، إن لم يكن تأييداً حقيقياً لأسامة بن لادن فى الشرق الأوسط، حتى ولو لم تغتفر ممارساته بالكلية.

إذاً، فإنه لا يستقيم، من وجهة النظر التحليلية، الزعم بأن الإسلام أو

الأيديولوجيا الراديكالية هما المصدر الرئيسى لتلك المقاومة. وبالرغم من أنه لا شك فى أن العوامل الدينية والأيديولوجية تضطلع ببعض دور فى بلورة المقاومة واستقطابها، وكذا فى ردات الفعل العنيفة، إلا أنها ليست المصدر الحقيقى للمشكلة. فهل نمتلك رفاهية الخلط بين المحرك، وبين المشكلة؟ أم هل لنا، بالأحرى، أن نفترض أن ما عاناه المسلمون على أيدى الغرب، على مدار قرون عديدة، لم يكن ليعنى الكثير إذا ما كان سكان الإقليم من غير المسلمين؟

وبالفعل، فإذا ما كانت مشاعر الاستياء وعدم الرضا فى الشرق الأوسط تبحث عن محرك للتعبير عنها، فلم لا يكون ذلك المحرك هو الدين ... "الإسلام"؟ وكما رأينا من قبل، فقد كان الدين والهرطقة رايتين خالدتين لسياسة المقاومة فى الشرق الأوسط منذ الأيام الأولى للمسيحية. إن الإسلام ليملى على أتباعه قدرا من التوقير والإذعان للسلطة، كما أنه يضفى نوعا من الشرعية على أولئك المؤمنين بعدالة قضيته – وهى، فى هذه الحال، الدفاع عن الأمة ضد التدخل الخارجى.

فإن لم يكن من خلال الإسلام، فوفق أى إطار، إذاً، سيبلور الشرق الأوسط مقاومته للغرب؟ وما عساها، إذاً، تكون صرخة الاستنفار؟ لقد رأينا كيف كانت القومية العربية بقيادة مصر الناصرية محركا لتلك المقاومة خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته، بيد أنه لم يكتب لها النجاح، ويذكر أن تحالفا عسكريا ثلاثيا شكلته كل من بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل قد سعى بالفعل للإطاحة بعبد الناصر أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦، كذلك، فقد سطع نجم الماركسية–اللينينة كمحرك أيديولوجى للمقاومة، لكنها لم تسفر عن شىء يذكر فى نهاية المطاف. إذاً، فالإسلاموية، بجذورها الضاربة فى أعماق الثقافة الإقليمية، وقدرتها على استنفار التأييد الشعبى تحت دعاوى "المصلحة الإقليمية" – هى المحرك الأيديولوجى الأكثر معاصرة، وحداثة، والأمضى فاعلية، وذلك فى المستقبل المنظور، على أدنى تقدير.

فعندما أرادت روسيا أن تعترض على سياسات العالم الخارجى إزاءها، ماذا

كان المحرك الذى اعتمدته لاستنفار التأييد العام؟ حين وجد ستالين نفسه تحت هجمات جيش الرايخ الثالث أثناء الحرب الكونية الثانية، كان يدرك تماما أن الماركسية-اللينينية لن تسعفه لاستنهاض مشاعر الروس للمقاومة. ومن ثم فقد لجأ إلى القومية الروسية عله يجد مخرجا ولكن دون جدوى، وأخيرا انتهى به المطاف، محاطا بمسحة من يأس، إلى التوسل بالكنيسة الأرثوذكسية ذاتها كقوة دافعة ومحرضة، كونها رمزا "لروسيا المقدسة". أما الإمبراطورية اليابانية، قبيل الحرب الكونية الثانية، فقد سعت إلى إيجاد محرك لاكتساب تأييد رعاياها لسياساتها التوسعية والإمبريالية فى آسيا، فتم التوسل بما للعقيدة الشنتوية من هالة قدسية، بل وببعض المعتقدات البوذية لاستمالة الروح اليابانية. وفى سريلانكا، قامت الأغلبية السنهالية ذات العقيدة البوذية فى قمعها للانفصاليين التاميل ذوى العقيدة الهندوسية – بالالتجاء إلى الرهبان البوذيين لاستنهاض التأييد السنهالى العام للحرب الأهلية بين الطرفين. كذلك، فقد سعى هتلر لاجتذاب تأييد الكنيسة لأغراض المجهود الحربى الألمانى. بل إن الولايات المتحدة ذاتها، فى زمن الحروب، تدفع الكنائس البروتستانتية، والكاثوليكية، والمعابد اليهودية لإقامة الصلوات العامة، والقداسات لإضفاء روح الشرعية على الصراعات القومية.

إذاً، وفى هذا السياق، سيكون أمرا يدعو للدهشة إذا لم يتم التوسل بالإسلام فى صراع الشعوب الإسلامية ضد الهيمنة الغربية – جنبا إلى جنب مع القوميات المحلية، إذ تعضد تلك القوى من بعضها البعض إزاء التهديد الخارجي.

فلا غرو، إذاً، أن تكون واشنطن معنية بكون الإسلام مستخدما كمصدر هام للمقاومة وردات الفعل العنيفة تجاه الممارسات العسكرية للولايات المتحدة. فهل تتوقع الولايات المتحدة، إذاً، ألا ينتفض الشرق الأوسط للمقاومة، بل يذعن لما تمليه الأهداف والمطامع الاستراتيجية الأمريكية؟ لا يمكن بحال أن يحدث ذلك، وإلا كان واضعو السياسات ومتخذو القرار بمنأى عن الحقيقة ومقتضيات الواقع (فالإمبراطورية، عادة، ما تكون بمعزل عن الحقيقة لإيمانها بأنها ذاتها تخلق

الحقيقة). لذا، فإذا تم اختيار المحرك ودراسته، الإسلام فى هذه الحالة، للوقوف على المثالب والمشكلات، كما لو أن الإسلام ذاته، بشكل أو بآخر، هو مصدر المشكلة المرتبطة بالمقاومة - لكان ذلك انحرافا عن لب القضية وجوهرها. أم أنه من الحصافة أن ننكر حقيقة تأثر الآخرين كثيراً بما نقوم به من ممارسات بحقهم؟ إن ذلك، أيضا، ما يذهب الباحث السويسرى، "طارق رمضان"، إلى نعته "بأسلمة المشكلة".

وينحو "روبرت كابلان" إلى تبنى نهج يختلف قليلا، إذ يذهب إلى القول بأن المكون الإسلامى له ارتباط، على نحو أو آخر، بالقضية المثارة ... ويبدو طرحه فى هذا الشأن جديرا بالمتابعة :

"كان المستشرق، وعالم الإثنيات الأمريكى "تشارلتون ستيفنز كوون" قد كتب عام ١٩٥١ أن الإسلام قد أسهم فى تحقيق السعادة، والحياة الكريمة للملايين فى بيئة قاحلة مقفرة على امتداد أربعة عشر قرنا. فإلى جانب رسالته الصريحة الواضحة، فإن الطابع "الجهادى" للإسلام قد جعله عنصر جذب لأولئك المضطهدين. إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا يأبه معتنقوه بالقتال، إذ هم مستعدون لخوضه. فالحقبة السياسية المتسمة بالتوترات، والضغوط البيئية، والحساسيات الثقافية المفرطة، والعشوائيات المنتشرة، وهجرات اللاجئين - لهى حقبة مهيأة، بالفطرة، لانتشار الإسلام وتوغله ... وهو الدين الأسرع انتشارا فى العالم المعاصر. (وبالرغم من أن الإسلام ينتشر فى غرب إفريقيا، إلا أن ذلك يتم عرقلته بضرب من التوفيقية الأرواحية، وهو ما يجعل المعتنقون الجدد أقل قابلية لأن يصيروا متطرفين مناهضين للغرب، بيد أنه يجعل إيمانهم أقل رسوخا وثباتا ... وهو الأمر الذى يضعف من فاعليته كمناهض للجريمة.

وتشير ملاحظات "كابلان"، بالفعل، إلى كون الإسلام صرخة استنفار ناجزة ضد التدخل الخارجى. ولكن لو لم يكن ثمة "إسلام"، لكان لنا أن نتوقع ردات فعل

عنيفة تصدر عن أية ثقافات رازحة تحت ظروف عصيبة مماثلة.

إن التغطية الإعلامية المتلفزة لأحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر قد أفرزت انطباعات هائلة : فمدى جسامة العمليات المنفذة، ووحشيتها البالغة، وأعداد الوفيات، وألسنة النيران والدخان الأسود الناجم عن التدمير متصاعدا فى سماء صافية الزرقة لهو أمر لافت وصادم. على أن تلك الصور تشى بإيحاءات مختلفة تتباين بتعدد مشاهديها.

فبالنسبة للعديد من الأمريكيين، وكذا بعض المشاهدين الأوروبيين، فإن الرسالة واضحة جلية : ففيما تسعى الولايات المتحدة جاهدة لإرساء دعائم السلام فى ربوع العالم، إذا بها فجأة تتعرض لهجوم وحشى من قبل جناة مهووسين. إذاً، فالحدث يستدعى عقابا سريعا ورادعا لاستئصال شأفة المعتدين ليكونوا عبرة لمن عساه يراوده أدنى خاطر للقيام بعمل مشابه. فحقيقة الأمر، ما هى مثالب الثقافة الإسلامية – وبعض المنتمين إليها فى عداد الحلفاء – والتى قد تفرز أمثال تلك الممارسات الشنيعة المروعة؟ بعبارة موجزة، فإن التاريخ يبدأ فى الحادى عشر من أيلول/سبتمبر.

ولكن تظل أعداد غفيرة على امتداد العالم بأسره، بما فيه الغرب ذاته، قد قرأت المشهد بما احتواه من أحداث قراءة مختلفة بعض الشئ. فالهجوم كان، بالطبع، صادما، ووحشيا، ومأساويا بحق المدنيين الأبرياء الذين لقوا حتفهم خلاله. لكن لم يكن ذلك الهجوم ليمثل مفاجأة. فبتأمل السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط، والغضب الإسلامى المتصاعد على مدار فترة زمنية ممتدة بشأن العديد من القضايا، كان من المحتم، عاجلا أم آجلا، أن تثور فئة من المسلمين، وترد الكرة على من ابتدرهم بالعداء. فالتاريخ لا يبدأ فى الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، ولكن كان هناك مقدمات استهلالية طويلة. إذ تغرى سياسات الولايات المتحدة الأمريكية بالمزيد من أمثال تلك الهجمات طالما ظلت تسعى إلى الهيمنة الدولية،

والتدخل السياسى والعسكرى، وطالما استمرت إقامة مستودعات لشحن مشاعر العداء ضدها. وعلى ما كان من جسامة وأهوال صبغت الأحداث، إلا أن الأمل قائم فى أن تكون تلك الهجمات ناقوس خطر لواشنطن عن مدى جسامة الموقف، وحتمية إعادة التفكير فى الأمر برمته. ويبدو هذا الرأى الأكثر شيوعا فى بلدان العالم المختلفة فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية.

عدالـــة القضيـــة

يقرر الكثير من المسلمين، بمشاعر من الأسى، أن مجتمعاتهم مثقلة بمشاكل جسام. بيد أنه لا يساورهم أدنى شك فى شرعية موقفهم وعدالته فى مقاومتهم للهيمنة الغربية، بل وفى الرد بالمثل إذا ما تطلب الأمر ذلك. فبالنسبة للمسلم، أو أى امرئ آخر، ينهض الافتداء والتضحية بالحياة من أجل مطلب أو قضية بعينها دليلا ساطعا دامغاً على صدق القضية وعدالتها. إلا أن الربط ما بين الحرب والدين يثير مشاكل أخلاقية مركبة فى أعراف جميع الديانات الكبرى. وتعود جذور أعراف التفكير المسيحى بشأن الأسس الأخلاقية التى قد تبرر الحروب إلى القديس أوغسطين، على أقل تقدير، وتثير سؤالا يبدو عصيا على مقابلته بإجابة شافية : ما الذى يجعل الحرب عادلة؟ إن التفكير الأخلاقى الغربى التقليدى بشأن عدالة الحروب ينطوى على عنصرين مميزين، على أقل تقدير : أسباب خوض حرب ما، وأخلاقيات التعامل أثناء الحروب. كذلك، يرسى التفكير الغربى التقليدى معايير أخرى ترتبط بمدى إلحاح الحاجة إلى خوض حرب ما لو كان ثمة بدائل سلمية لتسوية النزاع، ومدى المعركة ونطاقها، وشرعية السلطة الداعية إلى الحرب، ومدى عدالة القضية التى يحارب من أجلها المرء، ومدى مناسبة حجم الدمار الذى تلحقه الحرب بالطرف الآخر ردا على نظيره الملحق بذلك الطرف، فضلا عن وضعية غير المشاركين بالحرب، والمدنيين، والمنشآت المدنية.

إن الحديث عن "أخلاقيات الحروب" يبدو من قبيل التناقض، حين يكمن الموت

والدمار فى صميم العمليات العسكرية ذاتها. وبطبيعة الحال، وعلى نحو مطلق، فإن إزهاق الروح، بصفة عامة، هو عمل لاأخلاقى. بيد أن الاعتبارات الأخلاقية والقيمية، فى وقت الحروب، تنحو إلى أن تكون نسبية فى كليتها : فإذا ما تحدثنا عن العدالة، يبقى السؤال: عدالة من؟ وماذا عن مدى التناسب؟ وما الحدود المقررة بشأن الجرحى أو القتلى من المدنيين؟ أى الطرفين على صواب، وإلى أى مدى يمتد ذلك الصواب؟! إن جميع البلدان، على مدار التاريخ، والتى قرعت أجراس الحروب لتزعم، بل لتكاد تؤمن بعدالة مطلبها وقضيتها فى مواجهة أعدائها الأشرار.

وتزداد حدة المأزق فى المجتمعات الديمقراطية. فإذا عمدت الدولة إلى قدر من الغموض فيما يخص "العنصر الأخلاقى" وذلك أثناء الحرب أو الصراع ذاته، فإنها، وقتئذ، ستثير مشاعر الكراهية فى صفوف محاربيها ورعاياها. وسينجم عن ذلك أن يصبح ما تزعمه من عدالة مطلقة لمطلبها أو قضيتها باهتا وغير ذى موضوع. لذا تعن الحاجة إلى أن يصبغ كل طرف مسعاه بأنه الحق المبين دون منازع، وأن الآخر هو "الشر المطلق". وتعمل وسائط الإعلام الحديثة على زيادة تعقيد المشكلة، إذ أتاحت للكافة إمكانية متابعة مجريات الحروب عن طريق المشاهدة التليفزيونية أو المتابعة عبر الانترنت تبعا لوجهات نظر متباينة. وقد عمدت الإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش الابن إلى فرض نوع من الرقابة الذاتية على وسائط الإعلام الأمريكية فيما يتعلق بتغطية الأحداث الدموية لحرب العراق. ولقد كانت القناة الفضائية العربية، "الجزيرة"، إحدى أهم مصادر الغضب والاستياء الأمريكى لقيامها، على نحو متواتر، بنقل تفاصيل الحرب من موقع الأحداث، والتصوير الحى لأثر القصف والعدوان على المدنيين فى تلك التخوم. وعادة ما كان الإعلام الأمريكى ينعت مشاهد القتلى من الأمريكيين، بل والضحايا من المدنيين بأنها "مسيئة وفاحشة" مستهدفا من وراء ذلك، ضمن أهداف أخرى، عدم رؤية الأمريكيين لها. كذلك، فإن الممارسات التى أدت إلى وقوع تلك الأحداث والمشاهد لهى "مسيئة وفاحشة" بالمثل. فمن السهولة بمكان أن تخاض الحروب طالما ظلت عواقبها التى

تطال البشرية ... نائية، ومغيبة، وتجريدية.

الجهـــاد

إن النظريات بشأن "الجهاد"، والأدبيات الكثيرة المتناولة له هى المكافئ الوظيفى لنظرية "الحرب العادلة" فى المسيحية. وقد صيغ هذا المفهوم لإعطاء تعريفات وحدود بشأن ممارسات المسلمين وسلوكهم أثناء الحروب. ولعل لفظة "الجهاد" هى اللفظة الأكثر إثارة للجدل والمشاعر، والتى يربطها الغرب بالإسلام فى عالم اليوم. فلا يكاد يمر يوم أو ليلة إلا ويتم استخدام اللفظة، إما بواسطة "الجهاديين" أنفسهم، أو عن طريق منتقدى الإسلام. ويضيق صدر الكثير من المراقبين مما يتداول عن جذور مفهوم "الجهاد" أو مدى استخدام اللفظة، إذ يؤمنون أنها لا تعدو إلا أن تكون تبريرا للطابع الشنيع والمروع للتحدى "الجهادى" لقوى السلام والاستقرار الغربية.

و"للجهاد" أكثر من معنى فى القرآن، وأحاديث النبى محمد. فجذر الكلمة فى اللغة العربية يعنى "الجهد" أو "القتال" أو "الصراع". وغالبا ما تستخدم اللفظة لتعنى نضال المرء وكفاحه ليحيا حياة خيرة فاضلة، وليعلى من شأن القيم والمبادئ الدينية فى معاملاته الحياتية، وليعمل على نشر الإسلام بدأبه الذاتى عن طريق أن يكون المرء مثالا وقدوة تحتذى، وكذا ليرسخ دعائم الإيمان. وفى هذا السياق، فإن لفظة "الجهاد" ترتبط لدى المسلمين بإيحاءات ومدلولات دينية إيجابية خاصة بتكريس حياة المرء سعيا لتحقيق الأمثلية والأفضلية. وهذا هو "الجهاد الأكبر" كما أشار إليه النبى محمد.

أما "الجهاد الأصغر" فيشير، وفقا للنبى محمد، إلى ما يبذله المرء خلال المعارك الحربية، والتى يكون محركها الأساسى الدفاع عن الإسلام والذود عن حياضه، وكذا حماية "الأمة الإسلامية" من أى خطر يتهددها. وبما أن الجماعة المسلمة الناشئة، والتى كانت تعانى حصارا من قبل الوثنيين فى مكة، قد عانت

انتهاكات عديدة من قبل أعدائها، فقد كان الدفاع عن تلك الجماعة صادرا عن آيات وردت بالقرآن، وأحاديث النبي محمد. بيد أنه ما أن استتب الأمر لجماعة المسلمين، حتى شرعت فى الدخول إلى مرحلة من التوسع العسكرى. وبينما كان الإسلام ينتشر، فقد واجه العديد من البلدان والإمبراطوريات التى اصطرع معها فى حروب لفرض السيادة والهيمنة على أقاليم عدة.

إن التشريع الإسلامى ليضع اشتراطات وقوانين مطولة بشأن قواعد السلوك والتعامل أثناء الحروب، منها ألا يتم استهداف النساء أو الأطفال، وأن يكون ثمة مناسبة وتكافؤ فى القوى، وألا يتم تدمير أو تخريب أية منشآت مدنية دونما مسوغ، وأن يكون نداء الحرب واستنفار الحشود صادرا عن إمام عادل أو من بيده سلطة شرعية تخوله ذلك، وأن الحروب التى لا تسترشد بهدى من تعاليم "الجهاد" وضوابطه هى حروب غاشمة وغير شرعية. ويضرب النبى محمد المثل حين يأمر المحاربين بألا "تؤذى امرأة، أو طفل، أو هرم، أو أى من أتباع الديانات الأخرى فى كنائسهم، ومعابدهم، وصوامعهم". ولقد تجادل "علماء الإسلام"، إبان العصور الوسطى، عن مدى شرعية استخدام المنجنيق ضد حصون الأعداء وقلاعهم. وقد ذهب عدد من العلماء إلى عدم مشروعية ذلك نظرا لما قد ينجم عن استخدام أمثال تلك الأسلحة من الأضرار بالمدنيين، وليس بالمتحاربين فحسب.

وكما تم انتهاك المبادئ الأخلاقية المسيحية فيما يتعلق بالحروب، فقد انتهكت نظيرتها الإسلامية كذلك. "فالدمار التكافئ"، وهى لفظة أريد بها التلطف، قد أدى إلى إبعادنا عن "البعد الإنسانى" فيما يخص وفيات المدنيين أثناء الحروب - تلك اللفظة التى راجت وشاع استخدامها فى الولايات المتحدة الأمريكية. ففى أثناء الحرب الكونية الثانية، فإن إلقاء القنابل فوق مدينتى "هامبورج"، و"دريسدن" الألمانيتين، واستخدام الأسلحة الذرية لأول مرة فى التاريخ، حين ألقت الولايات المتحدة القنابل الذرية فوق مدينتى "هيروشيما"، و"ناجازاكى" اليابانيتين - كان ذلك كله موجها ضد المدنيين فى استعراض للقوة أريد به الترهيب والترويع.

فكما أشار "فون كلاوسفيتز"، فإن الحروب وقودها العاطفة، والتى دائما ما تتجاوز أغراض الحرب ذاتها، والدافع وراء خوضها. فما أن يبدأ الصراع حتى تتصاعد حدة الكراهية فيما بين الطرفين ... فالوحشية تولد وحشية مضادة تصطرعان فى موجات تصاعدية لانهائية من العنف الأحمق الموتور.

وقد استخدم مصطلح "الجهاد" وفقا لمدلولاته الأكثر حداثة فى العديد من المناحى الدنيوية، مثلما تم استخدام مصطلح "الحروب الصليبية" بمفهومها الغربى للدلالة على محاربة الجريمة أو الحملات ضد تعاطى المواد المخدرة أو الاتجار بها. إن نضال الزعيم الهندوسى "المهاتما غاندى" ضد الاحتلال البريطانى لبلاده قد أشير إلى كونه "جهادا". كذلك، فقد تم اعتماد المصطلح ذاته لنعت الحملة القومية للرئيس التونسى العلمانى الأسبق، الحبيب بورقيبة، والخاصة بالتنمية الاقتصادية فى بلاده. ولقد استخدمت بعض الحركات النسائية مصطلح "الجهاد"، وأطلقته على صراع المرأة فى سبيل تحررها وانعتاقها، واستخدمه آخرون للتعبير عن الصراع من أجل إرساء نظام أخلاقى واجتماعى عادل. بيد أن المصطلح قد استخدم، بادئ الأمر، لنعت ممارسات أولئك المدافعين عن "ديار الإسلام" ضد هجمات الغرب، وكذلك لنعت الممارسات العنيفة ضد العديد من البلدان "الغربية"، خاصة تلك الضالعة فى عمليات عسكرية على "الأراضى الإسلامية". بل لقد استخدم بعض الوهابيين، والسلفيين المهووسين المصطلح ذاته لتبرير انتهاكاتهم بحق المسلمين الشيعة.

وبمرور الزمن، أصبح الدفاع والهجوم يتناوبان، وأخذ مفهوم "الجهاد" يستخدم، على نحو واسع، للإشارة إلى الحرب ضمن دعايات المسلمين الحربية. وفى بعض الأحيان، شهدنا دولا إسلامية تحارب دولا إسلامية أخرى، ولم يكن نشر "الإسلام" ذا صلة بتلك الحروب. فالمهدى، الثائر السودانى فى القرن التاسع عشر، قد أطلق على ثورته ضد الإمبراطورية العثمانية "جهادا"، كما نادى بموت جميع الأتراك !! وبالمثل، فقد أعلن الوهابيون "الجهاد" ضد جميع المسلمين من "غير

الوهابيين". لذا، فقد استخدم مصطلح "الجهاد" سلبا وإيجابا على مدار عقود مديدة، ليجد رواجا فى عالم اليوم، إذ يتم اعتماده كمسوغ للمقاومة ضد القوى الغربية فى العالم الإسلامى.

إن بعض الجماعات الراديكالية المتطرفة قد انتحلت الآن ذلك "المفهوم القرآنى" حتى فى صراعاتها وحروبها ضد خصومها السياسيين المحليين أنفسهم داخل العالم الإسلامى، إلى الحد الذى ذهب إليه بعض الراديكاليين فى إعلانهم كون "الجهاد" الركن السادس للإسلام، جنبا إلى جنب مع أركانه الخمسة التى تأسس عليها. إذاً، فأيا ما كان الاسم، فجدير بنا أن نشير إلى تبرير القانون الدولى للمقاومة المسلحة من قبل الشعوب ضد القوى العسكرية الأجنبية الساعية إلى غزو بلادها واحتلالها.

أما مفهوم "الجهاد" فقد أصبح بالتوازى مع مفهوم "التدخل الغربى" قرينين متلازمين :فكلاهما قد خلق نهما للقتال ذاتى التعضيد، كل فى اتجاهه صوب الآخر، أو ضربا من الاعتماد التبادلي على العنف والوحشية، وكأنما يبرر أحدهما الآخر. وفضلا عن ذلك، فقد أضحت دراسة ظاهرة "الجهاد" صناعة محلية فى الولايات المتحدة الأمريكية، يقودها متشيعون مخلصون من كلا الطرفين، والذين يتجادلون بحماسة بشأن طبيعة الظاهرة/المشكل. وتسعى جل تلك الدراسات إلى الوقوف على بعض مثالب الثقافة الإسلامية، وثقافة إقليم الشرق الأوسط لتبرير الصراعات. لقد أضحى "الجهاد" مصدرا رئيسيا للمشكلة، لا تمثيلا لها أو تعبيرها عنها.

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن الجماعات الراديكالية المتطرفة التى تعتمد العنف أسلوبا لها قد أساءت استخدام مصطلح "الجهاد"، جنبا إلى جنب مع تأويلاتهم المتطرفة لكل ما هو إسلامى لإشاعة روح الكراهية والعداء للغرب فى أوقات الصراع المشترك. وسوف نقوم لاحقا بمناقشة بعض عناصر ذلك الطرح.

فهل يعقل، إذاً، الإيمان بأنه لو لم يكن ثمة "جهاد"، أن يمتنع العالم الإسلامى عن القيام بحرب عصابات بحق الغرب؟ على أية حال، فقد كان هجوم الولايات المتحدة ضد نظام صدام حسين مهمة علمانية بحتة، كما كانت إرهاصات وبادرات المقاومة الأولى قد نبعت من قبل حزب "البعث"، والقوى القومية بما لا علاقة له ألبتة "بالإسلام" أو "الجهاد". إلا أن مفهوم "الجهاد" قد أضحى، فيما بعد ذلك، حجر الزاوية الذى ارتكنت إليه معظم ردات فعل المعارضة العراقية ضد اعتداءات الولايات المتحدة وغزوها للعراق. وهنا، أيضا، يجرى الخلط بين "الإسلام" كقاطرة ومحرك للصراع، وبين جذور المشكلة ذاتها.

السلطة العادلة وأسامة بن لادن

لقد طرح مفهوم "الجهاد" ثانية حين وطئت القوات الأمريكية أراضى المملكة العربية السعودية إبان حرب الخليج الأولى لتحرير الكويت من الغزو العراقى لها. وتزخر أدبيات الفقه والشريعة الإسلامية بآراء متباينة حول مدى مشروعية استعانة الحاكم المسلم، أيا من كان، بغير المسلمين للقضاء على مسلمين آخرين. وتكون أمثال تلك الاستعانة مقصورة على أحوال بعينها، كما تتطلب إبرام معاهدات ذات شروط صارمة محددة. ففى حالة المملكة العربية السعودية هذه، فقد وافق "العلماء" السعوديون، فى النهاية، على السماح للقوات الأمريكية باستخدام الأراضى السعودية وفقا لمدى مؤقت وصارم، وذلك لأغراض الدفاع عن المملكة ضد أى غزو محتمل من قبل العراق، على أن يفهم أنه يتعين على تلك القوات مغادرة المملكة حالما انقضت دواعى الأزمة تلك. إلا أن القوات الأمريكية لم تغادر المملكة بعد أن وضعت الحرب أوزارها، الأمر الذى اعتبره "العلماء" نقضا للمعاهدة وانتهاكا لشروطها، بيد أن معظمهم قد آثر السلامة فلم يثيروا أدنى احتجاج ضد حكومة بلادهم. إلا أن أسامة بن لادن والكثير من رجالات الدين، وكذلك المواطنين قد أثاروا الاحتجاجات، واحتلت تلك القضية حيزا كبيرا فى إحدى الموجات المبكرة من إدانات بن لادن، وشجبه للسياسات العسكرية الأمريكية فى المنطقة. فكما صرح بن

لادن خلال لقاء له مع روبرت فيسك "للجارديان" البريطانية، عام ١٩٩٦ :

"عندما جاءت القوات الأمريكية إلى المملكة العربية السعودية، بلد الحرمين الشريفين، كانت هناك معارضة شديدة لذلك من قبل "العلماء"، وطلاب الشريعة الإسلامية على امتداد المملكة ...

... إن المواطن السعودى البسيط يعلم أن بلاده هى أكبر منتج للنفط فى العالم، إلا أنه، وفى الوقت ذاته، يعانى ضرائب مرتفعة ويحظى بخدمات لا ترقى إلى مستو مقبول مرض - ويدرك البسطاء، الآن، ما يتردد على ألسنة "العلماء" أثناء خطبهم بالمساجد من أن بلادهم قد أصبحت مستعمرة أمريكية ... لذا، فهم يبذلون قصارى جهدهم ولا يألون وسعا لإجلاء الأمريكيين عن أراضيهم...

وفى النهاية، سيأتلف جميع المسلمين فى النضال ضد أمريكا ... وأنا أومن أنه، إن عاجلا أم آجلا، فسوف يرحل الأمريكيون عن أراضى المملكة، كما أومن بأن الحرب المعلنة من قبل الولايات المتحدة ضد الشعب السعودى تعنى الحرب ضد جميع المسلمين فى كل مكان. إن مقاومة الاعتداءات الأمريكية ستنتشر فى العديد من البلدان الإسلامية".

هنا، فإنه لا يتعين علينا أن نتفق وتفسير بن لادن للأحداث كى ندرك كونه يوجه اتهاما قانونيا يجب أن يتبناه الشعب السعودى، والشعوب الإسلامية الأخرى فى رفض التدخل الأجنبى غير المشروع فى السعودية. على هذا النحو، شرع بن لادن فى طرح قضيته الكبرى بدءا من رفض استمرار بقاء الجيش الأمريكى فى المملكة، ومرورا بتوسيع دائرة الهجوم ومداه. ومن الجلى أن قضية بن لادن، ومطالبه قد لاقت رواجا كبيرا على امتداد العالم الإسلامى فى أعقاب أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، التى أدت وقائعها إلى الدعوة "لحرب عالمية ضد الإرهاب"، مما أشعل الرغبة لدى المحبطين والمهووسين لاعتماد آليات الإرهاب والتفجيرات الانتحارية. ولا يرتبط كل ما سبق "بالإسلام" فى شىء سوى فى نبرة

البلاغة الخطابية، بل يرتبط ارتباطا وثيقا بالاعتبارات الجيوبوليتيكية، والمنظور ذى الطابع القومى للمصالح السعودية والإسلامية.

ولكن تلك هى لغة تنظيم "القاعدة" – المنظمة الجهادية المتطرفة التى تفتقر مرجعيتها الدينية إلى شرعية المؤسسات المعترف بها. فإذا ما نظرنا إلى مؤسسة دينية كبيرة تحظى بدرجة عالية من الشرعية والقبول العام –مجمع البحوث الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة –، نجد أنه عشية الاعتداءات الأمريكية على العراق فى الحادى عشر من آذار/مارس عام ٢٠٠٣، أصدر المجمع بياناً كان له قوة الفتوى الملزمة :

يدعو المجمع كل المسلمين لتوحيد الصف والجهود، والتضامن فى مواجهة تلك الحروب العدوانية غير الشرعية على العراق ... فى ظل ما يحيط بعالمنا العربى والإسلامى من نذر العار والشر التى تمثلها الحشود العسكرية مدججة بأقوى آلات الدمار وأخطرها. وقد أيقن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف أن أمتنا العربية والإسلامية بل وعقيدتنا الدينية (الإسلام) هى هدف أساسى لكل هذه الحشود العسكرية التى تستهدف ملايين البشر من أمتنا، وتستهدف كذلك عقيدتنا ومقدساتنا كافة، وكل ما يملكه عالم العرب والمسلمين من مصدر الثروة والقوة، متمثلا هذا كله فى مرحلته الأولى ضرب العراق، واحتلال أرضه وامتلاك ثروته الوفيرة من النفط ... ويحيى المجمع ويبارك الموقف الداعم لرفض ضرب العراق ، وضرورة استخدام الوسائل السلمية فى حل الأزمة ... وفى ضوء ما سبق يعتقد الجميع أن العدوان على العراق واقع لا محالة، وهنا، وبمنطق، شريعة الإسلام أنه إذا نزل العدو فى أرض المسلمين فستكون أمتنا العربية والمسلمة أمام غزوة صليبية جديدة تستهدف الأرض، والعرض، والعقيدة، والوطن ... ويكون "الجهاد" وقتها فرض عين على كل مسلم. وبناء عليه، فإن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف يدعو العرب والمسلمين فى كل أنحاء العالم أن يكونوا على استعداد للدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا، ويكونوا فوق ما

يحيطهم من خلافات حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا. ويدعو المجمع جميع العرب والمسلمين فى كل أنحاء العالم ألا يهنوا وألا يضعفوا أمام هذا العدوان، لأن الحق تبارك وتعالى متكفل بنصرة دينه، وإظهاره على الدين كله.

وفى تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٤، أصدر ستة وعشرون من العلماء وأساتذة الجامعة المشهورين بالمملكة العربية السعودية فتوى تدين الحرب على العراق. فبعد مباحثات تناولت الحاجة إلى البحث أولا عن آليات لإحلال السلام، أعلن بيانهم :

لا شك فى وجوب جهاد المحتلين على ذوى القدرة، لأنه من جهاد الدفع، وبابه دفع الصائل، ولا يشترط له ما يشترط لجهاد المبادأة والطلب، ولا يلزم له وجود قيادة عامة، وإنما يعمل فى ذلك بقدر المستطاع. إن هؤلاء المحتلين هم، ولا شك، من المحاربين المعتدين الذين اتفقت الشرائع على قتالهم حتى يخرجوا أذلة صاغرين بإذن الله، كما أن القوانين الأرضية تضمنت الاعتراف بحق الشعوب فى مقاومتهم، وأصل الإذن بالجهاد هو لمثل هذا، كما قال -سبحانه - : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير" (سورة الحج، آية ٣٩). وقد قرر -سبحانه- سنة التدافع التى بها حفظ الحياة وإقامة العدل وضبط الشريعة، فقال : "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز" (سورة الحج، آية ٤٠). فالمقاومة، إذاً، حق مشروع، بل واجب شرعى يلزم الشعب العراقى الدفاع عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونفطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف الاستعمارى، كما قاوم الاستعمار البريطانى من قبل.

بل لقد أصدر الإمام الشيعى آية الله السيستانى، المتسم بالطابع الحذر المحافظ، أحكاما تنص على شرعية مقاتلة القوات الأمريكية فى العراق من منطلق الدفاع عن الذات ... كان هذا غيضاً من فيض الأحكام والفتاوى المتعددة التى جاءت كردات فعل غاضبة تجاه تلك الحرب، والتى مهدت لأحكام قانونية مدروسة

للظروف التى يكون بمقتضاها الجهاد، ومن ثم الحرب - مشروعاً. إن مقاومة أى معتد فى أى مكان هو أمر طبيعى ومشروع، فإذا ما أحيطت تلك المقاومة بصيغة شرعية إسلامية لعزز ذلك كثيرا من موقف المدافع.

دوافــع الإرهــاب

إن الممارسات الإرهابية والأعمال الانتحارية قد اعتمدت كمصطلحات وفدت على لغة الغرب المستخدمة لوصف أفعال المسلمين فى إطار الحروب. ومن قبل، فقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية مهام فرق "الكاميكازى" اليابانية ضد غواصاتها البحرية إبان الحرب الكونية الثانية. إن القول بأن "الإرهاب هو سلاح الضعفاء" يظل حقيقة بدهية، فقد صرح الشيخ/أحمد ياسين - الزعيم الأسبق لحركة "حماس" أنه لو كان بمقدور الفلسطينيين امتلاك مقاتلات جوية، وقاذفات قنابل واسعة المدى، لكانت تلك الأسلحة موضعا للاختيار. أما القوات البريطانية فى أمريكا الشمالية إبان حروب التحرير، فقد أدانت القوى الأمريكية غير النظامية لقيامها بأعمال غير قانونية إذ انخرطت فى حروب عصابات بدلا من المواجهة المباشرة للقوى والتشكيلات البريطانية المتفوقة عليها. لذا، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى اليوم لأن تحصر مفهوم "الحرب" فى العمليات العسكرية النمطية والمعيارية، والتى من الجلى امتلاكها لناصيتها. وفى الوقت ذاته فهى تشجب تلك العمليات غير النظامية التى تجعل القوة الإسلامية غير أخلاقية أو جبانة. (وبالرغم من أن المرء بإمكانه أن يدين من يقوم بالتفجيرات الانتحارية بالعديد من الأوزار، إلا أنه يصعب أن يكون "الجبن" إحداها).

فهل تكمن المشكلة، أساسا، فى الإسلام؟ أم توجد جذور سياسية واجتماعية لتلك المشاكل تتطلب المزيد من التناول والتحليل؟ ومن الجلى أن هذا الكتاب يناقش كون المشكلة لا تكمن فى "الإسلام" بالأساس، وإنما تكمن فى الإرث الجيوبوليتيكى والاجتماعى الذى يمس المسلمين ... أولئك الذين يلجأون بالفعل إلى "سلاح

الضعفاء". إن العمليات الإرهابية لها تاريخ تليد عبر مختلف الأزمنة والبقاع، إلا أن القرن العشرين قد شهد بعض النماذج الصارخة لتلك العمليات مثل : الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام الجنوبية، ومنظمة "إيتا" الانفصالية الساعية لتحرير إقليم الباسك من السيطرة الإسبانية عليه، و"الدرب المضيء" في بيرو، و"حزب العمال الكردستاني" (وهو منظمة كردية في تركيا)، وحركة "مجاهدي خلق" (وهي جماعة إيرانية مناهضة للجمهورية الإسلامية هناك)، ونمور التاميل في سريلانكا، والسيخ في الهند، والحزب الشيوعي في الهند أيضا، وكذلك حركة ناكسال في الهند، و"الجيش الجمهوري الأيرلندي" في أيرلندا، وحزب "كاخ" اليميني المتطرف في إسرائيل، و"الألوية الحمراء"، و"أوم شينريكيو" أي الدين الحق - في اليابان، و"القوات المسلحة الثورية لجيش كولومبيا" في كولومبيا، ... وغيرها. وقد شهدت العقود الأخيرة تزايدا ملحوظا في أعداد المنظمات الإسلامية مع ما استجد من مواجهات تجاه الغرب.

إذاً، فمن أجل أي مبدأ نقوم بالتضحية بأنفسنا؟ وهل الظروف المصاحبة لتلك التضحية تصبغ عليها معنى أسمى؟ فالتضحية بالنفس من أجل الآخرين - العائلة، العشيرة، القبيلة، الأمة - وأن يضحي المرء بحياته من أجل خالقه ... تلك قضايا عولجت وفق أكبر قدر من الحرمة، والقداسة، والتبجيل، والتضامن الجمعي. فالموت، وخاصة الموت الوحشي، يتطلب معنى ومسوغا. فالناجون والأحياء يتلمسون عزاء وتفسيرا ... بعضا من معنى أو هدف لذلك الغياب المبكر الذي حدث باختيار المرء ذاته. وماذا عن طبيعة عملية القتل ذاتها؟ وما الظروف التي يمكن لنا بموجبها تبرير إزهاق الروح؟ إن الإجابة عن تلك الأسئلة الأخلاقية ذات العمق تتجدد بتجدد الملابسات والظروف في كل عصر لأي من طرفي النزاع. وغالبا ما يخلع عليها أرفع المصطلحات الأخلاقية الممكنة وأسماها - المعتقدات الدينية لثقافة ما.

وتجري مناقشة الدوافع لزمن ليس بالقصير. فلاشك أن مجتمعات الشرق الأوسط تعد أقل تقدما بالقياس بغيرها، وذلك في مناح شتى. فالمستوى التعليمي،

ومستويات المعيشة، وفرص التوظف عادة ما تكون غير متاحة بالنسبة للسواد الأعظم من المواطنين باستثناء عدد قليل من "النخب النفطية"، وبلدان الخليج العربى الثرية ذات الكثافة السكانية المنخفضة. لذا، تبدو آفاق المستقبل محدودة وغير واعدة. كذلك، فإن سوء الإدارة هى السمة الغالبة على تلك البلدان، فليس هناك ما يفوقها سوءا إلا البلدان الإفريقية. إلا أن الحقيقة الكبرى أن تلك الظروف قد صبغت إقليم الشرق الأوسط لأزمنة طوال، بالتزامن مع الإسلام على مدى أربعة عشر قرنا. بيد أن الزيادة المطردة الهائلة فى العنف، والإرهاب، والتفجيرات الانتحارية تعتبر حديثة للغاية، وترتبط مباشرة بحقبة اتسمت بسياسات تدخلية أوروبية وأمريكية بالغة فى الشرق الأوسط. فحتى لو كانت ثقافة العالم الإسلامى، بحد ذاتها، ثقافة مهيأة لممارسة العنف والوحشية بأكثر من أية ثقافات مجتمعية أخرى – وهو افتراض محل نظر –، فإننا ما زلنا بحاجة إلى تفسير شاف للزيادة المطردة فى أعمال العنف فى الشرق الأوسط فى ظل الظروف الراهنة.

وللأسف فقد اعتدنا جميعا، فى العقد الأخير أو نحوه، عالما يزخر بالعنف، والإرهاب، والتفجيرات الانتحارية – إلى الحد الذى شعرنا معه أن ذلك هو النمط الاعتيادى للحرب الإسلامية. بيد أنها، وعلى خلاف هذا، تمثل عوامل جديدة طرأت على المشهد الاستراتيجى. إن الإرهاب والأعمال التفجيرية تكاد تكون أمرا غير مألوف قبل خمسة وعشرين عاما أو نحوها. فلم يكن يسمع بالتفجيرات الانتحارية فى العالم الإسلامى منذ خمسينيات القرن العشرين وحتى سبعينياته، حتى فى ذروة اتقاد الحماسة الثورية للقومية العربية، والهزيمة المروعة التى منى بها العرب فى حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ مع إسرائيل. لقد نفذ الفلسطينيون أعمالا إرهابية ضد إسرائيل، بيد أنها لم تكن أبدا مهاما انتحارية. لقد كان شيعة لبنان أول من اعتمد التفجيرات الانتحارية بنجاح هناك، وما خلفته من آثار مروعة بحق الأهداف الأمريكية المستهدفة – السفارة الأمريكية فى بيروت وثكنات الأسطول الأمريكى، وذلك فى بدايات ثمانينيات القرن العشرين. أما نمور التاميل الهندوس فى

سريلانكا، فقد كانوا أول من اعتمد الاستخدام المنظم للسترة الانتحارية في الفترة ذاتها، والتي أدت إلى أحد أعلى معدلات الأعمال الانتحارية خلال تلك الحقبة. ومنذ ذلك الحين فصاعدا، ارتفعت معدلات التفجيرات الانتحارية في الشرق الأوسط على نحو رهيب، خاصة بعد الغزو الأمريكي للعراق وأفغانستان.

ففي عام ٢٠٠٧ وحده، والذي شهد أعلى معدلات تلك التفجيرات، كان ثمة ٦٥٨ هجوما انتحاريا، منها ٥٤٢ هجوما في أفغانستان والعراق المحتلين، وذلك وفقا للإحصائيات الحكومية الأمريكية. ويفوق ذلك ضعف عدد الهجمات خلال أي من سنوات ربع القرن الفائت. وفضلا عن ذلك، فإن أكثر من أربعة أخماس تلك التفجيرات الانتحارية قد وقع في السنوات السبع الماضية فحسب، في حين نشهد حاليا ذيوع تلك الظاهرة واستشراءها على امتداد العالم بأسره. ولقد أوردت "الواشنطن بوست"، في عددها المؤرخ ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٨، أنه "بدءا من عام ١٩٨٣، فإن المفجرين المنتمين لأكثر من خمسين جماعة فيما بين الأرجنتين والجزائر، وكرواتيا والصين، والهند وإندونيسيا - قد استخدموا متفجرات السيارات لعمل الأحزمة المتفجرة، وكذا السترات، والألعاب، والدراجات، والدراجات البخارية، وحقائب الأمتعة المفخخة، والبطون الحبلى الزائفة ... وتستخدم كلها للتفجير . فمن بين ١٨٤٠ حادث خلال ربع القرن المنصرم، وقع أكثر مما نسبته ٨٦٪ منها بدءا من عام ٢٠٠١، أما أعلى الأرقام السنوية فقد وقعت خلال الأعوام الأربعة الفائتة".

وتوجد العديد من النظريات التي تذهب إلى بحث أسباب تلك الزيادة الهائلة التي شهدتها معدلات التفجيرات الانتحارية، وتقدم معظم تلك النظريات ملمحاً أيديولوجياً أو آخر لطبيعة الصراع. ويؤمن بعض المحللين أن الدوافع الدينية تأتي في صدارة الدوافع : الرغبة في الدفاع عن "الأمة"، وعن العالم الإسلامي، والتضحية بالنفس في سبيل الإسلام، وللخلود في الجنان. بينما يذهب محللون آخرون إلى وجود اضطرابات نفسية تدفع بالمرء للإقدام على الانتحار ... فالمرء

الذى ينتحر، وفقا لهم، غير كامل الأهلية. فى الوقت الذى تذهب فيه فئة ثالثة إلى أن مشاعر الإحباط الناجمة عن تردى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمرء تدفعه بشدة لارتكاب ذلك الفعل غير المسئول. أما "روبرت بيب"، من جامعة شيكاغو، فيذهب إلى أن معظم تلك الممارسات تأتى كاستجابة مباشرة وردة فعل ضد الاحتلال الأجنبى، والرغبة فى تحرير الوطن من الغزاة. إلا أن آخرين، من أمثال "مارك سيجمان"، يقرون فى تنويعات على اللحن ذاته بأن الاستثارة القومية والثقافية هى المحرك، بيد أن عملية الانخراط الفعلى فى الممارسة على المستوى الفردى تجد وقودها فى التأثير البالغ لفكر الجماعة المحيطة بالمرء – جماعة من الأصدقاء أو أعضاء أحد التجمعات المتاخمة ... الذين يقررون، على نحو جماعى، التطوع معا للدفاع عن القضية والتضحية بالنفس دونها.

لذا، فإن الدوافع تعد أمرا هاما إذ تشتمل، فى طياتها، على علاج لها. فقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أن تلتجئ إلى تفسيرات معانى "القرآن" وتأويلاتها كى تثبت للمتمردين العصاة بطلان ممارساتهم وعدم مشروعيتها وفقاً للنصوص الدينية، أو بالأحرى كونها "لا إسلامية". كذلك، فقد دعت واشنطن العديد من رجالات الدين الإسلامى للاجتماع لشجب الإرهاب الممارس تحت ستار الدين وباسمه. وبالفعل، فقد استجاب عدد كبير من العلماء لتلك الدعوات وقاموا بالشجب والتنديد. بيد أنه، وللأسف، فإن جل المعضلة لا يكمن فى مواجهة مرتكبى تلك الجرائم بالتأويل السليم للنصوص الدينية، على هذا النحو المبسط الساذج. وفضلا عن ذلك، فإنه من المستبعد أن تكون أية سلطة إسلامية يتم الاستعانة بها قادرة على إخماد حروب العصابات الوحشية الرافضة لتلك السياسات المقيتة ... تلك الحروب الموجهة ضد قوى الاحتلال الأمريكى. ولقد أصدر كبار "العلماء" فى المملكة العربية السعودية ومصر بيانات وفتاوى عديدة تندد بالممارسات الوحشية لتنظيم "القاعدة"، وغيره من التنظيمات المتطرفة. كذلك، فقد تم استتابة بعض السجناء الذين " أدركوا فداحة الخطأ والجرم الذى اقترفوه" ... تلا ذلك قيامهم بالتبرؤ من

ارتباطاتهم وممارساتهم الوحشية السابقة.

وفى حين أنه من الممكن، بمرور الزمن، أن يتم إقناع بعض الراديكاليين بمدى ما اجترحوا من إثم، وذلك على أيدى رجال الدين، إلا أن السجون تمثل قنوات أكثر إقناعا لتبرؤ السجناء من أفعالهم السابقة، وهو ما يثير الشكوك حول مدى جدية عزم السجناء على التوبة والإقلاع عما سلف. إن معظم كبار علماء الدين فى المملكة العربية السعودية ومصر يتم النظر إليهم باعتبارهم "تابعين" يدينون بالولاء للنظام السياسى بما يتواءم ورؤية ذلك الأخير، وقلقه من تنامى تلك الأيديولوجيات الراديكالية. لذا، فإن عدد علماء الدين الوسطيين، والمتسمين بالنزاهة والموضوعية ممن يقدرون، بالفعل، على مخاطبة عقول أولئك الراديكاليين الشباب وإقناعهم، يبقى محدودا.

إن معظم الشباب يصبحون راديكاليين نظرا لطبيعة ما يشهدونه فى واقع حياتهم : الغزو الأجنبى، قتل الأمريكيين للكثير من المدنيين، القوى العسكرية الغربية والإسرائيلية، شعور بالمذلة، والمهانة، والانكسار، تعطش إلى الأخذ بالثأر والانتقام ... ويكون هذا الانتقام فى بعض الحالات لأناس من عائلاتهم ذاتها قد قتلوا. تلك قضايا واقعية تجرى أحداثها ولا ترتبط بالضرورة بالأيديولوجية الإسلامية. فإذا لم يُشاهَد حدث معين حين وقوعه بالفعل، فتتم مشاهدته عبر شاشات التلفاز. فالراديكالى العازم على استخدام العنف لن يعوقه أو يثنيه عن عزمه سماعه لموعظة أو خطبة مفادها أن الإسلام لا يؤيد التفجيرات الانتحارية أو قتل المدنيين. فالمرء النازع نحو الانتقام والقصاص بسبب الهجمات، الفعلية والمتخيلة، ضد عائلته، أو جماعته، أو دينه سوف يسعى جاهدا لقتل الأعداء. وسيقوم ذلك المرء بالتنقل ما بين بديل ثيولوجي وآخر، وفتوى دينية وأخرى إلى أن يصادف بديلا أو فتوى تتيح له رخصة وسلطة تنفيس غضبه الإجرامى. إذاً، تأتى الثورة أولا، ثم يتبعها التبرير الثيولوجى، وهو تعزيز أخلاقى لدعم ممارسة قد تقرر سلفاً إنفاذها. وفى هذا الإطار، سيكون من العسير تماما أن نجد آية ما فى

"القرآن" تقنع العقول المتعطشة للانتقام، أو تعمل فجأة على تحرير العقول المتحجرة، أو تلين "قناة الغضب"، أو تلطف مشاعر الاستياء وعدم الرضا. إذاً، تسبق الجوارح العقل. وفضلا عن ذلك، فإن النصوص المقدسة فى معظم الأديان تحتوى آيات عديدة، يمكن أن يتم نزعها من سياقها واستخدامها لتأييد الأفعال الوحشية، بغض الطرف عن ماهية ذلك الدين وثقله وفحوى رسالته.

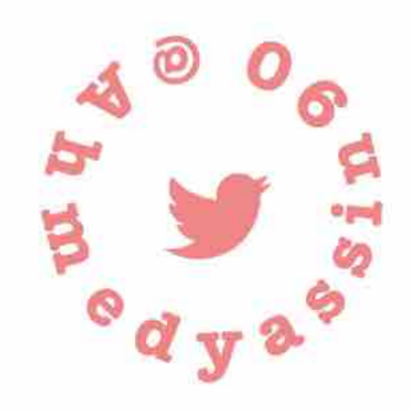
كذلك، فإن عمليات غسيل الأدمغة التى تمارسها السلطات فى البلدان الإسلامية لا تغير، بالضرورة، من الآراء ووجهات النظر المتبناة. فالطلبة من الشيعة فى مدارس المملكة العربية السعودية يتم إجبارهم على استخدام كتب تحط من قدر المذهب الشيعى. بيد أن الشيعة هناك يقولون إن أبناءهم يعرفون كيف يتجنبون الحرج، ويتخلصون بالضحك من تلك الرسائل الموجهة فى مدارسهم. وبالمثل، وفى مجتمعات شمولية كالاتحاد السوفييتى السابق، كانت أعداد كبيرة من السكان تعلم أن الدعاية التى تقوم بتوزيعها وسائط الإعلام التابعة للحكومة باطلة، كما كانت تسقط تلك الأفكار تماما عن أذهانها، وذلك على نحو ممنهج، حتى لو قامت بالمداهنة بإظهار اعتناقها لها بين جمهور العامة. وبعبارة موجزة، فإن قيام المدارس من خلال نصوص الكتب بها، أو تصريح أنظمة المعلومات بمزاعم وادعاءات معينة لا يعنى قبول تلك الرسائل من قبل المجتمعات المتسمة بالتشكك والحذر.

إن الكثير من المسلمين المعتدلين يرفضون التأويلات والتبريرات الدينية المقدمة من قبل تنظيم "القاعدة" عن ممارساته الدموية. بيد أنهم يدركون، أيضا، أن الأجواء ليست آمنة بالنسبة للعالم الإسلامى، وأن الاستسلام والإذعان للغرب لا يعد بديلا كذلك. كما أنهم قد يمقتون تلك الممارسات، بيد أنهم يرونها الاستجابة الوحيدة الممكنة، "سلاح الضعفاء". إن المجتمعات المسلمة قد تأسف كثيرا لتلك الأفعال الوحشية، كما قد تخشى ضلوع أبنائها بها، لكنها تجد أنه من المفهوم حدوث تلك الأمور فى ظل الأحوال الراهنة، ومن ثم يصعب إدانة من أتى بتلك الأفعال كردة فعل للأحداث. إن الإذعان المجتمعى لردات الفعل العنيفة تلك يبدو،

على أدنى تقدير، عاملا هاما فى تمديد ظاهرة الممارسات الإرهابية بقدر وجود القائمين بالعنف أنفسهم.

إن المجتمعات تدافع عن نفسها، ووفقا لرؤية بذاتها فإن الأمر هو ذاك بالفعل، رغم البساطة الظاهرة. فالإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش الابن قد زعمت أنها كانت تحاول فقط الدفاع عن نفسها، بأن "تقتل الإرهابيين فى العراق، قبل أن يباغتونا فى عقر دارنا". بيد أن معظم المعارك، والحروب، والسجال بين القوى تجرى وقائعها على أراض إسلامية فى ظل هجمات القوى الخارجية وانتهاكاتها، كما استمرت تلك الحروب لآماد طوال. لذا، فإنه عند الحديث عن قضية الدفاع، يبدو الأمر أكثر ملاءمة وانطباقا على المسلمين عنه على الولايات المتحدة، وما للأخيرة من يد طولى تنشر قواتها بموجبها على امتداد العالم بأسره.

إن الدين سيتم التوسل به على الدوام، وفى أى مكان لاجتذاب العامة واستقطابهم، ولتسويغ الحملات والمعارك والحروب الكبيرة، وبخاصة فى الثقافات التوحيدية. بيد أن المطالب، والحملات، والمعارك، والحروب لا ترتبط بالدين. فإذا ما أبعدنا عنصر الدين عن المعادلة، فسيظل هناك مطالب، وحملات، ومعارك، وحروب.


@Ahmedyassin90

الفصل الرابع عشر

مـــا العمـــل؟

نحو سياسة جديدة للتعامل مع العالم الإسلامى

تعريف الإرهاب فى عالم الواقع

ليس فى استطاعة أحد أن يقضى على ظاهرة الإرهاب على سطح كوكبنا الأرضى. فالإرهاب يعد أحد أكثر تمثلات السياسة خبثا، بيد أنه من الممكن كبح جماحه والحد من انتشاره. وللأسف، فإن السياسات الحالية للولايات المتحدة الأمريكية لن تفعل ذلك، بل لقد أدت فى الواقع إلى استشراء المعضلة واستفحالها. ولعل الخطأ الأول هو الاستخدام الحكومى للولايات المتحدة لتعريف قانونى ذاتى الفرض للإرهاب ... ذلك التعريف الذى لا يمس جوهر تلك المشكلة عالمية الطابع وحقيقتها.

وعلينا الاعتراف بأن محاولة التوصل إلى إجماع عالمى بشأن تعريف الإرهاب قد صارت مشكلة شائكة منذ مدى زمنى طويل. فالحكومات، فى حقيقة الأمر، تخلص إلى تعريف الإرهاب بأنه "ما أعتبره وأراه إرهابا من وجهة نظرى"، أى أنه تعريف غير موضوعى ذاتى الغرض، فضلا عن كونه وقتيا يعالج متطلبات اللحظة الراهنة فحسب. إن التعريف المقدم من قبل وزارة الدفاع الأمريكية فى عام ٢٠٠٤ هو تعريف ينطوى على مغالطة وانحراف ملحوظين : "الإرهاب هو الاستخدام العمدى للعنف غير القانونى أو هو التهديد باستخدام العنف غير القانونى لغرس الخوف والرعب بقصد إجبار الحكومات والمجتمعات وترويعها بغية تحقيق أهداف سياسية ودينية وأيديولوجية، فى مجملها".

إن المصطلح المفخخ سياسيا فى سياق التعريف السابق هو "استخدام العنف غير القانونى"، إذ لم يتم تقديم توضيح أو تعريف للمقصود بـ "غير القانونى"، بيد

أنه يبدو أنها تعنى "ذلك غير المجاز من قبل الحكومة". ولكن، أليس ذلك، بالتحديد، هو ما يشكل غالبا محور الصراعات السياسية – تعريف "غير القانونى"؟ وينحو المفكرون السياسيون الغربيون إلى تعريف "الدولة" بأنها الكيان الوحيد الذى يحق له الاحتكار الشرعى لاستخدام العنف. إذاً، فالدولة تساوى "القانونى". وقد تلائم تلك المعادلة معظم الديمقراطيات الغربية حيث تمارس الحكومات سلطات "الحكم" وفقا لإجماع الأمة، ولكنها أبعد ما تكون عن الحقيقة فى ظل البلدان ذات الحكم السلطوى الشمولى الذى يقصى المعارضة السياسية ويضطهدها، حيث لا يتم التغيير عادة إلا من خلال بعض أشكال الأنشطة "غير القانونية". وتسعى حكومات تلك البلدان للتأكيد على أن جميع تلك المعارضات "غير قانونية". وغالبا ما تواجه تلك المعارضات بأنماط من "إرهاب" الدولة الموجه ضد جماعة بذاتها من رعاياها أنفسهم.

إن أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، و"الحرب العالمية ضد الإرهاب" قد عملا على تمكين جميع البلدان التى تواجه أى نوع من العصيان أو التمرد الداخلى وتعضيدها، بتأهيلها لصبغ خصومها بتهمة "الإرهاب". فالإرهاب، بالطبع، هو الكلمة الفصل، فإذا ما توسل به، لم يعد هناك داع لأى تفاوض أو معالجة سياسية، فيكون للدولة مطلق السلطة فى اعتماد أقصى عنف ممكن لاستئصال شأفة المعارضة. ولقد وجدت الأنظمة السياسية على امتداد العالم فرصة كبيرة فى اللحاق بركب "الحرب العالمية ضد الإرهاب" التى أعلنها بوش الابن، إذ أحلوا أنفسهم فى عداد أولئك المنتمين "لمحور الخير" فى مواجهة قوى "محور الشر"، ممن لا يمكن أن يتم التوصل معهم إلى أية تسوية أو أدنى توافق. ولقد أوجز "مايكل والترز" المشكلة ببراعة : "فى البداية، يكون الاضطهاد ذريعة للالتجاء إلى الإرهاب، ثم يستخدم الإرهاب كذريعة لممارسة الاضطهاد. فالأول ذريعة اليسار المتطرف، والثانى ذريعة اليمينيين المحافظين الجدد".

ويتفق الجميع أن العنف السياسى فى أى مجتمع هو أمر غير مرغوب فيه. والإرهاب هو ضرب من العنف السياسى. بيد أن العنف السياسى فى كثير من بلدان العالم يتم اعتماده من قبل النظم القمعية ذاتها ضد الخصوم المحليين. ومن المحتم أن تواجه النظم غير الشرعية بموجات متلاحقة من العنف السياسى. وفيما يلى ما ذهب إليه إعلان الاستقلال الأمريكى :

إن الحكومات لتنشأ فى صفوف الرعايا. وتستمد سلطاتها الشرعية والعادلة من إجماع أولئك الرعايا ... فإذا ما أخلت الحكومات، أياً ما كان تنظيمها أو هيئتها، بالشرعية والعدالة، يكون من حق الشعوب أن تستبدلها أو تزيحها ... وإذا أظهرت التجاوزات والانتهاكات المتلاحقة قدرا من الإخلال بذينك المبدأين نتيجة التحول إلى الاستبداد والشمولية المطلقة، يكون من حق الشعوب أيضا، ويكون واجبها الإطاحة بتلك الحكومات، والاستعاضة عنها بأمناء مخلصين يسهرون على أمنهم المستقبلى.

أما فى العالم الإسلامى المعاصر - ونحن لا نتحدث هنا فقط عن المسلمين، بل عن مجمل العالم النامى - فإن هناك، على أقل تقدير، حالات ثلاثاً يصبح بموجبها العنف السياسى قابلا للنقاش : الإطاحة بالنظم الديكتاتورية المستبدة، والنضال من أجل التحرر الوطنى، والمقاومة المسلحة ضد الغزو الأجنبى.

١- الإطاحة بالنظم الديكتاتورية المستبدة : يوجد بالعالم الإسلامى الكثير من النظم المستبدة، والتى حظيت بتأييد الغرب ودعمه لعقود عديدة. ولدى تلك النظم المستبدة مهارات وخبرات فى قمع المعارضة السياسية عبر طرائق شتى منها العنف والاعتقال. فهل يمثل العنف السياسى بحق "النظام" أو "الدولة" إرهابا، ومن ثم يكون قمعه بالكلية مبررا؟ فإذا ما كانت الدولة قمعية مضطهدة، فما مدى شرعية الثورة والنضال المسلح ضدها؟ وللأسف، فقليل من البلدان هى التى تفرز من هم على شاكلة "المهاتما غاندى"، و"نيلسون مانديلا".

٢- النضال من أجل التحرر الوطنى : لأسباب تاريخية، من بينها قيام الإمبريالية بإعادة ترسيم الحدود الكولونيالية فى إفريقيا، والأقاليم الأوروآسيوية ... وجدت المئات من الجماعات الإثنية نفسها مقسمة بحدود اصطناعية، أو مضمنة بداخل دولة تختلف ثقافتها عنها بوضوح، دولة غالبا ما تمحو هوية تلك الجماعات، وتقمع حقوقها الثقافية ... ولم يتم سؤال تلك الجماعات، ألبتة، بشأن تضمينها فى إطار تلك الدول. وتتضمن تلك الجماعات الإثنية : الشيشان، وأهالى كشمير، والأوغور، وأهالى التيبت فى الصين، والتاميل فى سريلانكا، والفلسطينيين، والسيخ فى الهند، والأكراد فى تركيا وإيران والعراق، والمورو فى الفلبين، والبنغاليين فى باكستان (ما قبل بنجلاديش)، والايغبو فى نيجيريا، والإريتريين فى إثيوبيا (قبل استقلالهم)، وألبان كوسوفو فى الصرب - ... وتطول القائمة. وتلك الجماعات تكون إثنية أو دينية.

ويشير التاريخ إلى بلدان عديدة تحظى بكامل الشرعية حاليا قد ولدت من

رحم "العنف غير القانونى"، والموجه غالبا ضد الصراعات المناهضة للكولونيالية، والإمبريالية : تركيا، إسرائيل، الصين، المكسيك، الجزائر، إندونيسيا، اليونان، بلغاريا، كوبا، فيتنام، كينيا، جنوب إفريقيا، والولايات المتحدة الأمريكية ... تلك فقط بعض أبرز تلك البلدان. فإذا كان معيار "البنتاجون" اليوم قد تم اعتماده بشأن "العنف غير القانونى" الممارس من قبل الثوار الأمريكيين فى ١٧٧٦ ضد الشرعية المفترضة للحكم البريطانى، لما كانت "الجمهورية الأمريكية" لتوجد اليوم. كذلك، يجب ألا ننسى الأصول والجذور الإرهابية لزعماء من أمثال جومو كينياتا فى كينيا، ومناحم بيجن فى إسرائيل، ونيلسون مانديلا فى جنوب إفريقيا، وجميعهم قد اعتبروا ساسة جادين ذوى منزلة، وذلك فى أعقاب انتصاراتهم.

إن السياسات الأمريكية المعاصرة تميل دائما نحو "الإبقاء على سياسة الوضع الراهن"، ودعم الدولة بما فيها حتى القمع الممارس من قبل الدولة لضمان راهنية الأوضاع مع بعض حالات استثنائية من "وخز الضمير". ولعل الاستثناء الرئيسى هو حين تكون الدولة المتعرضة للحركات الانفصالية وموجات التمرد – فى عداء مع واشنطن، حينها تتلاشى تلك المبادئ فى الهواء : فتعمد سياسات الولايات المتحدة، حينها، إلى التعاطف مع الانفصاليين ودعمهم : الأكراد فى العراق إبان حكم صدام حسين، البلوش فى إيران، الأوكرانيون واللاتفيون وغيرهم فى الاتحاد السوفييتى السابق، أهالى التيبت فى الصين أيام حكم ماو تسى تونج، ... إلخ.

٣- المقاومة المسلحة ضد الغزو الأجنبى : كمقاومة الغزو الأمريكى للعراق وأفغانستان والصومال. إلا أن المقاومة الإرهابية للجيش الأحمر الروسى فى أفغانستان، فى ثمانينيات القرن العشرين، كانت تدعمها واشنطن وتؤيدها بحماسة. إذاً، أليس من حق الشعوب المحتلة بفعل الحروب أن تلجأ إلى المقاومة المسلحة؟ إن البلدان التى تخوض غمار الحروب، وحتى تلك الديمقراطية منها، ترفض -بصفة عامة- أن تتناول تلك الأسئلة، على نحو صريح، عما يمثل العنف المسموح به. إذ ستفضل القيام بالتلاعب بالتعريفات الشائعة بما فيه صالح الدولة

وذلك لتبرير ممارساتها. فمن وجهة نظرها الشخصية فإن الدولة محقة دائما ... أخلاقية دائما.

إن الأسئلة بشأن مدى تناسب ردات الفعل وملاءمتها تدخل ضمن الجدالات التقليدية بشأن الحرب العادلة. فإذا قتل جنود قليلون على أيدى الإرهابيين، على سبيل المثال، فهل تكون ردة الفعل بقتل مائة مقابل كل جندى قتيل أمرا مشروعا من الوجهة الأخلاقية؟ وماذا عن تأييد إسرائيل الضمنى لسياسة "مائة عين مقابل عين واحدة" عوضا عن "العين بالعين"، وذلك كنوع من الردع؟ وماذا بشأن سياسة "الترهيب بالصدمات"؟ أو تغيير النظم السياسية الحاكمة عن طريق الغزو العسكرى؟ أو إلقاء القنابل فوق المدنيين العزل؟ هنا، نكون أيضا محاصرين فى دائرة المغالطة المفرغة للنسبية والموضوعية : هل يكون إلقاء قنابل من ارتفاع خمسين ألف قدم بغية قتل إرهابيين مع اتساع دائرة الدمار لتشمل أبرياء - مشروعا، بينما يكون قيام أحد المفجرين الانتحاريين بقتل بعض الأعداء من مسافة خمسة أقدام فى النضال من أجل التحرر الوطنى بما يتسبب فى مقتل أبرياء - غير مشروع، وغير أخلاقى؟ لا شك فى أن بعض الممارسات الإرهابية هى ممارسات غير تمييزية بعض الشىء تتم خصيصا لنشر الرعب وإضعاف المعنويات، ولكن ماذا، إذاً، عن دريسدن أو هيروشيما أو ناجازاكى حيث كان الهدف الرئيسى هو نشر الرعب وإضعاف المعنويات - أو بلغة عصرية لفرض "الترهيب بالصدمات" لكسب الصراع؟ إن جميع تلك الأسئلة ترتبط ارتباطا مباشرا بالأزمات المتعددة فى العالم الإسلامى - وخارجه، فلا يوجد ثمة شىء، ألبتة، طابعه "إسلامى" بشأن تلك المواقف - اللهم كون التضامن الإسلامى يعضد كثيرا من إرادة المقاومة.

وبالرغم من تلك الأسئلة، يكون من الخطأ أن نربط ما بين وجود ظاهرة الإرهاب بتعريفات مبسطة للعدالة النسبية ... تعريفات تتسم بالغموض والمراوغة. فالإرهاب ظاهرة فعلية قائمة تمثل بلاء على المجتمع. إن مرتكبى الممارسات الإرهابية غالبا ما يكونون قساة وحشيين فضلا عن كونهم مهووسين غير أسوياء،

يعيشون على هامش المجتمع، وينخرطون فى ممارسات إجرامية، أو قد يكونون متعصبين أيديولوجيين. ولكن لا ينطبق ذلك على الجميع، بطبيعة الحال. فالظروف القاسية مثل الاضطهاد والحروب تولد ردات فعل واستجابات عنيفة من عناصر اجتماعية غير سوية، إلى جانب أخرى من مواطنين اعتياديين. لذا، يجب أن يتم تطبيق التعريف المختار للإرهاب بنزاهة، ودونما تمييز. فاستخدام واشنطن الانتقائى ذاتى الغرض للمصطلح يلقى بظلال من الشك بشأن مدى صلاحيته القانونية والتحليلية والإقناعية، بما يضعف من قوة موقفها فى أعين العالم، ناهيك عن العالم الإسلامى.

كذلك، يجب ألا يؤدى افتقاد الإجماع حول التعريفات إلى شلل الإرادة. فالأمر الضرورى فى هذا الصدد هو إدراك السياسات للأعراف الدولية - كيف ينظر باقى العالم لتلك القضايا. ففى العراق، كانت الحقيقة أن رأى أغلب العالم تلك القضايا بخلاف ما رأتها واشنطن، وبخلاف ما أعلنته التغطية الإعلامية الأمريكية الجارية ذات الأفق الضيق بشأن تلك القضايا، أو بالأحرى ما عمدت إلى تجاهله. إن الإخفاق فى التعرف على الحقائق الإقليمية وإدراكها، وكذا الإخفاق فى تناول المظالم القائمة وأخذها بعين الاعتبار - من شأنه ضمان الإخفاق المحقق لسياسات أوباما مثلما كانت الحال فى ظل إدارة بوش الابن. ويجب ألا يعامل معظم المسلمين المحاربين باسم "المظالم القومية"، شأنهم فى ذلك شأن قوميين آخرين، باعتبارهم إرهابيين بل كخصوم سياسيين تستلزم مطالبهم نوعا من المعالجة السياسية أو التفاوض بشأنها. فالعصيان قد يكون غير قانونى، ولكنه لب استجابة البشر للظروف الجائرة.

يكاد الجميع يتفق على أن إزهاق النفس البشرية عمل مناف للأخلاق. إلا أنه، وفى هذا الإطار، فإن القانون والتشريع الغربى يرسم حدودا فاصلة دقيقة ما بين جرائم الدرجة الأولى، والدرجة الثانية، والدرجة الثالثة ... فضلا عن القتل غير العمدى، والقتل الناجم عن الإهمال، كذلك فإنه يحيل قتلة بعينهم إلى عقوبة الموت،

فيما لا يذهب إلى ذلك بالنسبة لقتلة آخرين. فالسياسة يتعين عليها التمييز بين أطياف مختلفة فى محيط العنف السياسى والإرهاب. فالساسة يميزون بين (أ) حركة "حماس" التى تعتمد أسلوب حرب العصابات والتكتيكات الإرهابية فى إطار جغرافى ضيق ينتظم الأراضى الفلسطينية والإسرائيلية، و(ب) العراقيين والبشتون الذين يقاومون الغزو الأمريكى المسلح لأراضيهم، و(ج) جماعات مثل تنظيم "القاعدة" الذى يقاتل الغرب بأسره، كما فعلت الألوية الحمراء، و"بادر ماينهوف"، و"أوم شينريكيو" (الدين الحق) ... من قبل.

التفاوض مع الإرهابيين

إن إدارة بوش الابن، فى رؤيتها للحركات والجماعات الإرهابية على امتداد العالم، قد رفضت التمييز فيما بين تلك الجماعات – فلا يوجد شىء اسمه "هذا إرهابى حسن". بيد أن الساسة، بالرغم من تنديدهم بالإرهاب إجماليا، يعمدون غالبا إلى التفاوض مع الكثير من الجماعات الإرهابية – وذلك تحديدا لإدراكهم أن المفاوضات قد تثمر، فى النهاية، عن اتفاق أو تسوية. فالبريطانيون قد أجروا مفاوضات مع "الجيش الجمهورى الأيرلندى" فى النهاية، ويؤمن الكثير من الإسرائيليين بضرورة التفاوض مع حركة "حماس". (تذكر، كيف رفضت إسرائيل –من حيث المبدأ– التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية "الإرهابية" !!). كذلك، يعتقد الكثير من الأمريكيين بضرورة التفاوض مع حركة "حماس" وحزب الله، أو عناصر من حزب البعث فى العراق، أو حركة "طالبان" فى أفغانستان، على سبيل المثال، كونها تعتبر جماعات "رشيدة عاقلة" لها أهداف سياسية محلية محددة.

فالجماعات السياسية "الرشيدة العاقلة"، والمنخرطة فى العنف السياسى غالبا ما يكون لديها أهداف محددة وواضحة. كذلك، فلديها مقار يمكن زيارتها فضلا عن امتلاكها لبرامج ونشرات ومواد ترويجية ومقالات فى تلك المقار، ويديرها رموز وشخصيات معروفة يمكن إجراء مقابلات معهم ... أولئك ممن يتحدثون إلى العامة

عبر الخطب والمحاضرات. إذاً، فنحن نتفهم أهدافهم ونعتبرها "رشيدة عاقلة"، حتى لو اعترضنا عليها لأسباب سياسية. فبعض تلك الأهداف تبعث على التعاطف، وبعضها الآخر يستدعى التوبيخ. فوصمهم جميعا بأنهم "إرهابيون" هو أمر خاطئ من وجهة النظر التحليلية، كذلك فهو عديم الفائدة قد يحدث نتيجة عكسية. فالسلطات لا تتوقف عن ترديد أنها "لن تتفاوض مع الإرهابيين" – إلى أن تفعل، و"لن تعترف بالإرهابيين"– إلى أن تفعل. وعادة ما تفضى تلك المواقف المحددة والمفترضة بشأن الإرهاب إلى كونها مجرد مواقف تفاوضية تمهد الطريق لتسويات تفاوضية أكثر جدية.

إن مقولة "إن من يعد إرهابيا من قبل طائفة قد يعد محاربا من أجل الحريات من قبل طائفة أخرى" تبدو مقولة مبسطة، على أنها تقترب كثيرا من الحقيقة. كذلك، تمثل تلك المقولة جدلا يثير حنق معظم الحكومات كونها تخلق "معادلا أخلاقيا" فيما بين الأطراف المتحاربة – وهو مفهوم مكروه من قبل الجانبين. إن جوهر المشكلة يكمن فى أن ما نحسبه مقاومة لا يعدو إلا أن يكون، فى حقيقة الأمر، "دعوة سياسية"، اعتمادا على ما إذا كان المرء منحازا إلى السلطة، أم منحازا إلى المقاومة. وتتحدث معظم حكومات العالم عن المبدأ، بيد أنها تعمد إلى انتقاء تعريفها الخاص بمن هو "الإرهابى" وفقا لمصالحها المتغيرة، والمرتحلة. فإذا ما تمسكنا بفكرة كون جميع تلك الحركات والجماعات تصدر عن "أجندة إسلامية راديكالية" بعينها لا سبيل إلى تغييرها، فلن نتمكن أبدا من إيجاد طرق لتحجيم المشكلة. إن معظم تلك الجماعات لديها أهداف غير دينية الطابع من الممكن التفاوض بشأنها.

كيف نقضى على الإرهاب

إن تقرير مؤسسة RAND عام ٢٠٠٨، والمعنون "كيف تزول الجماعات الإرهابية" يعد واحدا من أشمل التحليلات الإحصائية، وأكثرها إثارة والتى أجريت عن "الإرهابيين" خلال السنوات الأخيرة الماضية. وقد قامت مجموعة من باحثى

RAND بدراسة ٦٤٨ حركة امتد نشاطها من عام ١٩٦٨ وحتى عام ٢٠٠٨، وكان أهم ما تم التوصل إليه أن "الانتقال إلى العمل السياسى هو الطريق الأكثر شيوعا الذى سلكته الجماعات الإرهابية". وها هى أهم النتائج المتوصل إليها بإيجاز :

* تحول ٤٣٪ من الجماعات الإرهابية إلى العمل السياسى، أو بعبارة أخرى، تحولها عبر التكيف والمواءمة. كذلك، فقد وجدت الدراسة المذكورة أن "إمكانية التوصل إلى حل سياسى يتناسب عكسيا مع حجم الأهداف الإرهابية" ومداها. أو بعبارة أخرى، فكلما كانت المظالم والأهداف محددة وعملية وذات طابع محلى، زاد احتمال إمكانية التعامل معها لإيجاد حلول لها.

* ضمن نسبة الـ ٤٠٪ من الحالات والتى كانت فيها التنظيمات الإرهابية غير قادرة على، أو غير راغبة فى، التحول إلى التكيف السياسى - كانت السياسات، وليست الممارسات العسكرية هى الوسائل الأكثر نجاعة لتحييد الجماعة الإرهابية. إن الشرطة والأجهزة الاستخباراتية هى أكثر قدرة على تفهم تلك الجماعات، واختراقها، وتحييدها مقارنة بقدرة الطرق الحربية العقيمة.

* فى ١٠ ٪ من الحالات، انتهت بالفعل مهام الجماعة الإرهابية لتختفى من الوجود بعد قيامها بتحقيق أهدافها. وفى ٧٪ فقط من الحالات، كانت الممارسات العسكرية فاعلة فى القضاء على أنشطة الجماعات الإرهابية.

* "تستغرق الجماعات الإرهابية ذات الطابع الدينى وقتا أطول لتزول بالمقارنة بغيرها من الجماعات الأخرى". وعلى الجانب الآخر، "فنادرا ما تحقق الجماعات الدينية أهدافها. وقد أورد التقرير، أيضا، أن حجم الجماعة يعد محدداً هاماً لمصير تلك الجماعة. فالجماعات الكبيرة التى تزيد أعدادها عن عشرة آلاف عضو قد حالفها النجاح فى أكثر من ٢٥٪ من الوقت، فيما يندر "النصر" ويعز حين يقل حجم الجماعة عن ألف عضو".

* "حين تنخرط جماعة إرهابية ما فى تمرد أو عصيان، فإنها لا تزول بيسر أو سهولة. ففيما نسبته ٥٠٪ من الحالات، عمدت الجماعات إلى إجراء مفاوضات للتوصل إلى تسوية مع الحكومة، وفى ٢٥٪ من الحالات، تحقق تلك الجماعات النصر، وفى ١٩٪ يتم هزيمتها على أيدى القوات العسكرية". وهو ما ينطبق على العراق وأفغانستان.

إن وجود الحركات "العالمية" مع تلك البراجماتية فى آنٍ واحد، كما شهدنا فى كل من العراق وأفغانستان، من المحتمل أن يعضد الراديكالية الكلية للعامة بمن فيهم ذوو الاتجاه الوسطى. وبالمثل، فإن التوصل إلى تسويات سياسية مع الجماعات الإرهابية البراجماتية يخفف كثيرا من حدة احتقان المناخ السياسى المشحون، وحينها يصبح العامة أقل تعاطفا مع الجماعات الإرهابية ممن على شاكلة تنظيم "القاعدة" والذين سيعتبرون، ساعتها، يحاربون من أجل قضية أو مطلب لم يعد متوافقاً مع مصالح العامة.

استجابة السياسات

فى النهاية، لا يمكن فصل الإرهاب عن أحوال الشعوب، ومشاغلها، وإحباطاتها فى إقليم الشرق الأوسط. وكلنا نعرف أن الإرهاب هو "سلاح الضعيف". بيد أن لجوء المسلمين إلى الإرهاب، رغما عن كونه غير مقبول، لا يجعل مظالمهم غير شرعية. فبالنسبة لإرهابيى تنظيم "القاعدة"، فإن الإسلام كان مثل العدسة المكبرة حين توضع فى الشمس لتلتقط تلك المظالم المشتركة واسعة الانتشار، وتركزها فى شعاع مكثف ... هى لحظة وضوح الرؤية المميزة للممارسات بحق التدخلات الأجنبية الموطدة لأركانها منذ زمن طويل. فالمظالم قد سبقت الهجمات الإرهابية، وما زالت تحيا إلى الآن.

وكما أشرنا من قبل، لم يبدأ التاريخ فى الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فقد شهدت العقود الماضية، وأبرزت جهودا أمريكية حثيثة

ومتسارعة الوتائر لاستمالة إرادة المسلمين نحو الأهداف الأمريكية، ولم يقتصر الأمر على إخفاق تلك الجهود وما صاحبه من عدم التوصل إلى حل لأية مشكلة، بل أسهم فى زيادة حدة الحماسة ضد الولايات المتحدة على امتداد العالم الإسلامى مما كبدها خسائر فادحة.

إن الإرهاب فى الشرق الأوسط، وفى غيره من أقاليم العالم يمكن أن يتم تحجيمه على نطاق واسع، ولكن فقط فى حالة تراجع الأحوال والظروف التى أدت إلى نشأته. فالجهود الأمريكية المتنامية التى يبذلها الجيش الأمريكى لاقتناص الراديكاليين الحاليين وقتلهم لم تؤد إلا إلى إنتاج أجيال جديدة من الراديكاليين أكثر نشاطا وحماسة. ويمكن للتدخل العسكرى إضعافهم، ولكن أعدادهم تأخذ فى الازدياد المطرد بفعل انتقال الجيوش الإسلامية من دائرة صراع إلى دائرة صراع أخرى، أو قيام الشعوب بالتحول إلى العنف ضد أنظمتها السياسية السلطوية ذاتها - والمدعومة من قبل الولايات المتحدة. ولا يستدعى الأمر وجود عدد كبير من العصاة المتمردين أو الإرهابيين لإحداث خلافات وعداءات بين البلدان والجيوش. إن الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين، على امتداد أكثر من ستة عقود يوضح، بجلاء، ذلك النوع من الإخفاق ... إذ لم تحقق إسرائيل إلا خلق مقاومة كبيرة لها ذات انتشار إقليمى، بل وأصداء شبه عالمية.

ويقع عبء إنهاء ظاهرة الإرهاب، فى المحل الأخير، على الشعوب الإسلامية ذاتها. ولكن لكى يتحقق ذلك، يجب أن تختفى الظروف الحاضنة لتلك الراديكالية، والتى تولد موجات منتشرة من مناهضة كل ما هو أمريكى. وبلغة أكثر وضوحا، يعنى ذلك إنهاء أية تدخلات أجنبية فى البلدان الإسلامية، وكذلك الكف عن الهجمات العسكرية المسلحة من قبل الجنود الأجانب - وهى الصور التى تتتابع، ليل نهار، على شاشات التلفاز على امتداد العالم بأسره، فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها !! ويجب أن تعطى المجتمعات الإسلامية فرصة لالتقاط الأنفاس والهدوء، وأن تعود الأمور إلى نصابها. ثانيا : يمكن للمسلمين أنفسهم البدء بتغيير

طرائق التفكير فى مجتمعاتهم لمحاربة الإرهاب بطريقة ناجعة. وبالفعل، فمن المحتمل أن يكون الإسلاميون الأكثر تأهيلا لنزع سلاح الراديكاليين المادى والثقافى، ولإصباغ صفة عدم الشرعية على أية شرعية، أيا ما كانت، قد سعى الراديكاليون إلى استغلالها للتوسل بالإسلام - حتى لمطالب غير إسلامية. على أنه قد يكون من الممكن نزع صفة الشرعية عن الأساس الإسلامى لاستخدام الإرهاب واعتماده كمنهج، لا الأسس العملية التى توجهه. إذ ليس مجرد أن يكون الإسلاميون "دينيين" أن تكون أصواتهم عالية مسموعة، وإنما لأنهم هم الفصيل السياسى الوحيد القائم فى تلك اللحظة من التاريخ المعاصر للمسلمين الذين يحظون بالشرعية والاحترام. وعلى نحو عقلانى رشيد، فإن الزعماء المسلمين الموثوقين لن يسعوا إلى المناداة "بالاعتدال" طالما أن الأحوال الراهنة قد جعلت من العسير الجدال والتحاور بشأنه. على أن الأحوال الراهنة لن تبقى أبد الدهر. أما فى الوقت الراهن، فإن مجرد وجود الجيوش الأجنبية ليبطل، بالفعل، سلطات المعتدلين ... أولئك الذين لا يمكن أن تحيا أفكارهم، ووجهات نظرهم فى ظل ظروف تتسم بالراديكالية.

إن شعار "عدم التسامح نهائيا مع الإرهاب" هو شعار يجب العمل على محوه وإلغائه، فهو شعار أجوف يتسم طابعه بالديماجوجية والطوباوية، تماما مثل شعار "عدم التسامح نهائيا مع الجريمة"، والذى لا يوجد له أدنى معنى وظيفى فى المجتمع المعاصر.

إن الأمر لا يستلزم نفاذ بصيرة لمعرفة أن المسلمين لن يرحبوا بالتدخل الأجنبى المكثف فى مجتمعاتهم بأكثر مما سيرحب به المجتمع الأمريكى. كما لن يستلزم الأمر عظيم قريحة وثاقب رؤية للاستنتاج بأن إيقاف الأنشطة والعمليات المؤدية لتلك الاستجابات وردات الفعل العنيفة من جانب المجتمعات الإسلامية - قد يكون سياسة معقولة وناجعة كبديل عن المسار الأمريكى المروع القائم بالفعل. وفى هذه المرحلة، فإن الأمور قد تدهورت بشدة وعلى نحو لا يمكن معه أن ينتهى

الإرهاب ضد الولايات المتحدة على نحو مفاجئ حالما غادرت القوات الأمريكية أراضى الإقليم. بيد أنها ستكون الخطوة الأولى التى لا مناص عنها لتخفيف حدة الإرهاب ووطأته. ولا شك فى أن الانسحاب العسكرى سوف يدحض ، بقوة، أى تبرير لاستمرار حركات راديكالية على غرار تنظيم "القاعدة". وفى البلدان الإسلامية، وحيث كان وجود تلك الجماعات يبدو مبررا كأداة لمحاربة الغازى الأجنبى، فلن يكون هناك ترحيب بها بعد اليوم . إن الحيز الذى كان يمكن للإرهاب، سابقا، أن يناور فيه سوف ينكمش بسرعة فى ظل الظروف الاستراتيجية حين لن تسمح الشعوب الإسلامية أنفسها لمحاربين خارجيين بأن يفرضوا عنفهم عليها. ويتعين علينا ألا نقوم "بأسلمة" تلك المشكلة إذا ما أردنا إدراك طبيعتها المحددة والعملية. وللأسف، كانت واشنطن بطيئة بشأن هجرة ونبذ إصرارها على فرض الهيمنة الاستراتيجية الأمريكية على العالم الإسلامى، بل والعالم بأسره - وهو سبب رئيسى لتلك المشكلة.

إن أسلوب أوباما المختلف، وتوجهاته وانفتاحه على معطيات واقترابات جديدة قد استرعى انتباها كبيرا من قبل العالم الإسلامى. ويبدو جليا للكافة أنه يتفهم مشاعر العالم الإسلامى ودوافعه والبلدان النامية الأخرى، فهو يدرك أهمية ما تلعبه الكرامة والاحترام فى عمليات التواصل لتحل محل الوعيد، والعجب، وفرض القوة. بيد أن كونه قادرا على تحويل دفة العملية السياسية يظل سؤالا قائما، ولو أن الأحداث لتشير، حتى الآن، إلى أن المهمة ستكون خارج نطاق قدراته. لقد عمل أوباما على شد أزر كثير من المسلمين، بيد أنهم بحاجة إلى رؤية تغيير حقيقى، وحقائق جديدة فى الواقع الفعلى. إن القوات البحرية الأمريكية، مع ذلك، ما زالت تغالى فى توسعاتها وامتداداتها بأعالى البحار، وتمضى فى ذلك وفق حلول عسكرية للمشكلات السياسية، والثقافية، والاقتصادية.

نتيجة التغيرات العالمية خلال نصف القرن الفائت، أضحى الإسلام -اليوم- أكثر ثقافات العالم وحضاراته من حيث الوعى السياسى الذاتى. ولقد حاولت أن

أعطى صورة للحضارة الإسلامية فى سياق أشمل ينتظم الأحداث العالمية منذ أزمان سحيقة وحتى اليوم، ولعله صار جليا، الآن، كيف أن الأحداث التى نقوم بربطها بالإسلام هى، فى حقيقتها، استجابات وردات فعل سياسية واجتماعية تشترك فيها الكثير من الحضارات، والثقافات الأخرى. وبالنسبة لبعض قارئى الكتاب، قد يبدو هذا الضرب من التفسير وكأنه اعتذار موجه إلى الإسلام – بما يوحى من تلمس الأعذار له. بيد أن القصد من وراء هذا الكتاب ليس سردا لمناقب الحضارة الإسلامية ومثالبها. إذ لم أعتزم تقديم "كشف حساب" بكل ما هو حسن، أو كل ما هو غير ذلك. وإنما كان الهدف توضيح استجابات المسلمين وعواطفهم واختياراتهم تجاه غير المسلمين – وذكر الأسباب والظروف التى تؤدى إلى أن يشعر الكثير من المسلمين ويتصرفوا وفقاً لما نشهده. وهذا هو أساس الاهتداء إلى الحلول، لا أن نتجاهل القضايا والمشكلات. فالمشاعر، عامة، ليست كلا متجانسا على امتداد العالم الإسلامى. ولكن كلما كانت الأحوال أكثر سوءا، كانت درجة الإجماع التى تنشأ أكبر وأعم.

إن إدراك الديناميكيات المحركة للمجتمعات الأخرى ومعرفتها كان يمكن أن يساعدنا فى اجتناب سلسلة طويلة، امتدت لعقود تلت عقوداً، من أزمات ومواجهات أمريكية متوقعة مع العراقيين، والفلسطينيين، والأفغان، والبشتون، والصوماليين – أو مع حركات قومية فى بلدان أخرى كالصين، وفيتنام، وفنزويلا، أو حتى روسيا – اليوم. وكان يمكن لتلك الرؤى أن تتيح لنا تلمس تنامى الضغوط على نحو عنيد ومتصلب ... ذلك التنامى الذى انفجر، فى النهاية، فى أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وبالطبع، فإن صانعى السياسات الرافضين لأى تفهم لطبيعة المجتمعات الإسلامية، والذين يفضلون نهجهم ذاتى الغرض ... "لماذا يكرهوننا؟" قد قاموا بتنفيذ سياسات فاشلة كان لها انعكاسات سلبية باهظة التكلفة للكافة – وما نجم عنها من مثالب هى الأكثر فداحة على امتداد تاريخ تعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع العالم الإسلامى.

الاستراتيجية الكبرى

تماشيا مع عنوان هذا الكتاب، يتعين على واشنطن أن تصيغ سياساتها فى الشرق الأوسط كما لو لم يكن ثمة "إسلام". فجل القضايا فى هذا الإقليم يمكن أن يتم تناولها وحلها دونما اللجوء إلى "الإسلام" كعامل فاعل أو تفسيرى. وبالفعل، فإن اعتبار الإسلام تفسيرا لتلك القضايا يجعل رؤيتنا لها مشوشة ومرتبكة. فالإسلام، وبخاصة فى ثوبه الأيديولوجى الأكثر تطرفا، يمكن أن يزيد من تعقد تلك المشكلات وتفاقمها، وإن كان لا يخلقها من الأساس. إذ تنشأ تلك القضايا والمشكلات، بالأحرى، من تحديات إقليمية سياسية، واقتصادية، واجتماعية محددة وواضحة ... تلك التحديات التى تتجاوز العنصر الدينى، حتى وإن تم تغليفها فى غلالة من الخطابة البلاغية الإسلامية.

فلرؤية المشكلات كما لو كانت مرتبطة بالإسلام، نحن مدعوون لتكريس الوقت والطاقة لبحث "الدين" ودراسته، والسعى لتغيير تأويلنا وفهمنا له وفقا لطرائق نجدها أكثر ملاءمة لمصالحنا الذاتية. بيد أن أية "نسخة أمريكية للإسلام" قدرها أن تقابل بالرفض والاستنكار. وحقيقة الأمر، فإن مصطلح "الإسلام الأمريكى" قد تم نحته، بداءة، إبان الثورة الإيرانية، وهو إحالة لاذعة وساخرة لإسلام مكرس بالكلية للتقوى الفردية، والمبتعد تماما عن مجريات السياسة ومقتضياتها، غير المدرك أو المبال بالقضايا السياسية الساخنة فى عالم اليوم - وبعبارة موجزة، ذلك الذى لا ينتج أية آثار جيوبوليتيكية. إذاً، فإحالة الأمر إلى "الإسلام" ينقل المشكلة، بصورة جلية، إلى "الآخر"، فلا يستتبع أية دراسة جادة من جانبنا لإخفاقات سياساتنا ذاتها. ولكن لا ينصرف القصد من وراء هذا إلى تقرير عدم وجود مشكلات حقيقية فى إقليم الشرق الأوسط والعالم النامى تستدعى العمل على علاجها علاجا ناجعا، إذ توجد الكثير من المشكلات فى الواقع. وكما أننا لا يمكننا أن نحمل "الإسلام" مسئولية كل شىء، كذلك فإنه لا يمكننا أن نحمل الغرب مسئولية كل شئ. بيد أن إنعام النظر فى قضايا بعينها، وإيلاءها أهمية قصوى - بما فى ذلك أسبابها،

والحلول التى يمكننا القيام بها - هو أكثر الطرق ملاءمة للمضى قدماً.

ومن أجل تحجيم حدة المواجهة الحالية ما بين العالم الإسلامى، والولايات المتحدة الأمريكية - يتوجب علينا القيام بالخطوات المحددة التالية :

* يجب العمل على إنهاء التدخل العسكرى والسياسى الغربى فى العالم الإسلامى - وكلها مظاهر مثيرة ومستفزة للمسلمين - بما يضمن أن تسترد المنطقة استقرارها وسلامها. ويعنى ذلك انسحاب جميع القوات الأمريكية والغربية من أراضى العالم الإسلامى.

* يجب تفعيل مجهودات التعرف إلى الممارسات الإرهابية وإحباطها من خلال مجهودات الشرطة وأجهزة الاستخبارات، كذلك يجب أن يكون القبض على الإرهابيين مهمة المنظمات الدولية والبلدان المعنية، لا مهمة الولايات المتحدة الأمريكية التى تنشط عبر امتدادات وتوسعات غير قانونية خارج أراضيها لممارسة سيادتها فى القبض على الأفراد واغتيالهم وفقا لإرادتها المطلقة.

* يتعين على الولايات المتحدة أن توقف دعمها المميز لكل ديكتاتور موال لها يشوه سمعتها ويكذب التزاماتها المصرح بها بشأن الديمقراطية، ويؤدى إلى تهيئة مناخ سياسى قابل للانفجار، فضلا عن إذكاء مشاعر الاستياء ضد كل ما هو أمريكى.

* يجب العمل على دفع مسيرة الديمقراطية فى أرجاء العالم الإسلامى، على ألا تكون واشنطن هى المحرك الذى يقود توطيد الديمقراطية هناك. فالوضع المثالى يكمن فى أن تكف واشنطن يدها عن تلك العملية لئلا تشارك فى إفسادها، كما كانت عليه الحال فيما مضى، من خلال ربطها بمصالح الولايات المتحدة الذاتية. فالاستخدام الانتقائى والوظيفى السابق للديمقرطية، والذى مارسته واشنطن لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الأمريكية قد شوه المفهوم ذاته الذى تتبنى عليه برامجها لإحلال الديمقراطية.

* يتعين على الولايات المتحدة أن ترتضى أن الأحزاب الإسلامية سوف يتم انتخابها، فى ظل المناخ الديمقراطى، على نحو شرعى فى انتخابات مبكرة، وذلك فى معظم البلدان الإسلامية. ولعل الأمر السار هو أن الإسلاميين سيتم استبعادهم سريعا فى خلال عام أو نحوه إذا لم يلتزموا بتحقيق وعودهم التى قطعوها على أنفسهم أمام الجماهير، أو إذا لم ترق ممارساتهم إلى توقعات تلك الجماهير وتطلعاتها. ويعنى ذلك معالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الملحة، وليست الخطابة الجوفاء المناهضة للإمبريالية.

* يجب التوصل سريعا إلى حل للمشكلة الفلسطينية، والتى ينظر إليها على امتداد العالم الإسلامى بأسره باعتبارها أكثر حالات الإمبريالية فظاعة وشناعة ... تلك الإمبريالية التى اقتلعت السكان المحليين وزجت بهم فى أحوال معيشية متردية بائسة في مخيمات للاجئين، وفرضت عليهم أن يصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية في إسرائيل، أو أجبرتهم على ترك الوطن إلى المنفى - وذلك على امتداد أكثر من ستة عقود. ولقد تزايدت حدة معاناة الفلسطينيين بالتوازى مع راديكالية انتشرت فيما هو أبعد من فلسطين. وتستلزم هذه الأزمة حلا سريعا ناجزا، والذى يبدو أن خطوطه وملامحه العامة معروفة لجميع الأطراف. إن المطامع الكولونيالية الإسرائيلية وجهودها الحثيثة فى الأقاليم الفلسطينية يجب أن توضع نهاية لها.

* إذا ما تم تخصيص ما نسبته ١٠٪ من التريليون دولار أمريكى أو يزيد، والذى تغدقه واشنطن على حروب الشرق الأوسط التى حصدت الكثير من الأرواح، ونجم عنها خراب وتدمير طائلان دونما مبرر ... لو تم هذا التخصيص لبناء المدارس، والجامعات، والمستشفيات، والعيادات الطبية، ومعاهد التدريب، فسيشهد الإقليم تحولا إيجابيا كبيرا، وستتحسن صورة الولايات المتحدة هناك تحسنا ملحوظا، فضلا عن إمكانية إنجاز تقدم ملموس فى الأحوال المعيشية بالإقليم.

* يمكن أن تضع السياسات الأمريكية المستنيرة نهاية للمصادر الدولية وفوق

القومية للعنف والراديكالية فى وقت قصير. أما المنابع المحلية للعنف، فى كل قطر على حدة، فتستلزم تحليلات منفصلة ومستقلة، وعلاجا يتماشى والظروف الداخلية المحلية، إذ لا تشكل تلك المنابع، عامة، مشكلة ملحة مقارنة بمثيلاتها الدولية.

* وحدهم المسلمون (أى السكان المحليون) هم القادرون، فى النهاية، على إيجاد حلول بشأن الراديكالية الإسلامية (أى المحلية).

بيد أن التغير المعاصر للإسلام، وبسبب عدة عوامل تاريخية مركبة، غالبا ما نجده اليوم يفتقد التوجيه، فضلا عن كونه خائر القوة، منقسما على ذاته، غارقا فى فوضى ما بعد الكولونيالية، كذلك فهو يصارع من أجل الإصلاح وإعادة بناء الكرامة والاستقلالية - كل ذلك فى مواجهة هجوم عسكرى، وسياسى، وثقافى شرس من قبل الغرب. إن جذور الإسلام ورؤيته لبعيدة الغور شاسعة المدى، ومن الممكن أن تنشأ نهضة ثقافية إذا لم يتم إعاقتها بالقوى الجيوبوليتيكية العالمية المتوحشة، والمتصارعة فى سبيل امتلاك أسباب القوة، والنفوذ، ومصادر النفط، والقواعد العسكرية فى قلب العالم الإسلامى.

إن الحضارة الإسلامية هى حضارة الفكر الروحانى، والثقافى، والاجتماعى العميق. بيد أنها حضارة يتم انتهاكها فى الوقت الحاضر، إذ من الأفضل ألا يتم استثارتها بلا مسوغ فى هذه اللحظة الحرجة من مسيرة تطورها، حين تستشعر أنها تقع تحت تهديد يطال وجودها ذاته. إذ إن مثل ذلك الهجوم عليها ليعمل فقط على إبراز أكثر مناحيها تعصباً ورجعية وتصعيده، وتنحية دوافع الإصلاح والاعتدال، ودفع المسلمين إلى التحفز والاستعداد للهجوم.

ويجب أن ينهض الغرب لمواجهة ذلك التحدى - بيد أن الغرب، فى الحقيقة، مصاب بالفصام فيما يخص تصرفاته، وسلوكه. فالغرب، من الداخل، هو صاحب أرفع سجلات المسارات الديمقراطية والرفاه الاقتصادى، والتعليم، وحماية حقوق الإنسان وحقوق الأقليات، كما أن لديه جمهرة من المؤسسات لحراسة تلك الحقوق

وحمايتها. وينظر العالم الإسلامى إلى تلك الخصائص والمزايا نظرة إعزاز وتبجيل. وعلى الجانب الآخر، فإن الغرب -على الصعيد الدولى- قد قام، على نحو شائن، بانتهاكات عديدة لحقوق الإنسان، وكذا الحريات الفردية، والحق فى الحياة وفقا لسياساته الخارجية، وقيادته لحملات إمبريالية وعسكرية -كل ذلك تحت دعاوى مثالية كمناهضة الشيوعية، و"الدمقرطة"، وحماية "الزعامة والريادة الأمريكية"، والاحتراز من الإرهاب. ويذهب العالم الإسلامى إلى كراهية تلك السمات والخصائص. إذ عانى المسلمون كثيرا جراء تلك الحملات العسكرية بأكثر مما عساهم قد أفادوا من سياسات الولايات المتحدة الأمريكية. إن الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة بما لديها من قوة ونفوذ، أمامه طريق طويل ليجعل ما ينادى به من مثاليات قومية ينطبق، بالفعل، على سلوكه فى سياساته الخارجية.

إن الانتهاكات التى أوغرت صدر العالم الإسلامى ضد الغرب لم تحدث بسبب كون الأخير شرا فى ذاته، وإنما لأنه قد امتلك النفوذ والقوة للقيام بكل تلك الانتهاكات للآخرين على صعيد دولى. إننى لن أكون سعيدا حين أرى تركيزا للنفوذ الدولى فى أيدى آخرين كفرنسا، أو المملكة المتحدة، أو ألمانيا، أو الصين، أو روسيا، أو أيا من كان. والحقيقة هى أن الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك، الآن، نفوذا دوليا طاغيا. بيد أن احتكار القوة والنفوذ لم يكن بالأمر الصحى وفق أى سياق كان. إن دستور الولايات المتحدة به ضوابط تشريعية، فهناك قوانين محاربة الاحتكار التى تهدف إلى منع أية شركة، مهما تكن درجة امتيازها، من الاستئثار بالسوق بمفردها، ومنعها من سحق المناخ التنافسى القائم. وبالمثل، ينبغى ألا نرى احتكاراً للقوة والنفوذ على الصعيد الدولى - إذ ليس ذلك فى صالح أحد مطلقاً.

إن الإسلام، وفن الحكم وإدارة شئونه - من المرجح أن يترابطا، على نحو ما، خلال الفترة الزمنية المقبلة. وبالنسبة للمسلمين، فإن ذلك يعد تأكيدا على أن القيم والأخلاقيات فى الممارسة السياسية لن يتم تجاهلها فى لعبة القوة التى غالبا ما كانت ذات طابع متشكك فى طبيعة الدوافع البشرية. كذلك، فلن يتم تجاهل "الدين"

أو تهميشه كقوة فى مجريات العلاقات الدولية فى أى مكان على وجه المعمورة. إذ يبدو "الدين" كجزء من الفلسفة الإنسانية وحنينها القلبى الدائم إلى الانعتاق للتحليق صوب عوالم أرقى وأرحب. على أن "الدين" فى ربطه بالسياسة يبدو مزيجا متناقضا. إذ لا يعد كشفا أو إلهاما ملاحظة أن القوة فى ارتباطها بأية أيديولوجية - ينحو أحدهما لإفساد الآخر. فإن لم يكن ثمة "إسلام"، لكانت قد وجدت بالطبع ديانات أخرى تضطلع بالدور ذاته فى ظل ظروف مماثلة. أما فى حالة غياب الأديان كلها، لكنا قد اهتدينا إلى -أو قمنا بخلق- أيديولوجيات أخرى لتبرير الأفعال والممارسات ذاتها. إذاً، "فعالم بلا إسلام" لا يغير كثيرا من طبيعة الأمور.

فإذا ما حسبنا أن "الدين" كان قوة سلبية فى تاريخ العالم المعاصر، فلننظر البديل. لم يكن "الدين"، بحال، ليفعل أسوأ مما فعل العنف العلمانى المتوحش، والمجازر غير المسبوقة التى سيطرت على المشهد الغربى طيلة القرن العشرين، والذى اشتمل على حربين كونيتين، ونظم فاشستية ونازية وشيوعية -لا صلة لأى منها بالدين على الإطلاق. إن التطرف العلمانى قد جلب علينا وبالا هائلا، فالمشكلة الحقيقية تكمن فى طبيعة الآمال البشرية، وما تصبو إليه النفوس، إن خيرا أو شرا. إننا فى الغرب سنكون أفضل حالا وأرشد مآلا إذا قمنا "بلاأسلمة" رؤيتنا للقضايا الإقليمية، والنظر إليها باعتبارها مشاكل اجتماعية وسياسية ذات طابع إنسانى عالمى ، ... مشاكل قد أسهمنا بنصيب منها، وبذا يقع على عاتقنا جزء من مسئوليتها.

صدر من هذه

السلسلة

١- محمد (ص)

٢- صدام الحضارات

٣- عصر الجينات

٤- القدس

٥- العولمة والعولمة المضادة

٦- التاريخ السرى للموساد

٧- من يخاف استنساخ الإنسان؟

٨- حريم محمد على

٩- عولمة الفقر

١٠- صور حية من إيران

١١- البحث عن العدل

١٢- لورانس: ملك العرب غير المتوج

١٣- الصهيونية تلتهم العرب

١٤- معارك فى سبيل الإله

١٥- التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية

١٦- التسوية: أى أرض.. أى سلام

١٧- المكنز الكبير

١٨- الحق يخاطب القوة

١٩- نساء فى مواجهة نساء

٢٠- مؤامرة الغرب الكبرى

٢١- روسيا.. إلى أين

٢٢- موسوعة الأم والطفل

٢٣- الخدعة الرهيبة

٢٤- نهاية الإنسان

٢٥- خدعة التكنولوجيا

٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة

٢٧- بوش ضد العراق ... لماذا؟

٢٨- أين الخطأ ؟

٢٩- اللولب المزدوج

٣٠- رجال بيض أغبياء

٣١- سادة العالم الجدد

٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل

٣٣- اللعب مع الصغار

٣٤- الإبادة السياسية

٣٥- حكومة العالم السرية

٣٦- ما بعد الإمبراطورية

٣٧- بوش فى بابل
٣٨- المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولى
٣٩- تزييف الوعى
٤٠- القانون فى خدمة من ؟
٤١- كفى
٤٢- معنى هذا كله
٤٣- حياة بلا روابط
٤٤- ٣٦٥ حدوتة وحدوتة
٤٥- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..
٤٦- جسدى سلاحاً
٤٧- ثالوث الشر
٤٨- الحضارة الإسلامية المسيحية
٤٩- أمـــريكا العظمى.. أحـــزان الإمبراطورية
٥٠- الطَّريقُ إلى السُّوبَرْمَان
٥١- مدربون على القتــل
٥٢- معاداة السامية الجديدة
٥٣- إبادة العالم الثالث
٥٤- بيولوچيا الخوف
٥٥- لغز اسمه الألم
٥٦- تعليم بلا دموع
٥٧- أحمد مستجير
٥٨- العين بالعين
٥٩- شاڤيز
٦٠- قصص الأشباح
٦١- حزب الله
٦٢- الإنسان هو الحل
٦٣- السيارات المفخخة
٦٤- بلاكووتر
٦٥- حضارتهم وخلاصنا
٦٦- نحو الحرية.. نلسون منديلا
٦٧- العهد
٦٨- مزرعة الحيوانات
٦٩- أطفال الإنترنت
٧٠- لعبة الملايين

٧١- تجارة الجنس

٧٢- الأمريكى الساذج

٧٣- الأبرياء

٧٤- الشباب والجنس

٧٥- التربية من عام إلى عشرين عام

٧٦- فلورانس وإداورد

٧٧- الجهاد فى سبيل الحقيقة

٧٨- غاندى (٢)، رؤى، تأملات، اعترافات

٧٩- شرف البنت

٨٠- الزواج المحرم

٨١- أنبياء مزيفون

٨٢- إمبراطورية العار

٨٣- اختطاف أمريكا

٨٤- شريعة الجستابو

٨٥- رومانسية العلم

٨٦- اختفاء فلسطين

٨٧- من هم إسرائيل

٨٨- ثلاثون كتاباً فى كتاب

٨٩- اقتصاد الاحتيال البرىء

٩٠- الله.. لماذا؟

٩١- الأمراض المعدية

٩٢- الطريق إلى بئر سبع

٩٣- مجمع الشيطان

٩٤- فى ذكرى المقاومة

٩٥- خطايا تحرير المرأة

٩٦- دساتير من ورق؟

٩٧- صُناع الملوك

٩٨- صناعة الأكاذيب

٩٩- عندما تحكم الصين العالم

١٠٠- الحركة العامة للاقتصاد المصرى فى نصف قرن

١٠١- رحلة السندباد

١٠٢- وجه أوباما الأبيض

١٠٣- تشى چيڤارا سيرة للنشء

١٠٤- أنا أقترض.. أنا موجود

١٠٥- قصة فيس بوك

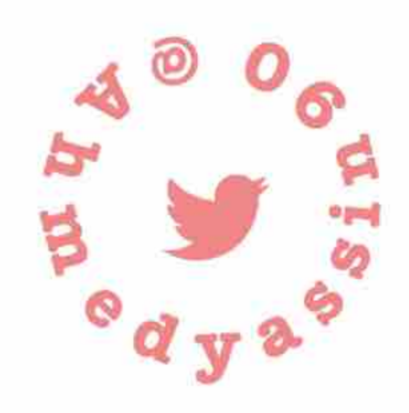

medyassin06@Ahm



المؤلف فى سطور

جرايهام إى. فولر، هو نائب رئيس مجلس الاستخبارات الوطنية بوكالة الاستخبارات الأمريكية سابقا، وكبير الباحثين السياسيين الأسبق بمؤسسة RAND، ويشغل حاليا منصب الأستاذ المساعد لعلم التاريخ بجامعة سيمون فريزر. وقد ألف فولر كتبا عديدة تناولت الشرق الأوسط، منها، "مستقبل الإسلام السياسى". وقد أمضى قرابة العقدين يحيا ويعمل فى ربوع العالم الإسلامى.


@Ahmedyassin90


@Ahmedyassin90


عالم بلا إسلام
ماذا لو؟